

الدكتور محمد علي البار

قبل الأرثوذكسية

كان



في روسيا



كنوز المعرفة

© دار كنوز المعرفة 1429 هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البار، محمد علي

قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا / محمد علي البار -

جدة، 1430 هـ

368 ص 17 / 24 سم

ردمك : 6-07-8026-603-978

1- البار، محمد علي

2- التاريخ

ديوي 210,9147 1430 / 5976

رقم الإيداع : 1430 / 5976

ردمك : 6-07-8026-603-978

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

(٤٣١م - ٢٠١٠م)



دار كنوز المعرفة

هاتف: 6510421 - 6514222 فاكس: 6516593  
جدة - الشرفية - شارع الستين - عمارة أبا الخيل

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة مؤلف الكتاب

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيِّه المصطفى، وآله وصحبه النجباء، ومن بهم اهتدى واقتفى.

أما بعد، فقد كتبت كتاباً موسّعاً في جزأين بعنوان: «المسلمون في الاتحاد السوفياتي عبر التاريخ»، ونشر الكتاب عام ١٩٨٣ ونفدت طبعته (خمسة آلاف نسخة) منذ زمن، ولم يتيسر إعادة طبع الكتاب، وحدثت أحداث جسام منذ ذلك الحين. وقامت الدولة الشيوعية الكبرى، وثاني أكبر دولة في العالم آنذاك بغزو أفغانستان سنة ١٩٧٩، ووضعت كتاباً آنذاك «أفغانستان: من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي». وطبع منه طبعتان نفدتا في وقتها. وكانت الحركة الجهادية في أفغانستان على أشدها وتمدُّها جميع الدول العربية بالمتطوعين وبالمال، وعلى رأس هذه الدول المملكة العربية السعودية؛ وكانت أجهزة الإعلام العربية كلها تساند «المجاهدين» وتشد بجهدهم وبطولاتهم... وكانت معركة أفغانستان من الأسباب الهامة لزعزعة الاتحاد السوفياتي وتفكيكه، مع ما يعانيه من بيروقراطية وتخلّف. فلما انتهت معركة أفغانستان تحوّل «المجاهدون» في نظر الغرب إلى إرهابيين، وبدأت المؤامرات تُحاك ضدهم، حتى جعلوهم يجاربون بعضهم بعضاً، ثم ظهرت طالبان بقصر نظرها وتشددها. وتمت حياكة مؤامرة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بدقة بالغة، وبالتالي تمّ غزو أفغانستان وبعدها العراق، وتحول الإسلام في نظر الغرب إلى دين إرهابي يجب سحقه. وقد كانت لذلك أسباب عدة، أهمها انتشار الإسلام في الغرب ذاته، فكان لا بدّ من تشويه صورته، وإساءة سمعته، حتى يتوقف الناس عن الدخول في هذا الدين. ولكن اللّهُ: ﴿عَالِمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف ٢١].

وتفكك الاتحاد السوفياتي في ديسمبر ١٩٩١ وانزاح عن العالم الخطر الشيوعي الذي دمّر العباد والبلاد. واستطاعت سياسة جورباشوف في البيروستريكا و«الجلاسنوت» أن تمهد الطريق لهذا الانهيار الذي قام به بعده بوريس يلتسين الذي لا يفيق من سكرته، والذي دعمته أمريكا والغرب بكل ما لديها من مال وإعلام وشراء ذمم.

واستطاع بوريس يلتسين باسم الديمقراطية والتحديث أن يدخل البرلمان على ظهر الدبابات!!! واستخدام الأساليب الديكتاتورية المعهودة في روسيا في تاريخها الطويل، ليوطد الحكم الديمقراطي!! تماماً مثلما كان الشيوعيون في السابق يفعلون عندما يقيمون «حكومة شعبية ديمقراطية»، ولا علاقة لتلك الحكومة لا بالشعب الذي يتحدثون باسمه، ولا بالديمقراطية التي يتغنون بها، وقيمونها على المذابح والجماجم!!

وتفككت أوصال أضخم دولة في العالم، إذ تبلغ مساحتها ٢٢,٢٧١,٠٠٠ كم مربع ويبلغ سكانها آنذاك ٢٧٠ مليوناً. وكان الاتحاد السوفياتي مكوناً من ١٥ جمهورية هي جمهورية روسيا، وهي الأوسع والأقوى والأغنى، والمسيطرة على الجمهوريات الأخرى التي تسير في فلكها، وتأتمر بأمرها، وهي روسيا البيضاء (بيلوروسيا) وأوكرانيا وجمهوريات البلطيق الصغيرة (أستونيا ولاتفيا وليتوانيا)، ثم مولدافيا. وست جمهوريات أغلب سكانها من المسلمين: وهي خمس في التركستان: قازاقستان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وقرغيزيا وتركمنستان، وواحدة في القوقاس هي أذربيجان. وفي القوقاس أيضاً جمهوريتا أرمينية وجورجيا. فلما انفرط عقد الاتحاد السوفياتي استقلت هذه الجمهوريات في ديسمبر عام ١٩٩١، وأخذت كل واحدة منها سياستها بعداً أو قريباً من روسيا. وكان أغلبها يتّجه إلى الغرب والولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

وعند الاستقلال كانت روسيا، ولا تزال، أكبر دولة في العالم من ناحية المساحة، إذ تبلغ مساحتها أكثر من ١٧ مليون كم مربع، وهي أكبر من كندا بـ ١,٧

مرة، ومن الولايات المتحدة الأمريكية بـ ١,٨ مرة، ومن أستراليا بأكثر من الضعف. وتمتد عبر تسعة آلاف كيلومتر من أقصى الغرب في كالينجراد إلى جزيرة رومانوف في بحر بيرنج الذي يفصلها عن آلاسكا في أقصى الشرق. كما تمتد من جزيرة «فرانز يوسف» في المنطقة القطبية الشمالية إلى الطرف الجنوبي من داغستان على بحر قزوين عبر ٤٥٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب.

وروسيا تمتد بين قارتين هما آسيا وأوروبا. ويفصل بينهما جبال الأورال التي تمتد من الشمال إلى الجنوب عبر ٢٢٠٠ كم، ثم من الأورال إلى قزوين لمسافة ١٣٧٥ كم.

والجزء الآسيوي يمثل أكثر من ثلاثة أرباع مساحة روسيا وهو الأكثر غنى بالثروات من البترول والغاز والذهب والألماس، وبحيرة بايكال أكبر بحيرة ماء عذب في العالم، وعدد من الأنهار الكبرى التي يبلغ طول الواحد منها أكثر من أربعة آلاف كيلومتر، وإن كانت متجمدة ما بين ٧ و٩ أشهر في العام. وأغلبها، وخاصة في المنطقة الشمالية، مناطق ثلجية. وقد كانت قليلة السكان جداً ولكن ظهور الثروات الهائلة جعلت الروس وغيرهم يتدققون عليها.

ومساحة سيبيريا ١٣,١ مليون كم مربع. وقد بلغ عدد سكانها ٤٢ مليوناً من كل العناصر من الروس والمغول (التتار المسلمين) والصينيين والألمان، والقازاقستانيين والأتراك (أوزبك وتركمان وقرغيز) وتتار الفولجا والقرم، والبشكير. وقد كانت روسيا القيصرية ثم الشيوعية تنفي هؤلاء المسلمين إلى مناطق سيبيريا. كما أن سكانها الأصليين وهم يمتون إلى المغول بصلة النسب قد دخلوا في الإسلام عندما دخل المغول في الإسلام. وقد كان الدعاة إلى الله يذهبون من بخارى وسمرقند وغيرها فيجربون تلك الفياقي والقفار الثلجية، ويتحملون المشاق لإيصال دعوة الله إلى هؤلاء السكان حتى سُميت بلاد الصبر أي سيبيريا.

ورغم أن دولة قد قامت في سيبيريا للإسلام، وأقامها كوتشم خان من التتار، وكانت عاصمتها مدينة سيير الواقعة على نهر أوبي عام ٩٧٨هـ / ١٥٧٠م، إلا أن

هذه الدولة لم تُدْم طويلاً حيث إن القوات القيصرية استطاعت الاستيلاء عليها بعد عشر سنوات فقط من استيلاء كوتشم خان أي سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م. وقد قال كوتشم خان قولته المشهورة عندما عُرض عليه الاستسلام: «لا أقبل عيش الأسير، ولا موت الذليل. ولست أحزن لفقد أملاكي، وإنما حزني من أجل أولئك التعساء الذين وقعوا تحت الاستعباد الروسي. ثم قاتل حتى استشهد».

ومنذ أن احتلّ القياصرة سيبريا عام ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م قام المسلمون بعدة ثورات أشهرها ثورة ١١٨٦هـ / ١٧٧٣م التي اضطرت القياصرة لإرسال جيوش ضخمة لإخضاعها.

وأما القسم الأوربي فيشكّل حوالي ٢٥ بالمئة من جمهورية روسيا من ناحية المساحة، ولكنه يشكّل ٧٥ بالمئة من ناحية السكان وهو الجزء الأهم من جمهورية روسيا، فهو موطن الروس، وفيه كل المدن الهامة والجامعات ومراكز الصناعة... وفيه أهم أنهار روسيا، وهو نهر الفولجا الذي يبلغ طوله ٣٦٩٢ كم وهو أطول أنهار أوربا، ولكنه ليس أطول أنهار روسيا فنهر لينا ونهر الأوب ونهر ينيسي، وكلها في سيبريا، أطول منه. ونهر الفولجا يُستخدم للملاحة وللزراعة، بينما تلك الأنهار في سيبريا مجمّدة ثلاثة أرباع العام.

وعلى حوض هذا النهر وفروعه مثل نهر كاما ونهر أوكا قامت مدن عديدة هي موسكو وقازان ونيزني نوفوجورد وفولجوجراد (ستالينجراد) وساراواستراخان، وغيرها من المدن الهامة.

وقد كان هذا النهر من قازان حتى مصبّه في استراخان نهراً إسلامياً منذ القرن التاسع الميلادي. وقبل أن تكون للروس دولة أو كيان أو دين. وروسيا دخلت المسيحية الأرتوذكسية على يد الملك فلاديمير سنة ٩٨٨، فدخل معه في الدين الجديد أهل دولته، ثم دخل الناس بعد ذلك تبعاً في هذا الدين الجديد. وأما قبل ذلك فكانوا أمة همجيّة. وقد وصف لنا ابن فضلان في رحلته إلى بلاد بلغار الفولجا

١١ صفر سنة ٣٠٩هـ / ٢١ حزيران ٩٢١م والتي وصلها في ٢١ محرم ٣١٠هـ / حزيران ٩٢٢م كيف أن الملك المسلم يلمش بن يلطوار كان يحكم نهر الفولجا (اتل)، ولكنه كان يعاني من هجوم مملكة الخزر (وهي وثنية تهوّد ملكها ولكنها بقيت على عاداتها الوثنية كما يصفها ابن فضلان)، ولذا فقد طلب من الخليفة المقتدر العباسي أن يمدّه بالمال والمهندسين لبناء استحكامات عسكرية، كما طلب علماء ليعلموا الناس أمور دينهم.

وعندما هجم المغول على تلك الأراضي الواسعة بقيادة باتو بن جوجي بن جنكيزخان خضعت كل هذه البلاد من حدود الصين شرقاً إلى بولندا والنمسا غرباً للحكم المغولي. وكان نصيب فرع جوجي (الأورد الذهبي) هو الأراضي الممتدة من قازاقستان إلى حدود بولندا. وقد أسلم بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان، وتولى الأورد الذهبي بعد وفاة أخيه باتو. ومنذ عام ١٢٤٠ سقطت كييف ودولة روس كييف الأولى، وبذلك سيطر الأورد الذهبي (التتار) على ما يُعرف اليوم بروسيا وبولندا. والتحم التتار (المغول) بإخوانهم المسلمين من بلغار الفولجا، وكونوا دولة قوية حكمت مجرى الفولجا (نهر إتل) من منبعه إلى مصبه في بحر قزوين، وكانت تلك المنطقة منطقة إسلامية كاملة. ثم انطلق الإسلام إلى ما يُعرف اليوم ببشكيريا وإلى جبال الأورال. وقد أقام بركة خان مملكة عظيمة كانت عاصمتها سراي على المجرى الأوسط لنهر إتل (الفولجا)، جنوب قازان. وقد وصفها الرحالة المسلمون، ومنهم ابن بطوطة. وسيأتي تفصيل ذلك في صلب الكتاب.

وبعد أن تكوّنت إمارة موسكو خضعت لحكام ساراي، ثم لما تحطّمت ساراي بسبب خلافات المسلمين قامت قازان وحكمت موسكو والإمارات الروسية وكانت على علاقة وطيدة معهم. وشجّعهم حكام قازان ليقوموا بدور مهم في تجارة الفراء المطلوبة آنذاك. وقد ظهرت إمارة موسكو لأول مرة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وأول أمير لها هو دانييل ألكسندروفتش (وفاته سنة ١٣٠٣م وتقوّت

في أيام إيفان الأول (١٣٢٥ - ١٣٤٠) الذي اشتهر بكنز الأموال حتى سُمِّي «كيس النقود». وقد كانت علاقته ودية بخان قازان ويدفع له الجزية. واشتغل بالتجارة واشترى المزيد من الأراضي بها كسبه من أموال. وبرز من خلفائه إيفان الثالث الذي أعلن نفسه حاكماً لكل الروس سنة ١٤٦٢، ووسّع مملكته. وفي عام ١٤٨٠م رفض أن يدفع الجزية لخان قازان المسلم، منهياً بذلك حكم المسلمين الذي دام أكثر من ٢٤٠ سنة على إمارة موسكو.

ثم قام فاسيلي الثالث بتوسيع هذه الدولة. وأصبحت دولة المسلمين والتتار في الفولجا وغيرها من المناطق بضربة قاصمة بقدوم تيمورلنك (وهو تركي من جهة الأب وينتسب إلى جنكيزخان من جهة الأم) الذي حطّم تلك الممالك. فلما مات تيمورلنك انقسمت دولته بين أبنائه وأحفاده، وتحوّلت دولة التتار على نهر الفولجا إلى مجموعة من الخانيات المتحاربة، وهناك خانية قازان واستراخان وقاسموف والقرم. وكانت القرم أقواهم وأفضلهم. وأدّت الخلافات إلى ضعفهم، واستطاع إيفان الرهيب أن يستولي على أراضيهم. وسقطت قازان بيد إيفان سنة ١٥٥٢ واستراخان سنة ١٥٥٧م. وفي غضون ثلاثين سنة كانت قوات روسيا قد اخترقت جبال الأورال، واحتلت مناطق البشكير، ووصلت إلى شواطئ بحر قزوين، كما اتجهت شرقاً حتى احتلت سيبيريا الغربية سنة ١٥٨٠م.

وكانت سياسة إيفان الرهيب تجاه تتار الفولجا تتلخص، كما يقول بنجسين ولومرسيه في كتابهم الهام: «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» - كالآتي: «بالنسبة للأشراف المسلمين والأمراء، إما أن يرتدوا إلى المسيحية أو الطرد من وطنهم والحزاب الاقتصادي الكامل، أو التصفية الجسدية لمن يُبدي أقل مقاومة. أما الجماهير المسلمة، فقد أخضعت للصهر الديني، فمنذ عام ١٥٥٥ اعتمدت روسيا سياسة ردة بالقوة... وكان المرتدون يتمتعون بوضع شرعي تجاه القانون مماثل لرعايا القيصر».



وعومل الدين الإسلامي بكل قسوة، وهُدِّمت الجوامع والمساجد، والمدارس الدينية، وطُرد رجال الملا (أي علماء الدين) من المدن، وصودرت الأوقاف الإسلامية مصادرة تامة». (انتهى كلام بنجسين ولومرسييه).

واستمرت هذه السياسة ضد الإسلام طوال العهد القيصري (ما عدا أيام كاترين الثانية التي أعطت المسلمين بعض الحريات، وعند قيام الدوما عام ١٩٠٥م. الذي أعطى الحريات الدينية والتي قلّصها قانون عام ١٩٠٧). ثم في العهد الشيوعي الأحمر الذي بدأ بخطب ودّ المسلمين وخذاعهم ودعوتهم للثورة ضد القياصرة الذين حاربوا الإسلام وأذلّوا المسلمين. فلما انتصرت الثورة البلشفية قاسى المسلمون منها أشدّ مما كانوا يقاسونه في أقسى أيام القيصرية وأكثرها ظلماً وبطشاً.

وقد بدأت هذا الكتاب بفصل عام عن جمهورية روسيا والتعريف بها وجغرافيتها وسكّانها، وأن المسلمين يشكّلون اليوم حوالى ٣٠ مليون مسلم من بين ١٤١ مليوناً هم سكّان روسيا حسب إحصاء ٢٠٠٧، وسكان روسيا يتناقصون فقد كانوا عشية الاستقلال في ديسمبر ١٩٩١ أكثر من ١٥١ مليون. وبسياسة يلتسين المدمّرة تناقص السكان، وانخفضت أعداد المواليد، وزادت الوفيات، وانخفض معدّل الأعمار وخاصة بين الذكور. والمسلمون هم الوحيدون الذين يتكاثرون ونسلهم في ازدياد. كما أن نسبة من يعودون إلى رحاب الدين من المسلمين هي أعلى بكثير من الروس الذين يعودون إلى دينهم الأرثوذكسي. ولهذا يتوجّس الروس خيفة من تكاثر المسلمين، والعداء ضد الإسلام قد ازداد، وخاصة بعد محاولات الشيشان الاستقلال، وما جرّ ذلك إليه من حروب ودمار في الشيشان، وردود فعل قوية قادها شامل باسييف، جعلت روسيا تتهاهى مع الغرب في اجتثاث الإسلام الإرهابي!!! والمطلوب من المسلمين العمل بهدوء لنشر الإسلام واستعادة المسلمين أولاً من الضياع الذي أوصلتهم إليه الشيوعية، والتي حكمت روسيا لمدة سبعين عاماً. كما أن عليهم أن يعيدوا نشر الثقافة

الإسلامية، واستعادة المساجد لدورها مع وجود قدر جيد من الحرية الدينية في الوقت الحاضر. وقد تم افتتاح أكبر مسجد في جروزني في شهر أكتوبر ٢٠٠٨ وهو أكبر مسجد في أوروبا كلها.

وبما أن ثروات روسيا تتركز في المناطق الإسلامية، فإن استقلال الشيشان والداغستان، والأنجوش، وتتاريا، وبشكيريا، وياقوتيا سيؤدي إلى نهاية روسيا، وإلى أن تتحول إلى دويلات صغيرة. وهو أمر لا يمكن أن يسمح به الروس بأي حال من الأحوال. ولا يبدو في الوقت الراهن على الأقل، أن استقلال هذه المناطق ممكن، ولن يؤدي إلا إلى الدمار الذي شهدته الشيشان. ويمكن الاستفادة من الحريات الممنوحة والحكم الذاتي لإقامة جمهوريات ذات استقلال ذاتي في الشؤون الداخلية والثقافية. وإعادة جذور الإسلام وتوطينه بقوة. ثم بعد ذلك نشره بين الروس وغيرهم الذين يتطلعون لأنواره لإنقاذهم مما هم فيه من الانغماس في الخمر والمخدرات والجنس والجريمة.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن العنصر السلافي الصقلي ومن هم الروس؟ وتوسعت في التراث الإسلامي وكيف كان الصقالبة يُستخدمون كجنود مقاتلين أشداء في الدولة الأموية في دمشق والدولة الأموية في قرطبة في الأندلس. ثم كيف استخدموا في الدولة الفاطمية وفي الدولة العثمانية. وكان جوهر الصقلي (من صقلية في جنوب إيطاليا) صقلياً. وهو فاتح مصر وباني القاهرة والأزهر للدولة الفاطمية.

وفي الفصل الثالث: استعرضت الدولة الروسية عبر التاريخ إلى العهد البلشفي وثورة ١٩١٧.

وخصصت الفصل الرابع للينين وخطابه للمسلمين والحكم البلشفي الأحمر في العهد السوفيياتي.

ثم بدأت في الفصل الخامس ذكر المناطق الإسلامية في روسيا الاتحادية

الحالية. وبدأت ذلك بتتارستان وهي جمهورية على نهر الفولجا (نهر إتل عند المؤرخين المسلمين)، وتطّرت إلى تاريخها الطويل، وبلغار الفولجا الذين دخلوا الإسلام قبل أن تعرف روسيا النصرانية بقرن من الزمان. كما تحدثت عن جغرافيتها ووضعها الحالي وسكانها ومساجدها.

وخصصت الفصل السادس لرحلة ابن فضلان ٣٠٩هـ / ٩٢١م إلى بلاد بلغار الفولجا. ولأهمية هذه الرحلة جعلت لها فصلاً كاملاً.

وجعلت الفصل السابع للغزو المغولي وقيام الدولة الإسلامية التتارية في روسيا.

أما الفصل الثامن فتحدثت فيه عن التتار في العهود الروسية المختلفة منذ عهد إيفان الرهيب إلى العهد الشيوعي البلشفي.

وخصصت الفصل التاسع للمسلمين في شمال حوض نهر الفولجا. وتحدثت فيه عن جمهورية بشكيريا ذات التاريخ المجيد، وجمهوريات الجوفاش (تشفانيا) وجمهورية موردوف وجمهورية أدمورت وجمهورية ماري وإقليم أورنبغ. وهي مناطق صغيرة دخلها الإسلام على يد التتار في أثناء تجوالهم وتشبّتهم. وقد عانت هذه المناطق كلها من الاضطهاد في العهد القيصري، كما عانت منه في العهد الشيوعي البلشفي، إلا أن معاناتها في العهد البلشفي كانت أقل من معاناة تتاريا وبلاد القوقاس ومناطق التركستان لأن الثورات فيها كانت أقل.

وفي الفصل العاشر تحدثت عن القرم (القرم شبه الجزيرة الجميلة الواقعة شمال البحر الأسود). وقد دخلها المسلمون منذ قيام المسلمين في نهر الفولجا في القرن العاشر الميلادي بنشره في تلك البقاع. وقامت فيها دولة الإسلام بدخول التتار المسلمين (أحفاد جنكيزخان)، وعندما هجم تيمورلنك على ممالكهم نجت منه القرم. ولذا كانت أقوى الخانيات بعد انتهاء دولة تيمورلنك. واستطاعت أن تصدّ الغزو الروسي، بل قامت بهجوم مضاد، ووصلت إلى موسكو ذاتها، بل وصلت قواتها إلى بولندا. ووصفها ابن بطوطة وصفاً مفصلاً في رحلته. ثم

ضعفت تلك الدولة بسبب الخلافات، بينما وصلت روسيا أوج قوتها في عهد بطرس الملّقب لديهم بالعظيم الذي احتلّ منطقة آزوف. واستعان الخان في القرم بالسلطان العثماني وسلّمه مملكته فنزلت القوات العثمانية في مضيق كرش، واستعادت آزوف سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م. وبنى العثمانيون مدينة باغجة سراي (بغتشسري) الجميلة وجعلوها عاصمة القرم (وقد وصفها الشاعر الروسي بوشكين ووضع فيها مسرحيته الشعرية نافورة بغتشسري). وعاد الروس واحتلّوها في عهد كاثرين الثانية سنة ١١٩٨هـ / ١٧٨٣م. وأقام الروس مذبحة لتتار القرم وشرّدوا أكثر من مليون من سكّانها. وكانت سياسة كاثرين الوصول إلى البحر الأسود والمياه الدافئة، وإسكان الروس فيها. وهو استثمار استيطاني احتلالي لا يفترق عن الاحتلال الصهيوني لفلسطين في شيء، رغم أن حكمها تميّز بإعطاء الحريات الدينية لسكان الأمبراطورية الروسية، بما فيهم المسلمون.

واستمرت القرم بين شدّ وجذب بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية. ولما رأّت بريطانيا وفرنسا أن روسيا تتوغل، وقد وصلت إلى الدردنيل بأساطيلها، وقفوا مع السلطان العثماني في حرب القرم المشهورة (١٨٥٣ - ١٨٥٦)، والذي استردّ القرم من روسيا، وأعطى بريطانيا مقابل وقوفها معه جزيرة قبرص.

ثم عات روسيا إلى السيطرة على القرم. وفي عام ١٩٠٥ أعطيت الحريات الدينية والسياسية، ولكن الدوما سرعان ما سحبها من المسلمين عام ١٩٠٧.

وقامت الثورة البلشفية عام ١٩١٧ وقاومت القرم، ولم تستطع قوات روسيا البلشفية دخولها إلا عام ١٩٢٢ بعد أن حاصرها اليهودي كالينين رفيق لينين لمدة عامين، وحتى أكل الناس لحوم الأطفال والموتى، ومات في تلك المجاعة مئة ألف من التتار القرميين المسلمين. وكان سكان القرم عام ١٩٢٠ قد بلغوا خمسة ملايين شخص، لم يبق منهم عام ١٩٤٠ سوى نصف مليون. وهؤلاء، قام ستالين بطردهم عام ١٩٤٤ قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية بتهمة التعاون مع النازي. وهي تهمة نفاها مجلس السوفيت الأعلى عام ١٩٦٧. (ما عدا مجموعات قليلة قاتلت بالفعل

مع النازي). وقد نفاهم ستالين إلى سيبيريا وفيافي قازاقستان ومات منهم الأطفال والشيخ والمرضى والعجزة وكثير من النساء في تلك الفيافي والقفار، وفي أثناء الرحلة الطويلة الشاقة، وبما أن خروتشوف هو من أوكرانيا فقد جعل القرم تابعة لها. ولا يزال أهل القرم إلى اليوم خارج وطنهم، ولم يُسمح لهم رسمياً بالعودة إليه، وإن كانت كثير من الأسر قد عادت إليه، وخاصة بعد الاستقلال من روسيا، وكونها تابعة لأوكرانيا، ووضعها إلى الآن غير مستقرّ، وهي تطالب بالاستقلال من أوكرانيا. أمّا سكّانها الروس فيريدون الانضمام إلى روسيا.

وجعلتُ الفصل الحادي عشر لسيبيريا وموقعها، وثرواتها، وتاريخها، وكيف أصبح المسلمون اليوم أقلية في وطنهم بعد الهجرات الكثيفة من الروس والأوكرانيين والألمان والصينيين وغيرهم.

وقد خصّصت الفصول التالية من الثاني عشر إلى الثامن عشر عن القوقاس. والقوقاس منطقة جبلية فيها أعلى قمة في أوروبا في جبل البروز وهي قمة «أوشحة مافة» التي ترتفع إلى ٥٦٣٠ متراً (أعلى من قمة إيفرست في الألب). وما كان شمال جبال القوقاس فهو في أوروبا وما كان في جنوبها فهو من آسيا. وهي تشمل ثلاث جمهوريات مستقلة هي:

(١) أذربيجان واسمها القديم آران، ويفصلها عن إيران نهر الرّس، وسكانها مسلمون وفيها باكو الشهيرة بنفطها منذ أيام الدولة العباسية حتى جعلوا لها وزيراً للنفط.

(٢) جورجيا وهي بلاد الكرج كما يسميها المسلمون. وعاصمتها تبليسي (تفليس عند المسلمين) وسكّانها نصارى ما عدا مقاطعة أبخازيا فجّل سكانها مسلمون وتُحارب من أجل استقلالها. وأجاريا التي كان سكانها من المسلمين، ولكن استوطنها الجورجيون والروس فصار أكثر من نصف سكانها نصارى، وأوسيتيا الجنوبية وأكثر سكانها نصارى والمسلمون فيها قلة. وقد اعترفت روسيا باستقلال أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية بعد خلافها مع جورجيا عام ٢٠٠٨.

(٣) أرمينية: وهي بلاد الأرمن وعاصمتها أريفان.

وكل هذه الدول قد تم فتحها لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب ؓ سنة ١٨هـ، ولم تأت سنة ٢٤هـ إلا وقد كانت هذه المناطق كلها قد خضعت للحكم الإسلامي.

ولكنها انتفضت مراراً، وأعيد إخضاعها مرات، وسُمح للنصارى بحكم مستقل طالما كانوا يدفعون الجزية.

أما شمال القوقاس فكان أول ما فتح منها دريند (باب الأبواب) وهي عاصمة الداغستان القديمة. وكذلك تم فتحها لأول مرة في عهد عمر ؓ، وانتقض أهلها، ولكن لم يأت عهد الإمام علي كرم الله وجهه إلا وقد دخل الإسلام بين أهاليها.

وللقوقاس وأهله تاريخ مجيد. ويقسم شمال القوقاس حالياً إلى ست مقاطعات أو جمهوريات ذوات حكم ذاتي تابعة لروسيا وهي الداغستان والشيشان وأنجوشيا والأديغة وقارتشاي شركس، وقابرديار - بلكاريا (القبرطي) وكلها ذوات أغلبية إسلامية كبيرة جداً والروس فيها وافدون. وأوسيتيا الشمالية وقد استوطنها الروس حتى صاروا هم الأغلبية، وسكانها هم من القوشحة وأغلبهم نصارى.

وقد استعرضت مناطق القوقاس وتاريخ دخول الإسلام فيها، وهو كما ذكرت من عهد مبكراً جداً أيام عمر بن الخطاب ؓ، وتوطد أيام الحكم الأموي ثم العباسي إلى العهد العثماني والصفوي... ولم يدخل الروس القوقاس إلا في عهد بطرس الذي يسمونه العظيم، ثم في عهد كاترين الثانية. ولقي الروس مقاومة شرسة ما عدا الكرج (الجورجيون) والأرمن الذين رحبوا بهم أول الأمر لاستنقاذهم من الدولة العثمانية والدولة الصفوية اللتين كانتا تتنافسان على حكم القوقاس.

ووجد الروس مقاومات شرسة امتدت منذ عهد الشيخ منصور أشرمة الذي حارب الروس (١٧٥٨ - ١٧٩١)، ثم بعد ذلك الإمام القاضي الغازي ملا محمد (١٨٢٦ - ١٨٣٢) ثم الأمير حمزة بك الخنزاجي (١٨٣٢ - ١٨٤٣) ثم الثورة

الكبرى التي أثارت إعجاب العالم بما فيهم الروس أنفسهم، وهي الثورة الجهادية التي قادها الإمام الشيخ محمد شامل الكمراوي (١٨٣٤ - ١٨٥٩). وكل هؤلاء القادة من الطريقة النقشبندية التي ترفض البدع وتحكم الشريعة.

ولم تتوقف الثورات بعد ذلك لا في العهد القيصري ولا في العهد البلشفي. وقد استعرضت ذلك كله في فصول متتالية. وقد استفدت استفادة جمة من الكتب الهامة التي أهداني إياها الأخ الكريم الدكتور طه سلطان مراد (الشركسي المحتد) في عمان الأردن عندما ألفت محاضرة في مؤتمر طبي فاستضافني في بيته ثم عرفني على عميد الشركس وشيخهم، ثم تكررت الزيارة وأهداني الكتب القيمة التالية:

- (١) قتلة الأمم: النفي السوفياتي للأمم، تأليف روبرت كونكست، وترجمة صادق إبراهيم عودة، وطبع على نفقة الدكتور طه سلطان مراد مع بعض تعليقاته.
- (٢) احتلال الروس للقوقاس: تأليف جون برادلي، وترجمة صادق إبراهيم عودة، وطبعه د. طه مراد.

(٣) صورة كتاب مخطوط مترجم إلى العربية مؤلفه حيدر بامات الذي تولى وزارة خارجية شمال القوقاس وترأس وزارتها لفترة قصيرة. وترجمة سمير خضر، وصدر في باريس ١٩٢٩ بالفرنسية. والترجمة مسودة بها شطب. وفيها معلومات غزيرة عن هذه الفترة.

(٤) صورة كتاب «بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملة» جمعها تلميذ الإمام شامل بأمر منه، الشيخ محمد طاهر القراخي، وهي مكتوبة بلغة عربية قوية، وفيها نظم كثير للمؤلف في وصف الوقائع. ومكتوبة بالآلة كتبها ابن المصنف في حياته. وهي مرجع هام جداً لثورة شامل ووقائعه.

(٥) صورة كتاب عن الطريقة النقشبندية في الزهد والتمسك بالشريعة والآداب، وهي الطريقة التي أخرجت كل هؤلاء الأئمة المجاهدين الأعلام. وهي تدعو إلى نبذ البدع والالتزام بالشرع الحنيف ومجاهدة النفس ومجاهدة الكفار.

(٦) كتاب مذكرات القادري، وهو الميجر جنرال صديق باشا القادري، الكردي العراقي الذي كان في الجيش التركي، وأُسر في القوقاس في الحرب العالمية الأولى، وفك أسره الروس البيض، وساعده على أن يكون فيلقاً لمحاربة «الروس الحمر البلاشفة، فأبلى بلاءً حسناً، وكون فرقة كبيرة قاتل بها الشيوعيين من القوقاس إلى سيبيريا ولكنه كان مائلاً جداً إلى البيض مشيداً بهم. مع أنهم هم نكبة المسلمين في روسيا، وهم دفعوا المسلمين إلى أحضان لينين لأنهم رفضوا تماماً أن يعطوهم حريتهم واستقلالهم ولو استقلالاً ذاتياً جزئياً. بينما كان لينين يكذب عليهم ويعددهم بالحرية التامة والاستقلال الكامل.

وقد استفدت من هذه الكتب وغيرها التي أعطاني إياها الأخ الكريم الدكتور طه سلطان مراد سنة ١٩٨٧ وسنة ١٩٨٩. ولم أستطع أن أُعيد طبع كتابي «المسلمون في الاتحاد السوفياتي» آنذاك رغم نفاذ نسخته، كما حصلت على مراجع أخرى مهمة.

وقد تيسر الأمر الآن للكتابة عن الإسلام في جمهورية روسيا الاتحادية وتوسعت في ذلك. وجعلت عنوان الكتاب «قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا» وهو كذلك، فقد دخل الإسلام القوقاس في القرن الهجري الأول (في بدايته) القرن السابع الميلادي، ودخل إلى مجرى نهر الفولجا (نهر إتل) في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) بينما لم تعرف روسيا الأرثوذكسية إلا عام ٩٨٨م ولم يدخل القرم فيها إلا في بداية القرن الحادي عشر الميلادي، والله أسأل أن يُعيد للإسلام مجده وألقه في تلك البلاد الواسعة الشاسعة الغنية بثرواتها وخيراتها. وما على المسلمين إلا بذل الجهد في نشر دينهم بين إخوانهم الذين عانوا من الشيوعية، ومحاربة الإسلام واللغة العربية وثقافتها لمدة سبعين عاماً أو تزيد. وعليهم أن يستفيدوا من جو الحرية الموجود حالياً لإعادة جذوة الإسلام إلى القلوب الضامثة التي تتطلع إليه.



والغد مشرق بإذن الله إذا صدقت النوايا وبذل الجهد وتوالى العمل  
وتضافرت الجهود. وليس ذلك على الله ببعيد.  
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كُتِبَ فِي جَدَّة ٢١/٧/١٤٢٩هـ

٤/٧/٢٠٠٨م

ملحوظة: بعد أن أنهيت الكتاب قمت برحلة إلى قازان عاصمة تارستان ضمن مجموعة  
لحضور مؤتمر عن تارستان ودورها الإسلامي وشاركت في المؤتمر ببحثين. وقد نظم المؤتمر جامعة  
البحرين وأستاذ التاريخ فيها الأستاذ الدكتور محمد حرب. وشارك في المؤتمر منظمة الإيسيسكو  
ودار الإفتاء في تارستان وبعض الجمعيات الخيرية التي مولته وكان المنظم لذلك الجانب الدكتور  
صالح بادحدح. وشارك في الأبحاث عدد وافر من أساتذة التاريخ من مصر وأربعة باحثين من  
السعودية وباحثان من البحرين وباحث من المغرب.. وباحثون من تارستان. كما حضر الأستاذ  
جمال الشاعر رئيس القناة الثقافية المصرية، وهي الوسيلة الإعلامية الوحيدة التي حضرت من العالم  
العربي، وكان هو المصور والمنتج والمخرج والمقدم فهو أمة وحده. وحضر المؤتمر وشارك فيه ببحث  
قيم الداعية الإسلامي الأخ الكريم الدكتور محمد موسى الشريف.

وقد عُقد هذا المؤتمر في قازان في الفترة من ٢٣ - ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٨ وتعلّمت الكثير مما  
شاهدته وسمعته. ويكفي أن في تارستان أكثر من خمسة وعشرين ألف مخطوط أكثر من نصفها  
باللغة العربية والباقي بالتركية والفارسية.

ومن بركات هذا المؤتمر أن قرأت لي الأخ الكريم الدكتور صالح بادحدح نسخة من كتاب «تلفيق  
الأخبار وتلفيح الآثار من وقائع قران وبلغار وملوك التتار» لمؤلف تاري رمز لاسمه كالآتي م.م.  
الرمزي، وطُبع الكتاب سنة ١٩٠٧ ثم قامت دار الكتب العلمية بإعادة طبعه في مجلدين في أكثر من  
ألف صفحة، ووضع الفهارس وبعض التعليقات إبراهيم شمس الدين. وقد قرأت الكتاب بعد  
عودتي من المؤتمر، وأضفت إلى ما كتبت حوالى ١٥ صفحة في تاريخ قازان وملوك التتار من الأورد  
الذهبي الذي حكم كل ما كان يُعرف بالاتحاد السوفياتي أي روسيا والدول الدائرة في فلكها. وهو  
كتاب هام وأسلوبه على الطراز القديم، وصعب القراءة على عامة المثقفين. وقد أخبرني الأستاذ  
الدكتور محمد حرب أنه اختصره فلعله ينشره حتى يستفيد منه عامة المثقفين.



## الفصل الأول

### روسيا الاتحادية

#### (مدخل وجغرافية)

تعتبر روسيا الاتحادية أكبر دولة في العالم من حيث المساحة، حيث تبلغ مساحتها ١٧,٠٧٥,٤٠٠ كم مربع، وهي أكبر من كندا، ثاني أكبر دولة بـ ١,٧ مرة، ومن الولايات المتحدة الأمريكية بـ ١,٨، ومن أستراليا بأكثر من الضعف.

وتمتد عبر تسعة آلاف كليومتر من أقصى الغرب في كالينجراد على جزيرة رومانوف في بحر بيرنج الذي يفصلها عن آلاسكا في أقصى الشرق. كما تطل على المحيط الهادي من الشرق.

وأما اتساعها من أقصى الشمال في جزيرة فرانز يوسف (المنطقة القطبية) إلى الطرف الجنوبي من داغستان (جنوب غرب بحر قزوين) فيمتد عبر ٤٥٠٠ كم.

وهي تمتد ما بين آسيا وأوروبا، ويفصل ما بين القارّتين جبال الأورال التي تمتد من الشمال إلى الجنوب عبر مسافة ٢٢٠٠ كم، ثم يمتد الفصل من جنوب جبال الأورال إلى بحر قزوين لمسافة ١٣٧٥ كم. والجزء الآسيوي من روسيا وهو الأكبر والأكثر غنى بالمعادن والغاز والبترو، ولكنه أقلّ سكانيًا. وتبلغ مساحة الجزء الآسيوي من روسيا أكثر من مساحة الصين والهند مجتمعين.

ويعتبر الجزء الأوروبي من روسيا، والذي يشكل ربع مساحة روسيا، هو الجزء الأهم من ناحية الصناعة، ومن حيث أنه وطن الروس، كما أن ٧٥ بالمئة من السكّان يعيشون فيه. وفيه كل المدن الهامة.

وتمتد حدود روسيا برًا وبحراً عبر ٥٧,٧٩٢ كم منها ٢٠,١٣٩ (أي الثلث تقريباً) حدود برية، وأما الباقي ٣٧,٦٥٣ كم فهي حدود بحرية. كما أن روسيا تمتد عبر إحدى عشرة منطقة زمنية، أي أن فرق التوقيت بين أقصى الشرق وأقصى الغرب إحدى عشرة ساعة.

وقد كانت روسيا إحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي (١٩٢٢ - ١٩٩١)، وهي بطبيعة الحال الأكبر والأغنى والأقوى. وقد تكوّنت هذه الجمهوريات سنة ١٩٢٢ من أربع جمهوريات هي روسيا، وروسيا البيضاء (بيلوروسيا)، وأوكرانيا، وجمهورية ما وراء القوقاس التي ما لبثت أن صارت ثلاث جمهوريات هي أذربيجان وأرمينيا وجورجيا. إضافة إلى جمهوريات أخرى هي: استونيا ولاتفيا وليتوانيا (دول البطليق) وأراضي التركستان التي قُسمت إلى خمس جمهوريات أخرى هي: قازاقستان (الأكبر مساحة والأغنى ثروة) وأوزبكستان وطاجكستان وتركمانستان وقرغيزيا. وكلها جمهوريات إسلامية ذات تاريخ مجيد، ثم الاستيلاء عليها في عهد القيصرية، واستوطنها كثير من الروس والأوكرانيين، وروسيا البيضاء. وأضيفت جمهورية مولدافيا فصار مجموعة الجمهوريات خمس عشرة جمهورية.

وقد تمَّ حلُّ الاتحاد السوفياتي في ديسمبر ١٩٩١ على يد الرئيس يلتسين الذي حطّم ثاني أقوى دولة في العالم آنذاك. وكان الاتحاد السوفياتي ينخر في الفساد والبيروقراطية، والنظام المتحجّر، الذي أدى إلى كوارث اقتصادية منذ بداية تأسيسه. ويكفي أن نعرف أن من ماتوا في عهد الطاغية ستالين بسبب المجاعات والقتل والنفي إلى سيبيريا كانوا أكثر من عشرة ملايين شخص. هذا بالإضافة إلى عشرين مليون شخص قتلوا أو ماتوا أثناء الحرب العالمية الثانية.

### السكان

بلغ تعداد سكان روسيا الاتحادية عشية الاستقلال (ديسمبر ١٩٩١) قرابة مائة وخمسين مليوناً، ولكن السكان تناقصوا بسبب الأوضاع الاجتماعية السيئة

والفقر، وعدم الإنجاب، التي أوقع يلتسين فيها روسيا بفساده، وبيع البلاد لحفنة من اليهود، استطاعوا بها أن يكونوا ثروات خرافية، وأن يدمروا روسيا رغم ثرواتها الهائلة. وقد استطاع الرئيس بوتين بعد أن تولى الحكم سنة ٢٠٠٠ أن يوقف هذا التدمير، وأن يحسّن الاقتصاد، ولكن السكّان استمروا في التناقص حيث وصل عدد السكّان في ٢٠٠٧ مائة وواحد وأربعين مليوناً (١٤١ مليون)، وهذا رغم الهجرة الروسية من المناطق التي استقلت بعد تفكك الاتحاد السوفياتي.

ويحتاج الأمر إلى وقت حتى يستعيد السكّان قدراتهم على النمو (في الوقت الحاضر انخفاض في السكّان بنسبة نصف بالمئة سنوياً).

#### التركيبة السكانية

٧٩,٨ بالمئة روس، ٣,٨ تتار، ٢ بالمئة أوكران، ١,٢ بالمئة بشكير، شوفاش ١,١ بالمئة، والبقية جنسيات مختلفة (داغستان، شيشان، أنجوش، آدمورت... إلخ، وتنوع إلى ١٣٠ قومية وإثنية).

#### الديانة

اشتهر الروس باتباعهم المذهب الأرثوذكسي منذ عهد ديمتري في أواخر القرن العاشر الميلادي. وكانت مدينة كييف (في أوكرانيا) هي العاصمة الدينية، ثم انتقلت إلى موسكو عندما تكوّنت الدولة الروسية الموسكفية وأصبحت دولة قوية. وعندما تم احتلال القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م بدأ الروس يتطلّعون بالقيام بدور الأباطورية البيزنطية، واعتبروا موسكو هي القسطنطينية الجديدة، وأن عليهم أن يحرروها من المسلمين الأتراك. ومنذ ذلك الوقت بدأت الهجمات الصليبية العنيفة ضد المسلمين من الدولة الروسية الناشئة.

وقد استطاع إيفان الثالث أمير موسكو، وجد إيفان الرهيب أن ينهي سيطرة تار قازان على موسكو سنة ١٤٨٠م وبذلك أنهى حكماً إسلامياً على إمارة موسكو وكل ما يعرف اليوم بروسيا. وقد دام ذلك الحكم أكثر من ٢٤٠ سنة.

واستمرت الخلافات للأسف الشديد بين تثار قازان وتثار القرم وتثار استراخان (كلها على نهر الفولجا العظيم بينما استعد الروس للانقضاض عليهم. وقام إيفان الرابع المشهور باسم إيفان الرهيب بحملات متتابعة للقضاء على الحكم الإسلامي، وتوسيع رقعة مملكته. فاحتل قازان سنة ١٥٥٢م واستراخان سنة ١٥٥٧م وبذلك سقط نهر الفولجا العظيم بأكمله في يد إيفان الرهيب.

وكانت سياسة إيفان الرهيب كما يقول بنجسين ولومرسييه في كتابيها «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» كما يلي:

«بالنسبة للأشراف المسلمين و الأمراء، إما أن يرتدوا إلى المسيحية، أو الطرد من وطنهم والخراب الاقتصادي الكامل، أو التصفية الجسدية لمن يُبدي أقل مقاومة.

«أما الجماهير المسلمة فقد أخضعت للصهر الديني، فمنذ عام ١٥٥٥ اعتمدت سياسة ردة بالقوة. وكان المرتدون (ستاروكرياشين = المنتصرون القدامى) يتمتعون بوضع شرعي تجاه القانون مماثل لرعايا القيصر.

«وعومل الدين الإسلامي بكل قسوة وهُدِّمت الجوامع، وطُرد رجال الملا (علماء الدين) من المدن، وصودرت جميع الأوقاف الإسلامية، ووزعت الأراضي على النبلاء وضباط الجيش الكبار ورجال الدولة».

واستمرت سياسة إيفان في عهد خلفائه وخاصة من أسرة رومانوف التي امتد حكمها من سنة ١٦١٣ إلى قيام الثورة سنة ١٩١٧، ثم استمرت تلك السياسة بصورة أشد وأعتى في عهد القيصرية الحمر ابتداء من لينين، ووصلت ذروة البطش في عهد ستالين، ولكنها لم تتوقف في عهد خروتشوف وبريجينيف. ولم تنته إلا بانتهاء الاتحاد السوفياتي. ومع ذلك فقد شهدت الشيشان ثورة قوية منذ الاستقلال، ولكن جمهورية روسيا الاتحادية رفضت بشدة أي محاولة لاستقلال الشيشان، وأدى ذلك إلى حروب مروعة، تم من خلالها تدمير جروزني العاصمة،

ومعظم المدن الشيشانية الباسلة. (ستحدث فيما بعد عن المناطق الإسلامية في روسيا وتاريخها بالتفصيل).

والخلاصة أن سكان روسيا من الروس يتناقصون (رغم الهجرة إلى روسيا من المناطق التي استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي)، وذلك بسبب الأوضاع الاقتصادية السيئة التي أوجدها يلتسين، وبسبب إدمان الروس على الخمر، وانغماسهم فيها، وخاصة في عهد الرئيس يلتسين الذي اشتهر بأنه لا يفيق من شرب الفودكا (الشراب المحبب لدى الروس). وفي الوقت ذاته يزداد عدد المسلمين مما جعل الروس يتوجسون شراً من هذه الزيادة المتتالية.

ومن المعروف أن الاتحاد السوفياتي الشيوعي حازب الأديان كلها بعنف وضراوة. وبعد أن انتهى هذا الكابوس الجاثم على الصدور عاد كثير من الناس إلى دينهم. وتقول دائرة المعارف على الموقع (info please.com/pa) إن إحصائيات ٢٠٠٦ تدلّ على أن الممارسين للشعائر الدينية في روسيا هم كالتالي: أرثوذكس (نصارى) ١٥-٢٠ بالمئة من السكان. ومسلمون ١٠-١٥ بالمئة. والباقون إما أنهم ملحدون (وقد قلّوا كثيراً عما كانوا عليه)، أو غير مهتمين بممارسة الشعائر الدينية، رغم أنهم يحترمون الدين ويوقرون رجاله.

وتقول كثير من المصادر إن عودة المسلمين إلى دينهم، وممارستهم لشعائر دينهم، هي أكثر بكثير من عودة الأرثوذكس إلى دينهم. وهناك الكاثوليك والبروتستانت (وقد نشطت هذه المجموعات بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وكثرت الإرساليات من أوروبا والولايات المتحدة مما أدى إلى غضب بابا روسيا، وساءت علاقته بابا روما) كما أن هناك بعض الأديان الأخرى بأعداد محدودة مثل اليهودية والبوذية.

لهذا كله نجد أن الزيادة في أعداد المسلمين في روسيا كبيرة (بسبب الإنجاب والعودة إلى الدين) مما شكّل قلقاً لدى الروس، وخاصة بعد حروب الشيشان.

ونجد أن الكراهية للإسلام والمسلمين تزداد في روسيا بسبب الإعلام والخوف من زيادة عدد المسلمين، والإعلام الغربي، ووجود سيطرة إعلامية يهودية حتى في روسيا، رغم أن الرئيس بوتين قد حدّ منها كثيراً، لأنها وقفت ضده وحاربت، ولكنه بطبيعة الحال لم يقضِ عليها كما غيرت هي من سياستها المعادية له. واعتبرت الحكومة الروسية الثوار الشيشان إرهابيين، وتمّاهت مع الإعلام الغربي الذي يصف المسلمين بالإرهاب.

لهذا نجد أن التقديرات الحديثة تقول إن عدد المسلمين يشكّل ما بين ٢٥ و ٣٠ بالمئة من السكّان. وإذا استمرت الزيادة السكّانية لدى المسلمين، والانخفاض في الإنجاب لدى الروس، فإن المسلمين سيشتكّلون ما يقرب من خمسين بالمئة خلال الثلاثين عاماً المقبلة. هذا إذا تركنا جانباً من يتحوّل إلى الإسلام من الروس، ولو اشتدّت هذه الحركة، وانتشر الدعاة، فإن التحوّل إلى الإسلام سيجعل روسيا ذات أغلبية مسلمة خلال ربع قرن من الزمان. وعلى المسلمين أن يدركوا أهمية التركيز على تجذير الإسلام، وإعادة المسلمين إلى دينهم، والانطلاق في الدعوة بين الروس الذين لا يزال الكثير منهم بدون دين، أو لا يهتمون بالدين أصلاً (وهو نتيجة طبيعية للحكم الشيوعي الذي استمرّ سبعين عاماً، كما أن الغرب عموماً، اهتمّاهم بالدين سطحي جداً).

#### معطيات سكّانية

عدد السكّان (سنة ٢٠٠٧): ١٤١ مليون.

الانخفاض في عدد السكّان نصف بالمئة سنوياً.

الوفيات: ١٤,٥٢ من كل ألف من السكّان.

الولادات: ٩,٨ من كل ألف من السكّان.

نسبة الذكور إلى الإناث: عند الولادة ١,٠٦ ذكور لكل أنثى.

من سن ١٥ إلى ٦٤ سنة ٠,٩٤ ذكور لكل أنثى

فوق الخامسة والستين ٠,٤٦ ذكور لكل أنثى



أي أن عدد الإناث في سن الخامسة والستين هنّ أكثر من ضعف عدد الذكور في هذه السن.

معدّل أعمار الذكور ٦٠,٥ سنة.

معدّل أعمار الإناث ٧٤ سنة.

وهو فرق كبير، ويرجع ذلك إلى انغماس الذكور في شرب الخمر وكثرة الحوادث والقتل بينهم.

عدد المصابين بمرض الإيدز الأحياء (سنة ٢٠٠١) كان ٨٦٠,٠٠٠ شخصاً.

عدد الذين توفوا عام ٢٠٠١ بسبب الإيدز ٩٠٠٠ شخص.

نسبة الأمية: تقترب من الصفر (نسبة المتعلمين ٩٩,٧ بالمئة).

نسبة وفيات الأطفال الرضع ١٥,٣٩ لكل ألف طفل سنوياً. والغريب أن نسبة وفيات الذكور في هؤلاء الرضع (السنة الأولى من العمر) هي أكثر من الإناث:

ذكور: ١٧,٧ في الألف

إناث: ١٢,٩٤ في الألف

ونسبة وفيات الرضع (السنة الأولى من العمر) عالية بالنسبة للبلاد المتقدمة، فهي ثلاثة إلى أربعة في كل من اليابان والسويد والنرويج وسويسرا وسنغافورة، وخمسة إلى سبعة في جميع دول أوروبا وأستراليا وكندا، والولايات المتحدة بين البيض (أما بين السود وذوي الأصول الإسبانية فتصل إلى مستوى بنجلاديش وباكستان والهند.؟!).

والغريب فعلاً أن وفيات الأطفال الرضع في كوبا تصل إلى ستة في الألف، وهي بذلك أفضل بكثير من روسيا، ومن الملايين في الولايات المتحدة. كما أن معدّل الأعمار في كوبا قد وصل إلى ٨٠ عاماً وهو مستوى لم تصل إليه سوى اليابان

ودول شمال أوروبا (السويد والنرويج والدانمارك وسويسرا) بينما نجد معدّل الأعمار في روسيا منخفضاً أي ٦٧ عاماً وهو يشابه إلى حد كبير بعض الدول المتقدمة نسبياً في العالم الثالث.

### المعطيات الجغرافية

روسيا هي أكبر دولة في العالم من حيث المساحة، وتاسع أكبر دولة من ناحية السكّان.

المساحة الإجمالية: ١٧,٠٧٥,٢٠٠ كم منها ١٦,٩٩٥,٨٠٠ كم أراضي والباقي ٧٩,٤٠٠ مسطّحات مائية. وتبلغ حدودها البحرية ٣٧,٦٥٣ كم بينما تبلغ حدودها البرية ٢٠,٠١٧ كم.

وفيها أكبر بحيرة ماء عذب في العالم، وهي بحيرة بايكال. كما أن بها مجموعة كبيرة من البحيرات العذبة والمالحة، أهمها بحر قزوين (بحر شروان، بحر الخزر، بحر باكو، بحر كاسبيان... إلخ).

وبحيرة لادوجا (Ladoga) وبحيرة أونجا (Onega) وبحيرة تايمير (Taimyr).

وتشكّل بحيرة (Baikal) أعمق بحيرة للماء العذب في العالم (٢٠ بالمئة من المياه العذبة في العالم، و٨٥ من المياه العذبة في روسيا). ويبلغ طولها ٦٣٢ كم وعرضها ٩٥ كيلومتر وعمقها ١٧١٣ متر (في وسطها). وهناك عدد كبير من البحيرات في سيبيريا.

أما الأنهار في روسيا فهي كثيرة جداً، وهناك أكثر من ١٢٠,٠٠٠ نهر يبلغ طول كل منها عشرة كليومترات أو أكثر. كما أن بينها أربعين نهرًا يبلغ طول الواحد منها ألف كيلومتر أو أكثر، وتغطي مساحة مروية تقدّر بثلاثة ملايين كيلومتر مربع.

ويعتبر نهر الفولجا (المعروف لدى المسلمين القدماء باسم إتل) أطول نهر في أوروبا إذ يبلغ طوله ٣,٦٩٢ كم من منبعه في جبال فالداي (Valdai) في مقاطعة تيفر

(Tver) في الشمال الغربي لموسكو، وجنوب شرق مدينة سانت بترسبورج (لها أسماء عديدة). وتقع عليه إحدى عشرة مدينة من أهم عشرين مدينة في روسيا. ويصب في بحر قزوين. وله فروع عديدة أهمها نهر كاما ونهر أوكا. وهو أهم أنهار روسيا حيث يصل شمال روسيا بجنوبها، وتتم عبره نقل البضائع والبشر.

وأهم المدن الواقعة عليه أو على فروعه هي موسكو، وقازان، ونيزني نوفوجورد، وفولجو جراد (ستالينجراد)، وسمارا، وياروسلاف، وأوليافوفسك، وأستراخان (الحاج طرخان).

وقد كان هذا النهر من قازان حتى مصبه في بحر قزوين، وحيث تقع مدينة أستراخان، نهراً إسلامياً، منذ القرن التاسع الميلادي عندما أسلم بلغار الفولجا.

وقد وصف ابن فضلان في رحلته أيام المقتدر العباسي وصوله إلى نهر الفولجا، وكيفية استقبال ملك البلغار المسلم له. وسنذكر ذلك كله بالتفصيل في فصل خاص به لأهميته البالغة، فنترك ذلك كله إلى حينه.

ورغم أن نهر الفولجا (٣٦٩٢ كم) هو أهم نهر في روسيا إلا أنه ليس أطولها، فإن نهر لينا في سيبيريا، والذي يصب في المحيط القطبي الشمالي أطول منه. وهناك أيضاً أنهار الأوب ونيسي وأمور، وكلها في روسيا الآسيوية، في سيبيريا. وتصب في المحيط القطبي الشمالي، وتكون متجمدة لفترة تتراوح ما بين سبعة وتسعة أشهر في السنة، مما يفقدها أهميتها الملاحية، بل والزراعية، وبالتالي يجعل الأولوية لنهر الفولجا الذي يتجمد في فصل الشتاء الطويل فقط (٣ أشهر).

### الأقاليم الجغرافية

تُقسّم روسيا إلى أربعة نطاقات على أساس التربة والنباتات والمناخ. وهي من الشمال إلى الجنوب:

(١) نطاق التاندورا Tandora: في أقصى شمال روسيا ذات مناخ شديد البرودة وفيها منطقة الجليد الدائم طوال العام. وبالتالي تكون قاحلة وقليلة السكّان، وفيها بعض الحيوانات، مثل الرنة، والأرانب البرية، والثعلب القطبي، والدببة... إلخ، ويعيش السكّان على الصيد من البر والبحر في الفترات التي يذوب فيها الثلج (فترة صيف قصيرة).

(٢) نطاق الغابات: ويعرف الجزء الشمالي منه باسم التيجاء حيث تكثر الأشجار الصنوبرية. أما الجزء الجنوبي فتتنوع أشجاره وحيواناته، وتكثر فيه الدببة، والغزلان، والرنة، والسناجب، والقندس. وتعتبر روسيا أكبر بلد في أوروبا لديه غابات شاسعة.

(٣) نطاق السهوب: ويقع جنوب منطقة الغابات وفيه مروج وسهول، وغابات، وتوجد بها التربة السوداء التي تعد أجود أنواع التربة وأخصبها، وتصلح خاصة للقمح، وأنواع الحبوب، وتكثر الحيوانات بأنواعها.

(٤) النطاق الجبلي وشبه الصحراوي: في أقصى جنوب روسيا، ويشمل القوقاس وجباله الشاخمة، والأراضي شبه الصحراوية حوالى بحر قزوين. وتوجد جبال البروز في القوقاس وبها أعلى قمة في أوروبا (أعلى من جبال الألب المشهورة) حيث تصل إلى ٥٦٤٢ متراً فوق سطح البحر.

#### روسيا الأوربية وروسيا الآسيوية:

تشكّل جبال الأورال الحدّ الفاصل بين روسيا الأوربية وروسيا الآسيوية، حيث تفصل بين القارتين. وتمتد من الشمال إلى الجنوب عبر مسافة ٢٢٠٠ كم، ثم يمتد الفصل جنوب جبال الأورال لمسافة ١٣٧٥ كم. وتأتي معظم ثروات روسيا من الجزء الآسيوي الذي يشكّل ٧٥ بالمئة من مساحة روسيا و ٢٥ بالمئة من سكّانها. وفي هذا الجزء سيبيريا أكبر مخزن نفطي في العالم بعد السعودية، كما أن بها أكبر مخزون للغاز والفحم. وهناك جمهورية اتحادية تسمى (ياقوتيا) لكثرة الياقوت

والذهب والألماس فيها. ولعل القارئ قد أدرك من اسمها أنها كانت مسلمة، وسكانها من التتار المسلمين إلى يوم دخول عناصر روسية وأوكرانية، وروسيا البيضاء، منذ أن احتلها القيصرية، حيث صاروا يشكلون نسبة كبيرة، بل الأغلبية من سكانها.

وتتركز الصناعات في الجزء الأوربي من روسيا، وفيها مراكز التعليم الكبرى والجامعات ومراكز الصناعة. ومعظم هذه المدن تقع على ضفاف الأنهار، وبالذات نهر الفولجا الذي يقع على ضفافه إحدى عشرة مدينة هامة، كما أسلفنا.

وتعتبر روسيا أكبر منتج للنفط في العالم، وثاني أكبر مصدر له (تأتي بعد السعودية التي تصدر أكثر من عشرة ملايين برميل من النفط يومياً) كما أن روسيا هي أكبر مصدر للغاز في العالم وتسبق قطر (ثاني أهم مصدر للغاز) بمراحل.

وفي روسيا ثروات الفحم والألماس والياقوت والذهب (جمهورية ياقوتيا في سيبيريا).

كما أن بها مناجم الحديد والنحاس والمنجنيز. وهناك أراضي زراعية شاسعة، ولكن نتيجة النظام الشيوعي الفاشل اضطرت روسيا إلى استيراد القمح عدة مرات، بينما تستطيع روسيا أن تكون من الدول المصدرة للحبوب والغذاء لثبوت أراضيها وكثرة خيراتها. ويكفي أن بها مائة وعشرين ألف نهر يزيد طول كل واحد منها على عشرة كليومترات، كما أن بها أربعين نهرًا يزيد طول كل واحد منها على ألف كيلومتر. وبها بحيرة بايكال ذات الماء العذب وأعظم بحيرة عذبة في العالم. كما أن بها بحر قزوين أعظم بحيرة مالحة في العالم. وفي بحر قزوين ثروات الغاز والبتروكيمياويات بالإضافة إلى الكافيار أعلى أنواع بيض السمك في العالم. كما أن الثروة السمكية في بحر البلطيق وغيره من البحار كبيرة جداً. وقد اشتهرت روسيا بصناعاتها الحربية التي تشكل دخلاً هاماً للدولة، كما أن بها صناعات بتروكيميائية وكيمياوية ونووية.

وقد تأخرت روسيا بسبب فشل النظام الشيوعي، وازداد هذا التأخر في عهد يلتسين الذي فكَّك الدولة، وخرَّب أنظمتها العتيقة، ولم يستطع أن يستبدلها بأنظمة حديثة، لتفشي الفساد فيه وفي أسرته، والمجموعة المحيطة به، التي كان اليهود هم المستفيدون الأساسيون فيها، حتى كَوَّنوا ما يعرف بالأوليغارك (Oligarch)، وهي حكومة النخبة أو الأقلية التي تمتعت بخيرات روسيا، وكنزت المليارات، وهربت هذه الأموال إلى أوروبا، وجعلت الشعب الروسي أشدَّ بؤساً مما كان عليه أيام الشيوعية. ولكن منذ أن تولى بوتين السلطة سنة ٢٠٠٠ فقد ضبط الأمور، ونظَّم الدولة، وحارب الفساد المنتشر إلى حدِّ كبير، وبدأت الأوضاع في التحسُّن رغم التباكي من اليهود والدول الغربية على الحرية وحقوق الإنسان (المقصود حقوق الإنسان اليهودي لسرق كل ثروات روسيا). ويُعتبر عدد المليارديرات في روسيا هو الأعلى في العالم بعد الولايات المتحدة، وهو من العجائب في بلد طبَّق الشيوعية لسبعين عاماً!!.

التقسيم الإداري: تقسم روسيا إلى ٤٩ إقليماً (أوبلاست) و٦ مقاطعات و٢٠ جمهورية ذات حكم ذاتي، و١٠ مناطق ذات حكم ذاتي، وإقليم (أوبلاست) ذو حكم ذاتي، وكل هذه الأقسام تنقسم إلى مراكز. وقد طالبت جمهورية الشيشان المسلمة باستقلالها، ودخلت في حروب متتالية أدت إلى تدمير رهيب، كما أن جمهورية تارستان تطالب بمزيد من الحرية، ولكنها أخذت موقفاً أقل عدائية تجاه الروس، وحافظت على البقاء ضمن جمهوريات روسيا الفدرالية، وكذلك فعلت بشكيريا. والجدير بالذكر أن تارستان وبشكيريا والشاشان كلها غنية بالنفط والغاز، ولهذا تحتفظ بها روسيا، ولو أدى إلى المذابح واضطهاد الشيشان وتدمير مدنهم وقراهم.

هناك ٢٠ جمهورية وعشر مناطق ذات حكم ذاتي وهي:

١- أديفا، ٢- ألتاي، ٣- بشكيريا، ٤- بورياتيا، ٥- تشوفاشيا (الجوفاش)،

- ٦- الشيشان، ٧- انجوشيا، ٨- داغستان، ٩- قبردينو- بلقاريا، ١٠- كارليا،  
 ١١- خاسيا (ياقوتيا)، ١٢- كومي، ١٣- كالميكايا، ١٤- قراتشاي- شركس،  
 ١٥- ماري، ١٦- موردوفيا، ١٧- أدمورتيا، ١٨- أوسيتا الشمالية، ١٩- تاتارستان  
 (تتاريا)، ٢٠- توبا، ٢١- كرايات التاي، ٢٢- خبروفسك، ٢٣- كراسنودار،  
 ٢٤- كراسنويارسك، ٢٥- برويمورسكي، ٢٦- ستافربول، ٢٧- يرم،  
 ٢٨- كامشاتكا، ٢٩- فرايبايكالسكي.

أوبلاست أو مقاطعة ٤٩.

مدن اتحادية (Federal Cities) وهما موسكو وسانت بترسبورج.

منطقة واحدة ذات حكم ذاتي وهي يهودية الديانة لأن أغلب سكانها من اليهود (عددهم قليل بالنسبة للديانات الأخرى). وقد هاجر أكثر من مليون يهودي إلى إسرائيل، كما هاجرت أعداد أخرى إلى الولايات المتحدة وأوروبا.

مناطق مستقلة ذاتياً: ١- تشكوكوتكا، ٢- خانتيا- مانسيا، ٣- نتسيا، ٤- ياماليا.

المسلمون في روسيا

لا توجد إحصائيات دقيقة لأن الإحصائيات الرسمية لا تكتب الدين. وأكثر التقديرات تقول إن عدد المسلمين لا يقل عن ثلاثين مليوناً في روسيا، موزعين في كل الأقاليم والجمهوريات. ويكفي أن تعرف أن في موسكو وحدها ما يزيد عن مليوني مسلم، وفي مدينة سانت بترسبورج ما يقارب مليون. وسكان موسكو أكثر من عشرة ملايين، وسكان سانت بترسبورج ما يقارب خمسة ملايين.

ويتركز وجود المسلمين في حوض نهر الفولجا ونهر كاما (تتاريا وبشكيريا)، وفي منطقة القوقاس: الداغستان والشيشان والأنجوش والشركس... كما توجد أعداد كبيرة نسبياً من المسلمين في سيبيريا (ياقوتيا). ولا توجد منطقة في روسيا لا يوجد فيها مسلمون، سواء قتلوا أو كثروا.

## الوحدات ذات قوميات إسلامية في جمهورية روسيا الاتحادية

الوحدة الإدارية	نوعها	عاصمتها	تاريخ غزوها	عدد السكان
تتاريا	جمهورية ذاتية (ج ذ)	قازان	١٥٥٢	٣,١٦٥,٠٠٠ <sup>(١)</sup>
بشكيريا	جمهورية ذاتية (ج ذ)	أوفا	١٥٥٧	٢,٨٣٨,٠٠٠
الداغستان	جمهورية ذاتية (ج ذ)	محج قلعة	١٧٢٣	١,٤٥٧,٠٠٠
الشاشان أنجوش	جمهورية ذاتية (ج ذ)	غروزني	١٨٥٠	١,٠٨٤,٠٠٠ <sup>(٢)</sup>
أدمورت (أدمورتيا)	جمهورية ذاتية (ج ذ)	إيجفسك	١٥٦٠	١,٢٣٧,٠٠٠
تشوفاشيا	جمهورية ذاتية (ج ذ)	شبوقساري	١٥٥٢	١,٢٣٧,٠٠٠
ماري	جمهورية ذاتية (ج ذ)	بوشكار-أولاف	١٥٥٢	٦٨٧,٠٠٠
القابرديار بلكار	جمهورية ذاتية (ج ذ)	نلتشكك	١٥٥٧	٦٠٠,٠٠٠
الأوسيت الشمالية	جمهورية ذاتية (ج ذ)	أردجونيكيلزي	١٧٨٤	٥٦٠,٠٠٠
أبخازيا <sup>(٣)</sup>	جمهورية ذاتية (ج ذ)	سخومي	١٨١٠	٤٨٩,٠٠٠
أديغيا	مقاطعة ذاتية	ميقوب	١٨٧٨	٣٨٩,٠٠٠
قرتشاي شركس	مقاطعة ذاتية	شركس	١٨٧٨	٣٤٧,٠٠٠
أجاريا <sup>(٤)</sup>	جمهورية ذاتية (ج ذ)	باتومي (باطوم)	١٨٧٨	٣١٦,٠٠٠
أوسيتيا الجنوبية <sup>(٥)</sup>	مقاطعة ذاتية	تسخينوالي	١٨٧٨	١٠٠,٠٠٠
ياقوتيا <sup>(٦)</sup>	جمهورية ذاتية (ج ذ)	ياقوتسك	١٦٣٢	١,٠٠٠,٠٠٠

(١) يقول مفتي قازان إن سكانها الآن (أكتوبر ٢٠٠٨) أكثر من أربعة ملايين، ٥٢٪ منهم مسلمون.

(٢) السكان عام ١٩٩٠ كانوا ١,٣٠٠,٠٠٠.

(٣) شبه مستقلة ولكنها تتبع جورجيا رسمياً.

(٤) تتبع جورجيا.

(٥) تتبع جورجيا.

(٦) ياقوتيا أكبر جمهوريات روسيا الاتحادية وتضم نصف أراضي سيبيريا الغربية وكل أراضي

سيبيريا الشرقية، وتبعد ياقوتسك عن موسكو خمسة آلاف كيلومتر. واشتهرت بثروتها

النفطية والغاز والياقوت والماس والذهب.



ملحوظة: إن أبخازيا وأجاريا وأوسيتيا الجنوبية كلها الآن من الناحية القانونية ضمن جمهورية جورجيا المستقلة عن روسيا (والاتحاد السوفياتي السابق). وسكان أبخازيا مسلمون وهم في ثورة. ومن الناحية الواقعية استقلوا بالفعل، وتؤيدهم روسيا لأنها في خلاف شديد مع جورجيا. وأبخازيا على البحر الأسود، وبها أهم موانئ جورجيا (باطوم = باتومي) لا يمكن أن تفرط فيها جورجيا. وأما أوسيتيا الجنوبية فأغلبية سكانها نصارى، ويريدون الاتحاد مع أوسيتيا الشمالية التابعة لروسيا. وقد اعترفت روسيا باستقلال أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية في أكتوبر ٢٠٠٨.



خريطة لجمهورية روسيا الاتحادية التي تنقسم إلى قسمين، يفصل بينهما جبال الأورال (٢٢٠٠ كم)، ثم جنوب الأورال إلى بحر قزوين.

١- روسيا الأوروبية: تشكّل ربع مساحة روسيا، وهي الجزء الأهم، وهي وطن الروس ومركز الدولة والمدن الهامة (موسكو، بترسبورج، نوفوجراد، فولفرجراد، قازان، ساراي...)، وهي مركز الصناعة، والجامعات الكبرى، ويعيش فيها ما بين ٧٥ و ٨٠ بالمئة من سكّان روسيا البالغين ١٤١ مليوناً.

٢- روسيا الآسيوية: وتقع شرق جبال الأورال إلى المحيط الهادي والمحيط المتجمّد الشمالي، وتمثل ثلاثة أرباع مساحة روسيا الفيدرالية، ولكنها لا تمثل سوى ربع السكّان أو أقل. وبها أهم ثروات روسيا من النفط والغاز والذهب والألماس.

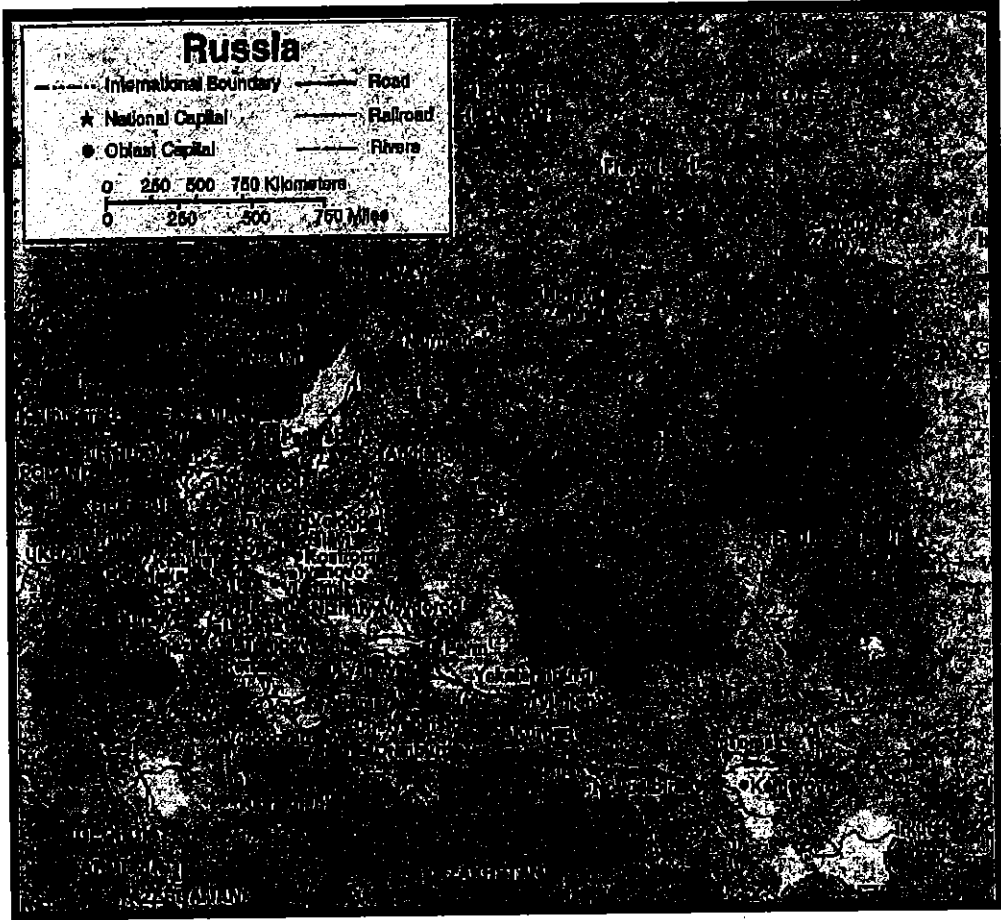
مساحة روسيا الاتحادية ١٧,٠٧٥,٤٠٠ كم<sup>٢</sup>، وهي بذلك أكبر دولة في العالم من حيث المساحة وتوسع أكبر دولة من حيث السكّان ١٤١,٠٠٠,٠٠٠ (عام ٢٠٠٧) حيث أن سكّانها يتناقصون.

ويشكّل المسلمون في روسيا قرابة ٣٠ مليوناً أو ما يقارب ٢٧ بالمئة من السكّان.

في روسيا أكبر شبكة قطارات في العالم، وأكبر بحيرة ماء عذب (بايكال) في العالم، وأكبر بحيرة ماء مالح (بحر الخزر- بحر قزوين) في العالم.



خريطة لجمهورية روسيا الاتحادية وموقعها بين آسيا وأوروبا. الجزء الغامق هو الجزء الأوربي من روسيا، والفاتح هو الآسيوي.



خريطة لروسيا الاتحادية، توضح المدن الهامة، والحدود والأنهار والطرق البرية والخطوط الحديدية.



## الفصل الثاني

من هم الروس؟ من هم الصقالبة (السلافيون)؟

تنحدر الأصول العرقية الروسية من الجنس السلافي الذي كان يعيش في شرقي أوروبا عدة آلاف من السنين. وقد قسّم الباحثون هؤلاء السلافيين إلى ثلاث مجموعات: السلاف الشرقيون والسلاف الغربيون والسلاف الجنوبيون. ويرجع الروس أصولهم إلى السلاف الشرقيين الذين ظهروا في كييف وما حولها ثم امتدوا بعد ذلك إلى موسكو.

وكانت قبائل السلاف (الصقالبة) القدامى تنتقل داخل مناطق واسعة في أوروبا ما بين نهر الدينير (Dnieper) وشمال نهر الفولجا ونهر أوكا (Oka) شرقاً إلى نهر الألب (Elb) غرباً وإلى منطقة الكاربات (Carpates) جنوباً. ولقد ذكرهم المؤرخون الأقدمون تحت اسم فينيدي (Venedi) ثم عُرفوا باسم السلوثين (Slovenes)، الذين كَوّنوا فيما بعد سلوثينيا. وعُرفت إحدى هذه القبائل الهامة باسم الروس.

ونجد في المصادر العربية اسم الروس في كتاب «المسالك والممالك» لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٣٠٠هـ حيث يقول: «فأما

(١) ابن خرداذبه: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله. وفاته سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م. وُلِد في الأعوام الأولى من القرن الثالث الهجري (حوالي سنة ٨٢٠م. من أهل فارس. وكان جده أول من اعتنق الإسلام من أفراد أسرته. وكان أبوه من موظفي الدولة الكبار في طبرستان. وشغل هو منصب «صاحب البريد والخبر» بناحية الجبل (في طبرستان، وهي الآن في إيران)، وكان ندياً للخليفة المعتمد العباسي.

مسالك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخنز، وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي (المقصود به البحر الأسود) فيعشّروهم صاحب الروم (الدولة البيزنطية). وإن ساروا في تنيس (نهر الدون Don) [وهو] نهر الصقالبة مروا بخمليج، مدينة الخنز، فيعشّروهم صاحبها، ثم يصيرون إلى بحر جرجان (هو نفسه بحر قزوين وبحر الخنز وبحر شروان وبحر باكو حيث أن له أسماء عديدة. وفي العصر الحاضر يُعرف باسم بحر كاسبيان Caspian Sea). وربّما حملوا تجارتهم من جرجان (مدينة على بحر قزوين تتبع إيران حالياً) على الإبل إلى بغداد. ويترجم عنهم الخدم الصقالبة، ويدّعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية».

وقد ذكر الروس أيضاً المؤرخ المسعودي<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٣٤٩هـ/ ٩٥٦م في كتابه «مروج الذهب» كما ذكرهم ابن فضلان<sup>(٢)</sup> في رحلته المشهورة من بغداد إلى

= واشتهر بالجغرافيا والموسيقى، وقد تعلّم فن الموسيقى والغناء على يد إسحاق الموصلي، أحد أشهر الموسيقيين في العراق. وأورد المسعودي في «مروج الذهب» مقالة لابن خرداذبه ألقاها بحضرة الخليفة عن الآلات الموسيقية والإيقاعات والغناء. وقد اشتهر كتابه «كتاب المسالك والممالك» الذي تميّز بجمع الوثائق الرسمية للدولة العباسية. وفيه صفة الأرض من الوجهة التاريخية (الطوبوغرافيا التاريخية). وأصبح كتابه مرجعاً لمن أتى بعده من الجغرافيين.

(١) المسعودي: علي بن الحسين المسعودي، ينتهي نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وُلِدَ ونشأ في بغداد وأقام بمصر مدة، وطاف الدنيا المعروفة في زمنه من الصين والهند وسرنديب (سيرلانكا= سيلان) وذهب إلى إفريقيا ومدغشقر. ثم ذهب ما وراء أذربيجان وجرجان. وفاته بمدينة الفسطاط (القاهرة القديمة) في مصر سنة ٣٤٦هـ، له كتب كثيرة أشهرها: مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك (مطبوع)، وكتاب «ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور»، وكتاب «الاستذكار بما مرّ في سالف الأعصار» و«أخبار الأمم من العرب والعجم» و«أخبار الزمان ومن أباده الحدثنان» في ٣٠ مجلداً. وكتاب في الفلك.. إلخ.

(٢) ابن فضلان: خصصت الفصل السادس من هذا الكتاب لرحلة ابن فضلان إلى بلاد بلغار الفولجا لأهميته البالغة في موضوعنا. وهو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، كان =

أرض بلغار الفولجا المسلمين، وقد تمت تلك الرحلة في مطلع القرن الرابع الهجري (٣٠٩-٣١٢هـ/ ٩٢١-٩٢٤م) وسفرد لهذه الرحلة الهامة فصلاً، وسنذكر بإذن الله ما قاله المؤرخون والرحالة المسلمون عن الروس في كتاباتهم باللغة العربية (هناك كتابات بالفارسية والتركية وكلاهما لا أعرفه).

وقد ذكرهم بعد ذلك بشيء من التفصيل ابن بطوطة<sup>(١)</sup> في رحلته المشهورة.

= مولى لمحمد بن سليمان أحد القواد في مصر، ثم صار مولى لأمير المؤمنين المقتدر العباسي (جعفر بن المعتضد). كان على اطلاع على الفقه. أرسله الخليفة العباسي المقتدر مع وفد كامل إلى ملك البلغار المسلمين على نهر الفولجا رداً على طلبهم. وقد بدأ رحلته من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩هـ/ ٢١ حزيران ٩٢١م، ووصل إلى بلاد البلغار في ١٢ محرم ٣١٠. والراجح أن عودته كانت سنة ٣١١هـ. كتب رحلته وشرح ما صادفه فيها شرحاً مفصلاً. واهتم بها المستشرقون وخاصة الروس. ونقل عنه ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان»، وقام الدكتور سامي الدهان بتحقيقها ونشرها مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٩. وصدرت بعد ذلك عدة طبعات آخرها بتعليق شاكرا لعيبي سنة ٢٠٠٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. لا نعرف سنة ولادة ابن فضلان ولا سنة وفاته.

(١) محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (ابن بطوطة) (٧٠٣-٧٧٩هـ/ ١٣٠٤-١٣٧٧م) أشهر الرحالة العرب. بدأ رحلته بالحج إلى مكة المكرمة عام ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م وطاف البلدان واستمر في رحلات متعددة ووصل فيها إلى الصين واليابان والفيليبين كما وصل إلى أقصى المغرب، وزار غرب إفريقيا وشرقها إلى مدغشقر. وزار القسطنطينية ودول أوروبا الشرقية، كما زار روسيا وبلاد البلغار ونهر الفولجا وطادجسكتان وتركمستان وقازاقستان وقرغيزيا. وقد وصف العالم القديم بدقة رغم أنه لم يكن يكتب وقائع رحلته. وقد كانت له ثلاث رحلات ابتدأها عام ٧٢٥هـ وأنهاها سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٢٥-١٣٥٥م، وقد أمره السلطان أبو عنان المريني بأن يملئ رحلته على كاتبه علي بن محمد بن جزري الكلبي، فصاغها ابن جزري الكلبي بأسلوبه الأدبي. وبما أن زيارة ابن بطوطة لبعض البلدان تكررت أكثر من مرة، فكان يدمج ما رآه في تلك الزيارات في قول واحد مستمر. وهو أمر مقبول. وقد اهتم الغربيون بابن بطوطة وترجم كتابه إلى كافة اللغات الأوربية ابتداءً من اللاتينية وانتهاءً باللغات الحديثة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والبرتغالية والروسية. وقد سمى كتابه: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». وكانت وفاة ابن بطوطة في مراكش سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م.

وتحدث عنهم كثير من الرحالة والمؤرخين المسلمين مما يدل على سعة اطلاعهم وعلى وجود علاقات تجارية بين دول الخلافة والدول الإسلامية الأخرى والمجموعات الروسية.

ولا يعرف بالضبط معنى كلمة روس. ولعلها تأتي بمعنى شقر الشعور (Rossa) أو حمر الشعور. وهم كانوا أيضاً طوالياً شقر الشعور، زرق العيون، شجعان، مستهترون بالخمر يشربونها ليلاً ونهاراً، وقد يموت الواحد منهم والقدح في يده، كما وصفهم ابن فضلان والمسعودي وابن رسته وابن بطوطة.

ويرى الدكتور عبد الرحيم العطاوي في كتابه «الاستشراق الروسي»<sup>(١)</sup> أن كلمة سلوفن (السلاف) قد تكون مشتقة من كلمة «سلوفا» أي الناس الذين لهم ملكة الكلام في مقابل «الأباكم» «Nemsty» وهو الاسم الذي كان الروس ولا يزالون يطلقونه على جيرانهم الجرمانيين الذين لا يستطيعون التفاهم معهم بالسلافية. وهو أمر أيضاً نراه عند العرب، فالعرب هم الذين يُعربون عن أنفسهم بلسان عربي مبين. والعجم هم غير العرب، الذين لا يُحسنون التعبير عن أنفسهم (وهم لذلك أشبه بالعجاوات أي الحيوانات).

وترجع كتابة اللغة السلافية إلى الفترة التي اعتنقوا فيها الأرثوذكسية المسيحية (البيزنطية). وقد وضع أسس كتابة هذه اللغة الأخوان كيريل «Kiril» وميفوديا «Mefodia» اللذان أوفدهما أمبراطور القسطنطينية لتعليمهم الدين الجديد والكتابة. ولهذا عُرفت هذه الكتابة باسم الكتابة الكيريلية «Kyrilistia» التي اتخذت لها الحرف اليوناني، بينما كانت روما وأوروبا الغربية تستخدم الحرف اللاتيني. وقد دخل الروس المسيحية في القرن العاشر الميلادي حين تنصّر ملكهم فلاديمير سلافيتش سنة ٩٨٨م.

(١) د. عبد الرحيم العطاوي «الاستشراق الروسي: مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا». المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - المغرب، بيروت - لبنان ٢٠٠٢ ص ٢٢-٢٣.



ورغم أن بولندا وليتوانيا واستونيا.. إلخ. هي من العنصر السلافي إلا أن هذه المناطق اتخذت لها الدين الكاثوليكي وبالتالي استخدمت الحرف اللاتيني.

وتنقسم اللغات السلافية حالياً إلى ثلاث فصائل كما يقول الدكتور عبد الرحيم العطاوي<sup>(١)</sup> في كتابه «الاستشراق الروسي» وهي:

١- السلافية الشرقية: وتنتمي إليها الروسية والأوكرانية والبيلاروسية (روسيا البيضاء).

٢- السلافية الجنوبية: وتنتمي إليها اللغات البلغارية والمقدونية والصربية والكرواتية والسلوفينية.

٣- السلافية الغربية: وتنتمي إليها التشيكية والسلوفاكية والبولونية. وتكتب بالحرف اللاتيني.

وقد تحركت المجموعات السلافية الشرقية صوب ما يُعرف اليوم بروسيا الأوربية، وبالذات في منطقة كييف (عاصمة أوكرانيا حالياً). وامتزجوا بالسكان الموجودين من العناصر الفنلندية الشمالية مثل الميريا (Merya) والموروميان (Muromians) والمشير (Meshchera).

وقد أوجدت هذه المجموعة المؤلفة من الفايكنجس (Vikings) والروس السلافيين شبه دولة عُرفت باسم الروس الفارانجيين (Varangian Rus). وفي القرن التاسع كانت لهم تجارة امتدت إلى بحر قزوين، وكما رأينا من المصادر العربية فإنها امتدت إلى أبعد من ذلك.

وكان أول حاكم اختارته هذه المجموعة هو روريك (Rurik) الذي حكم من مدينة نوفوجورد Novogorod منذ عام ٨٦٠م. وامتدت سلطات خلفائه إلى كييف التي كان يسيطر عليها الخزر (Khazar).

(١) المصدر السابق.

وفي القرن العاشر والحادي عشر الميلادي دخلت هذه المجموعة إلى المسيحية الأرثوذكسية وعرف روس كييف (Kievan Rus) المسيحية. وفي القرن الثاني عشر والثالث عشر كانت القبائل الرعوية التركية مثل البشناق (Pechenegs)<sup>(١)</sup> والقبشاق (Kipchaks) تضطر الروس إلى التوغل أكثر في مناطق الغابات الشمالية، وهناك أقيمت مدينة موسكو وإمارتها.

وفي أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) تحوّل بلغار الفولجا إلى الإسلام وهو حدث فريد. وقد أسلموا بواسطة الدعاة إلى الله من الصوفية والتجار والعلماء، وكونوا لهم دولة، إلا أنهم كانوا يعانون من دولة الخزر القوية في الجنوب، والتي كانت تفرض عليهم الجزية. كما أن ملك الخزر تهوّد، رغم أن قومه ونظام دولته بقيت بكل آثارها الهمجية والوثنية، كما سترى ذلك واضحاً من وصف ابن فضلان لها في رحلته (٣٠٩-٣١٢هـ / ٩٢١-٩٢٤م).

وفي القرن الثالث عشر الميلادي وصل باتو بن جوجي بن جنكيزخان إلى هذه المناطق وتجاوزها إلى بولندا وأخضعها جميعاً لحكمه. وتحوّل بركة خان بن جوجي إلى الإسلام، وتزعم الأورد الذهبي بعد وفاة أخيه باتو، وبالتالي تحوّل هذا الأورد (القبيلة) إلى الإسلام، وحكم كل الأراضي الواقعة على نهر الفولجا من موسكو إلى استراخان على بحر قزوين، كما أزال دولة الخزر الوثنية فعلاً، اليهودية اسماً. وكانت إمارة موسكو التي تكوّنت في القرن الثاني عشر الميلادي تحت حكم سلطان ساراي ثم سلطان قازان، وكانت تدفع الجزية لمدة ٢٤٠ عاماً. ولم يكن أميرها يُنصّب إلا بعد موافقة سلطان قازان التتري المسلم.

وفي قازان وعلى طول نهر الفولجا امتزج بلغار الفولجا المسلمين بالعنصر التتاري امتزاجاً تاماً. وقاموا بنشر الإسلام أيضاً عبر جبال الأورال إلى بشكيريا. وقامت مدن إسلامية عظيمة على طول نهر الفولجا وهي قازان وسراي (ساراتوف الحالية) واستراخان وجنوباً إلى شبه جزيرة القرم.

(١) البشناق هم سكان البوسنة (Bosnia) المسلمون في العصر الحديث.

وفي تلك الفترة أيضاً استطاع التتار أن يتوجّهوا شمالاً، ويحتلوا معظم أراضي سيبيريا. وبما أن هؤلاء التتار أيضاً قد أسلموا على يد الدعاة إلى الله من العلماء والصوفية والتجار فإن معظم أراضي سيبيريا تحوّلت إلى الإسلام. وهكذا نجد أن معظم أراضي روسيا المعروفة اليوم قد دخلها الإسلام مبكراً. أما منطقة القوقاس فقد دخلها الإسلام مبكراً جداً. ودخل الإسلام إلى أذربيجان (السوفياتية) في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفي العهود التي تلتها وصل المد الإسلامي إلى الداغستان وإلى بلاد الكرج (جورجيا التي استقلت عن الاتحاد السوفياتي عام ١٩١١) وإلى غيرها من المناطق. أما المناطق الجبلية الداخلية فلم يدخلها الإسلام إلا متأخراً في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين بجهود الدولة العثمانية التي كانت ترسل الدعاة إليهم، وبجهود الدعاة إلى الله من أهل الداغستان وأذربيجان وغيرها من المناطق.

وستتناول بإذن الله كيفية إسلام هذه المناطق بالتفصيل في فصول خاصة. وما يهّمنا هاهنا هو الحديث عن العنصر السلافي الذي جاء منه الروس. أما بلغار الفولجا فهم من العنصر التركي، وقد هاجروا شمالاً من منطقة أزوف حوالي سنة ٦٦٠ ميلادية ووصلوا إلى منطقة إيدل أورال Idel - Ural في القرن الثامن الميلادي، وكانوا القوّة الضاربة على طول نهر الفولجا وامتدّوا إلى جبال الأورال. واختلط بهم العديد من العناصر الأخرى مثل القبائل الفنلندية والقبائل الأوغورية (أيضاً فرقة من الأتراك الشرقيين)؛ واتجهت بعض القبائل البلغارية على طول نهر الدانوب ثم استقرّوا ليكوّنوا مملكة بلغاريا حيث التحموا واختلطوا اختلاطاً تاماً بالعنصر السلافي، وتكلّموا باللغة السلافية الجنوبية، واعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية، وكتبوا بالحرب الكيريلي (اليوناني الأصل).

وقد أسّس بلغار الفولجا مدينة بلغار (Bolgar) وتسمّى بيلار أيضاً على بُعد ١٦٠ كيلومتراً جنوب موقع قازان، وذلك في بداية القرن التاسع الميلادي. وكانوا خاضعين لدولة الخزر القوية، ولكن ما لبثوا في نفس القرن أن استقلّوا عنهم، وإن كانوا مضطرين لدفع الجزية لملك الخزر.

ولهذا كتب ملك بلغار الفولجا المسلم ألمش بن يلطوار إلى الخليفة العباسي المقتدر خطاباً يسأله فيه أن يرسل وفداً لتعليمهم الدين الإسلامي وأحكامه الفقهية، مع مجموعة من المهندسين والأموال لبناء استحكامات قوية تصدّ عنهم هجمات دولة الخزر. وقد وصف لنا ابن فضلان تفصيلاً في رحلته هذه الوقائع (٣٠٩-٣١٢هـ / ٩٢١-٩٢٤م).

وتنقل دائرة المعارف ويكيبيديا (Wikipedia) على الأنترنت عن أحمد بن عمر ابن رسته<sup>(١)</sup> (Ibn Rustah) أن العنصر التركي كان هو الغالب في بلغار الفولجا وامتداداً إلى جبال الأورال وما عُرف باسم بشكيريا فيما بعد. وأهم هذه القبائل التركية الأصل هي البلغار، والبارسيل (Barsils)، والبيلار (Bilars)، والبارانجار (Baranjars)... أما الشوفاش (Chuvash) وتثار قازان فهم خليط من بلغار الفولجا والتثار والعناصر الفنلندية والأتراك اليغور والقبشاق.

وقد استطاع بلغار الفولجا أن يوطّدوا التجارة بين شمال الفولجا إلى جنوبه في بحر قزوين ومنه إلى الدول الإسلامية. كما أن تجارتهم وصلت عبر البحر الأسود إلى القسطنطينية والدولة البيزنطية. وبالتالي استطاع البلغار المسلمون أن يتحكّموا في جزء هام من التجارة بين أوروبا وآسيا. وقد عُرفت هذه التجارة باسم تجارة الفراء الذي كان يجلب من شمال روسيا إلى الجنوب حيث الدولة البيزنطية والدول

(١) ابن رسته: أحمد بن عمر، أبو علي، وفاته حوالي سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م. فلكي وجغرافي مسلم، ويعتبر من أوائل علماء الفلك الذين اهتموا بأبعاد القمر والنجوم السيّارة عن الأرض، ودرس أبعاد كوكب الزهرة عن مركز الأرض بتفصيل وذكره في كتابه «القول في الأجرام والأبعاد».

عاش في أصفهان (في إيران حالياً) وحجّ عام ٢٩٠هـ / ٩٠٢م، ومن أهم كتبه «الأعلاق النفيسة» تحدث فيها عن البلدان التي رحل إليها، وأبدى اهتماماً خاصاً بدراسة المناخ وسماته، والمعالم الجغرافية الهامة مثل الأنهار، وظاهرة المدّ والجزر. ودرس صورة الأرض وكرويتها وأبعادها وأقاليمها. وكان من أوائل العلماء العرب الذين أثاروا في أوروبا بانجازاتهم في الربط بين الجغرافيا وحسابات الفلك. وكان دقيقاً في حساباته ويرفض التنجيم. وكتابه «الأعلاق النفيسة» مطبوع.

الإسلامية. بينما كانت تجارة الحرير من الصين إلى أوروبا تمر عبر البحر الأبيض المتوسط. وتبدأ في التركستان إلى أن تصل إلى العراق وسوريا ومنها إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط أو عبر الدول التركية (السلاجقة المعروفين باسم السلاجقة الروم الذين استولوا على القوقاس إلى الأناضول) ومنها إلى أوروبا.

وهكذا كانت تجارة الفراء وتجارة الحرير الهامتين بيد المسلمين في تلك الأزمنة وقد وصف المغامر الإيطالي ماركو بولو الذي وصل إلى الصين طريق الحرير وكيف أن المسلمين يسيطرون عليه.

وانتشرت أحوال بلغار الفولجا بفضل هذه التجارة، وكانت مدينة البلغار مدينة هامة وكبيرة، وتنافس المدن الكبرى في العالم الإسلامي. وكانت تجارتهم تمتد إلى الفايكنز (Vikings) الشماليين (إسكندنافيا) شمالاً وإلى بغداد في الجنوب الشرقي والقسطنطينية في الجنوب الغربي. وظهرت مدن أخرى هامة مثل قازان واستراخان والشرا والكفا وسهارة. ومدينة سراي أو الشرا (ساراتوف) كانت عاصمة الدولة الإسلامية التتارية التي حكمت معظم أراضي روسيا الغربية وامتد حكمها شرقاً لتشمل ما يُعرف اليوم بكازاخستان. وتقول دائرة المعارف ويكيبيديا (Wikipedia) إن عدة مدن على نهر الفولجا اندثرت وذكرتها المصادر الروسية القديمة، وهي: مدينة أصلي (Asli) ومدينة توكشن (Tuxçin) ومدينة إبراهيم (Ibrahim) ومدينة تو علي (Taw Ile)، وأسماؤها تدل على أنها إسلامية.

وفي القرن الحادي عشر الميلادي واجه بلغار الفولجا المسلمون هجمات القبائل الروسية الهمجية وأدت إلى تدمير بعض المدن التي أعيد بناؤها. واضطر بلغار الفولجا إلى نقل عاصمتهم (Bolghar) إلى بيلار (Bilar).

واستطاع البلغار رغم ذلك أن يهزموا الجيش الذي أرسله جنكيز خان بقيادة أوران (Uran) على حدود مدينة سهارة (Samara)<sup>(١)</sup> سنة ١٢٢٣م، ولكن عندما

(١) اسم مدينة سامراء العراقية: أطلق على هذه المدينة على نهر الفولجا. والغرييون إلى اليوم إذا تحدثوا عن سامراء ذكروها باسم سهارة = سهارة.

عاد المغول سنة ١٢٣٦م تحت قيادة باتو بن جوجي بن جنكيزخان (الأورد الذهبي) احتلوا كل المناطق بما فيها إمارة موسكو الصغيرة، ووصلوا إلى بولندا، ولكنهم واجهوا مقاومة شرسة من بلغار الفولجا المسلمين، واستمرت المعارك خمس سنوات كاملة حتى تم إخضاعهم. وفي تلك الفترة تولى الأورد الذهبي بركة خان بن جوجي ابن جنكيزخان الذي أعلن إسلامه وحارب ابن عمه هولوكو.

وامتزج التتار المسلمون بسكان هذه المناطق وبالذات بلغار الفولجا، وتكوّنت عدة خانيات مستقلة (تربطها صلات القربى التي تحوّلت فيما بعد إلى عداوات)، وأهمها خانية قازان واستراخان وقاسموف والقرم. وكانت قازان أهم تلك الخانيات.

#### الصقالبة (السلافيون)

لقد عرف العرب الصقالبة حتى أوردوا حديثاً (موضوعاً) وفيه أن النبي ﷺ قال: (ولد يافث (ابن نوح) هم يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم. وقد ذكرهم الأخطل الشاعر العربي النصراني المتوفى سنة ٩٥هـ / ٧١٣م في باب المهجاء.

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي<sup>(١)</sup>: صَقَلَب (بالفتح ثم السكون وفتح اللام وآخره باء موحّدة) قال ابن الأعرابي: الصقلاب الرجل الأبيض. وقال أبو عمرو: الصقلاب الرجل الأحمر. وقال أبو منصور: جيل حمر الألوان صهب

(١) ياقوت الحموي: «معجم البلدان»، مكتبة صادر/ بيروت، ج ٣/ ٤١٦، بيروت ١٩٥٧م. ترجمة ياقوت الحموي: وُلِدَ في بلاد الروم سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م، وكان من السبي وهو صغير وبيع في بغداد فاشتره تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، فعلمه القرآن والنحو والعربية، ثم علمه التجارة، وجعله يعمل معه وأعطاه مالاً يتجر فيه. ثم أعتقه، وكان ياقوت ينسخ الكتب ثم يبيعه، فاستفاد من ذلك علماً كثيراً بمطالعتة، وانتقل في البلدان في رحلات كثيرة. وكان في خوارزم عندما احتلها جنكيزخان سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م، ففرّ منها بحياته وترك ماله. ثم ذهب إلى الموصل فحلب التي أقام بها حتى وفاته سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م، أشهر أعماله: «معجم البلدان»، و«معجم الأدباء»، و«معجم الشعراء»، وله كتب أخرى في التاريخ والأدب والجغرافيا.

الشعور يتاخون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم. وقيل للرجل الأحمر صقلاب على التشبه بألوان الصقالبة. (وواضح أن الصقالبة قوم شديدو البياض بحمرة، وهم شقر الشعور وزرق العيون). وقال غيره: الصقالبة، بلاد بين بلغار (أي مدينة البغار على نهر الفولجا) وقسطنطينية (وهو تعريف دقيق). وتنسب إليهم الحُرْم الصقالبة. واحدهم صقليبي. وقال ابن الكلبي: «ومن أبناء يافث بن نوح عليه السلام يونان والصقلب... وفارس والروم»..

«وصقلب أيضاً بالأندلس من أعمال شنترين وأرضها أرض زكية... وبصقلية (Sicily) أيضاً موضع يقال له صقلب، ويقال له حارة الصقالبة، بها عيون جارية تُذكر في صقلية. (وقد سكنها الصقالبة).

وقال المسعودي<sup>(١)</sup>: الصقالبة أجناس مختلفة ومساكنهم بالحربي إلى شلو في المغرب، وبينهم حروب، ولهم ملوك فمنهم من ينقاد إلى دين النصرانية يعقوبية

(١) ذكر المسعودي في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ج ١ / ١٧٦ - ١٨٥: الروس وهم فرقة من الصقالبة، كما ذكر اللان والسرير والخزر (وهم جميعاً فيما يعرف اليوم بالقوقاس وبالذات في الداغستان وما حولها) وسماها جبل القبخ، وواضح أنه يتحدث عن جبال القوقاس، وقال عنه: «يكون في المسافة علواً وطولاً وعرضاً نحواً من شهرين، بل وأكثر». قال: «وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد... «وأما من كان في بلاده (أي ملك الخزر) فأجناس منهم الصقالبة والروس... ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم والآنية والحلي، وإذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة. وذكر أن «الغالب في هذا البلد مسلمون لأنهم جند الملك، وهم يُعرفون في هذا البلد باللارسية... وهم ذوو بأس وشدة وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه». وقال إن الملك سمح لهم بإظهار الدين الإسلامي وبناء المساجد وأن الوزير منهم. وفي وقت المسعودي (القرن الرابع الهجري) كان الوزير أحمد بن كويه، ولهم قضاة مسلمون... «والروس والصقالبة جاهلية يعبدون الأوثان»... «والروس أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد إلى ملك ولا إلى شريعة. وفيهم تجار يختلفون إلى ملك البرغز (البلغار وهم بلغار الفولجا المسلمون). وملك البرغز في وقتنا هذا سنة ٣٣٢ مسلم، أسلم في أيام المقتدر بالله وذلك بعد العشر وثلاثمائة، وقد كان له ولد حجج وورد مدينة السلام (بغداد)... والروس أسم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال له اللوذعانه». ويشغلون بالتجارة ويصلون إلى القسطنطينية ورومية والأندلس.

(وهم الأرثوذكس)، ومنهم من لا كتاب له ولا شريعة، وهم جاهلون. وأشجعهم جنس يقال له السري يجرقون أنفسهم بالنار، إذا مات منهم ملك أو رئيس، ويجرقون دوابهم، ولهم أفعال مثل أفعال الهند. وفي بلاد الخزر صنف كثير منهم فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير وله عمائر كثيرة، وتجار المسلمين يقصدون مملكته بأنواع التجارات. ثم يلي هذه المملكة من ملوك الصقالبة ملك الإفرنج، وله معدن ذهب، ومدن وعمائر كثيرة وجيوش كثيرة، وتجار الروم. ثم يلي هذا الملك من الصقالبة ملك الترك، وهذا الملك من بلاد الصقالبة. وهذا الجنس منهم أحسن الصقالبة صوراً وأكثرهم عدداً وأشدّهم بأساً. وكانوا من قبل ينقادون إلى ملك واحد ثم اختلفت كلمتهم وصار كل ملك برأسه». انتهى كلام ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وذكر المسعودي الصقالبة في فصل مستقل (ج ٢ / ٣٢ - ٣٣) تحت عنوان ذكر الصقالبة ومساكنها، وأنهم من ولد مار بن يافث بن نوح، وأن منهم نصارى وأغلبهم بلا دين جاهلية. وأن في بلاد الخزر خلقاً من الصقالبة والروس. ومنهم ملك الدير وهم متصلون بالمشرق ولهم تجارة مع المسلمين واسعة. ثم ملك الأوانج ويحارب الروم والإفرنج والحرب بينهم سجال، يليهم ملك الترك... والصقالبة أجناس كثيرة وأنواع واسعة.

ونجد أول ذكر للصقالبة في التاريخ الإسلامي في ترجمة حياة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ؓ الذين كان ينتقد معاوية، والي عثمان ؓ على الشام. فلما ضاق بنقده اللادع له واتخاذ القصور والأموال دون الأمة، أرسله معاوية إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان ؓ ومعه مفرزة من جنده الصقالبة!!<sup>(١)</sup>.

(١) ذكر المسعودي في مروج الذهب ج ٢ / ٣٤٩: «أن معاوية كتب إلى عثمان «أن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك، فكتب عثمان بحمله، فحملة (معاوية) على بعير عليه قنّب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به حتى أتوا به المدينة، وقد تسلّخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف». ولم يجبرنا المسعودي إن كان هؤلاء الصقالبة قد أسلموا أم لا. والمتوقع أن يكونوا مسلمين. وقد ذكروا أنّ حرس معاوية الخاص في معركة صفين كانوا من الصقالبة.. وهم الذين أنقذوه من جند الإمام عليّ (ع) قبل التحكيم.



ويذكر المسعودي أن أم الخليفة المستعين بالله العباسي (٢٢٠-٢٥٢هـ) كانت صقلية اسمها خارق.

ويزعم بعض المؤلفين أن شخصاً سلافياً (صقليياً) اسمه توما قاد ثورة في أنطاكية التي كانت تحت الحكم الإسلامي سنة ٨٢١م (٢٠٥هـ) وأن بعض العرب أيده، ولكن الدولة العباسية قضت عليه وعلى أنصاره.

وقد نقلت الأمبراطورية البيزنطية عدداً كبيراً من الجنود السلافيين (الصقالبة) إلى جنوب آسيا الصغرى حيث كانت المعارك تحدث مع الدولة الإسلامية. وفي عهد الملك قسطنطين الثاني (٦٤١-٦٦٨م) فرّ خمسة آلاف من هؤلاء الجنود إلى الجيش العربي تحت قيادة عبد الرحمن ابن الصحابي والقائد المشهور خالد بن الوليد رضي الله عنه، واستوطنوا في الشام وأعلنوا إسلامهم وذلك سنة ٦٤٥هـ / ٦٥٥م.

ويذكر المؤرخ البيزنطي قيو فان أن الملك البيزنطي بوسنتيان الثاني زحف بحيش عرمرم قوامه ثلاثمائة ألف جندي في حربه ضد العرب المسلمين سنة ٧١هـ / ٦٩٢م، وفي جيشه عدد كبير من السلافيين (الصقالبة)، فاستطاع القائد العربي أن يستميل قائد الصقالبة نبول، فانضم إليه بعشرين ألف من جنده الصقالبة، مما أدى إلى هزيمة الجيش البيزنطي العرمرم.

وكانت بيزنطة تجعل هؤلاء السلاف حاجزاً بينها وبين الدولة العربية الأموية ثم العباسية، وكانت توطن مئات الآلاف منهم شمال أنطاكية، وفي آسيا الصغرى. كما أن الدولة الأموية ثم العباسية قامت باستقطاب مجموعات منهم، وكانت إحدى القلاع على الحدود الشامية الشمالية (بينها وبين تركيا حالياً) تعرف باسم قلعة الصقالبة كما يقول ابن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م<sup>(١)</sup>.

(١) ابن خرداذبه: سبقت ترجمته أول هذا الفصل.

ويذكر المؤرخ البلاذري (في فتوح البلدان)<sup>(١)</sup> أن الأمبراطورية البيزنطية وطلّنت في القرن الثاني الهجري (القرن الثامن الميلادي) في عهد الخليفة الأموي مروان الثاني (٧٤٤-٧٥٥م)، جماعة من السلافيين تزيد على مائتي ألف نسمة في الشمال الغربي من آسيا الوسطى، وتستعين بهم في حربها مع العرب.

وقد قام المسلمون بحملات على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي (مقاطعة دالماسيا في جمهورية يوغسلافيا السابقة) كما احتلوا جنوب إيطاليا وبقيت صقلية بأيديهم مئات السنين بعد أن فتحها الإمام الفقيه المالكي أسد بن الفرات. وقامت قوات الأمبراطورية البيزنطية والألمان (الفرانك) والكروات (وهم من

(١) البلاذري: هو أبو الحسن أحمد يحيى بن جابر. من أهل بغداد، مولده في أواخر القرن الثاني للهجرة، واشتغل بالكتابة في الدواوين وتقلّد مناصبها. وكان جدّه كاتباً في ديوان الخصب، صاحب خراج مصر في أواخر عهد هارون الرشيد. وارتحل لطلب العلم، وساح في البلاد فتوسّعت علومه عن البلدان. أصله فارسي وكان يجيد الفارسية إلى جانب اللغة العربية التي تعتبر لغته الأولى، سمع الحديث في دمشق وحمص والعراق واهتم بالتاريخ. وأشهر كتبه: «فتوح البلدان» وتحدث فيه عن الفتوح الإسلامية منذ العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، ثم العهد الأموي إلى عام ٢٥٥هـ / ٨٦٨م في زمن الخليفة العباسي المعتز بالله. وتناول فتح كل بلد ثم ذكر وضعها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعمرائي وما يتصل بذلك من قضايا فقهية. وسجّل ملاحظاته التي شاهدها أثناء رحلاته إلى تلك البلاد. كما رجّع إلى الوثائق الرسمية الموجودة لدى الدولة أو لدى الأمراء والقضاة والعلماء. وكان كتابه هذا مرجعاً لغيره من المؤلفين الذين أتوا بعده مثل المقدسي صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، ومحمد بن عبد المنعم الحميري صاحب كتاب «الروض المعطار في خبر الأقطار»، وتقي الدين المقرئ صاحب كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار»، وغيرهم كثير. وقد لخصه أحمد بن إبراهيم الهمداني بعنوان «مختصر كتاب البلدان».

وكانت وفاته سنة ٢٧٩هـ، وله كتاب أنساب الأشراف «القربة وتاريخ الأشراف» وقد تمّ طبع كتاب «فتوح البلدان» مراراً، كما تم طبع كتاب أنساب الأشراف مؤخراً. والبلاذري نسبة إلى البلاذ، وهو نبات يسبب الهلوسة من فصيلة البلادون، وقد أكل منه جدّه على غير معرفة فلحقه ما لحقه حتى دخل المارستان، وكان جدّه كاتباً للخصب في مصر.

الصقالبة السلاف الجنوبيين) بشنّ هجوم على القوات العربية في جنوب إيطاليا سنة ٨٦٦م، ولكن الحملة فشلت ورُدُّوا على أعقابهم خاسرين.

وأول من ذكر الصرب والكروات باسميها كقبيلتين من قبائل الصقالبة (السلاف) هو المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٦م في كتابه «مروج الذهب»<sup>(١)</sup>. وذكر أن السلافيين الجنوبيين كانوا يسكنون جبال الكريات وتجاورهم في الشرق دولة (الدير) التي عاصمتها كييف<sup>(٢)</sup>. «وفي الغرب دولة (الفراغ) التي عاصمتها (براغ). كما نجد الكاتب ابن رسته (أحمد بن عمر)<sup>(٣)</sup>، وقد ذكر السلافيين والبلغار والهنغاريين، وقد نقلنا ما ذكرته دائرة المعارف ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية عن البلغار وبلغار الفولجا، مما يدل على سعة اطلاع هؤلاء المؤلفين المسلمين في فترة مبكرة من التاريخ.

كما نجد المقدسي<sup>(٤)</sup> في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» يورد معلومات هامة عن قبائل السلافيين وأماكن تواجدهم.

وقام العالم الأندلسي البكري<sup>(٥)</sup> في قاموسه الجغرافي (معجم ما استعجم بذكر

(١) تقدّمت ترجمة المسعودي وذكر كتابه «مروج الذهب».

(٢) كييف هي عاصمة جمهورية أوكرانيا اليوم.

(٣) ابن رسته: تقدّمت ترجمته.

(٤) المقدسي: شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي، ويقال له البشاري أيضاً. وُلِدَ في بيت المقدس (القدس) وبها نشأ ولادته سنة ٣٢٦هـ / ٩٤٧م. واشتغل بالتجارة وكثرت رحلاته، فاهتم بالبلدان اهتماماً عظيماً وجمع معلوماته في كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وهو كتاب هام في الجغرافيا ومعرفة البلدان والأمم ويجمع إلى ذلك شيئاً من التاريخ. وكانت وفاته سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م.

(٥) البكري: أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، نسبة إلى بكر بن وائل. أديب وجغرافي ومؤرخ وعالم نبات. وفاته ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وهو أول الجغرافيين في الأندلس. وكان ملوك الأندلس يتهدون كتبه. له كتاب: «معجم ما استعجم»، وهو أول معجم عربي جغرافي للبلدان. وقد استخدمه ياقوت الحموي مرجعاً له في كتاب «معجم البلدان» =

السلافيين وقبائلهم ومواطن توأجدهم.

وقد أرسل الحكم الثاني الخليفة الأموي الأندلسي وفداً فيه اليهودي الأسباني إبراهيم بن يعقوب<sup>(١)</sup> لمعرفة باللغات إلى بلاط القيصر الألماني أوتون الكبير (٩٣٦-٩٧٣ م في (موسبورغ) بمقاطعة (ساس) سنة ٩٧٣ (وقيل بل سنة ٩٦٥ م. ومن هناك قام إبراهيم ابن يعقوب برحلة إلى تشيكيا وبولندا وروسيا وهنغاريا وكرواتيا وإيطاليا.

وقد سجّل رحلته تلك الطويلة في تقريرٍ قدّمه إلى الخليفة الحكم الثاني. وكان الرحالة الطرطوشي معاصراً لإبراهيم بن يعقوب هذا واستخدمه الخليفة الحكم الثاني في سفارته إلى ملوك أوروبا.

وقد نقل القزويني<sup>(٢)</sup> في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» جزءاً من تقرير إبراهيم بن يعقوب هذا كما ذكر ابن فضلان ورحلته إلى بلغار الفولجا، وقد ستهام الصقالبة.

وقد قام الشريف الإدريسي الصقليّ صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق

= وله كتاب «المسالك والممالك» وصف فيه جغرافية وتاريخ الأندلس وأوروبا وشمال إفريقيا. وله كتاب «أعيان النبات والشجريات الأندلسية» وله كتب في اللغة والأمثال واشتقاق الأمثال، و«التنبيه على أغلاط أبي علي في أماليه»، وله كتاب «إعلام نبوة نبيّنا محمد ﷺ» في الردّ على اليهود والنصارى، وهو من كتب العقائد.

(١) إبراهيم بن يعقوب: لم أعثر له على ترجمة.

(٢) زكريا بن محمد القزويني: أبو عبد الله، ينتهي نسبه إلى الصحابي أنس بن مالك ؓ، وُلد بقزوين (شمال إيران على بحر قزوين = بحر الخزر = بحر كاسبيان Caspian Sea) سنة ٦٠٥ هـ، وتولى القضاء في بغداد. وشغف بالفلك والعلوم الطبيعية، وأشهر كتبه «عجائب المخلوقات» وكتاب «آثار البلاد وأخبار العباد»، وفي الكتابين بعض الغرائب والعجائب، وخاصة كتاب عجائب المخلوقات. وله كتب غيرهما. ولكن هذين أشهرهما وهما مطبوعان.

الآفاق»<sup>(١)</sup>، الذي انتهى من تأليفه سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م بذكر الأماكن التي زارها ومنها مدن الساحل الأدرياتيكي، وسكانها من الصرب والكروات السلافين. ومن المدن التي ذكرها: دوبروفنيك (راجوزا) والتي قال عنها إنها أقصى مدينة في كرواتيا. وكان الساحل الأدرياتيكي عرضة لهجوم القوات العربية من كريت وصقلية وقبرص. وفي فترة مبكرة (سنة ٨٧٢م) استولى العرب على بعض مدن دالمسيا (في يوغسلافيا) وعلى جزيرة براج ووصلوا خليج تريستا ٨٧٥م (كلها في يوغسلافيا السابقة).

وفي فترة الحروب الصليبية انضم ملك هنغاريا وكرواتيا (١٢٠٥-١٢٣٥م إلى القوات الصليبية حتى وصلوا إلى فلسطين، ولكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا منها وعادوا إلى وطنهم سنة ١٢١٨م.

#### الصقالبة في الأندلس الإسلامية والخلافة الفاطمية والعثمانية

لقد كان الحرس الخاص للأمير الحكم الأول الأموي (٧٩٦-٨٢٢م مؤلفاً من هؤلاء الصقالبة. وفي عهد الأمير عبد الرحمن الثالث (٩٢١-٩٦١م كانوا يشغلون المناصب العليا في الجيش والإدارة. وكان حرس الخلفاء في قرطبة مؤلفاً من

(١) الشريف الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني (من أدارسة المغرب)، ولد في سبتة (في المغرب، ولا تزال تحت حكم أسبانيا هي ومليلة) سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م ونشأ وتعلم في قرطبة في الأندلس. وكان كثير الرحلات، وانتهت رحلته إلى صقلية، وكان ملكها روجرز محباً للعلم ومجيداً للغة العربية، وقد قرب إلى بلاطه عدداً من العلماء العرب والمسلمين، فاستضافه عنده. ووضع له الإدريسي كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وخرائط عديدة، ووضع له كرة من فضة بها خريطة العالم آنذاك. وقد أكمل كتابه «نزهة المشتاق» سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م وترجم الكتاب إلى اللاتينية وإلى اللغات الأوربية الحية.

وللإدريسي أيضاً كتاب «الجامع لصفات أشتات النبات» استفاد منه ابن البيطار، وهو في علم النبات. وكتاب آخر باسم «الممالك والمسالك» ويُعرف أيضاً باسم «روضة الأنس ونزهة النفس» وكانت وفاته سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م.

سلافيين بلغ عددهم في منتصف القرن العاشر الميلادي في عهد الناصر لدين الله ١٣٠٧٥٠ رجلاً. وكان بعضهم قد جُلبوا كرقيق ثم قامت الدولة بتربيتهم تربية عسكرية دينية، مثلما فعل العباسيون مع الأتراك، ومصر مع المماليك (أيضاً من الأتراك)، ولكن بعض هؤلاء الصقالبة قدموا كتجار أو جنود مرتزقة أو مغامرین، وتعلّموا اللغة العربية حتى أجادوها. وكان منهم شعراء وأدباء، كما قام أحدهم واسمه حبيب بتأليف كتاب عن الصقالبة (السلافيين) وسماه (كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة).

وكان جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي وفتح مصر وباني القاهرة من الصقالبة الذين كانوا في صقلية، ثم التحق بخدمة المعز لدين الله الفاطمي حتى صار أهم قواده ورجاله. وهو سلافي الأصل من دلماسيا (في يوغسلافيا). وهو باني القاهرة والأزهر الشريف. واشتغل كثير من الصقالبة في خدمة الدولة الفاطمية وكان منهم من أسلم ومنهم من بقي على دينه النصراني. وكان حرس الخليفة المهدي جميعاً من الصقالبة، وإلى جانب الصقالبة من الموالي كان هناك ممالك يقودهم الحسن بن رشيق الريحاني الصقلي الملقب بالكاتب. وللصقالبة دور مهم في الجيش الفاطمي.

وكان اسم الصقالبة يطلق أحياناً على جميع العبيد الأوربيين الذين دخلوا في عداد جنود الخليفة الأموي في الأندلس أو الفاطمي في القاهرة. ولكن غالبيتهم كانت بالفعل من العنصر السلافي (الصقلي).

ويقول المستشرق الهولندي المشهور (دوزي) إن لليهود دور كبير في تجارة النخاسة هذه، وإنهم كانوا يقومون بإحضار هؤلاء الأسرى والأطفال، ولديهم معامل وموظفين خاصين بذلك، واشتهر منها معمل فردن في فرنسا. ثم كانوا يقومون بتعليمهم اللغة العربية وآداب السلوك الإسلامية، ثم يبيعونهم في الأندلس وغيرها إلى شمال إفريقيا ومصر.

ووصل بعض هؤلاء الصقالبة إلى قيادة الجيوش ومنهم نجدة الصقليبي الذي تولى القيادة العامة للجيش في عهد الناصر لدين الله الأموي وخاض حرباً ضد ملك ليون سنة ٣٢٧هـ، واشتدت شوكتهم في عهد الحكم المستنصر، وفي عهد ابنه هشام بن الحكم. وتولى فائق وجوذر الصقليبان شؤون الدولة.

وانغمس هؤلاء الصقالبة في الفتن التي عانت منها الأندلس، واستأثر الصقالبة بشرق الأندلس وأقاموا بها إمارات، ففي بلنسية تولى أمرها الصقليبان مبارك والمظفر<sup>(١)</sup>، وفي طرطوشة تولى أمرها لبيب، وفي دانية أبو الجيش مجاهد، وفي المرية تولى أمرها خيران وزهير الصقليبان.

وكما كان الفرس يعتزون بقوميتهم في الدولة العباسية حتى فخروا على العرب، وكذلك فعل بعض الصقالبة في الأندلس، ومنهم ابن غرسية الذي كتب رسالة يطعن فيها على العرب.

ويرى المستشرق الأسباني خليان ربيرا أن الصقالبة يمثلون العنصر الأوربي في دولة الأندلس الإسلامية، وعن طريقهم انتقلت الآداب العربية والصور الشعرية إلى أوروبا، كما كان لهم دور محدود في نقل العلوم إلى اللغات الأوربية. وقد فاقهم في ذلك اليهود الذين نقلوا التراث العلمي العربي إلى اللاتينية والعبرية وإلى اللغات الأوربية الأخرى.

(١) اشتهر مبارك والمظفر بقوة الصداقة بينهما. قال عنها ابن حزم في كتابه «الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس» تحقيق د. الطاهر أحمد مكّي، دار المنارة، جدة ص ١٤٩: «وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وباله لغير علة توجب ذلك... ولولا أنني شاهدت مظفراً ومباركاً صاحبي بلنسية (أي حاكمي بلنسية) لقدّرت أن هذا الخُلُق معدومٌ في زماننا، ولكنني ما رأيت رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتّي الأحوال الموجبة للفرقة». ومبارك والمظفر من موالى العامرين وتوليا أمر بلنسية واستقلا بها عام ٤٠١هـ/ ١٠١٠م. وقد وصف ابن حيان المؤرخ أيضاً صداقتها الحميمة، يجمعها في أكثر أوقاتها مائدة واحدة، ولا يتميّز أحدهما عن الآخر، ولا ينفردان إلا في الحرم خاصة، على أن جماعة حرمها كنّ مختلطات في منازل القصر».

## الصقالبة في الدولة العثمانية

لقد دخل الصقالبة مثل غيرهم من الأوربيين في الدولة العثمانية، ووصل بعضهم إلى منصب الصدر الأعظم، نذكر منهم إبراهيم باشا الصدر الأعظم المقرب من سليمان القانوني، أعظم سلاطين آل عثمان: وُلد حوالي عام ١٤٩٣ من أبوين مسيحيين في «بارجا» من أعمال «أبيروس». وكان من ضمن السبايا في عهد السلطان سليم الأول، ودخل في خدمة السراي السلطاني. ثم ألحق بحاشية ولي العهد «سليمان» فأصبح مقرباً لديه، فلما تولى سليمان الحكم قرّبه إليه، وأسند إليه وظائف عدة، حتى صار الصدر الأعظم في ١٣ شعبان ٩٢٩هـ / ٢٧ يونيو ١٥٢٣م، ومنحه حكم الروملي. وصار له نفوذ ضخم في الدولة، وتصرف كامل في وزارته حتى قتله السلطان سليمان سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٦م. ومنهم إبراهيم باشا داماد: من أصل صقلبي. تولى منصب الصدارة العظمى ثلاث مرات في عهد السلطان محمد الثالث بن السلطان سليمان القانوني. ولد في راجوزة وترتب في السراي السلطاني وعيّن سلحدار (حامل السلاح السلطاني) عام ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م، ثم رئيس الانكشارية (جيش الدولة) ذي القعدة سنة ٩٨٩هـ / ديسمبر ١٥٧٩م، ثم والياً على مصر، وتزوج الأميرة عائشة ابنة السلطان مراد الرابع، وتولى الصدارة الكبرى عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٥م، وأعيد إلى منصبه بعد إقالته عام ١٠١٥هـ / ١٥٦٩م. وتولى للمرة الثالثة الصدارة عام ١٠٠٧هـ / ١٥٩٩م وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٠١٠هـ / ١٦٠٠م. (المصدر: دائرة المعارف الإسلامية ج ١ / مادة إبراهيم).



## الفصل الثالث

### الدولة الروسية عبر التاريخ

### إلى العهد البلشفي وثورة ١٩١٧

بداية الدولة: لقد تكوّنت الدولة الروسية من مجموعات سلافية شرقية بعد طول تجوال، واستقرت في كييف في القرن الثامن الميلادي. وقد عُرف هؤلاء باسم الروس الفارانجيين (Varangian Rus)، واختلطوا بالعناصر القادمة من الشمال (الدول الإسكندنافية) وهم قبائل الفايكنج (Vikings) المشهورة وقبائل الميريا (Merya) والموروميان (Muromians) والمشيرا (Meshchera). وكلها قبائل فنلندية. كما اختلطوا ببعض القبائل التركية المتجولة.

وكان أول حاكم اختارته هذه المجموعة هو روريك الذي تولى الحكم سنة ٨٦٠ ميلادية وحكم منطقة نوفوجورد (Novogord). وقد خلفه الأمير أوليغ (Oleg)، وهو أول أمير يسجل تاريخياً حكم روس كييف Keivan Rus (وهم أنفسهم يُطلق عليهم الروس الفارانجيين Varangian Rus). وقد اشتهروا بالشجاعة والقوة البدنية وطول الأجسام. وهم بيض بياضاً مشرباً بحمرة، زرق العيون، شقر الشعور، مستهترون بالخمير، كما وصفهم المؤرخون المسلمون، وقالوا عنهم إنهم أهل غدر. وكان إذا مات منهم الرئيس أو الأمير جمعوا أتباعه فيقولون: من يذهب معه؟ فإذا قال ذلك أحدهم أحرقوه معه. وكذلك يفعلون بنسائه. فإذا قالت واحدة منهن: أنا، فتؤخذ، ويجمعها عدد من أسرته، ثم تقتلها امرأة عجوز بخنجر ومعها معاونات. ثم يحرق الجميع مع الأمير أو الرئيس. وسيأتي وصف ابن فضلان في رحلته الممتعة والمهمة لهذه الطقوس البشعة.

وقد حكم روريك مدينة نوفوجورد التي تقع جنوب مدينة بطرسبورج Petersburg التي أسسها القيصر بطرس (العظيم فيما بعد، سنة ١٧٠٣ ميلادية. ثم ظهر أوليغ (Oleg)، وعرفوا منذ ذلك الوقت باسم روس كييف. وقد امتد حكم أوليغ لمدة ٣٥ عاماً وطُذ فيها حكمه وأخضع عدداً كبيراً من القبائل السلافية، ووصلت قوته إلى أن قام بالهجوم على الإمبراطورية البيزنطية في الجنوب، وهاجم القسطنطينية ذاتها سنة ٩٠٧ التي صدته. وفي عام ٩١١م وقع مع الإمبراطورية البيزنطية اتفاقية تجارية، جعلت تجارة الفراء وغيرها تصل من أقصى الشمال إلى البحر الأسود في الجنوب. ثم بعد ذلك امتدت إلى بحر الخزر ومنه إلى الدول الإسلامية. وقد ذكر المؤرخون المسلمون مثل ابن رسته وابن خرداذبه المتوفى سنة ٣٠٠هـ والمسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ وابن فضلان (٣٠٩-٣١٢هـ) هذه التجارة. وقد عُرفت باسم تجارة الفراء (بالإضافة إلى العسل والشمع والعيبد). وكانت هناك تجارة أخرى تمتد من الصين إلى أوروبا عبر البلاد الإسلامية. وقد عُرفت هذه التجارة بتجارة الحرير، وعُرف طريقها بطريق الحرير.

وجاء في كتاب «تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» لكتاب تري رمز لنفسه باسم م.م. الرمزي (نشر كتابه سنة ١٩٠٧ وأعيد طبعه سنة ٢٠٠٢ بدار الكتب العلمية بيروت) ج ١ / ٢٠٢-٢١٣ (وقائع الخزر مع الروس): «وقد وسعت الخزر ممالكهم وحكومتهم في أواخر العصر السابع والثامن من الميلاد إلى نهري دينبير وأوفة. وكانت أهالي كييف تحت طاعة الخزر. قال نيسطور (أول مؤرخ من الروس) كانت أهالي كييف يعطون للخزر من كل بيت سيفاً، وكانوا مع ذلك يعطونهم من كل بيت دلقاً على سبيل الجزية والخراج». ثم قال إن مبدأ ظهور الروسية اتحاد قبائل أسلاوان الشمال بأسلاوان الجنوب. وفي سنة ٨٦٢ طلب الأسلاوون من ثلاثة أخوة هم «روريك وسينوس وترووار» من قبائل الروس من الجنس الإسكندنافي المقيمين وراء بحر البلطيق (السويد والنرويج) أن يأتوا ليملكوا عليهم، فجاءوا بمجاميعهم وصاروا حكماً لهؤلاء الروس. وقاموا بتحريم كييف من حكم الخزر.

وتولى روريك الحكم سنة ٨٦٠ وملك مكانه ولده أوليغ بعد وفاته، واستولى على كافة الأراضي إلى نوفوجورد وكيف. ثم في عام ٨٨٥ استولى على ولايتي ويتبسكي وجيرنيغوف من أيدي الخزر.

ثم إن الخزر والروس اتفقوا على الهجوم على المسلمين سنة ٩١٢ وذلك في عهد الكيناز (الأمير) أوليغ بن روريك. وقد توسّعت الإمارة الروسية من عاصمتها كيف وبلغت أوج قوتها في عهد الأمير فلاديمير (Vladmir) (٩٧٨-١٠١٥) ثم ازدادت في عهد ياروسلاف Yaroslav (١٠٥٤-١١٩٩) الذي اتفق مع الإمبراطور البيزنطي على محو دولة الخزر في القرم. واستطاعت القوات المشتركة على الاستيلاء على القرم من الخزر وقنع ياروسلاف بالذهب فرجع أدراجه إلى بلاده وترك القرم للدولة البيزنطية. «وبعد هذه الواقعة انقطعت حكومة الخزر من أوربا بالكلية، ولكنها دامت في آسيا بساحل بحر الخزر إلى العصر (القرن) الثاني عشر من الميلاد. وضعفت دولة الخزر بسبب هجوم الروس والبيزنطيين عليهم من جهة، وهجوم قبائل التركمان والقفجاق والجركس من جهة أخرى. وذكر المؤرخ كارامزين أن أهالي سرقل (صاري قلعة) انضموا إلى الروس في عصر فلاديمير مانوماخ... وذكر المصنف أن القازاق هم خليط من سائر الأقوام التركية والروس.

ومن هؤلاء الأتراك البجناك (البوشنق)<sup>(١)</sup> الذين وصلوا فيما بعد إلى يوغسلافيا وبالذات منطقة البوسنة وتحالف البشناق (البجناك = البوشنق) مع الروس، وهم من منطقة الأورال والفولجا إلى نهر يرتش. ومنهم قوم أوز أو الغز أو بدو الترك. ومنهم قوم يدعون الخوالص أو الخوالين... وكانت الحرب تثار بينهم وبين الروس أحياناً فيهزمون الروس ثم يعودون إلى المسألة معهم.

القبشاق = القفجق: قال عنهم كتاب «وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» ج١/٢١٤: إنهم قبائل تركية كثيرة ممتدة إلى قازاقستان (حالياً). ولهم محاربات كثيرة مع الروسية حتى تكررت بينهم المصاهرة. وقد تسلطن أنفار منهم في الديار

(١) يعرفون الآن باسم البوسنة في يوغسلافيا السابقة، وهم مسلمون.

الشامية والمصرية بعد أن استجلبوا هناك أرقاء مملوكين (دولة المماليك البحرية، وهي التي تلت الدولة الأيوبية، وأول حاكم منهم أيك، ثم السلطان قطز، ثم السلطان بيبرس، ثم السلطان قلاوون... إلخ). وكانوا يجلبون من مناطق قازاقستان (شمال وشرق خوارزم) ويربّون تربية عسكرية ودينية فأبدوا براعة في القتال ثم في الحكم، وهم الذين صدّوا جيش هولاكو وانتصروا على قائده كتبغا في معركة عين جالوت. كما كان لهم شرف طرد الصليبيين من الشام (سوريا ولبنان وفلسطين). حيث إن صلاح الدين حرّر بيت المقدس، ولكن حفيده أعاده للصليبيين ليحارب ابن عمه، ولم تتم عودة بيت المقدس إلا على يد هؤلاء المماليك الذين كانوا في خدمة الإسلام ورفعوا رايته.

ودشت قفجق هو برية قفجق نسبة إليهم. ويقال له الدشت. وقد اختلط بهم التتار عند غزوهم لهذه المناطق، وخاصة بعد أن أقام السلطان بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان دولته (الأورد الذهبي)، والتي جعل عاصمتها «سراي» على نهر الفولجا. ومنها حكم ما يُعرف اليوم بروسيا إلى قازاقستان.

وكانت علاقة بركة خان مع السلطان بيبرس وطيدة والمراسلات بينها مستمرة. وقد قام بركة خان بمحاربة ابن عمه هولاكو وألحق به الهزيمة. وقد اضطر هولاكو إلى سحب قواته من الشام التي احتلّها، ولم يبقَ من جيوشه التي زادت عن نصف مليون سوى عشرة آلاف جندي تحت إمرة قائده كتبغا. وبهذا تمكّن السلطان قطز والظاهر بيبرس أن يلحقا بجيش كتبغا هزيمة قاصمة في معركة عين جالوت الشهيرة.

واستمرّت العلاقات الودية والرسائل بين دولة التتار في سراي وبين سلاطين المماليك في مصر والشام. ولا شك أن اشتراكهم في الأصول، وكونهم جميعاً مسلمين، ويواجهون أعداء مشتركين، كان من الأسباب الهامة لاستمرار هذه العلاقة الودية الوطيدة لأجيال وأجيال.

وكانت الإمارات الروسية تحارب القفجق قبل وصول قوات باتو بن جنكيز خان واستيلائهم على تلك الأراضي الشاسعة. وفي كثير من الأحيان كانت التحالفات الروسية تؤدي إلى الانتصار على هؤلاء القفجق، فلما وصلت قوات التتار، التحم بهم القفجق وصاروا ضمن دولة جنكيز خان وبالذات دولة الأورد الذهبي (دولة فرع جوجي بن جنكيز خان التي أقامها باتو بن جوجي وبعده أخوه بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان) فحكموا بذلك كل ما يعرف اليوم بروسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء... إلخ.

وقد استمرت دولة كييف الروسية لمدة قرنين من الزمن. وقد بلغت أوج قوتها في عهد الأمير فلاديمير سلافيتش (Vladmir) (٩٧٨ - ١٠١٥) الذي اعتنق الإسلام ثم ارتد عنه كما تقول الدكتورة مكارم الغمري نقلاً عن مخطوطة روسية كتبت عام ١١١٣ وهي «قصة السنوات العابرة»، ثم اعتنق المسيحية الأرثوذكسية ليتزوج ابنة الإمبراطور البيزنطي كما يقول المؤرخ ليفاتشوف عام ٩٨٨م ونشرها بين شعبه. ثم تولى بعده الأمير ياروسلاف (الحكيم) Yaroslav (١٠١٩ - ١٠٥٤م). وقام كلاً من الرجلين بتوسيع مملكتيهما، بالسيف والمعاهدات التجارية والزواج. وقد تزوج الأمير فلاديمير (Vladmir) من شقيقة إمبراطور القسطنطينية. كما قام الأمير ياروسلاف بتزويج أخته وثلاث من بناته لكل من ملك بولنדה، وملك فرنسا، وملك هنغاريا، وملك النرويج. وبنى فلاديمير كنيسة كبيرة في كييف، أما ياروسلاف فقد كتب أول مدونة قانونية للروس سنة ١٠٣٦ (Rus'ka Pravda). كما بنى العديد من الكنائس والأديرة للرهبان. وأوجد أبناء الأمير ياروسلاف رهبانية الكهوف (Monastery of Caves) التي تحولت إلى أكاديمية إكليريكية (كنسيّة) Ecclesiastical Academy وبنى (كاتدرائية صوفيا) سنة ١٠٣٧.

وتمت كتابة الطقوس الدينية بالحرف الكيريلي (اليوناني) نسبة إلى «كيريل» الذي أرسله إمبراطور القسطنطينية لتعليمهم الدين والكتابة. وبهذا تمت ترجمة

الكتب الدينية إلى اللغة الروسية المكتوبة بالحرف الكيريلي، كما تمت ترجمة بعض العلوم الأخرى إلى الروسية. وهكذا انفصل السلاف الشرقيون (الروس وغيرهم عن السلاف الغربيين والجنوبيين الذين اتخذوا الحرف اللاتيني، وتبعوا كنيسة روما وبابا روما.

وكانت الحاشية مكوّنة من الروس السلاف، ومن الفارانجيين الفنلنديين، وبعض الأويغور (من الأتراك الشرقيين) وبعض الأتراك الغربيين. كما كان للتجار والحرفيين قوتهم عبر ما يسمّى فيشي Veche أو مجلس المدينة. وفي قاع المجتمع كان الفلاحون والعييد بلا حقوق تقريباً.

وفي عام ١٠٥١ قام الأمير ياروسلاف بإقامة أول كنيسة أرثوذكسية يتولاها روس بدلاً من القساوسة المبعوثين من القسطنطينية (first Orthodox in Kievan Rus) وتولاها القسيس إيلاريون Ilarion.

#### بداية الاضمحلال

وبدأت دولة روس كييف في الاضمحلال بسبب الخلافات بين مختلف القبائل والعناصر المكوّنة لها. ويموت ياروسلاف (سنة ١٠٥٤) اضمحلت هذه الدولة. وعندما قامت الحروب الصليبية دمّرت جيوش اللاتين القسطنطينية مما أثر بقوة على تجارة الروس الممتدة من كييف إلى القسطنطينية. وانقسمت هذه الإمارة إلى مجموعة الأوكرانيين في الجنوب، والبيلوروس (Belorussians) أي الروس البيض في الشمال الغربي، والروس في الشمال والشمال الشرقي.

واستقلّت نوفوجورد Novogord في القرن الثاني عشر الميلادي بأمورها، ودخلت في اتفاقيات تجارية مع دول البطليق وارتبطت بهم. بينما قام الروس في الشمال الشرقي بتكوين عدة مدن، أولها روستوف Rostov ثم تبعها سوزدال Suzdal ثم مدينة فلادمير Vladmir. وقام أمير (فلادمير - سوزدال) سنة ١١٦٩ م. بالاستيلاء على مدينة كييف وعيّن أخاه أميراً عليها.

## الغزو المغولي

استولى التتار على كييف في هجمتهم الشرسة على كل المناطق المعروفة اليوم باسم روسيا إلى بولندا. وسقطت هذه المناطق في يد باتو بن جوجي بن جنكيزخان منذ عام ١٢٣٧م. وفي عام ١٢٩٩م تمّ نقل مقر الكنيسة الأرثوذكسية من كييف إلى مدينة فلاديمير.

وقد بدأ الغزو المغولي سنة ١٢٢٣م وأوقعوا أول هزيمة بإمارة روس كييف مع حلفائهم على نهر كالكا (Kalka). وفي عام ١٢٣٧ سقطت مناطق أخرى ودمروا كييف سنة ١٢٤٠م وانتقلوا منها إلى بولندا وهنغاريا ولم يقف أحد في طريقهم. وتوقفوا عند فيينا بسبب موت الخاقان الأعظم واضطرار باتو أن يعود إلى مقر الدولة في منغوليا للاشتراك في القورلتاي (مجلس الشورى) الذي سيعين القائم الجديد.

وتحول الأورد الذهبي (Golden Horde) تدريجياً إلى الإسلام بعد أن تولى أمره بركة خان بن جوجي بن جنكيزخان الذي أعلن إسلامه وأسلم معه كثير من قادته وجنوده. وحكم بركة خان من سنة ٦٥٤ إلى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٧م، والتحم هؤلاء التتار المسلمون بإخوانهم بلغار الفولجا الذين سبقوهم إلى الإسلام منذ نهاية القرن التاسع الميلادي. وأقام هذا التحالف الإسلامي عاصمته في مدينة ساراي (السرا) (Saray) وتسمى الآن سارآتوف على الجزء الأسفل (الجنوبي) من نهر الفولجا. ومن ساراي كان الخان يحكم إمارة روس كييف التي سُمح لها بالبقاء تحت سيطرة الحكام المسلمين، بعد أن يدفعوا الجزية. وسيأتي تفصيل الغزو المغولي في الفصل السابع من هذا الكتاب.

وقد بقيت هذه الدولة الإسلامية مسيطرة على نهر الفولجا بأكمله، كما امتدّ سلطانها إلى البشكير وإلى جبال الأورال ومنها إلى ما يُعرف اليوم بقازاقستان.

وقد امتدّ سلطان (القبيلة الذهبية) المغولية من شمال التركستان حتى روسيا وسييريا وحكموا موسكو وكييف. وأقاموا مدينة قازان وسط نهر الفولجا، ومدينة

السرا في الجزء الجنوبي من نهر الفولجا، ومدينة الحاج طرخان (استراخان) عند مصب نهر الفولجا في بحر قزوين، كما أقاموا إمارة في القرم وإمارة قاسموف.

وكان من هذه الأسرة السلطان محمد أوزبك خان الذي آل إليه أمرها سنة ٧١٣هـ / ١٣١٢م والذي كان يحكم نهر الفولجا بأكمله وشبه جزيرة القرم وسهوب قازاقستان؛ ويمتد سلطانه حتى خوارزم حيث يبدأ حكم قريبه السلطان علاء الدين طرمشيرين حفيد جغتاي ابن جنكيزخان (الذي كان من أشد الناس عداوة للإسلام فأخرج الله من صلبه السلطان علاء الدين طرمشيرين الذي يُشبهه في عدله وتقواه بعمر بن عبد العزيز).

وسنقل وصف ابن بطوطة في رحلته مدينة السرا التي وصل إليها كما وصف سلطانها ورجالها وعلماءها، عند الحديث عن جمهورية تتاريا، فنتركه إلى حينه.

### قيام إمارة موسكو

بعد اضمحلال دولة روس كييف بعد وفاة ياروسلاف الحكيم سنة ١٠٥٤م قامت مدن عديدة لتحل محلها، أهمها نوفوجورد ورستوف وسوزدال وفلاديمير. وبعد الغزو المغولي لم تقم لدولة كييف أي قائمة، وخاصة بعد تدميرها سنة ١٢٤٠، ولكن قامت في المنطقة الشمالية (أي شمال كييف) إمارة موسكو في Muscovy على مدينة فلاديمير - سوزدال (Vladmir-Suzdal)، وامتد تأثيرها إلى بحر البلطيق والبحر الأسود. ولم تمنع الدولة المغولية المسلمة في ذلك، والتي كانت تحكم نهر الفولجا وغيره من المناطق، وأقامت معها علاقات تجارية وثيقة، وعلاقات ودية وتزواج (يتزوج المسلم النصرانية وليس العكس) طالما كانوا مسلمين ويدفعون الجزية.

وكان أول حاكم لإمارة مسكوفي دانييل الكسندروفيتش (توفي سنة ١٣٠٣) ويرجع نسبه إلى الأمير روريك مؤسس دولة روس كييف. أما ابنه إيفان الأول (١٣٢٥ - ١٣٤٠) فقد اشتهر باكتنازه الأموال حتى سُمِّي «كيس النقود» إيفان كاليتا (Ivan Kalita)، ولكنه تعاون مع المغول واشتغل بالتجارة وكنز الأموال،



وبواسطتها تغلب على خصومه ومنافسيه. وفي عام ١٣٢٧م تحول مقر الكنيسة الأرثوذكسية من مدينة فلاديمير إلى مدينة موسكو مما قوى إمارته، ووسّع سلطانه مع شرائه المزيد من الأراضي... وبرز من خلفائه إيفان الثالث الذي استغل وجود خلافات شديدة بين المغول المسلمين، وانقسام دولتهم إلى العديد من الخانيات، فأعلن نفسه قيصراً وحاكماً لكل الروس سنة ١٤٦٢، وفي عام ١٤٧٨ استولى على نوفوجورد، وفي عام ١٤٨٥ استولى على تيفر، وفي عام ١٤٨٠ أعلن عدم دفع الجزية لسلطان قازان منهياً بذلك حكم المغول المسلمين الذي امتد عبر ٢٤٠ عاماً من الزمن. ولم يمت إيفان الثالث سنة ١٥٠٥ إلا بعد أن وسع إمارته لتشمل مقاطعة روستوف ومقاطعة ريزان (Ryazan) ومقاطعة ياروسلاف (Yaroslavl). ثم قام فاسيلي الثالث ابن إيفان الثالث بتوسيع هذه الدولة وحكم من عام ١٥٠٥ حتى عام ١٥٣٣. وتولى بعده ابنه الطفل إيفان الرابع وكان عمره آنذاك ثلاث سنوات فقط تحت الوصاية. ولكنه استلم الحكم سنة ١٥٤٧ وصار قيصراً لروسيا. وقد عُرف إيفان الرابع باسم إيفان الرهيب (Ivan the Terrible) (جروزي باللغة الروسية) الذي أقام أمبراطورية حقيقية... وكان لا يتورّع عن قتل أقرب الناس إليه إذا رأى أي تخاذل، أو اتجاه ضد حكمه، وتحول الحكم بيده إلى حكم استبدادي طاغوتي، ولكنه أصلح الإدارة ونظم الجيش وقوى الدولة.

#### إيفان الرهيب والمسلمين

وقد احتل إيفان الرهيب خانية قازان الإسلامية التترية عام ١٥٥٢م، وسقطت بيده خانية استراخان سنة ١٥٥٧م. وفي غضون ثلاثين سنة كانت القوات الروسية قد اخترقت جبال الأورال واحتلت مناطق الشكير المسلمين ووصلت إلى شواطئ بحر قزوين كما اتجهت شرقاً حتى احتلت سيبيريا الغربية سنة ١٥٨٠م.

ولم يكن غريباً أن تسقط قازان بعد سقوط غرناطة بأيدي الأسبان بستين عاماً فقط (سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩٢)... وظهرت الأحقاد والبربرية في أفقر صورها لدى هؤلاء الأسبان الذين شجّعهم البابا على نقض

عهودهم للمسلمين، وقامت إيزابيلا وزوجها فرديناند بمذابح متتالية للمسلمين. ولم يكن يُقبل منهم سوى الارتداد الكامل عن دين الإسلام، بل كان من يلبس أو يأكل أو يتمتم بالأغاني الأندلسية تتم محاكمته لدى محاكم التفتيش الرهيبة، ويُعذب عذاباً شديداً حتى يموت، وتُقتل أسرته وجميع أقاربه، وأصدقائه ومعارفه. ويكفي لديهم أن يجدوا طفلاً مختوناً، أو أن يرفض أحد أفراد الأسرة أكل لحم الخنزير لتقوم الكنيسة باسم الرب بتعذيبهم حتى الموت. وكذلك فعل إيفان الرهيب بالمسلمين بتشجيع تام من بابا روما رغم الخلافات الدينية بين الأرثوذكس والكاثوليك والعداء الشديد بين الفريقين. ويكفي أن يكون الشخص مختوناً للحكم عليه بالإعدام، وكانوا يطلقون على المسلمين اسم «الكلاب المختونين»!!

والغريب أن ينام المسلمون عن هذه المخاطر التي كانت محدقة بهم، وأن يستمرّوا في حروبهم فيما بينهم لدرجة أن يستعينوا بالكافر ضد أبناء عموماتهم فحاق بهم النكال وسلط الله عليهم الأندال.

وقد كان التتار المسلمون يسمعون نداءات البابا المتكررة إلى فاسيلي الثالث والد إيفان الرهيب (إيفان الرابع) لكي يقتلع المسلمين من وطنهم، ويقوم بحرب صليبية ضدهم، واعدأ إياه بملكوت السماء وبالقسطنطينية التي كان قد احتلها محمد الفاتح السلطان العثماني الشاب المجاهد سنة ١٤٥٣م.

واستمرت للأسف الخلافات والحروب الصغيرة الحقيرة بين خان قازان وأبناء عمومته خانات القرم وإمارة قاسموف وخانية سيبريا وخانية استراخان (الحاج طرخان)، وهم مشغولون بخلافاتهم عما كان يدبره لهم فاسيلي الثالث ثم من بعده ابنه إيفان الرهيب.

وكانت سياسة إيفان الرهيب تجاه تتار الفولجا تتلخص كما يقول بنجسين ولومرسيه في كتابها الهام (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي) في الآتي: «بالنسبة للأشراف المسلمين والأمراء إما أن يرتدوا إلى المسيحية أو الطرد من

وطنهم والحراب الاقتصادي الكامل أو التصفية الجسدية لمن يبدي أقل مقاومة.

« أما الجماهير المسلمة، فقد أُخضعت للصهر الديني، فمنذ عام ١٥٥٥ اعتمدت روسيا سياسة ردّة بالقوة... وكان المرتدون (ستاروكرياشين) يتمتّعون بوضع شرعي تجاه القانون مماثل لرعايا القيصر».

«وعومل الدين الإسلامي بكل قسوة، وهُدِّمت الجوامع والمساجد، والمدارس الدينية، وطُرد رجال الملا (أي علماء الدين) من المدن، وصودرت الأوقاف الإسلامية مصادرة تامة». (انتهى كلام بنجسين ولومرسيه).

واستطاعت قوات إيفان أن تصل إلى بشكيريا سنة ١٥٥٧ التي كانت قد تحوّلت إلى الإسلام قبل قرنين من الزمان، واحتلت عاصمتها الجميلة أوفان.

انتهاء حكم أسرة روريك في روسيا وبداية أسرة رومانوف

بعد وفاة إيفان الرابع (إيفان الرهيب) سنة ١٥٨٤ وقعت الدولة في مشاكل كثيرة بسبب سياسة إيفان الرهيب القمعية في دولته حيث قضى على طبقة البويار (Boyar) وهم الأعيان الذين بنوا موسكو. كما اضطهد الفلاحين وأرهقهم بالمكوس حتى فرّ الكثير منهم من أراضيهم فأوجد نظام رقيق الأرض رسمياً Legal Serfdom حيث يصبح الفلاح مرتباً بالأرض ويُباع معها للمالك الجديد. وقد أدّت سياسة إيفان التوسعية إلى جهة بحر البلطيق إلى حروب متعددة مع بولندا - ليتوانيا والسويد والدينمارك، ولكنه لم يحقق في هذه الحروب نجاحاً يُذكر، بل أرهاق جيشه وخزائنه.

وفي عام ١٥٨١ قامت أسرة ستروجانوف (Strogonov) التجارية الغنية بتكوين جيش من المرتزقة القوزاق المشهورين بالشجاعة والسلب والنهب ليغزو سيبيريا الغربية تحت قيادة يرماك (أحد قادة القوزاق) (Yermak). وقد نجح يرماك في احتلال مدينة سيير وهزم خانية سيبيريا التتارية المسلمة، واستولى على الأراضي غرب نهرى أوب Ob وأرتيش Irtysh، وذلك للحصول على الفراء

والتحكّم في تجارته والتي كانت مطلوبة في أوروبا والدولة العثمانية ومناطق أخرى عديدة في العالم.

وتولى فيدور ابن إيفان الحكم بعد وفاة والده إيفان الرهيب سنة ١٥٨٤، وكان شخصاً ضعيفاً، ويعاني من تخلف عقلي فاستولى على الأمور صهره بوريس جودونوف (Boris Godunov). وعندما توفي فيدور سنة ١٥٩٨ انتهى حكم أسرة روريك.

وأتهم بوريس جودونوف بقتل فيدور، كما ادّعى آخرون أنه اختفى، ولم يمت، وقاموا باسمه بثورات مختلفة زعزعت الدولة، كما ادّعى آخر بأنه ديمتري ابن إيفان، والذي توفي سنة ١٥٩١ في أثناء حكم أخيه فيدور. وازدادت الفوضى، رغم أن بوريس جودونوف قد حصل على موافقة أكثرية طبقة البويار، وموافقة الكنيسة الأرثوذكسية، ليصبح قيصرًا جديدًا.

وأدت الفوضى إلى حرب أهلية، وإلى تدخل الدول الأجنبية. فقد ساندت السويد شويسكي Shuskiy الذي ادّعى أنه فيدور عام ١٦٠٦، ولما قُضي عليه قام مدّعي آخر سنة ١٦١٠ وساندته بولندا التي قامت بالفعل باحتلال موسكو مما أثار الحاسة الوطنية لدى الروس فكوّنوا جيشاً جديداً وصدّوا البولنديين وعيّنت الكنيسة ومجلس البويار ميكائيل رومانوف قيصرًا جديدًا سنة ١٦١٣. واستمرت سلالته في الحكم حتى عام ١٩١٧ عندما قامت الثورة البلشفية، وقضت على القيصر نيقولا الثاني وأسرته. وبذلك انتهى حكم أسرة رومانوف الذي استمر لمدة ثلاثمائة عام تقريباً (٣٠٤ أعوام بالضبط).

وقد استطاع ميخائيل رومانوف Mikhail Romanov أن يعيد بناء موسكو، وأن ييسط الأمن في البلاد، وأقام معاهدة سلام مع السويد عام ١٦١٧ وهدنة مع بولندا عام ١٦١٩، وهما أشدّ أعداء روسيا. وتحوّلت الهدنة مع بولندا بعد عدة مناوشات وحروب إلى معاهدة سلام سنة ١٦٣٤.

وقد عين ميخائيل رومانوف والده بطريكاً للكنيسة الأرثوذكسية المسكوفية

سنة ١٦١٩. واستمرَّ حكم ميخائيل رومانوف حتى عام ١٦٤٥ وتولَّى ابنه أليكسي الحكم بعده (١٦٤٥-١٦٧٦) وكان ضعيفاً. وتولَّى شؤون الدولة أحد البويار الذي عُرف باسم بوريس موروزوف (Boris Morozov) ولكن موروزوف أساء استخدام السلطة مما جعل الناس ينقمون عليه، فعزله القيصر أليكسي سنة ١٦٤٨. واستطاعت طبقة البويار Boyars أن تنظّم الدولة وتسيّرهما في هذه الفترات العصيبة. ويوضح قانون عام ١٦٤٩ مدى سيطرة هذه الطبقة على الأمور، وتوسعت طبقة النبلاء بانضمام بعض رجال الكنيسة، وملاك الأراضي وكبار الضباط. وكانت هذه الطبقة هي التي تحكم روسيا طوال فترة حكم آل رومانوف (أي لمدة ٣٠٠ عام)، ويقوى نفوذها جداً عندما يكون القيصر ضعيفاً، ويقلّ عندما يكون القيصر قوياً، ولكنها في جميع الأحوال كانت ذات نفوذ قوي في الدولة.

وقد أدّى استبداد طبقة النبلاء إلى فرار آلاف الفلاحين إلى منطقة نهر الدون (Don River) الذي كان يسيطر عليه القوزاق. وفي عام ١٦٧٠ و١٦٧١ ثار المسلمون طوال نهر الفولجا وكانت ثورتهم عارمة. وقام القوزاق في منطقة نهر الدون بقيادة ستنكا رازين (Stenka Razin) بثورة عنيفة، والتحمت هذه الثورة بثورة سكّان نهر الفولجا حتى أن موسكو نفسها وقعت تحت التهديد، وتمت مهاجمتها، ولكن الدولة استطاعت أن تصدّ هذا الهجوم، ومن ثمّ قامت بالهجوم المضادّ وأسر رازين (Razin)، ونُقذ فيه حكم الإعدام، كما استعادت الدولة سيطرتها على أراضي المسلمين على ضفاف نهر الفولجا بأكمله. ثم قام الأوكرانيون بالثورة على بولندا ورضي قائدهم بغدان فليتنسكي بأن ينضم إلى روسيا تحت حكم القيصر أليكسي وذلك سنة ١٦٥٤.

#### ملخص أهم الأحداث

إيفان الرهيب (الرابع) (١٥٣٣-١٥٨٤) وقد بدأ حكمه الفعلي سنة ١٥٤٧. ووسع إمارة موسكو واستولى على جميع الأراضي على ضفاف نهر الفولجا، ومنها إلى أراضي البشكير. وقبل وفاته (١٥٨١) احتل القازاق سيبيريا الغربية. كما أن

ممتلكاته اتجهت غرباً وشمالاً، ولكن الدولة عانت من الاضطهاد وفرار الفلاحين وتدمر طبقة البويار والتجار.

فيدور بن إيفان الرهيب (١٥٨٤-١٥٩٨) وكان شخصاً ضعيفاً وتولى الأمور بورييس جودونوف. وحدثت ثورات عنيفة وتدخلت السويد وبولندا، حتى إن بولندا استولت على موسكو ذاتها عندما دعمت شخصاً ادعى أنه فيدور ابن إيفان (والذي كان قد توفي سنة ١٥٩١). وقد أثار هذا الحمية في الروس، وتكاثفت الكنيسة مع طبقة البويار مع الشعب، في صد هذا الهجوم واستعادة الدولة. وبوفاة فيدور ابن إيفان انتهت سلالة روريك التي تُعرف باسم دولة الروس الفارانجيين (روس كييف) التي استمرت من عام ٨٦٠ حتى عام ١٥٩٨ ميلادية.

#### أسرة رومانوف

اختار مجلس البويار والكنيسة ميخائيل رومانوف قيصراً لروسيا سنة ١٦١٣ واستمر حكم هذه الأسرة إلى قيام الثورة البلشفية والقضاء على أسرة رومانوف (نوفمبر ١٩١٧):

إليكسي Aleksey رومانوف (١٦٤٥-١٦٧٦) سيطر البويار والكنيسة على الحياة في عهده، وقامت عدة ثورات في الفولجا وقازاق نهر الدون (١٦٧٠-١٦٧١)، ولكن أوكرانيا انضمت إلى روسيا وتوسعت الدولة غرباً سنة ١٦٥٤.

ثم توسعت الدولة شرقاً باحتلال المزيد من أراضي سيبيريا، حيث احتلوا منطقة شاسعة من نهر أوب (Ob) إلى نهر ينيسي (Yenisey)، ثم إلى نهر لينا (أطول أنهار روسيا)، ثم إلى نهر أمور، وبذلك وصلوا إلى حدود الصين الشمالية.

وفي هذه الفترة حدث انشقاق كبير في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية حيث أراد البطريرك نيكون أن يفرض الالتزام بالعقيدة والطقوس اليونانية، بينما أراد خصومه وعلى رأسهم رئيس الأساقفة أفكوم (Avvkum) اتباع التغييرات الآتية من أوكرانيا والانفتاح على الغرب. واشتد الانقسام عام ١٦٦٧، وقامت الكنيسة بحرق رئيس الأساقفة أفكوم حياً واضطهدت أتباعه. وهذا يدل على شدة تعصبهم مع رجال دينهم إذا خالفوهم، فكيف بغيرهم، وخاصة المسلمين.

وبدا واضحاً التأثير الغربي الآتي عبر كييف في طريقة البناء (الباروك)، وفي الأدب، وفي صناعة الأيقونات، وفي الطقوس الدينية، وفي نظام الحياة رغم اضطهاد الكنيسة، واتجهت طبقة النبلاء والمتقنين صوب أوروبا غرباً.

فيودور الثالث (١٦٧٦ - ١٦٨٢) وكان حكمه مضطرباً والتأثيرات الغربية الأوربية تزداد، وهو يقاومها متفقاً في ذلك مع الكنيسة. ولكن أراضي الدولة ظلت متسعة من أوكرانيا غرباً إلى حدود المحيط الباسيفيكي (المهادي) شرقاً، رغم أن سيبيريا واجهت عدة انتفاضات وكان هذا الفتى مريضاً وتوفي بعد ست سنوات من وصوله إلى العرش.

حكم الأخوين غير الشقيقين (إيفان الخامس وبطرس الأول) (١٦٨٢ - ١٦٨٩) وقد كانا على طرفي نقيض، إيفان الخامس متمسك بالتقاليد الروسية القديمة، وبطرس مغرم بأوروبا، وخاصة ألمانيا. وقام برحلة طويلة إلى أوروبا الغربية لينهل من علومها وفنونها وصناعاتها، وخاصة صناعتها البحرية. وكان شديد الحماسة لإيجاد أسطول حربي جديد ليقم أمبراطورية، ويوطد أركانها، وليحارب الدولة العثمانية، وليصل إلى المياه الدافئة. وشهدت تلك الفترة صراعات خفية بين الأخوين غير الشقيقين، فلما توفي إيفان الخامس سنة ١٦٩٦ صفت الأمور لبطرس وللمجموعة الكبيرة من النبلاء والطبقة المثقفة التي تريد تطوير روسيا، والاتجاه نحو أوروبا في علومها وعاداتها ولباسها وحضارتها. وفي تلك الفترة كانت الحاكمة الفعلية صوفيا أختها الكبيرة.

بطرس الأول والذي يلقب بالعظيم **Peter the Great** (١٦٨٩ - ١٧٢٥)، قام بطرس بتغيير الدولة إلى النمط الأوربي. كما فرض خلق اللحي واللباس الأوربي الغربي، ولما وجد معارضة من الحرس القديم، والكنيسة، بنى مدينته بطروجراد والتي عُرفت باسم بتروسبرج (وتغير اسمها فيما بعد إلى بطروجراد ثم إلى ليننجراد ثم عاد مرة أخرى إلى بيتروسبرج ١٩٩١). وقد بناها بطرس سنة ١٧٠٣ وجعلها عاصمة دولته.

وُبُنيت هذه المدينة على الطراز الغربي بفن الباروك، واشتهرت بقصورها وحدائقها الغناء وأكاديميتها ودار الأوبرا... إلخ.

وقد قام بطرس الأول الملقب بالعظيم بإرساء أمبراطورية ضخمة على الطراز الأوروبي، وقام عام ١٦٨٩ بتوقيع اتفاقية سلام مع الصين (أمبراطورية مانشو). ورغم أنه تنازل عن حوض نهر أمور إلا أنه أعطي حرية الوصول إلى بحيرة بايكال (Baikal) الهامة وطريق التجارة مع بيكنج (بيكين) العاصمة الصينية، والوصول إلى المحيط الهادي.

وتحولت روسيا في عهد القيصر بطرس إلى أمبراطورية يحسب لها الأوروبيون ألف حساب، بل واعتبرت دولة أوربية ذات وزن هام. ولكن روسيا بحفاظها على نظام القنانة (Serfdom) وعدم إطلاق الحرية للرأسمالية، وعدم وجود ثورة صناعية مثل التي شهدتها أوروبا، فإنها (أي روسيا) لم تستطع أن تلحق بأوروبا.

وبدأ بطرس بالهجوم على آزوف على البحر الأحمر ليصل إلى المياه الدافئة، ولكن محاولته الأولى فشلت وصدّها الجيش والأسطول العثماني. وبنى بطرس أسطولاً جديداً واستولى على آزوف عام ١٦٩٦. وسافر بطرس إلى أوروبا مرة أخرى ليتعلم منها، وليوجد حلفاء ضد الخلافة العثمانية. وفي أثناء سفره قام أنصار أخته الكبيرة صوفيا التي كانت تحكم في فترة الحكم الثنائي للأخوين الصغيرين (إيفان الخامس وبيطرس الأول) بمحاولة انقلاب للحفاظ على التقاليد والنظام الروسي القديم، فعاد مسرعاً من أوروبا، وقضى على الثورة، وكان عنيفاً مع كل من ساند الثورة واشترك بنفسه في تعذيب خصومه وقتلهم. ولما وقف ابنه الشاب أليكسي ضد توجهات والده نحو الغرب، عذّبه والده حتى الموت وقتله بيده!!

وحارب بطرس السويد، وحقق انتصاراً في معركة بولتافا Poltava عام ١٧٠٩. واضطر في أثناء تلك الحروب إلى أن يهادن الدولة العثمانية ويُعيد لها ميناء آزوف الهام سنة ١٧١١. واستمرت حروب بطرس في الشمال (مع السويد وبولندا) حتى عام ١٧٢١ عندما سيطر بطرس على ليفونيا Livonia واستونيا Estonia



وانجيرا Ingira (على بحر البلطيق)، وأقام معاهدة نستود Nystod مع السويد. وأعلن نفسه أمبراطوراً. وأوجد بطرس نظام نبلاء جديد مبني على مدة الخدمة في الجيش والبحرية، ومدى الانتصارات التي حققها هؤلاء القواد والضباط (Table of Ranks).

وفي عام ١٧٠٥ ثار البشكير المسلمون ضد استبداد بطرس، واستمرت الثورة حتى عام ١٧١١ عندما تم إخضاعها.

وأقام بطرس أكاديمية العلوم Academy of Sciences في مدينة بيتروسبرج عام ١٧٢٥، كما أوجد نظاماً إدارياً جيداً، وبنى أسطولاً حديثاً، وجيشاً مجهزاً بأحسن الأسلحة في عصره. وقد ظهرت أول صحيفة روسية يتم طبعها سنة ١٧٠٨.

ولما لم يكن لبطرس الأول إلا ولد واحد هو إليكسي. ولما كان هو قد قتل ابنه الشاب بنفسه لأنه عارضه في التوجه نحو الغرب والتحديث، فإن بطرس وجد معضلة في وراثة العرش، ومرض فجأة وتوفي سنة ١٧٢٥ دون أن يعين خلفاً له.

كاثرين الأولى: واستولت زوجته كاثرين على العرش (١٧٢٥ - ١٧٢٧) لفترة قصيرة توفيت بعدها، فتولى بطرس الثاني، حفيد بطرس الأول من ابنه أليكسي العرش.

بطرس الثاني (١٧٢٧ - ١٧٣٠): تولى هذا الصبي الحكم، ولكن سرعان ما أصابه الجدري عام ١٧٣٠ ففُضِيَ عليه. فلم يجدوا إلا حنة (Anna) بنت إيفان الخامس (وشريك بطرس في الحكم) فولّوها العرش.

حنة Anna (١٧٣٠ - ١٧٤٠): كان حكمها مليئاً بالدسائس، وكانت متعصبة للكنيسة الأرثوذكسية، وعانى المسلمون من حكمها، حيث أمرت بأخذ أطفال المسلمين إلى المدارس الدينية الأرثوذكسية ليتربوا على هذا الدين القويم في نظرها، لأن المسلمين يتظاهرون بالمسيحية، ويعلمون أولادهم الإسلام سرّاً.

ولما توفت حنة (١٧٤٠) تم تعيين الطفل إيفان السادس قيصرًا. ولكن حكمه

لم يدم سوى عام واحد حيث استُبدل بإليزابيث ابنة بطرس الأول، وحكمت إليزابيث (١٧٤١-١٧٦٢) لفترة طويلة. وكانت سياستها تجاه المسلمين مثل سياسة حنة، بل أشد، واستمرت في فرض التنصير عليهم ومضايقتهم، وأخذ أطفالهم قسراً ليتربوا في مدارس الكنيسة. وقد عادت العاصمة إلى موسكو، وقامت هي بافتتاح أول جامعة في روسيا وذلك سنة ١٧٥٥، وافتتحت أكاديمية الفنون سنة ١٧٥٧، وفي عهدها ظهر مجموعة من العلماء الروس Scientists ومن أشهرهم ميخائيل لوموسوف.

ومنذ وفاة بطرس الأول تحالفت روسيا مع النمسا لمحاربة الدولة العثمانية (وهو ما كان يهدف إليه بطرس)، وأعدت روسيا احتلال أزوف بعد حربٍ دامت خمس سنوات (١٧٣٤ - ١٧٣٩)، واستطاعت إليزابيث أن تجعل روسيا قوة عسكرية ضخمة، وأقامت عدة تحالفات أوربية، ودخلت الحرب ضد بروسيا، ووصلت جيوشها إلى بوابات برلين سنة ١٧٦٠. ولحسن حظ بروسيا (Prussia) [التي تحوّلت فيما بعد إلى ألمانيا على يد بسمارك] أنها استطاعت أن تصدّ هذا الهجوم. وتوفيت إليزابيث عام ١٧٦٢.

وتولى بعدها بطرس الثالث الحكم (١٧٦٢م) وغير حلفاءه وأعدائه وصار حليفاً لبروسيا، واعتبر نفسه صديقاً حميماً لأمبراطور بروسيا فردريك العظيم. وكان بطرس الثالث قد تربى في بيئة ألمانية (بروسية)، وتعلّم على يد أساتذة ألمان، وتأثر كثيراً بهارتن لوثر، وكاد أن يتحوّل إلى البروتستانتية، وهو أمر لا يطاق في روسيا، وحاربه الكنيسة الأرثوذكسية بقوة مما عجل باغتياله في نفس العام الذي تولى فيه الأمور.

كاثرين الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦):

تولّت كاثرين الثانية الحكم (١٧٦٢) بعد اغتيال بطرس الثالث وبتأييد قوي من الجيش والكنيسة وطبقة النبلاء. ورغم أن كاثرين كانت فتاة ألمانية صغيرة عندما تزوجت بطرس الثالث إلا أنها تقيمت الأرثوذكسية والتقاليد الروسية،

وصممت على أن تتولى الحكم، فوطدت علاقتها مع الجيش، والنبلاء، والكنيسة. وكان لها عُشاقها المفضلين من كبار الضباط والنبلاء وخاصة أليكسي أورلوف الذي قام بالانقلاب ضد زوجها بطرس الثالث، ثم قامت هي بقتل زوجها.

وهكذا تولت أميرة ألمانية لا علاقة لها بأسرة رومانوف من ناحية الدم عرش الأمبراطورية الروسية بعد أن قتلت زوجها بطرس الثالث بتأييد الجيش والكنيسة على يد عشيقها القائد أليكسي أورلوف Aleksey Orlov.

وقد تميّز حكم كاثرين الثانية بالأمر الآتية:

(١) التقرب إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

(٢) التقرب إلى الضباط الكبار في الجيش واتخاذ العُشاق منهم.

(٣) إعطاء تزار الفولجا والبشكير الحرية الدينية والسماح لهم بتعليم أطفالهم في مدارسهم الخاصة.

(٤) ازدهار الصناعة الروسية والبحث عن أسواق لها. وكان التتار يعرفون المناطق الإسلامية الممتدة إلى بخارى وسمرقند والشاش (طشقند)، ومنها إلى أفغانستان ثم الهند. كما كانت التجارة تمتد إلى القوقاس جنوباً، وإلى المناطق الشمالية والسويد والنرويج شمالاً.

ووسّعت كاثرين الثانية أراضي الأمبراطورية الروسية، وبدأت بمحاربة الدولة العثمانية سنة ١٧٦٨، واستمرت الحروب حتى عام ١٧٧٤ عندما تم توقيع اتفاقية كوشوك- كانارجي (Kuchuk - Kainarji)، وبموجب تلك الاتفاقية وصلت روسيا إلى البحر الأسود، واستولت على القرم، وسمح للتتار القرم بحكم ذاتي، وأن يكونوا تابعين لروسيا وليس للخلافة العثمانية... ولكن كاثرين الثانية تنكّرت لتلك الاتفاقية بعد فترة وجيزة من توقيعها، وقامت عام ١٧٨٣ بإلغاء الحكم الذاتي للقرم، وجعلتها تابعة لروسيا مباشرة، وقسمت أراضيها الخصبة على النبلاء وكبار ضباط الجيش وعلى عُشاقها المفضلين. وأدى ذلك إلى حرب ثانية

بينها وبين الدولة العثمانية سنة ١٧٨٧، وتوغّلت روسيا جنوباً إلى نهر الدنستر (Dnestr)، ووئقت ذلك بمعاهدة جاسي (Jassy) عام ١٧٩٢. وبالتالي ازداد تأثير روسيا في البلقان، وبدأت تتدخل في شؤونه، وكما نعرف، فإن البلقان بأكمله كان تابعاً للدولة العثمانية. وكانت كاترين تأمل بأن تتعاون معها الدول الأوربية للقضاء نهائياً على الدولة العثمانية، واستعادة القسطنطينية، وتحرير دول البلقان واليونان من الحكم العثماني. ولكن ذلك لم يتحقق إلا جزئياً في القرن التاسع عشر، وأمكن القضاء على الدولة العثمانية بنهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، وقيام ثورة أتاتورك وتركيا الفتاة... وتحولت تركيا إلى دولة علمانية تحارب الإسلام بأشدّ مما تفعله حتى الدول الأوربية الصليبية الحاكمة على الإسلام وأهله.

وقد تمّ التنافس على التأثير في بولندا. وقامت كلاً من روسيا وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) والنمسا بمحاولة تعيين ملك بولندا من أتباعها. وفي عام ١٧٧٢ اتفقت هذه الدول الثلاث على تقسيم النفوذ بينهم فأخذت روسيا بعض مناطق بيلروسيا وليفونيا (Belrussia and Livonia).

وفي عام ١٧٩٣ أخذت روسيا ما بقي من بيلروسيا (روسيا البيضاء) بالإضافة إلى أوكرانيا التي كانت تابعة لبولندا حتى ذلك الوقت. وقامت بولندا بمقاومة هذا التمدد الروسي والألماني (Prussia) مما أدى إلى حرب جديدة وهزيمة بولندا، وتقسيم كل أراضيها، وذلك عام ١٧٩٥.

وأدى التوسع الروسي في بولندا إلى أن تصبح حدود روسيا متصلة مباشرة مع بروسيا Prussia (التي كوّنت فيما بعد ألمانيا) والنمسا. وبتوسّع الأمبراطورية الروسية تنوعت العناصر السكانية بشكل كبير جداً، وذلك بإضافة البولنديين والأوكرانيين واليهود والروس البيض (روسيا البيضاء)، والتتار والبشكير وسكان القوقاس ذوي القوميات العديدة المختلفة. هذا بالإضافة إلى القبائل التركية وإلى العناصر الفنلندية القديمة الموجودة في روسيا.

وبما أن الأوكرانيين وسكان روسيا البيضاء هم من السلافيين ويتبعون الكنيسة

الأرثوذكسية فقد تمّ استيعابهم تماماً مع العنصر الروسي، بينما قاوم البولنديون عملية الترويس لأنهم يدينون بالكاثوليكية المعادية للأرثوذكسية عداءً كبيراً. واعتبر الروس اليهود عنصراً مدمراً وعميلاً للدول الأجنبية، فقامت الدولة الروسية في ٣ يناير ١٧٩٢ بحصر أماكن تواجدهم في الجزء الغربي من الإمبراطورية الروسية أي في بولندا بالذات. وقامت كاترين بإلغاء الحكم الذاتي في أوكرانيا شرق نهر الدينبر، وكذلك فعلت مع جمهوريات البلطيق التي استولت عليها روسيا، وذلك لإذابة العناصر المختلفة في بوتقة واحدة، وهو ما أطلق عليه سياسة «الترويس» والتي سار عليها قياصرة روسيا منذ بداية عهدها إلى نهاية دولة القياصرة عام ١٩١٧.

وقامت كاترين بإصلاحات إدارية عديدة، منها تكوين لجنة تشريعية (Legislative Commission) لإصلاح القوانين الروسية وذلك عام ١٧٦٧. وقامت ثورة القوزاق بقيادة أميلين بوجاشيف عام ١٧٧٣ وادّعى أنه بطرس الثالث (زوج كاترين والذي أمرت بقتله). وتمّ القضاء على هذه الثورة عام ١٧٧٤، كما قامت ثورات المسلمين على طول نهر الفولجا، وفي مناطق البشكير الممتدة إلى جبال الأورال.

وبعد هذه الثورة قامت كاترين بتقسيم الإمبراطورية الضخمة إلى ولايات عديدة، وأعطت كل ولاية أو مقاطعة بعض الحرية في إدارة شؤونها الداخلية. وأعطت النبلاء وظائف إدارية عديدة في هذه المقاطعات. وحرّرت النبلاء من وجوب الخدمة لدى القيصر. ولكنها لم تقم بإيجاد قوانين وأنظمة كافية لسكان المدن، ولما يسمّى عبيد الأرض (القنانة)، وهم الفلاحون.

وبدأ التأثير الأوربي يزداد في عهدها. رغم أن كاترين أبدت منذ البداية تعصباً لروسيا ومناهجها ودينها الأرثوذكسي، رغم أنها ألمانية وكاثوليكية في طفولتها وريعان شبابها. ولكن بعد زواجها من (بطرس الثالث)، الذي كان لا يزال ولياً للعهد وشاباً غيّراً تحوّلت إلى الأرثوذكسية، وصارت روسية أكثر من زوجها الذي كان شديد الميل لأوروبا، وبالذات لألمانيا (بروسيا).

وظهر الأثر الأوربي في الآداب، وفي نقد نظام القنانة بشدّة، ففي عام ١٧٩٠ نشر ألكسندر راديشيف كتاباً بعنوان «من بطرسبرج إلى موسكو» نقد فيه نقداً لاذعاً نظام القنانة (Serfdom)، وجعل الفلاحين عبيداً للأرض يباعون عند بيع الأرض إلى نبيل آخر. ولكن كاثرين خافت من أثر هذا الكتاب فمنعته، وأرسلت كاتبه إلى منافي سيبيريا. ورغم ذلك فإنها شجعت الالتحاق بأوروبا في النظام السياسي، والقضائي، والفني والأدبي. وبالفعل تمّ في عهدها تقدّم الأباطورية الروسية، وأصبحت نداءً للأباطورية البريطانية والفرنسية والألمانية (بروسيا). ولكن روسيا لم تشهد الثورة الصناعية وقوة الرأسمالية، وبقيت دولة قيصرية مترامية الأطراف، تُحكّم في الغالب بسياسات قهرية. وتعتمد على الإنتاج الزراعي الذي عمّده القنانة (Serfdom)، أي عبيد الأرض. ولهذا تقدّمت أوروبا بسرعة أكبر من روسيا، ولم تستطع روسيا، رغم محاولات عديدة، اللحاق بأوروبا الغربية في تقدّمها الحديث.

يعتبر عهد بطرس الأول وكاثرين الثانية أفضل العهود بالنسبة لروسيا، وفي زمنها شهدت روسيا توسعاً كبيراً في ممتلكاتها، وقوة عسكرية متزايدة، وإصلاحات إدارية كبيرة، وتوجّهاً نحو أوروبا في اقتباس قدراتها العلمية والإدارية والعسكرية والمالية والأدبية والفنية. ولكن روسيا لم تستطع أن تتخلص من نظام القنانة (Serfdom) إلا عام ١٨٦١. بينما تخلّصت أوروبا من النظام الإقطاعي قبل روسيا بعدة قرون. كما أن روسيا لم تشهد الثورة الصناعية، والقوة الصاعدة للرأسمالية التجارية التي تحكمت في أوروبا، وخاصة بعد أن امتلكت مستعمرات واسعة في الأمريكيتين وفي أستراليا وإفريقيا وآسيا.

وقد قامت كاثرين الثانية الألمانية الأصل باستجلاب أعداد كبيرة من الألمان وأسكتهم في أراضي التتار على المجرى الأوسط والأسفل لنهر الفولجا. وتكوّنت فيها بعد جمهورية تابعة لروسيا منهم. وفي الحرب العالمية الثانية وبالذات عام ١٩٤١ خاف ستالين من توأمتهم مع هتلر فنفاهم إلى كازاخستان وسيبيريا.

## عهد بول (١٧٩٦ - ١٨٠١)

عندما توفيت كاثرين الثانية تولى ابنها الحكم (اختلف فيه هل هو من الزنا أو من زوجها بطرس الثالث)، وكانت كاثرين قد أوصت بأن يتولى ابن بول (أي حفيدها ألكسندر) الحكم بدلاً منه، ولكن وصيتها لم تنفذ. وقام بول بوضع قانون الإرث الملكي. وهو أن يتولى الابن الأكبر العرش بعد أبيه، فإن لم يكن له أبناء تولت ابنته الكبرى الحكم، وهو النظام الوراثي الملكي المعمول به في أوروبا حتى اليوم. وأقام بول شركة أمريكية روسية، وبواسطتها استولى على كل أراضي الأسكا، والتي باعها فيما بعد الدولة الروسية للولايات المتحدة الأمريكية.

وحارب بول في صف بريطانيا والنمسا ضد فرنسا النابليونية. واستطاعت القوات الروسية بقيادة ألكسندر سفرف Aleksandr Suvrov أن توقع هزائم بالقوات الفرنسية في إيطاليا وسويسرا. ولكن بول غير سياسته فجأة، وحاول أن يهادن نابليون. كما أنه كثيراً ما يغير أوامره وأنظمته الداخلية مما جعل الجيش والنبلاء يقفون ضده ويتآمرون عليه، ويغتالونه عام ١٨٠١. وفي عهده انضمت إلى روسيا جورجيا وأرمينيا اللتان كانتا تعانيان من الدولة العثمانية والدولة الصفوية.

## الإسكندر الأول (١٨٠١ - ١٨٢٥)

وتولى بعده ابنه الإسكندر الذي كانت جدته كاثرين تُعده للحكم. وتوجه الإسكندر إلى التحالف من جديد مع بريطانيا والنمسا ضد نابليون. ولكن نابليون هزم الروس وأهل النمسا في معركة أوسترليز الشهيرة (Austerlitz) عام ١٨٠٥، ثم هزم الروس في معركة فريدلاندر عام ١٨٠٧، مما اضطر روسيا إلى عقد معاهدة سلام وتحالف مع نابليون. واتجه الإسكندر لتعويض خسائره بحرب ضد السويد (١٨٠٩). واستولى بموجبها على دوقية فنلندا (Grand Duchy of Finland) وأخذ بسارابيا (Bessarabia) من تركيا عام ١٨١٢.

وطلب نابليون من حليفه الجديد الإسكندر الأول أن يشترك معه في الحصار القاري لبريطانيا (Continental Blockade)، ولكن بول رأى أن هذا سيضّر ضرراً بالغاً بتجارة روسيا فرفض ذلك الطلب، وألغى اتفاقيته التحالفية مع فرنسا عام ١٨١٠. وبحلول عام ١٨١٢ قام نابليون بغزو روسيا بجيش عرمرم بلغت عدة أفراد أكثر من ستمائة ألف رجل. واستطاع نابليون أن يهزم روسيا في عدة معارك، ولكنه لم يصل إلى موسكو إلا وقد أنهكت قواته، وجاء الشتاء الروسي القارس، وتوقفت الإمدادات من فرنسا إلى قواته في روسيا فانهزم هزيمة نكراء، واضطر إلى سحب قواته من روسيا. ولكن القوات الروسية بل والشعب الروسي كانوا للمنسحيين بالمرصاد. وفي طريق العودة الطويل ماتت مئات الآلاف من الجنود الفرنسيين، ولم يصل إلى فرنسا سوى أقل من ثلاثين ألف جندي (قُتل ما يقرب من ستمائة ألف جندي فرنسي). واشتد الروس في تعقب القوات الفرنسية حتى وصلوا إلى أبواب باريس بعد أن اشترك الحلفاء في تسديد ضربات موجعة لنابليون، وهزم نابليون في واترلو، وفي الطرف الأغر، وكانت بذلك نهايته.

وفي عام ١٨١٥ اشتركت روسيا في مؤتمر فيينا لتقسيم أوروبا ومستعمراتها من جديد، وكان لروسيا نصيبها من الغنائم، وعدم السماح لفرنسا بالظهور كقوة مهيمنة مرة أخرى. وأصبحت بولندا رسمياً تابعة لروسيا، وأعطاه القيصر الروسي الإسكندر الأول نظاماً دستورياً ملكياً مُحكم بموجه، مما أدى فيما بعد إلى مطالبة الروس بنظام مماثل، لأن روسيا بقيت على الدوام في عهد القياصرة مُحكم بواسطة قيصر مستبد، وإن كان له مجالس استشارية عديدة، لكنها لم ترق إلى مستوى البرلمان إلا عام ١٩٠٥، ولكن نيقولا الثاني آخر قياصرة روسيا تخلّص من الدستور الجديد بحلول عام ١٩٠٧. وقد أدى ذلك إلى الثورة الكبرى عام ١٩١٧ والتخلص من حكم القياصرة نهائياً.

وفي عهد الإسكندر الأول أدى الاتصال الوثيق بين الضباط الروس وحلفائهم الأوربيين إلى قبول الكثير منهم بالأفكار الديمقراطية والعدالة وتساوي



الفرص، وتكوّنت مجموعات سرية لإقامة نظام ديمقراطي وملكية دستورية، وقامت هذه المجموعة من الضباط يدعمهم كثير من الأدباء والمفكرين بالثورة في ديسمبر ١٨٢٥. وقد عرفت هذه الثورة باسم الثورة الديسمبرية، ولما كان الإسكندر الأول قد توفي فجأة في تلك السنة، فقد تمّ تعيين أخيه نيقولا الأول قيصرًا لروسيا (لم يكن للإسكندر أولاد كما أن قسطنطين الأخ الأكبر لنيقولا رفض الترشيح للحكم). واشتهرت قصائد بوشكين في دعم هذه الثورة<sup>(١)</sup>.

#### نيقولا الأول (١٨٢٥ - ١٨٥٥)

بدأ نيقولا الأول عهده بالبطش بالديسمبريين وإرسال كل من تعاون معهم إلى المنافي في سيبيريا وغيرها. وازداد نفوذ البوليس السري، وقُيّدت حرية الصحافة والكتابة، وواجه الأدباء والأحرار اضطهادات كثيرة. وأعلن سيرجي يورفاروف (Sergey Urvavov) رئيس الوزراء شعار: الحكم الفردي، الأرثوذكسية والوطنية (Autocracy, Orthodoxy and Nationality)، وهو ما عُرف فيما بعد باسم الله، المليك، الوطن، في مختلف أصقاع أوروبا والعالم.

وبدأ نيقولا الأول بسياسة تهدف إلى إبعاد روسيا عن التأثيرات الأوروبية المنادية بالديمقراطية، والملكية الدستورية، والمساواة بين المواطنين. كما قامت الدولة باضطهاد المنادين بهذه المبادئ، وحاولت أن تفرض الأرثوذكسية على النصارى الكاثوليك، والنصارى المتمين إلى فرق أخرى غير الكاثوليكية، وبطبيعة الحال كان الاضطهاد للمسلمين شديدًا. وواجه اليهود نفس الاضطهادات، وخاصة أن اليهود يلعبون أدواراً مثل التجسس لحساب الدولة الأوربية، واستغلال من يقرضونه بالمال استغلالاً بشعاً بواسطة الربا الفاحش، وبتأييدهم بالمال والأفكار للثورة على القيصر.

ورغم هذا الاضطهاد فإن روسيا شهدت في هذه الفترة ظهور عمالقة الأدب الروسي، فقد ظهر الروائي جوجل (ومن «معطفه» ظهر كل روائي روسيا)

(١) انظر كتاب: بوشكين شاعر روسيا، والقرآن الكريم لكاتب هذه السطور، كنوز المعرفة - جدة، ص ٨٣ وما بعدها.

وألخسندر بوشكين (أعظم شعراء روسيا على الإطلاق)، والشاعر تورجنيف والشاعر ليرمنتوف، كما ظهرت الباليه الروسية والأوبرا وعمالة الموسيقى أصحاب السيمفونيات.

وفي عهد نيقولا قامت عدة ثورات في روسيا وبولندا التابعة لها، وألغى نيقولا دستورها وحكمها شبه المستقل، وحوّلها إلى مقاطعة روسية تحكم بواسطة القيصر مباشرة ويعين لها حكامها. وقام نيقولا بدعم القوى الملكية في أوروبا ضد التحديث والديمقراطية، وضد تحويل الملكية إلى ملكية دستورية بحيث يملك الملك ولا يحكم.

وكان نيقولا شديد التعصب للكنيسة الأرثوذكسية وللنظام الروسي القديم، وشديد العداوة للدولة العثمانية، ويسعى لإزالتها من الوجود، وإعادة القسطنطينية، ليحررها حسب زعمهم من المسلمين. وخاض نيقولا حرباً ضد الدولة العثمانية عام ١٨٢٨ و١٨٢٩ ووقع اتفاقية مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٣، وعُرفت باسم اتفاقية (يونيكار - سكيليسي) (Unikar - Skelessi) وبموجبها اعترفت الدولة العثمانية بحق روسيا في مضيق الدردنيل والبوسفور. وقد أدى ذلك إلى معارضة بريطانيا وفرنسا وتشجيع السلطان العثماني على عدم الاعتراف ببנוدها مما أدى إلى قيام حرب القرم عام ١٨٥٣، والتي امتدت إلى عام ١٨٥٦، واشتركت بريطانيا وفرنسا إلى جانب تركيا مما أدى إلى هزيمة روسيا واضطرابها للتخلي عن القرم. واضطرت تركيا أن تعطي بريطانيا جزيرة قبرص مكافأة لها لموقفها معها.

#### الإسكندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١)

توفي نيقولا الأول أثناء حرب القرم وذلك عام ١٨٥٥، وتولى بعده الإسكندر الثاني، الذي اضطرت للتخلي عن القرم. واشتدت في عهد الإسكندر الثاني المطالبة بالإصلاحات، فقام الإسكندر الثاني بتحرير عبيد الأرض ومنع الفئانة (Serfdom) وذلك سنة ١٨٦١، وأصلح النظام القضائي عام ١٨٦٤. وأقام

علاقات تجارية وطيدة مع الصين بمعاهدة إيجين (Aigen) سنة ١٨٥٨، ولكنه اضطر للتخلي عن المناطق الشمالية لحوض نهر أمور للصين. وفي عام ١٨٦٠ وقّع مندوب القيصر الإسكندر الثاني معاهدة بيكين (Beijing) وبموجبها تمّ تعويض روسيا بإعطائها حوض نهر أوسوري (Ussuri River).

وفي تلك الفترة ظهرت أعمال أدبية خالدة مثل «الجريمة والعقاب» و«الأخوة كرامازوف» لدستوفسكي، و«الحرب والسلام» لتولستوي.

وفي عام ١٨٧١ تخلّت روسيا عن جزر كوريل لليابان في مقابل جزيرة سخالين (Sukhalin)، وشبّت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية، وانتهت بمعاهدة سان ستيفانو ومعاهدة برلين (١٨٧٧-١٨٧٨)، وتنازلت بموجبها الدولة العثمانية عن أراضيها في بلغاريا التي أعلنت استقلالها.

وفي عام ١٨٨١ اغتيل القيصر الإسكندر الثاني وتولى بعده ابنه الإسكندر الثالث الذي استمر حكمه حتى عام ١٨٩٤، وفي ذلك العام تمّ تنصيب نيقولا الثاني.

نيقولا الثاني (١٨٩٤-١٩١٧)، آخر القيصرية

لقد شهدت روسيا فيما بين عامي ١٨٥٠ و١٩١٠ نموّاً سكانيّاً هائلاً تضاعف فيه عدد السكّان وهو أمر لم يحدث إلا في الولايات المتحدة حيث تضاعف سكّانها في هذه الفترة مرات عديدة، بسبب الهجرة الآتية من أوروبا وغيرها. أما في روسيا فكان النموّ السكانيّ ناتجاً عن توسّع رقعة الأرض التي استولت عليها روسيا بما عليها من السكّان، وبسبب زيادة النسل... وكانت روسيا مجتمعاً زراعياً في الأساس، والصناعة محصورة في بعض المدن الكبرى فقط. ولم تستطع روسيا اللحاق بأوروبا التي تطوّرت بسرعة كبيرة جداً بعد الثورة الصناعية واعتماد النظام الرأسمالي. وكانت روسيا القيصرية تريد اللحاق بأوروبا، ولكن الاتصال بأوروبا يأتي بأفكار ثورية تهزّ المجتمع القديم، وتحارب مبدأ (الله، المليك، الوطن) الذي اعتمده روسيا. فالقيصر هو ممثل الله على الأرض، وارتباطه بالكنيسة الأرثوذكسية يجعل الرباط بينهما مقدّساً. ورغم محاولات القيصرية إيجاد توازن بين

للحاق بأوروبا والمحافظة على القديم، إلا أن رياح التغيير كانت شديدة مما أدى إلى إيجاد نظام بوليسي قمعي استخباراتي. وهذا بدوره أدى إلى المزيد من التدمير، وخاصة لدى الانتليجنسيا (أي الطبقة المثقفة).

ومع هذا، فقد عملت روسيا القيصرية على التحديث بوسائلها الخاصة، وعلى إيجاد صلات تجارية قوية مع الصين واليابان في الشرق، ومع آسيا الوسطى التي استولت عليها في الجنوب الشرقي، وعبرها إلى أفغانستان والهند، ومع أوروبا الغربية عبر بولندا ومدن البلطيق التي استولت عليها، ومع الدولة العثمانية عبر البحر الأسود والدردييل، ومع إيران والعراق عبر القوقاس الجنوبي وبحر الخزر.

وبحلول عام ١٨٩٠ كانت لدى روسيا شبكة من القطارات تمتد عبر ٣٢٠،٠٠٠ كيلومتر و١٠٤ مليون شخص يعملون في المصانع الروسية، وأغلبها في صناعة النسيج. وتضاعف إنتاج الفحم فيما بين عامي ١٨٦٠ و ١٨٩٠ اثنا عشر مرة. وزاد إنتاج الحديد والصلب أكثر من الضعف. ورغم ذلك فإن خدمة الديون الربوية استهلكت ٢٨ بالمئة من الدخل القومي، واستغل المقرضون اليهود الشعب والدولة في روسيا أبشع استغلال.

وساءت علاقات نيقولا الثاني (Nicholas II) مع اليابان مما أدى إلى قيام الحرب الروسية - اليابانية، والتي انتهت بهزيمة روسيا أمام اليابان (١٩٠٥) واضطرت روسيا لإعادة جزيرة سخالين إلى اليابان.

والجدير بالذكر أن البلاد العربية تلقت نبأ انهزام روسيا بفرح وسرور باعتبار أن اليابان تمثل الشرق، وأن روسيا تمثل الغرب. وقد قال شاعر النيل حافظ إبراهيم في هذه الواقعة قصيدتين: الأولى بعنوان «غادة اليابان» نُشرت في ١٦ أبريل ١٩٠٤، أي عند بداية الحرب (بدأت الحرب في ٩ فبراير ١٩٠٤)، والثانية بعنوان «الحرب اليابانية الروسية» نُشرت في ١٠ نوفمبر ١٩٠٤، أي بعد أن اشتد أوارها وبدأت روسيا تنهزم. وقد انتهت الحرب في سبتمبر ١٩٠٥ بصلح اعترفت فيه روسيا بنفوذ اليابان في كوريا، وبجلاء الروس عن منشوريا وإعادة جزيرة سخالين لليابان.

## قصيدة حافظ: «غادة اليابان»

بدأها حافظ إبراهيم بالتوجه إلى قومه أهل مصر وإلى العرب كافة ينبههم على أن يتركوا الاهتمام بالقشور والمناصب والألقاب الجوفاء، وأن يهتموا بمعالي الأمور، وخاصة أن الأحداث تستهدف الأمة وهم نائمون سادرون في لهوهم وغيهم. يقول حافظ في مطلعها:

لا تلم كفي إذا السيف نبا      صحّ مني العزمُ والدهر أبسى  
ثم يقول:

إيه يا دنيا اعسبي أو فابسمي	لا أرى برقك إلا خُلبًا
أنا لولا أن لي من أمتي	خاذلاً ما بتُ أشكو النوبا
أمة قدفت في ساعدها	بُغضها الأهل وحبُّ الغربا
تعشق الألقاب في غير العُلا	وتفدي بالنفوس الرُتبا
وهي والأحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها	أم بها صرّف الليالي لعبا

ولللأسف لا تزال الأمة «تعشق اللهو وتهوى الطربا» رغم الأحداث الخطيرة، ورغم أن القوم من الأعداء يلعبون بها، ويضحكون عليها، ويوعدونها السلام مع إسرائيل، وهو برقٌ خُلبٌ ولا سلام هناك، بل السيف والذبح والقتل، وسفك الدماء في انتظارهم ومن بعده الطرد التام من وطنهم فلسطين.

ثم يدلفُ حافظ ليتغزل بفتاة يابانية، يحكي قصته الخيالية معها فتخبره أنها ستركه وتساfer إلى اليابان استجابةً لنداء الوطن، فيقول لها: ما لك وللحرب؟ «ويك ما تصنعُ في الحرب الظباء»، فتخبره بالواجب الوطني المقدس، وأنها ستسعف الجرحى، وتحارب الدب الروسي، وأن الميكادو (أمبراطور اليابان) قد علمهم حب الوطن، وأن يروا الأوطان أمًا وأبا.

يقول حافظ:

كنتُ أهوى في زماني عادةً      وهبَ اللّهُ لها ما وهبا  
ذات وجهٍ مزج الحُسنُ به      صُفرةٌ تُنسي اليهود الذهبا

(ويطلق على اليابان الجنس الأصفر فيستغل ذلك ليتغزل في معشوقته اليابانية الخيالية)، ثم يقول على لسانها:

ودعاني موطني أن أغتدي      علّني أفضي له ما وجبا  
نذبحُ الدبَّ ونفري جلده      أيظنُّ الدبُّ ألا يُغلبا  
والدبُّ هو علامة روسيا.

فلما اعترض عليها حافظ بأن الحرب ليست للظباء، وأنه قد بلي الحرب (قاتل في السودان مع الجيش المصري)، وعرف أوارها وهيبها، أخبرته أن واجبها الاشتراك في إنقاذ الجرحى:

أخدمُ الجرحى وأفضي حقَّهم      وأواسي في الوغى من نُكبا  
هكذا الميكادُ قد علّمنا      أن نرى الأوطان أمّا وأبا  
ملكٌ يكفيك منه أنه      أنهض الشرق فهزَّ المغربا

وفي القصيدة الأخرى بعنوان: «الحرب اليابانية الروسية» يقول في مطلعها:

أساحة للحرب أم تحسّر      ومورد الموتِ أم الكوثرُ  
وهذه جندٌ أطاعوا هوى      أربابهم أم نَعَمٌ تُنحرُ

وقد ندّد بالحرب حيث قُتل وجرح فيها مئات الآلاف والمستفيد من ذلك قيصر روسيا وأمراطور اليابان، وندّد بالروس باعتبارهم هم المستعمرون، ولكن لم ينسَ اليابان، فيقول:

قد أقسم البيض بصلبانهم      لا يهجرون الموت أو يُنصروا  
وأقسم الصفرُ بأوثانهم      لا يغمدون السيف أو يظفروا  
فمادت الأرض بأوتادها      حين التقى الأبيض والأصفرُ  
وأثملتهم خمرٌ من دم      يلهو بها (الميكادُ) والقيصرُ

ثم يقول:

إن كان هذا الدبُّ لا يثنى  
وذلك التنين لا يقهرُ  
والبيض لا ترضى بخذلانها  
والصَّفْرُ بعد اليوم لا تكسرُ  
وأصبحت (مكدن) ياقوتةً  
يغار منها الدرُّ والجوهرُ

و(مكدن) مدينة في منشوريا وكانت بها الموقعة الفاصلة التي بدأت يوم ٦ مارس ١٩٠٥، وبلغ مجموع ما خسره الفريقان ١٢٠٠٠٠٠ قتيل وجريح، وأسر فيها من الروس أربعين ألفاً، وقد غطت الدماء القانية أرض (مكدن) حتى كأنها ياقوتة حمراء تزرى بالدرِّ والجوهر.

ثم يقول:

أمسى (كرويتكين) في غمرة  
وبات (أوياما) له ينظرُ  
وظلت الروسُ على جمرة  
والمجدُّ يدعوهم ألا فاصبروا  
وذلك الأسطول ما خطبهُ  
حتى عراه الفزعُ الأكبرُ

ويدهشنا معرفة حافظ لتفاصيل الحرب وأن قائد الروس «كرويتكين» قد انهزم وهو يعاني مرارة الهزيمة، وقائد اليابان (أوياما) ينظر إليه بازدراء. ويحدثنا عن تدمير الأسطول الروسي المعروف بأسطول البلطيق، الذي جاءت به روسيا إلى الشرق، قام القائد البحري الياباني «طوجو» بدكِّه وإنزال الهزيمة به.

يقول حافظ:

وذلك الأسطول ما خطبهُ  
أكلما لاح له سابعُ  
حتى عراه الفزعُ الأكبرُ  
تحت الدُّجى أو قاربٌ يمخُرُ  
ظنَّ به (طوجو) فأهدى له  
تحيةً (طوجو) بها أخبرُ

ثم يتدد بالقيصر الذي أرسل هؤلاء الجنود ليموتوا وهو مستمتع بالملذات في

قصره، فيقول:

هل درى القيصر في قصره  
فكم قتيل بات فوق الثرى  
ما تعلنُ الحرب وما تضمُرُ  
يتنابه الأظفُورُ والمنسُرُ

والأظفور: كل ما له ظفر ومخلب من السباع، والمنسر منقار الطائر، وبالذات النسور والعقبان التي تأكل الرمم، وتكثر عند وجود القتلى المنجلدين في العراء.

وكم جريحٍ باسطٍ كفّه	يدعو أخاه وهو لا يُبصرُ
وكم غريقٍ راح في جُتةٍ	يهوي بها الطودُ فلا يظهرُ
وكم أسيرٍ بات في أسره	ونفسه من حسرةٍ تقطرُ
إن لم تروا في الصلح خيراً لكم	فالدهر من أطماعكم أقصرُ
تسوءنا الحرب وإن أصبحت	تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرق حينٌ إذا	ما ذكر الأحياء لا يُذكرُ
ومرَّ بالشرق زمان وما	يمرُّ بالبال ولا يخطرُ
حتى أعاد البصفرُ أيامه	فانتصف الأسودُ والأسمرُ
فرحة اللّه على أمةٍ	يروى لها التاريخ ما يؤثرُ

وهكذا ينتهي بفرحه بانتصار اليابان الصفر على البيض المستعمرين وإن كان قد أعلن كرهه وبغضه للحرب.

وقد أدت هذه الهزيمة إلى ازدياد النقمة في روسيا وحدثت قلاقل وبعض المذابح في روسيا، حتى أن القيصر اضطر للموافقة على إجراء إصلاحات جذرية، وانتخابات ديمقراطية، ومجلس برلمان (الدوما)، وأعطيت الأقليات حرياتنا الدينية. وفي ذلك العام استعاد أكثر من ثلاثمائة ألف من التتار والبشكير الذين تمّ تنصيرهم في الماضي، استعادوا دينهم الإسلام وعادوا إليه زرافات ووحيدانا. ونشط المسلمون نشاطاً كبيراً، وظهرت الصحف والمجلات الإسلامية. وازدادت طبعات القرآن الكريم الذي تمّ طبعه في قازان.

ولكن القيصر والنخبة الحاكمة الروسية غيرت المبادئ التي تم الاتفاق عليها عام ١٩٠٥، وبحلول عام ١٩٠٧، كان القيصر قد سحب معظم الصلاحيات من الدوما، وتمت مراقبة الصحافة، وبدأت الدولة البوليسية تعيد أسلوبها القديم الذي تجاوزه الزمن.



## نهاية القيصرية في روسيا

وفي عام ١٩١١ تمّ اغتيال رئيس الوزراء ستولبين الذي عينه القيصر عام ١٩٠٦، والذي أراد أن يخفف من الحريات التي أطلقها دستور عام ١٩٠٥. وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، انضمت روسيا لبريطانيا وفرنسا ضد ألمانيا والدولة العثمانية، واتفقت بريطانيا وفرنسا وروسيا على تقسيم تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) بينهم، كما قامت بريطانيا بإصدار وعد بلفور لليهود في نوفمبر ١٩١٧. ووقعت بريطانيا وفرنسا وروسيا اتفاقية سايكس-بيكو حيث أعطيت بريطانيا مصر وفلسطين والسودان والعراق وإيران والبحرين والكويت، وأعطيت فرنسا دول شمال المغرب (تونس والجزائر والمغرب) وسوريا ولبنان.

وأخذت روسيا شمال إيران وأذربيجان، ووعدت بأن تستعيد القسطنطينية وتستولي عليها. ولكن القلاقل ازدادت في روسيا فقد اغتيل الأفاق الدجال راسبوتين سنة ١٩١٦ لجرائمه العديدة، مع أن القيصر وزوجته وقعا تحت تأثيره، تحت زعم أنه سيداوي ابنهم المصاب بالناعور (الهيمو فيليا وهو مرض وراثي تحمله المرأة وينتقل إلى ٥٠ بالمئة من أبنائها الذكور)، وكان يبدو لهم كقدّيس طاهر مع أن جرائمه بلغت عنان السماء، حيث اغتصب مئات الفتيات من كل الطبقات، واغتال كل من عارضه أو انتقده بمؤامرات قذرة كان يمحكها بمكر ودكاء شيطاني، واستطاع أن يفلت من محاولات اغتيال سابقة بما فيها السمّ الذي تجرّعه، ولم يؤثّر فيه.

وفي فبراير عام ١٩١٧، بدأت إضرابات العمّال وتكوّنت نقابات العمّال القوية وزادت الاضطرابات حتى أن القيصر نيقولا الثاني أعلن عن تخليه عن الحكم في مارس ١٩١٧. وفي أبريل من نفس العم تولى ألكسندر كراينسكي قيادة الدولة، وعاد لينين اليهودي الأصل من سويسرا إلى بتروجراد (هي نفسها بطرسبرج)، والذي كانت تمّده عائلة زوتشيلد اليهودية بالأموال من بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة. ومن عجائب الزمان أن يدعم الرأسماليون اليهود الثورات اليسارية

الخمراء، فقد أعانوا روزا نورمبرج في ثورتها الخمراء في ألمانيا، ولكن ثورتها فشلت. وأعادوا الكرّة في روسيا. وفشلت أول محاولة انقلابية التي نظمها البولشفيك (الشيوعيون) في يولييه ١٩١٧. ثم كرروا المحاولة في نوفمبر وانضمت إليهم البحرية الروسية. وبها استطاعوا أن يصلوا إلى الحكم. واستمرت المعارك بين البولشفيك الذي يرأسه لينين اليهودي الأصل وبين حكومة كراينسكي. وقد دعمت فرنسا وبريطانيا حكومة كراينسكي أول الأمر، ثم تخلّت عنها بتأثيرات اليهود في تلك الدول الذين دعموا الثورة البلشفية بكل الوسائل المتاحة لهم.

وانضم بعض المسلمين إليها، ولكنهم وجدوا أن كراينسكي واركناجل يريدونهم كبش فداء، ورفضوا أن يعطوا المسلمين حقوقهم، بينما قام لينين بإصدار النداء تلو النداء للمسلمين ليقوموا بالثورة من أجل دينهم وقرآنهم، وأنه سيسمح لهم عند الانتصار بإقامة دولتهم المستقلة، إلى آخر تلك الدعايات الكاذبة التي اغترّ بها كثير من المسلمين والتي سنستعرضها في حينه.

وفي ديسمبر ١٩١٧ أعلنت مولدافيا والمناطق ذوات الأصل الفنلندي استقلالها. وفي يناير ١٩١٨ أعلنت أرمينيا وجورجيا وأذربيجان وبلروسيا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا استقلالها. وبدأت الثورة الإسلامية الهائلة المعروفة باسم البشمرجة في آسيا الوسطى والتي استمرت من فبراير ١٩١٨ إلى ١٩٢٨.

ومن بداية أغسطس ١٩١٨ بدأ عهد الإرهاب والرعب على يد لينين وخاصة بعد المحاولة الفاشلة لاغتياله.

### استيلاء لينين على روسيا

وفي عام ١٩٢٠ رفعت بريطانيا والحلفاء الحصار على روسيا. واستطاعت قوات لينين أن تستولي على معظم أراضي روسيا القيصرية. واستولى لينين على القرم بعد حصار طويل أدى إلى وفاة مئات الآلاف بسبب المجاعة. وفي ديسمبر ١٩٢٢ تم إعلان قيام الاتحاد السوفياتي من روسيا وأوكرانيا وبييلوروسيا وجمهورية

ما وراء القوقاس التي تحوّلت فيما بعد إلى ثلاث جمهوريات هي: جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان. وفي يناير ١٩٢٤ مات لينين بعد إصابة مزمنة بمرض الزهري الخبيث الناتج عن الزنا، واعترفت بريطانيا وأوروبا بالاتحاد السوفياتي. وفي نفس العام أيضاً انضمت كل من تركمنستان وأوزبكستان إلى الاتحاد السوفياتي كجمهوريات سوفياتية. وتحول حزب البولشفيك رسمياً إلى مُسمى الحزب الشيوعي في ديسمبر ١٩٢٥. وكان المكتب السياسي للحزب مكوناً من عدد كبير، وأغلب أعضائه من اليهود. واستطاع ستالين أن يستولي على السلطة بعد صراع مرير بينه وبين تروتسكي وزينوفيف وكامنيف (وكل هؤلاء الثلاثة من اليهود)، وتم طردهم من المكتب السياسي للحزب عام ١٩٢٦. ومنذ عام ١٩٢٨ تمت سيطرة ستالين على روسيا بأكملها مع مستعمراتها السابقة، وبدأ عهد الحديد والنار. كما بدأ على يد ستالين الاهتمام بالصناعات الثقيلة. ومات الملايين بسبب المجاعات وأثناء الثورات، في عهد ستالين الدموي. ونال المسلمون من ذلك الأذى القسط الأوفر... وطرد ستالين سكان القرم بأكملهم بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بزعم أنهم تعاونوا مع النازي، ورغم أن مجلس السوفيات الأعلى برّأهم من هذه التهمة إلا أنهم لم يعودوا رسمياً إلى وطنهم إلى اليوم. وقد نفاهم ستالين إلى مجاهل سيبيريا وإلى سهوب قازاقستان. كما قام ستالين أيضاً بطرد الشيشان من وطنهم بنفس الزعم. ولكن هؤلاء عادوا عندما برّأهم مجلس السوفيات الأعلى في عهد خروتشوف. وكم من الجرائم البشعة التي قام بها ستالين ورئيس مخابراته برياً السفاح في حق الأبرياء من الروس والمسلمين وغيرهم من سكان الاتحاد السوفياتي. وإن كان نصيب المسلمين من ذلك الظلم أوفر نصيب. وقد مات في عهده الأسود أكثر من عشرة ملايين شخص بسبب المجاعات والثورات (نصفهم تقريباً من المسلمين) كما قتل في عهده في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٨ - ١٩٤٥) أكثر من عشرين مليوناً من سكان الاتحاد السوفياتي.



## الفصل الرابع

لينين وخطابه للمسلمين

والحكم البلشفي في العهد السوفياتي

بعض العوامل التي أدت إلى مساندة المسلمين لثورة أكتوبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م عند قيام ثورة أكتوبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م، كان عدد المسلمين ٢٥ مليوناً تقريباً، حسب ما ذكره كتاب «الاتحاد السوفياتي والعالم الإسلامي» لإيفار سبكتور؛ بينما ذكر شكيب أرسلان في «حاضر العالم الإسلامي» أنهم كانوا ٣٥ مليوناً موزعين على ١٦ منطقة. وتقول المصادر الرسمية الروسية، بأن الحكومات القيصرية، قد قامت بمصادرة أخصب أراضي المسلمين في سيبيريا وقازان، وعلى طول مجرى نهر الفولجا والقوقاس، وعبر القوقاس والقرم (كريميا) والتركستان. وفي خلال القرنين السابقين لثورة أكتوبر صادرت حكومات القياصرة المتعاقبة ٤١,٦٧٥,٠٠٠ دياستين (ادياستين = ٢٠٧ فدّان)، من أخصب أراضي المسلمين أي أكثر من مائة مليون فدّان<sup>(١)</sup>.

وواجه تثار القرم على وجه الخصوص حملات التنكيل والمصادرة... ففي عهد كاترين ١١٧٦-١٢١١هـ / ١٧٦٢-١٧٩٦م قامت كاترين بمصادرة مئات الآلاف من أخصب أراضي تثار القرم وأعطتها لعشاقها المفضلين بوتكين وبولجاكوف وزوبوف وزوتوف واليوناني كاتشيوني... وفي عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م هاجر من تثار القرم مائة ألف إلى تركيا، بعد أن صودرت أملاكهم وأراضيهم... وفي عام ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م بعد حرب القرم، كذلك قرّ الآلاف إلى تركيا. وفي عام

(١) كتاب الاتحاد السوفياتي والعالم الإسلامي، تأليف إيفار سبكتور.

١٣١٩هـ / ١٩٠١م اضطرت خمسون ألف تتاري قرمي إلى الهجرة في مواجهة سياسة الترويس التي اتبعتها حكومة نيقولا الثاني لتتار القرم.

ولم تكتفِ الحكومات القيصرية بمصادرة جميع الممتلكات الخاصة للتتار المسلمين وخاصة في القرم بل قامت كذلك بمصادرة جميع أملاك وأراضي الأوقاف التي كانت كبيرة جداً، وينفق من ريعها على آلاف المساجد والمدارس وأعمال الخير.

وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى امتلأت شوارع المدن التركية بالمهاجرين التتار الذين عُرفوا باسم المهاجرين الروس.

وعند قيام الحرب العالمية الأولى كان في صفوف جيوش القيصر نيقولا الثاني مليون ونصف المليون من الجنود المسلمين الذين أُجبروا على قتال الألمان والأتراك في حرب هدفها إزالة تركيا مركز الخلافة من الوجود، والاستيلاء على إسطنبول (القسطنطينية)، وتحويلها مرة أخرى إلى عاصمة للمسيحية الأرثوذكسية، وإعادة الصليب إلى كنيسة آيا صوفيا التي حوّلها محمد الفاتح سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م إلى مسجد عندما فتح القسطنطينية.

والغريب حقاً أنه رغم الاضطهاد القيصري ورغم أنهم يجارون دولة الخلافة إلا أن هؤلاء المسلمين حاربوا دون إظهار أي عصيان في صفوف قوات القيصر، على الأقل حتى عام ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م.

وفي ٢٥ يونيو ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م فرضت القوات الروسية على جميع المسلمين من سن (١٩ إلى ٤٣) من القازاخ، والأوزبك، واليغور، والتتار، والتركمان القيام بأعمال السخرة في مؤخرة الجيوش الروسية. مما أدّى إلى ثورة المسلمين في آسيا الوسطى... وفي سبتمبر ١٣٣٥هـ (١٩١٦م) قررت الحكومة القيصرية التصدي لهذه الثورة بأشد أنواع البطش والتنكيل... ورغم كل أساليب البطش البربرية التي اتبعت إلا أن توالي الأحداث جعل هذه الثورة تستمر فعلاً حتى قيام ثورة الباسمشتية (١٩١٨-١٩٢٨). وفي مارس ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م قام الدوما (البرلمان)

الرابع بالثورة ضد استبداد القيصر، وتكوّنت الحكومة المؤقتة برئاسة الأمير ليفوف، وكرينسكي، ونادت بقيام روسيا الليبرالية الديمقراطية... ومع هذا فقد أعلنت هذه الحكومة موقفها المعارض لإعطاء أي نوع من الاستقلال لمسلمي الأمبراطورية الروسية، كما أنهم استمروا في الحرب العالمية ضد تركيا، ووافقوا على المقررات السرية التي عقدها القيصر نيقولا مع فرنسا وبريطانيا لاقتسام العالم الإسلامي، وابتلاع معظم الأراضي التركية بما فيها إسطنبول (القسطنطينية)... أي أنها كانت على نفس خطّ الدول الاستعمارية الغربية.

ولكن ثورة أكتوبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م قلبت الموازين. وعندما اتجه الحلفاء وخاصة بريطانيا لنجدة حليفتها حكومة روسيا (البيضاء) سارع لينين إلى فضح الاتفاقيات السرية التي عقدها بريطانيا مع فرنسا وروسيا لاقتسام أراضي المسلمين.

### بيان لينين الأول إلى المسلمين

وأصدر لينين أول بيان له إلى مسلمي روسيا والشرق بعد شهر من استيلائه على السلطة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م. وحاول فيه أن يتقرب إلى المسلمين ويصوّر لهم أن ثورته البلشفية ليست إلا في صالحهم. وأنه يقف معهم ضد الاستعمار الغربي. ويعترف بحريتهم واستقلالهم بل ويدافع عن إسلامهم وقرآنهم. يقول لينين:

«يا مسلمي روسيا... يا مسلمي الشرق... أيها الرفاق... أيها الأخوة:

«إنَّ أحداثاً عظيمة تحدث الآن في روسيا. إنَّ العهد الدموي (الحرب العالمية الأولى) الذي بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والإمبرياليين في أرضكم قد قارب النهاية... وتحت ضربات الثورة الروسية، فإنَّ النظام الاستعبادي الاستبدادي يتقوَّض بناؤه الآن. وإن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصي دماء الشعوب يقترب من أيامه الأخيرة الآن. وإن عالماً جديداً يولد الآن... عالم العمال والأحرار، وعلى رأس ثورة الفلاحين والعمال يقوم مجلس الشعب المُمثِّل بالقوميسار الروسي...

«إن عهد الرأسماليين والإمبرياليين يتداعى، وإن الأرض تميد من تحت أرجلهم وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم...

«وفي خضمّ هذه الأحداث العظام، نلتفت إليكم يا مسلمي روسيا والشرق الذين استرقّكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم.

«يا مسلمي روسيا، يا تزار الفولجا والقرم، يا أيها القرغيز وسكان سيبيريا والتركستان، يا سكان القوقاس الأبطال، وقبائل الشاشان وسكان الجبال الأشداء.. أنتم يا من هُدِّمت مساجدكم وحُطِّمت معابدكم.. ومزقّ القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم.. وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم..

«ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحرّيتكم في العبادة.. إننا هنا نُعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم، وإن عاداتكم وتقاليديكم حُرّة لا يمكن المساس بها.. ابنوا حياتكم الحرّة الكريمة المستقلة دون أي معوقات.. ولكم كل الحق في ذلك.. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ورجالها والعمال والفلاحين والجنود وممثليهم.. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حرّيتكم الدينية والمدنية.

«يا مسلمي الشرق... يا مسلمي إيران وتركيا وبلاد العرب والهند.. أنتم يا من تاجر مصاصو الدماء الأوربيون المستعمرون بحياتكم وأوطانكم وحرّياتكم لعدة قرون من الزمان.. أنتم يا من يتأمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونوا أتونها ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم.

«أما نحن، فنعلن بأعلى صوتنا أن الاتفاقيات السريّة التي أبرمت بين روسيا القيصرية وبين فرنسا وبريطانيا الاستعماريّتين، والتي بموجبها اقتسموا أراضيكم أيها المسلمون، واستلبوا ثرواتكم ونهبوا خيراتكم، نعلن أنها باطلة.. ونعلن أن حُطّط القيصر المخلوع وحكومة كرينسكي التي أزاحها الشعب للاستيلاء على القسطنطينية (عاصمة الخلافة الإسلامية) باطلة ولاغية.



«إن حكومة جمهورية روسيا الثورية ومجلس الشعب الأعلى فيها يعلنون أنهم ضد احتلال أراضي الغير بالقوة.. ونعلن أن القسطنطينية ينبغي أن تبقى بيد المسلمين...»

«كما نعلن أن الاتفاقية السرية بين بريطانيا وروسيا القيصرية لاقتسام إيران بينهما لاغية وباطلة.. ونعلن أننا سنسحب قواتنا من إيران بمجرد انتهاء العمليات العسكرية.. ونضمن استقلال إيران الكامل. وإننا نعلن أيضاً أننا ضد تقسيم تركيا، واقتطاع أرمينية منها، وأن هذه الاتفاقيات السرية باطلة ولاغية.

«ليس من روسيا أيها المسلمون - سيأتي استعبادكم بل من الدول الأوربية الاستعمارية.. من هؤلاء اللصوص مصاصي الدماء الذين استعمروا أرضكم، واستلبوا ثرواتكم، وزجوا بأبنائكم في أتون حرب لا يأتيكم منها إلا الدمار، وفي مقابل ذلك كله يقتسمون ما بقي من أرضكم، وثوراتكم، وكأنكم وبلادكم غنائم الحرب المنتظرة..»

«ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبدوا أوطانكم.. نعم ثوروا الآن في هذا الوقت الذي تشتعل فيه الثورة وينهدم فيه بنيان الطغيان والاستبداد ويتفوض فيه نظام الاستعمار...»

«ثوروا فإن أي شرارة الآن ستكون حريقاً يلتهم بُنيان الطغيان والاستبداد والاستعمار. إن الهنود المسلمين الذين ذاقوا الدُّلَّ والاستعباد لقرون طويلة، يثورون الآن ضد بريطانيا العظمى. ويرفضون أن يُبقوا حول أعناقهم الأغلال التي غلَّتْهم بها بريطانيا لعدة قرون من الزمان.

«اليوم لا يمكن السكوت على هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد.. إنه وقت الثورة ضد المستعمرين الإنجليز الغاصبين لأوطانكم المحاربين لدينكم المستيحيين لمقدساتكم الناهيين لثوراتكم...»

«الآن يا أيها الرفاق والأخوة هو الوقت المناسب للثورة ولصنع مستقبلكم  
الحُرِّ الباسم بأيديكم.

«تقدّموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم وارفعوا أعلام ثورتكم فإن أعلامنا  
وبنودنا قد رُفعت من أجل حرية المُستعَبدين والمظلومين.

«يا مسلمي روسيا ويا مسلمي الشرق هلمّوا إلينا.. إلى طريق الحرية والعدالة  
لنبنى هذا العالم من جديد على أسس الحق والخير والعدل»

### التوقيع

جوزيف ستالين

فلادمير لينين

من كتاب: **The Soviet Union and the Muslim World**.

### خداع لينين للمُسلمين

وقام لينين بتسليم مصحف عثمان ﷺ، الذي كان في حوزة دولة القياصرة، إلى  
ممثلي المسلمين في مؤتمر بتروجراد (بترسبورج ثم سُميت لينينجراد).. كما قام  
بتسليم عدد كبير من الوثائق التاريخية والآثار الإسلامية الهامة التي كان قد استولى  
عليها القياصرة.. وأعادها إلى مسلمي القرم والقوقاس والتركستان.. وأعاد  
مسجد كارافان ساريا في أورنبغ، وبرج سومبكي<sup>(١)</sup>، في قازان، إلى المسلمين بعد  
أن كان القياصرة قد صادروهما في السابق...

(١) يُقال إنه عندما احتلّ إيفان الرهيب قازان عام ١٥٥٢ بعد مقاومة شديدة، تقدّم للزواج من  
فتاة تتارية مسلمة جميلة جداً، فاشترطت عليه أن يبني برجاً، فبنى إيفان البرج، فلما أتمّ  
البناء وطلب الزواج قالت الفتاة إنني أريد أن أصعد إلى أعلى البرج وأعلن لقومي إنني  
سأتزوّجك، كما أعلنت لهم من قبل أنني أرفض الزواج منك، فصعدت البرج ورمت  
نفسها من قمته لتعلن أنها لا تقبل أبداً أن تتزوج كافرأً احتلّ وطنها وقتل أهلها. وقد زرت  
البرج وساحته في ٢٣-٢٥ أكتوبر ٢٠٠٨ مرتين أثناء زيارتي لقازان، ويعتبر أهل قازان هذا  
البرج رمزاً للمقاومة والصمود.

قام لينين بهذه الخطوات حتى يوهم المسلمين أنه في صفتهم ومعهم، وليؤكد لهم أن ثورة أكتوبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م ليست على غرار ثورة مارس التي سبقتها والتي اهتمت بتكوين دولة روسية ليبرالية مع احتفاظها بجميع أراضي المسلمين دون إعطائهم سوى الفتات من حقوقهم..

ولقد وصلت دعاية لينين بين المسلمين إلى درجة الزعم بأن النظام السوفياتي البلشفي إنما يقوم على مبادئ القرآن والشريعة الإسلامية!!

ومن الواضح الجلي عند الدراسة المتأنية لبيانات لينين وستالين إلى المسلمين أن ثورة أكتوبر البلشفية كانت ترى أنها لكي تنجح لا بد أن تستغل المسلمين، وتجعلهم في صفها حتى تنتصر على قوات كولشاك ودينكين وأركينجل الذين كانوا يقودون قوات روسيا البيضاء يساندهم في ذلك بقوة قوات إنجلترا والحلفاء.. كما أن إثارة القلاقل لبريطانيا في الهند وإيران والعراق وتركيا أمر له أهمية بالغة بالنسبة لأمن الثورة في مراحلها الأولى...

ولقد بلغت الدعاية البلشفية مبلغاً كبيراً من النجاح بين المسلمين حتى اعتقد كثير من المسلمين بأن ثورة أكتوبر هي منحة من السماء لإنقاذ المسلمين من الاستعمار الأوربي وخاصة الاستعمار الانجليزي.

لقد بلغ من ذكاء لينين ومكره وخطابه أن تحدث في مؤتمر العمال والجنود للبلاد الروسية المنعقد من ٣-١٦ يونيو سنة (١٩١٧م ١٣٣٦هـ) أي قبيل ثورة أكتوبر) قائلاً: «إذا كان للثورة الديمقراطية في روسيا أن تبقى ديمقراطية بالفعل وليس بالكلام فقط، فإن عليها أن تتحرك بالثورة إلى الأمام، لا إلى الاتفاق مع الرأسماليين على السلام، بدون احتلال أو غرامات على الشعوب المهضومة، بل إلى أن نعلن بكل صراحة أن احتلال أي أرض ليس إلا إجراءً بربرياً وإجرامياً، وبهذا نحتمي آلاف الملايين من الشعوب المنكوبة من نير الدولة الإمبريالية. وإننا نرفض تقسيم القوقاس وإيران بين الدول الكبرى»..

وهكذا كان لينين يبدو حتى قبيل ثورة أكتوبر كمنادٍ باستقلال الشعوب الواقعة تحت الاستعمار سواء كان ذلك استعماراً إنجليزياً أم فرنسياً أم روسياً...

واعتقد المسلمون في روسيا أن لينين واقف معهم من أجل استقلالهم الكامل داخل الأراضي الروسية ذاتها، تماماً كما يقف من أجل استقلال جميع الأقطار الإسلامية من ربة الاستعمار الأوربي.

واستمر لينين يصدر البيان تلو البيان إلى المسلمين في روسيا والعالم لكي يساندوا ثورته، ويقوموا في وجه أعدائه، وخاصة بريطانيا التي كانت تحتل أجزاء واسعة من العالم الإسلامي. وكانت باحتلالها إيران ومساندتها للأمير كولشاك ودينكين وأركينجيل الذين كانوا يشعلون الحرب داخل روسيا ضد لينين وثورته موقف العداء الكامل.

ومن آخر هذه البيانات التي وجهها لينين إلى المسلمين بيانه الصادر عام ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م الذي جاء فيه<sup>(١)</sup>: «يا مسلمي العالم الذاهبين ضحايا الاستعمار استيقظوا استيقظوا!!! إن روسيا قد أقلعت عن سياسة الحكومة القيصرية.. تلك السياسة الضارة الخبيثة التي كانت تتمشى عليها حكومتنا السابقة.. إن روسيا اليوم تمدّ يدها إليكم لتعينكم وتنصركم على تحطيم أغلال الاستعباد والاستبداد البريطاني!

«إن روسيا تطلق لكم الحرية الدينية وتعترف بحدود بلادكم المعروفة، ولن توافق على إعطاء رقعة من البلاد التركية إلى الأرمن.. وتبقى مضايق البوسفور والدرديل في أيديكم.. وتظل القسطنطينية (إسطنبول) عاصمة العالم الإسلامي.. ويُمنح المسلمون في روسيا الاستقلال التام!!»

«إن ما نطلبه منكم لقاء هذا هو قيامكم لمقاتلة المستعمرين الغاشمين الذين دأبهم ومبتغاهم استنزاف بلادكم، واستلاب ثرواتكم، واستعباد أوطانكم.

(١) «حاضر العالم الإسلامي» للأمير شكيب أرسلان.

بل لقد استمر لينين في دعايته الكاذبة المتملّقة للمسلمين حتى بعد أن ظهرت حقائق سياسته وبدأ يحتلّ كثيراً من المناطق الإسلامية.. وقام الكومنترن بتوجيه الدعوة إلى المسلمين في كافة مناطقهم ليحضروا مؤتمر باكو الذي قرّر انعقاده في ١ سبتمبر سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م والذي تولّى رئاسته اليهودي زينوفيف (أحد أقطاب الشيوعية اليهود والذي تولّى رئاسة مجلس السوفيت الأعلى فيما بعد). وقد جاء في الدعوة التي وجّهت في أغسطس سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م لحضور هذا المؤتمر:

«أيها العمال والفلاحون في إيران. إنّ رجال الحكومة القاجارية (وهي الأسرة الحاكمة التي سبقت مجيء الضابط رضا بلهوي) في طهران ما برحوا جميعاً يستلبون أموالكم وأراضيكم طيلة قرون عديدة... وإن الأراضي التي هي ملككم بحق صريح على مقتضى الشريعة الإسلامية قد امتلكها لصوص حكومة طهران... وها هم يبيعون البلاد لبريطانيا بمبلغ بنخس ومقداره مليوني جنيه فقط لكي يقوم البريطانيون بامتصاص دمائكم وإهدار كرامتكم ومحاربة دينكم...

«أيها الفلاحون في العراق.. قد أعلنت بريطانيا أن بلادكم مستقلة، ولكن هناك ثمانين ألف جندي بريطاني يحتلون بلادكم، وينهبون ثرواتكم، ويلوثون شرفكم، ويتهكون حرّات نساءكم، ويمسّون كرامة دينكم!!

«أيها الفلاحون في الأناضول: إن الحكومات البريطانية والفرنسية والإيطالية قد احتلت القسطنطينية. وجعلوها تحت أفواه المدافع. وطفقوا يمتهنون كرامة السلطان ويعاملونه معاملة الأسير الرقيق وفرضوا عليه أن يسلمهم مالية البلاد لينزفوا ثرواتكم ويمتصوا دماءكم.. وها هم قد استولوا على مناجم هرقلية واحتلوا موانئكم وهم الآن يسوقون الجيوش لاجتياحكم...

«أيها الفلاحون في سوريا وبلاد العرب، إن بريطانيا وفرنسا وعدتاكم بالاستقلال التام، ولكن ها هي جيوشها تحتلّ بلادكم وتدنس أرضكم وتهزأ

بعقيدتكم ودينكم.. وستنّون لكم الأنظمة والقوانين التي تتعارض مع شريعنتكم!!».

ويتهيء البيان بدعوتهم إلى الحضور إلى باكو قائلاً: «استخفّوا بمصاعب السفر، وجوبوا الفيافي والقفار حتى تصلوا إلى هذا المكان المقدس!! الذي فيه تستطيعون العمل في سبيل إحياء ماضيكم المجيد، وإقامة شرائع دينكم القويم.. أقدموا علينا لنعمل في سبيل نجاتكم وخلاصكم من رقّ العبودية إن كنتم تريدون حياة الحرّية والعدل والمساواة<sup>(١)</sup>».

وقد أعلن لينين منذ فترة مبكرة للمكتب السياسي في الحزب الشيوعي أن على الثورة البلشفية أن تؤيد الحركات القومية البرجوازية في القوميات الواقعة في أطراف روسيا مثل الشيشان، وتار القرم، وأراضي التركستان حتى يثوروا ضد قوات روسيا البيضاء، كما ينبغي دعم الثورات في البلاد الإسلامية والعربية ضد بريطانيا التي كانت حتى ذلك الوقت تساند قوات كولشاك واركينجل (قوات روسيا البيضاء المعادية للحمر). وكان لينين وستالين والمكتب السياسي للحزب الشيوعي يعتبرون ذلك ضرورة تكتيكية سيتم التخلص منها في مرحلة تالية عندما تتأمن الثورة، وتستولي البروليتاريا على السلطة.

وقد قام لينين كما هو واضح من بياناته إلى المسلمين باستغلال العواطف القومية ضد القياصرة وظلمهم، وضد الاستعمار البريطاني، ونجح في ذلك إلى حدّ كبير.

وهكذا اعتبر لينين ورفاقه أن الظواهر القومية البرجوازية، بل وحتى الدينية الرجعية يمكن استغلالها في مصلحة الثورة ولفترة محددة. وبالتالي يمكن سحق هذه الشعوب في فترة لاحقة عندما يتم انتصار الثورة. وهو بالفعل ما قام به لينين وستالين من بعد. وهو أمر قد قرره من قبل ماركس وإنجلز حيث أعلن كلاً منهما

(١) مجلة الأزفستيا الصادرة ٣٥ يوليو ١٩٢٠م، كما ينقلها عنها كتاب «الاتحاد السوفياتي والعالم

على حدة بأن الثورة قد تحتاج إلى دعم القوى البورجوازية، وأيد ماركس حركات التحرر في بولندا كمجرد إجراء وقتي إلى أن يحصل التقدم في روسيا.

وكان موقفها واضحاً من وجوب استغلال القوى البورجوازية في محاربة الرأسمالية والاستعمار لمرحلة معينة فقط، ثم القضاء عليها فيما بعد، وهو ما نفذه لينين وستالين بكل دقة.

المسلمون يصدّقون وعود لينين

وصدّق المسلمون وعود لينين لهم بالحرية الدينية، وبالاستقلال التام، وناصروا ثورته، وقامت الثورة في كل المناطق الإسلامية، فأعلن القوقاز ثورتهم بقيادة الإمام الداغستاني نجم الدين غوتسو الذي عُرف عند الروس باسم نجم الدين غوتسنسكي وذلك في نهاية ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م. وكان هذا الإمام أيضاً من شيوخ الطريقة النقشبندية التي أخرجت مئات الألوف، بل ملايين المجاهدين، وعلى رأسهم الإمام الشيخ محمد شامل، وشيخه الإمام القاضي ملا محمد المشهور بالغازي محمد الكمراوي، والأمير المجاهد حمزة الخنزاجي الذين قادوا ثورة القوقاس من سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م إلى سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م، وهي التي أخرجت أيضاً الإمام خليفة محمد علي الذي قام بثورته ضد القيصرية سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م في فرغانة (الواقعة على نهر سيحون) (سرداريا) في المنطقة الواقعة اليوم في جمهورية أوزبكستان، كما كانت هذه الطريقة هي التي أخرجت الشيخ منصور أشرمة قائد أول ثورة ضد الغزو الروسي وذلك سنة ١٧٨٥، وقد أسره الروس سنة ١٧٩١ بعد معارك طاحنة وتوفي في سجنه في حصن شلوسليبرج.

وقد سبقت ثورة الإمام خليفة محمد علي ستة عشرة ثورة في التركستان، وذلك منذ عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٥م وكان دعائها وقادتها من مشايخ الطرق الصوفية، وخاصة الطريقة النقشبندية.

واستمرت ثورة الإمام نجم الدين غوتسو، وأعلن القوقاز استقلاله في مايو سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م وتبعته جورجيا بعد بضعة أسابيع.

لينين يقوم بحرب إبادة للمسلمين بعد انتصاره على قوات روسيا البيضاء بمساعدة المسلمين

وبما أن لينين كان لا يزال مشغولاً بتوطيد أركان مملكته الحمراء... فإنه لم يستطع إرسال جحافل جيوشه، ولكنه استطاع إرسال مجموعة من الإرهابيين الروس الذين أثاروا مخاوف المستعمرين الروس الذين استوطنوا القوقاس منذ القرن التاسع عشر، وخاصة في باكو، كما أنهم اتفقوا مع الحزب الشيوعي المحلي فأقاموا مذبحه مارس سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م التي راح ضحيتها في باكو فقط ١٨٠٠٠ مسلم<sup>(١)</sup>.. وقد تمكّن المجاهدون بالتعاون مع قوات نوري باشا ناظر الحربية السابق في تركيا أن يحمّدوا هذه المجزرة الشيوعية، وعلنوا قيام جمهورية أذربيجان التي اعترف بها الحلفاء، كما اعترف بها لينين نفسه ريثما يتمكّن من الغدر بها. وفعلاً في ٢٧ أبريل سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م هجم عليها بجحافلها الحمراء بعد أن وطّد أركان مملكته الحمراء في روسيا...

ومنذ سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م إلى سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م قام شعب القوقاس المسلم المجاهد باثنين وخمسين ثورة أخذت بكل قسوة وهمجية<sup>(٢)</sup>، ووجدت الموافقة الضمنية السريّة من الدول الغربية التي لم تتحدّث قطّ عن أي ثورة إسلامية، بل تتجاهلها وتُسدل عليها حُجب التعقيم، بينما لا تكف أجهزة الإعلام الغربية عن الحديث عن انتهاك حقوق الإنسان في الاتحاد السوفياتي إذا مُنع يهودي من السفر إلى إسرائيل أو أمريكا.. وتقيم الدنيا وتقعدها من أجل أن تسافر ابنة ساخاروف لتلحق بزوجها.

ولم تقتصر هذه الثورات على أهل القوقاس الجبليين الأشداء بل امتدت لتشمل تار القرم وتار الفولجا، وسكان بشكيريا، وجبال الأورال، وعلى امتداد رقعة التركستان التي تزيد على أربعة ملايين كيلومتر مربع.. والتي قامت فيها

(١) مجلة الشؤون السوفياتية، عدد ٤ / ١٩٦٠م، وعدد ٢٧ و ٢٨ سنة ١٩٧٠م.

(٢) المرجع نفسه.



مئات الثورات منذ بداية الغزو الروسي القيصري إلى الاحتلال الشيوعي البلشفي.. ومن أشهر هذه الثورات ثورة الباسماش التي امتدت من سنة ١٣٣٧ إلى سنة ١٣٤٧هـ/١٩١٨ - ١٩٢٨م والتي شملت آسيا الوسطى بأكملها.. والتي استطاعت جحافل لينين (بالتعاون مع المستوطنين الروس الذين زرعتهم دولة القياصرة البيض في وسط التركستان) أن تقضي عليها بكل وحشية وهمجية.

وقامت بعدها قوّات لينين بالانتقام من الأهالي فقامت بقتل وسحل مئات الآلاف، واشترك في هذه المذابح الجماعية المستوطنون الروس، كما فعلوا من قبل مع القياصرة عدة مرات، ومنها مذبحه عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م (أي قبيل ثورة ١٩١٧م). ونتيجة حملات الإبادة الجماعية فرّ ملايين من أهل التركستان إلى المناطق المجاورة في أفغانستان، وإيران، والصين، ومناطق شرق آسيا، ووصل كثير منهم إلى تركيا، ومجموعات أخرى توّطنت الحجاز في مكة والمدينة وجدة والطائف ومنها إلى سائر أرجاء المملكة العربية السعودية.

وقد بدأ لينين حملته على المناطق الإسلامية في أبريل ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م بعد أن استتبّ له الحكم في روسيا القيصرية.. وبدأ بمنطقة الأورال التي كانت قد أعلنت استقلالها مع بداية الثورة، ثم توغّلت قواته في شمال القوقاز.. وخانية خوقند (فرغانة) وتمّ له إخضاع هذه المناطق قبل نهاية ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م وفي عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م قضى لينين على جمهورية ألشاي، وفي أبريل ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م استولى على أذربيجان.. وفي نفس العام توجّهت قوّاته إلى القرم حيث واجهت مقاومة شديدة استمرت عامين، فعمدت القوّات الروسية إلى حصار أهل القرم حصاراً تاماً ومنعت الأغذية عنهم حتى أن الرفيق كالينين (اليهودي) الذي كان مسؤولاً عن القرم ذكر في تقريره الذي نشرته (أزفستيا) في عددها الصادر ١٥ تموز/ يوليو سنة ١٣٤١هـ) (١٩٢٢م)، أن عدد الذين أصابتهم المجاعة في يناير (١٣٤١هـ) (١٩٢٢م) كان ٣٠٢,٠٠٠ شخصاً، مات منهم بسبب المجاعة ١٤٠,٤١٣. وفي مارس أصابت المجاعة ٣٧٩,٠٠٠ مات منهم ١٩,٩٠٢ شخصاً. وفي أبريل بلغ عدد الذين عصّتهم

أنياب المجاعة ٣٧٧,٠٠٠ مات منهم ١٢,٧٥٤.. وجملة من أصابتهم المجاعة الشديدة خلال أشهر الحصار الستة بلغ أكثر من مليون تتاري قرمي مسلم، أما الذين لقوا حتفهم نتيجة تلك المجاعة فقد كانوا أكثر من مئة ألف...

وهكذا ترى - عزيزي القارئ - أن الفترة التي يعتبرها المؤرخون ذهبية بالنسبة للمسلمين في الاتحاد السوفياتي وهي من سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م إلى سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م... قد رأت من الأهوال ما لا يخطر ببال إنسان.

أما الفترة التي تلت ذلك فهي فترة المواجهة الحاسمة لإبادة الإسلام والمسلمين والتي امتدت من سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م إلى ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م...

وفي هذه الفترة واجه المسلمون حرباً صليبية شيوعية حاكمة لم يجد التاريخ لها نظيراً حتى في أشد فترات قتامة أيام جنكيز خان وهو لاكو...

ففي القرم مثلاً واجه السكان التتار المسلمون حرب إبادة وإذابة منذ دخول القوات البلشفية بقيادة كالينين سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م... وانخفض عدد السكان من خمسة ملايين تتاري قرمي مسلم إلى أقل من مليون في عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، ثم قام ستالين عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م بقتل وطرد جميع من بقي من سكان القرم المسلمين..

ولأول مرة في التاريخ يباد شعب بأكمله ويطرد كلياً من وطنه حتى أنه لا يوجد في القرم تتاري مسلم واحد حتى انتهاء العهد السوفياتي عام ١٩٩١.

ورغم أن مجلس السوفيات الأعلى برأ التتار القوميين من تهمة التعاون مع النازي (التي ألصقها بهم ستالين) في القرار الصادر ١٣٨٧هـ (٥/٩/١٩٦٧م) إلا أن التتار القرميين لا يزالون يُمنعون من العودة رسمياً إلى وطنهم إلى هذه اللحظة<sup>(١)</sup>. وقامت السلطات البلشفية منذ دخولها القرم بتحطيم المساجد وتحويلها

(١) تتبع القرم جمهورية أوكرانيا، وقد عاد الآلاف من أهل القرم المسلمين إلى وطنهم، ولكنهم يعانون لأن بيوتهم وأراضيهم قد تمت مصادرتها، وبالتالي لا يمكن إعادتهم إليها. وهم يجمعون الأموال ويشترون أراضيهم وبيوتهم السابقة تدريجياً. والوضع لا يزال حرجاً في أواخر عام ٢٠٠٨، ولكنه أفضل بكثير مما كان عليه في العهد السوفياتي. وهم الوحيدون الذين تزداد أعدادهم في القرم فقد بلغوا عام ٢٠٠١ أكثر من ١٨ بالمئة، وفي عام ٢٠٠٩ وصلوا إلى ٢٦ بالمئة من السكان.

إلى إصطبلات وصالات ونوادٍ ومتاحف وقد تمّ تهديم وتحويل ١٥٥٨ مسجداً في الفترة الواقعة بين عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م وعام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م إلى نوادٍ ومتاحف وصالات للسينما.

أما التركستان بشقيها الشرقي الواقع تحت سيطرة الصين والغربي الواقع تحت سيطرة روسيا فقد شهدت مذابح مروّعة من عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م إلى عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٣م، وحلّت بالتركستان نتيجة الغزو الروسي البلشفي مجاعات متعددة ومنها المجاعة التي استمرت من عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م إلى عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، والتي مات فيها أكثر من ثلاثة ملايين تركستاني مسلم حتى أكلت الميتة بل أكل الناس جثث أقاربهم وأطفالهم، وهدّمت وأغلقت السلطات الشيوعية الروسية ٦٦٨٢ مسجداً و٧٠٥٢ مدرسة إسلامية عامرة كانت في التركستان.. كما حدثت مجاعة مروّعة سببها البلاشفة الروس في قازاقستان وقيرغيزيا مات فيها مليون من المسلمين القازاق (الكازاخ) والقرغيز وذلك سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م - ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، وفي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م مات أيضاً مليون آخر من القازاق والقرغيز.

وقد شهدت قازاقستان آخر ثورة عامرة سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م فواجهتها السلطات بالفرقة واحد وعشرين حيث قمعتها بقسوة بالغة، ليست غريبة على الروس الذين وصفهم لنا ابن فضلان وابن بطوطة وابن رسته والمسعودي منذ ألف عام بأنها أمة همجية طبعها التوحش.. وشهدت الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية سياسة جديدة ليست أقلّ هجوماً على الإسلام ولكنها أكثر ذكاء من حرب الإبادة، تلك التي واجهها المسلمون في الفترات السابقة، وتمثل هذه السياسة في نشر الكولخوزات والكوميونات، ونشر الأيديولوجية الإلحادية، وتجذير الثقافة الشيوعية، وتحطيم نظام الأسرة القوي المتناسك لدى المسلمين، وإطالة أوقات عمل المرأة بين الرفاق.. وبطبيعة الحال مُنعت الدراسة الدينية وتدرّس اللغة العربية منعاً باتاً ومُنعت الكتابة بالحرف العربي، وقد حُوّل الحرف أولاً إلى اللاتيني ثم حُوّل بعد ذلك إلى الحرف الروسي. وعند دخول الروس

البلاشفة إلى المناطق الإسلامية كانت هناك ستُّ لغات تكتب بالحرف العربي، وتدخلها كثير من الكلمات العربية، كما كان هناك ما يقرب من أربعين لهجة ليست لها كتابة، فعمد الروس للتفريق بين المسلمين إلى إيجاد كتابة لجميع هذه اللهجات، وجعل كل أهل لهجة يدرسون لهجتهم الخاصة ويكتبونها بالحرف الروسي كما أن عليهم تعلم اللغة الروسية كلغة أم ثانية، ومنعت الاتصال المباشر بين هذه القوميات والوحدات الإدارية. ولا بد لهم من الاتصال بإخوانهم عبر موسكو!!.

وأوجد الروس النعرة القومية بين مسلمي روسيا مع أن الفكر الشيوعي يصطدم أساساً مع القوميات... ولكن السياسة الاستعمارية الروسية انتهجت نفس خط السياسات الاستعمارية الغربية التي فتتت جسد الأمة الإسلامية بعشرات بل بمئات النعرات القومية، والشنشنات الوطنية، ولهذا قسّم الروس المناطق الإسلامية إلى ست جمهوريات اتحادية سوفيادية وإلى ثمان جمهوريات ذات استقلال ذاتي.. وجميعها محكومة بالمستعمر الروسي المتمثل في سكرتير الحزب الشيوعي في كل منطقة من هذه المناطق...

وقد أسلفنا القول إن اسم جمهورية لم يكن إلا مجرد اسم والواقع المرُّ أنها كانت مستعمرات روسية يدير شؤونها موظفون من موسكو... ورغم وجود أحزاب شيوعية في جميع هذه المناطق وجميعها تتبع الحزب الشيوعي الروسي آنذاك، إلا أن الروس بعد عدة تجارب سابقة، لم يكونوا يثقون حتى في الشيوعيين المحليين، وقد قاموا مراراً بإعدام من يتولى منصب رئاسة الجمهورية وأعضاء وزارته بأكملهم، ومن ذلك إعدامهم لرئيس جمهورية القرم ولي إبراهيم وجميع وزرائه سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ورئيس الجمهورية محمد قوباى مع جميع وزرائه ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، وفي عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م تكرّرت نفس القصة مع رئيس الجمهورية إلياس طرخان وجميع أعضاء وزارته...

ولهذا فإن سياسة روسيا كانت تعتمد على أن يكون السكرتير الأول والثاني في كل جمهورية من هذه الجمهوريات الإسلامية هو روسي وليس محلياً مهما تظاهر بالشيوعية.

هذه الجمهوريات الاتحادية الست هي: أذربيجان في القوقاس وخمس جمهوريات في التركستان هي: أوزبكستان وقازاقستان وقرغيزيا وتركمينستان وطادجكستان... وقد استقلت هذه الجمهوريات عام ١٩٩١ عندما أعلن انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكُّكه، ورغم ذلك بقيت هذه الجمهوريات على صلة وثيقة جداً بروسيا.

أما الجمهوريات التابعة لموسكو مباشرة فهي تتاريا وبشكيريا والجوفاش وماري وموردوف وأدمورت (وجميعها تقع في وسط روسيا على امتداد نهري الفولجا والأورال) وسيبيريا، ثم جمهورية القرم في شبه جزيرة القرم التي ألغيت وأصبحت تابعة لأوكرانيا.. وجمهوريات القوقاس الصغيرة مثل الداغستان والشاشان وأوستيا الشبالية والأنجوش وقابرديار - بلكارديا وجميعها تتبع موسكو مباشرة كما أن هناك جمهوريات صغيرة تتبع أذربيجان وجورجيا. وقد استقلت هاتان الدولتان عام ١٩٩١ عند انهيار الاتحاد السوفياتي.



## الفصل الخامس

### المناطق الإسلامية في روسيا الاتحادية

#### تتاريا (تتارستان) وبلغار الفولجا

هذه جمهورية ذاتية من جمهوريات روسيا الاتحادية، تكوّنت سنة ١٩٢٠ بعد قيام الثورة البلشفية، على ضفاف نهر الفولجا الأوسط عند اتصال نهر كاما بنهر الفولجا (المعروف لدى المسلمين بنهر إتل) وتبلغ مساحتها ٦٨,٠٠٠ كم مربع، وبها ١٦ مدينة، أهمها: قازان ذات التاريخ المجيد وهي العاصمة، وبوجولما (Bugulma)، وزيلونودولسك (Zelyonodolsk)، وألميتيفسك (Almetyevsk)، وشستوبل (Chistopel)، ولينينجورسك (Leninogorsk)<sup>(١)</sup>. وتقع تتاريا غرب جمهورية بشكيريا في شمال المجرى الأوسط لنهر الفولجا، حيث يلتقي نهر كاما الذي يأتي من الشرق بنهر الفولجا الآتي من الغرب... وفي الجنوب الشرقي تقع ولاية أورينبرغ، ومن الجنوب ولايتا سمارا وأوليانوفسك.

والأرض سهل متسع، وترتفع في الاتجاه شرقاً نحو جبال الأورال. وفي الجنوب الشرقي ترتفع الأرض إلى ٣٤٣ متراً في منطقة بوجولما - بيليبي - Bugolma - Beleby. وتقع أرض تتارستان في منطقة الغابات التي أزيل أكثرها (١٦ بالمائة من الأرض هي غابات) لإقامة المدن، وللزراعة التي تجود في الأرض الخصبة (الأرض السوداء). وجوّها قارّي، شديد البرودة شتاء حيث يتجمّد نهر الفولجا ونهر كاما، اللذان تقع عليهما هذه الجمهورية، وترتفع الحرارة في الصيف إلى الثلاثين مئوية. وتتراوح كمية المطر سنوياً ما بين ٤٢٠ و ٥١٠ ملمتر (١٧ - ٢٠ بوصة)<sup>(٢)</sup>.

(١) دائرة المعارف البريطانية، الطبعة ١٥، لعام ١٩٨٢، الميكروبيديا، ج ٩/ ٨٣٧ - ٨٣٨.

(٢) المصدر السابق.

وتعتبر تارستان غنية بالبتروول والغاز، وبها صناعات بتروولية، كما تعتبر المنطقة من أهم المناطق الصناعية في روسيا الاتحادية. وقد استخرج منها البتروول لأول مرة عام ١٩٤٣<sup>(١)</sup> وظهر الغاز في منطقة مينيبايفو (Minnibayevo) والصناعة البتروولية في نيزنيكامسك (Nizhnekamsk)<sup>(٢)</sup>.

وهناك صناعة كياوية وصناعة سيارات في قازان، كما أن بالمنطقة صناعة متقدمة للآلات الزراعية والأعمال الهندسية وصناعة الورق والصابون... إلخ. وتبلغ مساحة تاريا ٦٨,٠٠٠ كم مربع، وسكانها الآن (أكتوبر ٢٠٠٨) أربعة ملايين، نصفهم تقريباً من الروس ونصفهم من التتار المسلمين (٥٢٪).

وتجود الزراعة في تارستان حيث تنتج القمح، والذرة، والدخن، والبطاطس، والبقوليات، وسكر البنجر (Sugar beets)، والقنب Hemp، والتمباك، والتفاح، وبها ثروة حيوانية وإنتاج وافر من الألبان ومشتقاتها.

والأمية غير موجودة، وبها مراكز تعليمية عالية (١٢ مركزاً) وجامعة عريقة، ومراكز أبحاث عديدة و١٨٠٠٠ مكتبة عامة، و٩ مسارح، و١٣٥ صحيفة. وقُدِّر السكان سنة ١٩٧٨ بـ ٣,٣٧٨,٠٠٠<sup>(٣)</sup>. وتعتبر جامعة قازان ثالث أقدم جامعة في البلاد بعد موسكو وبطرسبرج، وأُنشئت سنة ١٩٠٤، وكان يرأسها عالم الرياضيات الروسي المعروف نيقولاي لاباتشيفسكي، وعمل فيها عالما الكيمياء المشهورين نيقولاي زينين وألكسندر بيختريف. وتعلّم في كليتها الشرقية الكاتب الروسي العظيم ليون تولستوي، الذي درس فيها اللغات الروسية، والفرنسية،

(١) المصدر السابق.

(٢) تقول محطة صوت روسيا (من الأترنت) إن البتروول استخرج لأول مرة في تارستان في القرن السابع عشر الميلادي. وكانت هي الأكبر في إنتاج البتروول في كل الاتحاد السوفياتي حتى أواسط القرن العشرين حين اكتشفت احتياطات كبيرة جداً من النفط في غرب سيبيريا. وتحتل شركة «تات نفط» الترتية المرتبة السادسة في روسيا، من حيث حجم استخراج النفط اليوم (٢٠٠٦).

(٣) دائرة المعارف البريطانية، ج ٩ / ٨٣٧ - ٨٣٨، وقد ارتفع العدد إلى أكثر من أربعة ملايين ٥٢٪ منهم مسلمون بنهاية عام ٢٠٠٨.



والألمانية، والإنجليزية، والتترية، والعربية<sup>(١)</sup>. وفي قازان اليوم الجامعة الإسلامية الروسية، التي أنشئت عام ٢٠٠٤ وهي تدرس العلوم الدينية الإسلامية واللغة العربية بالإضافة إلى مواد أخرى. وهي ترتبط مع الجامعة الإسلامية بموسكو.

وهناك في مدينة قازان اليوم ٣٠ مؤسسة تعليمية عليا، بما فيها معهد الموسيقى العالي الذي تخرّج منه كثير من الموسيقيين المعروفين. وتجري في قازان مهرجانات موسيقية وأشهرها مهرجان الأوبرا الذي يحمل اسم المغني المشهور فيودور شاليابين المولود في مدينة قازان<sup>(٢)</sup>. وفي قازان اليوم جامعة روسيا الإسلامية. وقد زرتها عند زيارتي لقازان في ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٨، وفي جامعاتها أكثر من ٢٥ ألف مخطوط أكثر من نصفها باللغة العربية. وقد رأيت بعضاً منها عندما زرتها في صحبة الدكتور محمد موسى الشريف ود. صالح بادحدح والدكتور محمد العمري المقيم في قازان.

### تاريخ تارستان

لقد سكن منطقة الفولجا - كما (النهرين العظيمين في روسيا الأوربية) قبائل متجولة من أصول تركية وفنلندية. ودخلت العناصر السكيثية (Scythians) الذين توطنوا القوقاس (وهم قبائل محاربة من آسيا الوسطى) إلى منطقة الفولجا منذ القرن الرابع قبل الميلاد. ولكن المجموعات التركية واليغورية، كان لها الغلبة على كل هذه العناصر، وعُرفوا باسم بلغار الفولجا. كما اتجهت قبائل البلغار الأخرى غرباً ليكونوا مملكة بلغاريا، وتكلموا اللغة السلافية الجنوبية، واعتنقوا المسيحية الأرثوذكسية، وكتبوا بالخط الكيريلي. وفي تلك الفترة اعتنق بلغار الفولجا الإسلام، وقد أسسوا مدينة البلغار، ويطلق أيضاً عليها اسم بيلار؛ وقد وصفها أبو الفداء عماد الدين إسماعيل المتوفى سنة ١٣١١ ميلادية في كتابه «تقويم البلدان» كما وصفها ابن بطوطة، وقد أسسوا مدينة البلغار (Bolgar) على ضفاف نهر الفولجا الأوسط على بعد ١٦٠ كيلومتراً جنوب قازان التي أنشئت فيها بعد. وكان

(١) صوت روسيا من الأنترنت?Ing=arb+g www.ruvr.ru/main.php

(٢) صوت روسيا المصدر أعلاه.

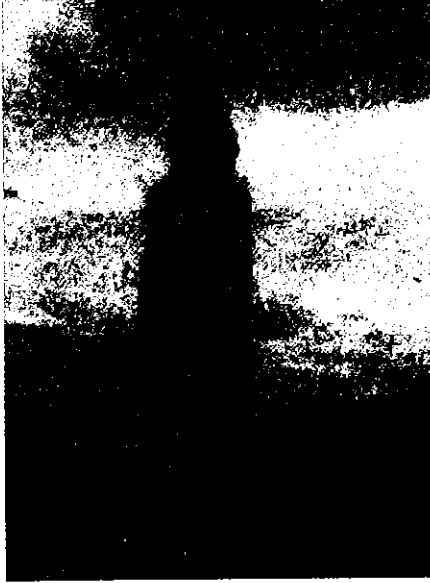
بلغار الفولجا وثنين إلى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وكانوا خاضعين لدولة الخزر القوية، والتي كانت وثنية، ثم تهوّد ملكها وتبعه كثير من رعيته، ورغم ذلك أبقوا على عاداتهم وسلوكهم الوثني والهمجي، كما يستدل عليه من وصف ابن فضلان الذي زارها.

وفي الثلث الأخير من القرن التاسع الميلادي، استقلّ بلغار الفولجا بحكمهم الذاتي، ولكنهم كانوا مضطرين لدفع الجزية لملك الخزر. وكان بلغار الفولجا نشيطين في التجارة، وقد استطاعوا أن يوطّدوا تجارة الفراء المرغوبة، وقد وصلت تجارتهم من شمال روسيا إلى البحر الأسود، ومنه إلى الأمبراطورية البيزنطية. كما أن تجارتهم وصلت إلى بحر قزوين حيث دولة الخزر القوية ومنها إلى الدول الإسلامية.

وكان التجار المسلمون يذهبون إلى الفولجا منذ بداية القرن الثالث الهجري (التاسع ميلادي)، وبفضل جهود الدعاة إلى الله من هؤلاء التجار والعلماء والصوفية، دخل بلغار الفولجا طواعية في الإسلام. وذلك قبل أن يدخل الروس إلى المسيحية الأرثوذكسية، وفي تلك الفترة كانت الوثنية ضاربة أطنابها في روس كييف، ولم يدخلوا إلى النصرانية إلا بدخول ملكهم فلاديمير سنة ٩٨٨م الذي قام بنشرها بين أفراد شعبه في بداية القرن الحادي عشر الميلادي.

وفي القرن التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين) كان بلغار الفولجا على حظّ من الحضارة يفوق بكثير ما ناله الروس. وكانوا قد برعوا في الزراعة والتجارة وبعض الصناعة. وكانت تجارة الفرو أهم مصادر دخلهم. وقامت عدة مدن هامة منها مدينة البلغار (Bolgar)، ومدينة بيلار (Bilar)، ومدينة السرا (ساراتوف)، ومدينة أصلي (Asli)، ومدينة قاشان (Kashan)، ومدينة جوكاتو (Juketau)، وقد اندثرت هذه المدن وقامت مقامها مدن أخرى، فمدينة البلغار المشهورة اندثرت، ويقع بالقرب منها مدينة بلغار سكوى على بعد ١١٥ كيلومتر جنوب مدينة قازان، وعلى بعد سبعة كيلومترات شرق نهر الفولجا. وقامت مدينة سمارا Samara وهي اليوم مدينة صناعية هامة. ويعتبر تيار قازان

والشوفاش من نسل بلغار الفولجا بعد اختلاطهم بالمغول (التتار) مع وجود عناصر تركية أخرى مثل القبشاق (Kipchak) واليغور والعناصر الفنلندية. وكانت تجارة دولة البلغار واسعة جداً تمتد إلى شمال روسيا، وجنوباً إلى بحر البلطيق وبحر الخزر، ومنها إلى بغداد والبلاد الإسلامية. وإلى القسطنطينية حيث كانت الدولة البيزنطية لا تزال موجودة، وغرباً إلى أوروبا، وشرقاً إلى الصين (نقلاً عن الوكيبيديا، دائرة المعارف على الشبكة العنكبوتية).



منارة مسجد قديم

في مدينة البلغار

(نقلاً عن الوكيبيديا)،

وقد تحطم المسجد منذ

الغزو المدمر الذي قام به

إيفان الرهيب سنة ١٥٥٢ وما بعدها.

The Little Minaret in Bolghar

وعندما انهار الاتحاد السوفياتي (١٩٩١) لم يكن في كل تترستان سوى ثمانية مساجد مفتوحة، ولا يؤمّها إلا القليل من المصلّين. ولكن بفضل الله سبحانه وتعالى وانتشار الدعوة في أهل تترستان ورجالها العاملين وعلى رأسهم رئيس جمهوريتها السيد ميتمير شريفوتش (شريف) شايميمف (الذي نال جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام عام ٢٠٠٧) ازداد عدد المساجد إلى ١٣٠٠ مسجداً، وأغلبها مساجد واسعة وجميلة ومؤثثة تأثيثاً جيداً، وبها غرف لتدريس القرآن واللغة العربية في يومي السبت والأحد. والمظاهر الإسلامية منتشرة بما في ذلك حجاب النساء المسلمات، وبما أن المنطقة تتحول إلى زمهرير في الشتاء (ما بين عشرين وأربعين درجة تحت الصفر)، فإن مباني المساجد مكلفة وكثيفة الجدران ومكيفة

تكييفاً جيداً. وقد زرت بعض هذه المساجد مثل مسجد «قل شريف»، ومسجد «مرجاني» في صحبة الدكتور محمد موسى الشريف والدكتور صالح بادحدح والدكتور محمد العماري (وهو يمّني يدرّس في جامعة قازان)، في أثناء قيام مؤتمر عن تاريخ قازان ٢٢-٢٥ أكتوبر ٢٠٠٨. وفي مسجد مرجاني مدرسة للبنين وأخرى للبنات ويدرس فيها الدين الإسلامي واللغة العربية إلى جانب المواد الأخرى.



صورة لما يسمى كرملين قازان. وكلمة كرملين تُطلق عندهم على مباني الإدارات الحكومية ومقر رئيس الجمهورية والوزارات كما يبدو فيها رائعاً جداً مسجد «قل شريف». كما يبدو أحد الأبراج ومن خلفه الكاتدرائية التي بناها القياصرة.



نهر فولجا (نهر إتل عند المسلمين ونهر إيديل عند البلغار القدماء)

عُرف نهر فولجا باسم نهر إتل عند الأتراك والمسلمين. ويعرفه التتار باسم إيديل Idyll وبلغغة البلغار - الشوفاش باسم أتل (Atal)، وهو أطول أنهار أوربا حيث يبلغ ٣٦٩٢ كيلومتر، وهو أهم أنهار روسيا ويستخدم للملاحة ونقل البضائع والبشر وتقع عليه وعلى فروعه إحدى عشر مدينة من أهم عشرين مدينة في روسيا، وتقع موسكو نفسها في حوض نهر الفولجا، وليست على النهر مباشرة، وينبع النهر من مرتفعات فالداي (Valdai hills) شمال غرب موسكو وعلى بعد ٣٢٠ كيلومتر جنوب شرق بترسبورج، ويتجه شرقاً عابراً عدة مدن هي دينا ودينسك وياروسلافل ونيزي نوفوجورد وقازان. ومن قازان يتجه جنوباً ماراً بمدينة يلبانوفسك وتوليائي وسمارا، حتى يصل إلى مصبه في بحر قزوين استراخان. وتقع مدينة فولجوجراد (ستالينجراد سابقاً) عند انعطافه قبل أن ينتهي في بحر الخزر.

وأهم فروعه نهر كاما، ونهر أوكا، ونهر فيتولجا، ونهر سورا. ويروي النهر العظيم مع فروعه أكثر من ١,٣٥ مليون كيلومتر مربع من الأراضي الكثيفة السكّان. ويتجمّد النهر ثلاثة أشهر الشتاء كل عام. والنهر بالإضافة إلى أهميته الزراعية في ريّ الأراضي يشكّل أهم مجرى اتصال بين شمال روسيا الأوربية وجنوبها، وعبره تنتقل البضائع والبشر (ما عدا أشهر الشتاء) كما أنه مصدر للطاقة. وهناك قنوات كبيرة تصله ببحر البلطيق وموسكو وبحر أزوف والبحر الأسود.

وكان هذا النهر في أغلبه إسلامياً منذ زمن بلغار الفولجا، وبالذات من قازان حتى مصبه بالقرب من استراخان في بحر الخزر، وذلك منذ القرن التاسع الميلادي. وهناك العديد من الروافد التي تصبّ في نهر الفولجا أهمها نهر كاما ونهر أوكا ونهر فيتولجا ونهر سورا. ويشكّل نهر الفولجا وروافده شبكة نهر الفولجا. ويرتبط النهر بقنوات ملاحية كبيرة بكل من بحر البلطيق والبحر الأبيض والبحر الأسود عن طريق بحر أزوف. وهو يصبّ في بحر قزوين حيث يبلغ الانخفاض نحو ٢٨ متراً تحت مستوى سطح البحر.

لهذا فإن لهذا النهر أهمية بالغة فهو أهم شريان يوصل شمال روسيا الأوربية بجنوبها كما يصلها بمجموعة كبيرة من البحار عبر القنوات التي ذكرناها.

كما أن أهمية النهر تزداد لأنه يروي مع فروعه مساحة شاسعة تقرب من ١,٥ مليون كم مربع هذا بالإضافة إلى إقامة السدود والاستفادة من الطاقة المائية (الهيدروليكية). وملتقى النهر ببحر قزوين عند استراخان يشكل ثروة سمكية هائلة وخاصة سمك الكافيار حيث الطلب العالمي عليه مصدر ثروة ضخمة لروسيا.

وفي تتاريا على المجرى الأوسط للنهر توجد ثروة بترولية كبيرة. كما أن إحدى عشر مدينة كبرى تقوم في حوض أو على ضفاف هذا النهر فموسكو العاصمة تقع في حوض هذا النهر ولا تقع عليه، بينما تقع عليه المدن الهامة التالية: فولجا جراد (ستالين جراد التي هزمت الألمان) وجوركي وقازان ونيزني نوفوجورد وسامارا وساراتوف، وأخيراً على مصبه مدينة استراخان. وهناك العديد من البحيرات الطبيعية والصناعية على طول النهر.

ويرتبط الفولجا بعواطف الناس وأشجارهم وأغانيهم. ولا عجب في ذلك فهو بدون ريب أهم نهر في روسيا وأطول نهر في أوربا. وهو شريان الحياة لروسيا الأوربية، والملاحة هامة جداً فيه لنقل البضائع والبتروول والبشر. كما أنه يروي ملايين الأفدنة الزراعية. وتقع عليه أهم المدن الصناعية.

ولا عجب أن نجد الفولجا في صلب تاريخ روسيا وقد ذكره بطليموس اليوناني في كتاباته الجغرافية، وعرفه المسلمون وغيرهم. وتحول في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين إلى نهر إسلامي من وسطه إلى مصبه.

#### مدينة قازان ومساجدها

قامت مدينة قازان عندما بدأت مدينة بلغار الفولجا في الاندثار وخاصة عندما قضى عليها الأمير فيدور بستروي (Fedor Pestroy) سنة ١٤١٥، وأصبحت مدينة قازان عاصمة لخانبة قازان سنة ١٤٣٦. ونتيجة لموقعها الهام عند التقاء نهر كاما بنهر الفولجا، أصبح لها أهمية تجارية كبرى، وكانت تنافس موسكو في مكانتها. بل إن موسكو استمرت خاضعة لها حتى عام ١٤٨٠ عندما أعلن إيفان الثالث رفضه لدفع الجزية لسلطان قازان. وتم الاحتفال بمرور ألف عام على تكوين مدينة قازان عام ٢٠٠٥ وافتتح مسجد «قل شريف» بهذه المناسبة.

وكلمة قازان تعني المرجل أو القدر الذي يغلي. ويقال إن أحد الخانات سقط منه مرجل في هذا الموضع فسُمي بذلك «أي موقع المرجل» وهي كلمة تتارية. كما أُطلق عليها بلغار الجديدة (Bolgar-el-Dzhadid).

ولأهل البلغار حضارة عظيمة وصلات تجارية واسعة مع العالم. ولهم قصيدة طويلة للشاعر قُل جالي Kul Gali عنوانها «قصة يوسف» «Kyssai – Yusuf» وذلك سنة ١٢١٢، وهي مقتبسة من قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم.. والغريب أن هذه القصيدة صيغت بلغة التتار المشابهة تماماً للغة التتار الأدبية اليوم. (دائرة المعارف ويكيبيديا).

ورغم أن الروس قد حطموا مساجد قازان ومدارسها منذ عهد إيفان إلى العهد الشيوعي، إلا أن انتهاء الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ سمح بإعادة بناء مجموعة من المساجد الأثرية الهامة وهي: مسجد عازم أو هاشم (Acem, Azim mosque). وقد بناه مرتضى هاشموف (Murtaza Acimev) سنة (١٨٨٧ - ١٨٩٠). وأُعيد استخدام المسجد بعد ترميمه سنة (١٩٩٠ - ١٩٩٢) وفتح للصلاة سنة ١٩٩٢، وذلك لأنه أُقفل وأهمل من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٩٠ في العهد الشيوعي.

وهناك مسجد بورناي **Bornay** الذي بناه مقتضى - متصدّق بورانييف سنة ١٨٧٢. وأُقفل المسجد من عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٩٤، عندما أُعيد افتتاحه للصلاة بعد ترميمه.

وهناك مسجد أسكي تاج أو مسجد الحجر القديم. وُبنِي في موقع مجموعة من الشهداء الذين دافعوا عن قازان عندما هاجمها إيفان الرهيب سنة ١٥٥٢. ووضع حجر كبير كشاهد لموقع قبور هؤلاء الشهداء. وأما المسجد فقد تمّ بناؤه سنة ١٨٠٢ على نفقة تاجر تترى يدعى عبد الله بوتاميشيف (Ghabdulla Utamishev) وأُعيد بناؤه سنة ١٨٣٠ على يد المهندس ألكسندر شميدت Alexander Schmidt على دورين (طابقين). وتولى إمامته عائلة أمير خان طوال القرن التاسع عشر الميلادي. وأُقفل المسجد في العهد الشيوعي سنة ١٩٣٠، واستُخدم كمدرسة، ثم أُعيد افتتاحه كمسجد عام ١٩٩٤.

مسجد مرجاني (Marcani Mosque) وهو مسجد كبير جامع بُني عام (١٧٦٦-١٧٧٠) وهو أقدم مساجد قازان الباقية إلى اليوم. وُني المسجد بجوار بحيرة قابان. وهو مبني من طابقين، وأضيف إليه محراب. وساهم في إصلاحاته مجموعة من التجار التتار في القرن التاسع عشر. وأعيد تسميته على اسم العلامة شهاب الدين مرجاني الذي كان إماماً لهذا المسجد منذ عام ١٨٥٠. وقد أُقفل المسجد في العهد الشيوعي عام ١٩٣٠ وأعيد افتتاحه بعد زوال الشيوعية ١٩٩١ وتمّ ترميمه. وكان شهاب الدين مرجاني يؤلف أغلب كتبه باللغة العربية ثم وضعها بالتتارية بالحرف العربي<sup>(١)</sup>. وقد زرت المسجد في أكتوبر ٢٠٠٨ وبه مدرسة للبنين وأخرى للبنات لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية.

مسجد نور الله (Nurulla Mosque): كان يعتبر المسجد الجامع لقازان، وعُرف باسم المسجد الأبيض. تمّ بناؤه عام ١٨٤٥-١٨٤٩ على نفقة تاجر تترى يدعى ج. م. يونسوف (يونس) تحت إشراف المهندس لومان على طراز مساجد بلغار الفولجا وتركيا. وفي عام ١٩٢٩ تمّ تحطيم منارة المسجد بواسطة الشيوعيين واستخدم المسجد كمكاتب وغرف سكنية حتى عام ١٩٩٠. وأعيد ترميمه وترميم المنارة بواسطة المهندس بلال (بلالوف R.W.Bilalov) فيما بين ١٩٩٠ و١٩٩٥ وسُمّي مسجد نور الله.

### مسجد قُل شريف (Qol Sharif Mosque)

يعتبر مسجد «قُل شريف» أكبر مسجد في روسيا كلها<sup>(٢)</sup>. وهو أروع مساجد قازان، ويوجد داخل الكرملين (أي المنطقة التي فيها رئيس الجمهورية والوزارات والإدارات الحكومية الهامة). وقد تمّ بناؤه في القرن السادس عشر

(١) لقد قامت الدولة الروسية البلشفية بفرض الكتابة بالحرف اللاتيني، ثم بعد ذلك بالحرف الكيريلي. وبالتالي لا تستطيع الأجيال التي نشأت بعد قيام الاتحاد السوفياتي أن تقرأ هذا التراث، تماماً كما فعل أتاتورك في تركيا العلمانية، حيث فرض الحرف اللاتيني، وبذلك انقطعت صلة الأجيال بالحضارة والتراث العثماني المكتوب بالحرف العربي.

(٢) تمّ بناء مسجد أكبر منه في الشيشان في جروزي العاصمة وافتُتح في أكتوبر ٢٠٠٨، ويُعتبر هذا المسجد أكبر مسجد في أوروبا كلها.



الميلادي، وأطلق عليه اسم «قل شريف» (أشهر علماء قازان) الذي استشهد في معركة الدفاع المجيدة عن قازان ضد الروس الغزاة، هو ومجموعة من طلبته وعشرات الآلاف من السكّان، عندما هجم عليها إيفان الرهيب سنة ١٥٥٢. وقد تمّ بناؤه على الطراز القديم لمدينة بلغار الفولجا، وقد أمر إيفان الرهيب بتحطيمه وهدمه. وظلّ مهدماً طوال الحقبة القيصرية والشيوعية وأُعيد بناؤه على نفس الطراز القديم بثمان منارات وقبة، وساهم في تكاليف بنائه الملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية. وقد افتُتح المسجد في ٢٤ يولييه ٢٠٠٥ في الاحتفال بمرور ألف عام على مدينة قازان. وأصبح المسجد يمثّل رمزاً للاستقلال والحرية لجمهورية تاتاريا وأملاً في الوصول إليها في المستقبل القريب إن شاء الله.

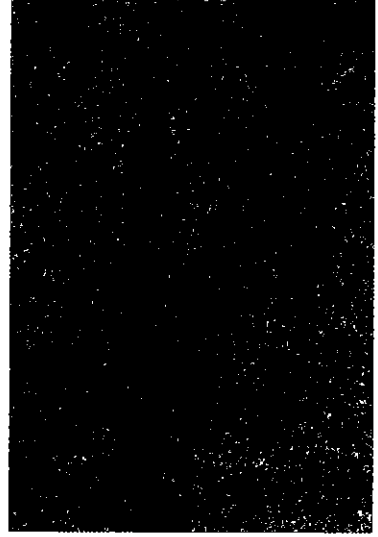
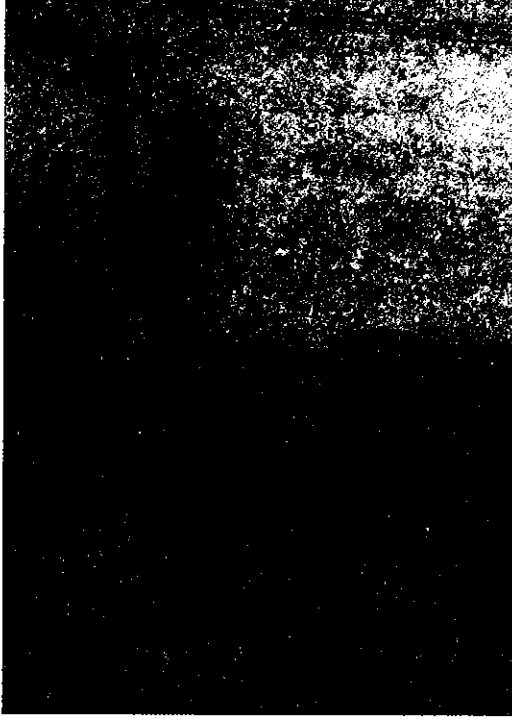
ويحتوي البناء الضخم على قاعة كبيرة للصلاة ومكتبة ودار نشر ومكتب للإمام ومتحف.

#### مسجد «عبرقaban» (The Mosque across Qaban)

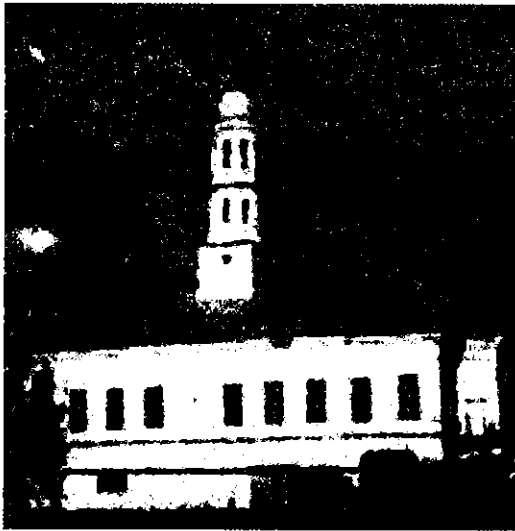
أو مسجد «ذكرى الألف عام» The Thousand Anniversary of Islam Mosque  
أي ذكرى مرور ألف عام على إسلام بلغار الفولجا سنة ٩٢٢.

وقد تمّ بناء المسجد في عام ١٩٢٤-١٩٢٦ وهو المسجد الوحيد الذي تمّ بناؤه في الفترة السوفياتية. وكان لينين في ذلك الوقت يزعم أنه سيعطي المسلمين حريتهم. ولكن ما أن توطدت أركان الشيوعية إلا وأقفلوا المسجد وتمّ تحويله إلى مباني إدارية عام ١٩٣٠. وأُعيد افتتاحه مرة أخرى عام ١٩٩١ بعد زوال الشيوعية.

## مساجد قازان بعد إعادة افتتاحها



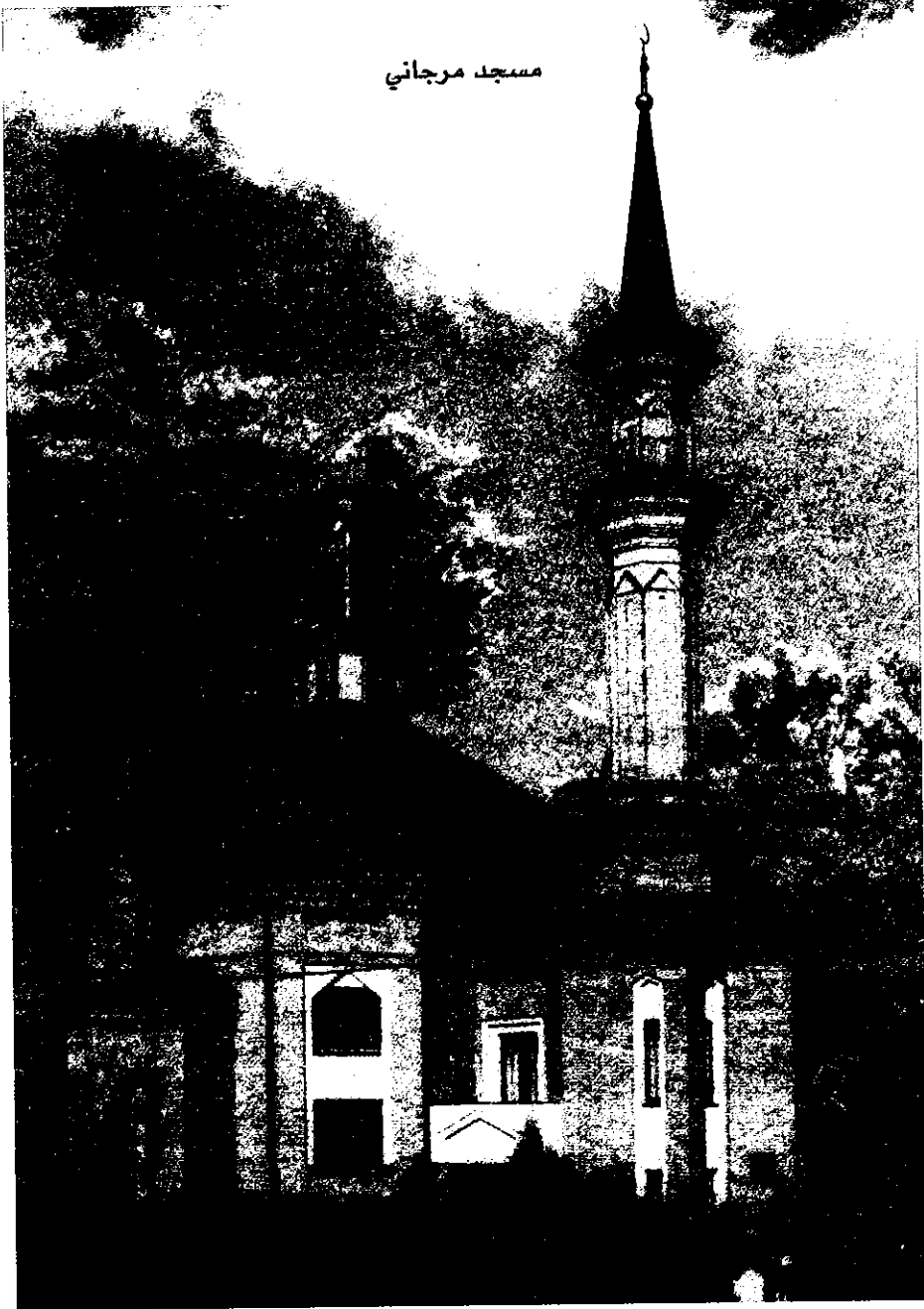
منارة مسجد هاشم



مسجد اسكي تاج



مسجد هاشم

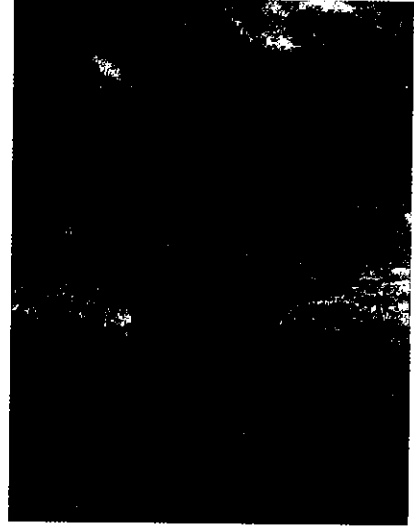


مرجاني صاحب المؤلفات الكثيرة و الذي كان إماماً للمسجد لفترة طويلة وفيه مدرسة إسلامية للبنين وأخرى للبنات.

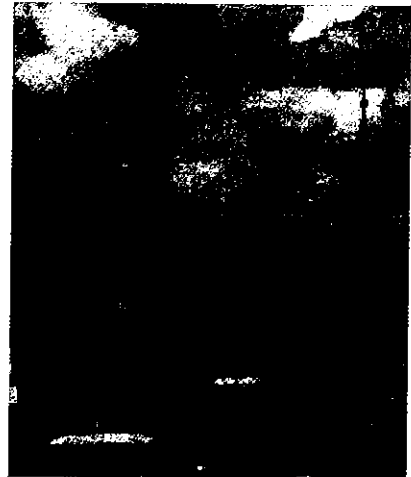


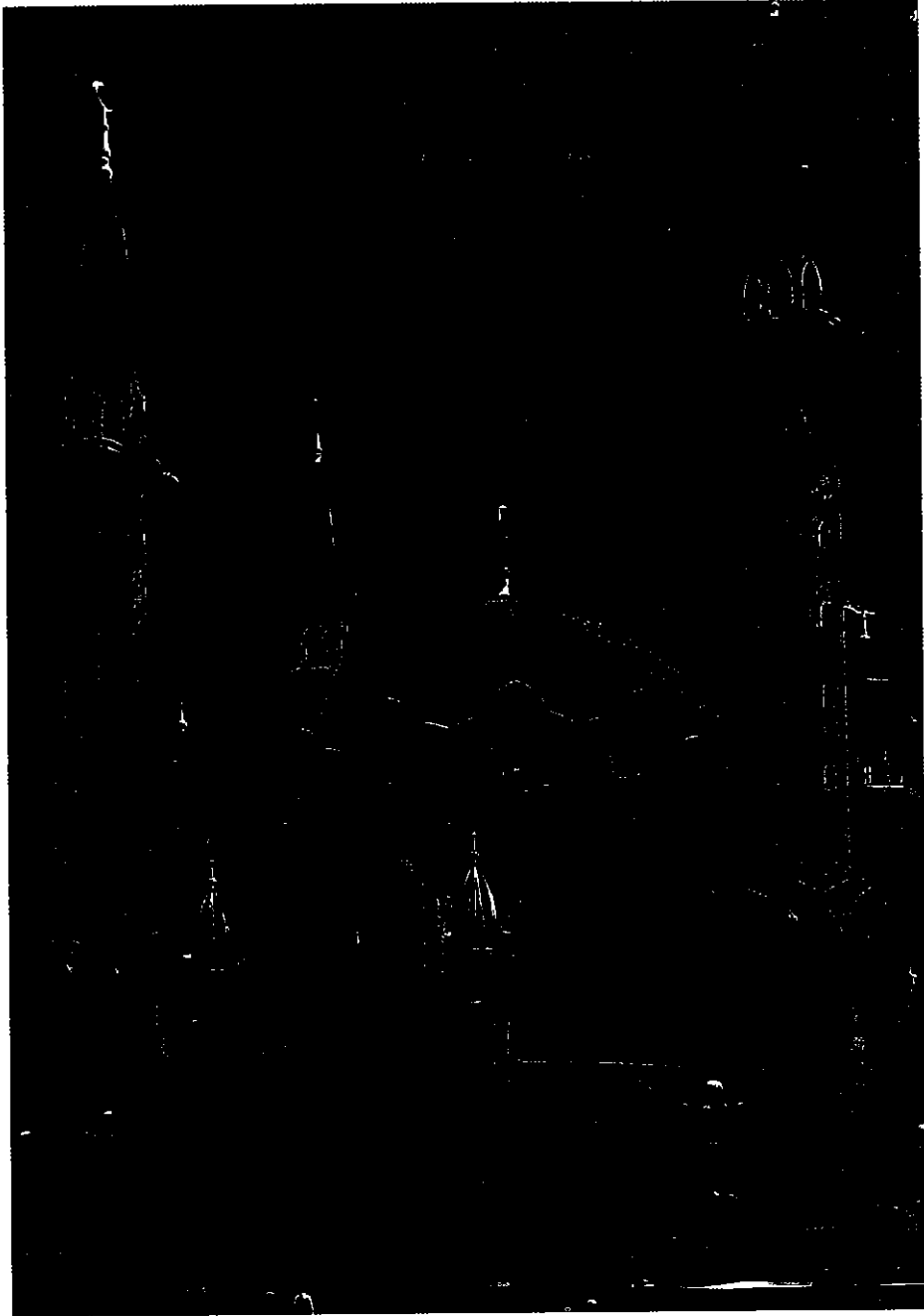
مسجد مرجاني على اسم العلامة شهاب الدين

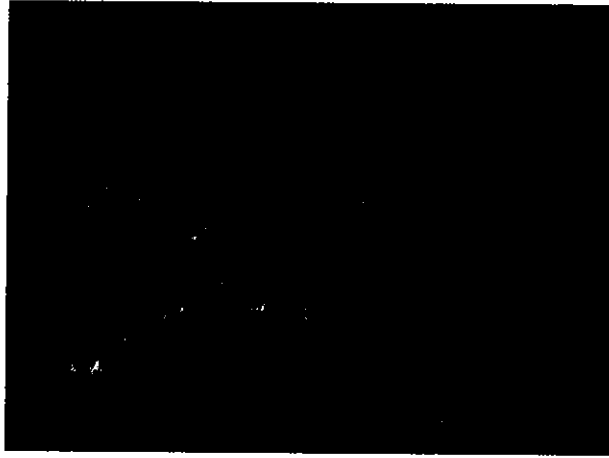
مسجد «نور الله» المسجد الجامع لقازان الذي بني سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٩ على الطراز العثماني. وقد أعيد افتتاحه بعد ترميمه وإعادة بناء المنارة سنة ١٩٩٥ بعد أن أزال الله الكابوس الشيوعي المدمر.



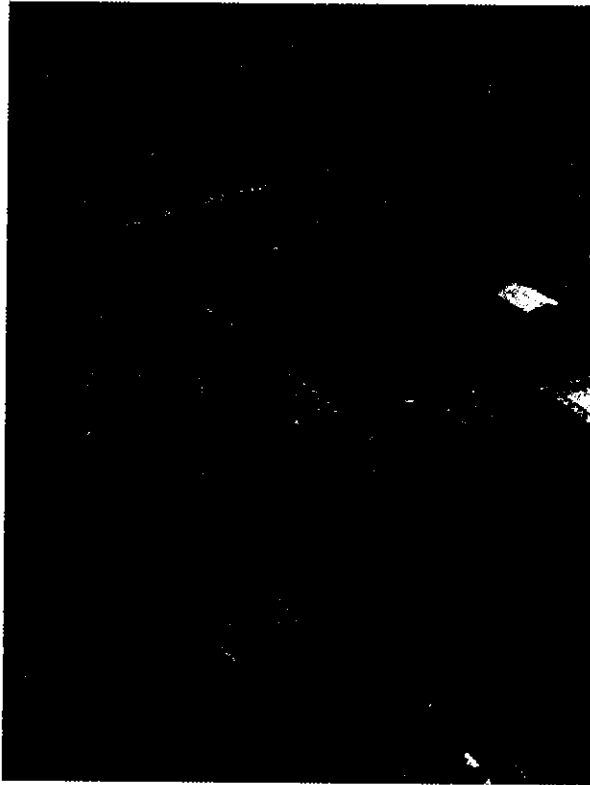
مسجد «السلطان» في قازان. تم بناؤه سنة ١٨٦٨ على نفقة أحد التجار التتار يدعى سهانشا جوسانوف على الطراز التتاري لبلغار الفولجا وقد أغلقه الشيوعيون عام ١٩٣١ وأعيد افتتاحه بعد ترميمه عام ١٩٩٤.







مسجد «قل شريف» أكبر مساجد روسيا وقد أضيئت الأنوار في الليل (صورة أمامية).  
وقد صلينا في هذا المسجد الجميل في يوم الجمعة أكتوبر ٢٠٠٨ وبعد خطبة الجمعة ألقى الداعية الإسلامي الدكتور محمد موسى الشريف خطبة قصيرة ترجمت فوراً إلى اللغة التتارية. وقد أثارت إعجاب الحاضرين.



مسجد «عبر قابان»

(The Mosque  
across Quaban)

أو مسجد «ذكرى الألف عام»

**The Mosque  
from Suvar Plaza**

## الفصل السادس

### رحلة ابن فضلان إلى بلاد بلغار الفولجا

بما أن بلغار الفولجا (نهر إتل) كانوا مسلمين فإنهم قد كتبوا إلى الخليفة المقتدر العباسي<sup>(١)</sup> رسالة يخبروه فيها بحاجتهم إلى مرشدين ومعلمين دينيين، وإلى إقامة استحكامات عسكرية تحميهم من هجمات دولة الخزر القوية، التي فرضت عليهم دفع الجزية، وإلى أموال يبنون بها هذه الاستحكامات مع مهندسين مَهرة.

وقد كتب ملك البلغار ألمش بن يلطوار<sup>(٢)</sup> رسالته إلى الخليفة المقتدر مع السفير نذير الحرمي سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م، وردّ عليه الخليفة برسالة طويلة يحملها ابن فضلان<sup>(٣)</sup>، ومعه سوسن الرّسي مولى نذير الحرمي، وتكين التركي، وبارس

(١) المقتدر العباسي: هو جعفر بن الخليفة المعتضد العباسي. تولى الخلافة بعد أخيه المكتفي سنة ٢٩٥هـ / ٨٧٤م وعمره ثلاث عشرة سنة. وقُتل سنة ٣٢٠هـ / ٨٩٩م. كان سمحاً كثير الإنفاق. وعانت دولته بسبب صغر سنّه من الفوضى حتى خربت الدولة في أيامه وخلت من الأموال في بيوت المال.

(٢) في أصل مخطوطة مشهد لكتاب ابن فضلان التي نشرها الدكتور سامي الدّهان «الحسن ابن بلطوار» بالباء، وفي إحدى أوراقها ألمش بن شلكي صهر الأتراك، وعند ياقوت الحموي «المس بن شلكي بلطوار»، ويبدو أن في الاسم تصحيفاً كما يقول بارتولد والمستشرقون الروس.

(٣) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد: كان مولى لمحمد بن سليمان أحد القواد في مصر، ثم مولى لأمير المؤمنين. ولا توجد معلومات كافية عنه مع أهمية رحلته إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، ولم يُعرف مولده ووفاته. ولكنه كان على اطلاع على الفقه بحيث يجب على أسئلة أهل بلغار الفولجا. رحلته بدأت في بغداد في ١١ صفر ٣٠٩هـ / ٢١ حزيران (يونيه) ٩٢١م، ووصل إلى بلاد بلغار الفولجا في ١٢ محرم ٣١٠هـ / أي بعد عشرة أشهر) ولا نعرف بالضبط متى كانت عودته. والراجح أنها كانت سنة ٣١١هـ / ٩٢٣م.

الصقليبي ورسول الصقالبة المسلم مع بعض المهندسين والأطباء. وقد سجل ابن فضلان رحلته التاريخية ونقل عنها ياقوت الحموي في كتاب معجم البلدان. ثم اهتم بها المستشرقون الروس، حيث وصلت إلى المعهد الآسيوي للاستشراق نسخة خطية من مدينة مشهد (طوس) الإيرانية على مراحل (١٩٢٤ - ١٩٣٤)؛ وأول من حقق المخطوطة وعلق عليها وترجمها الباحث التركي وليد زكي طوقان إلى الألمانية، ونشرها عام ١٩٣٩. وفي نفس السنة ترجمها إلى الروسية المستشرق المشهور كراتشوفسكي وكتب لها مقدمة ضافية مع صورة كاملة عن مخطوط مشهد.

وقد قام الدكتور سامي الدهان بتحقيقها، ونشرها مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٩، ثم صدرت بعد ذلك عدة طبعات آخرها سنة ٢٠٠٣ بتحريرو وتقديم شاكر لعبيبي، وهي نفسها التي نشرها الدكتور الدهان مع مقدمة وهوامش كثيرة. ونشرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

وقد بدأ ابن فضلان كتابه بقوله: «لما وصل كتاب المش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه بمن يفقه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام ويبنى له مسجداً، وينصب له منبراً ليقم عليه الدعوة له (أي للخليفة) في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فأجيب إلى ما سأل. وكان السفير له نذير الحرمي، فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه، والإشراف على الفقهاء والعلمين، وسبب له بالمال المحمول إليه ما ذكرناه وللجراية (أي الصرف) على الفقهاء والعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمين من أرض خوارزم (هي ضيعة كبيرة كانت مملوكة لابن الفرات علي بن محمد وزير المقتدر ولكن ابن الفرات كتب إلى وكيله أن لا يدفع المال المقرّر) من ضياع ابن الفرات.

وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري (أي أن أصله من بلاد الخزر)، والرسول من جهة السلطان سوسن الرسي (نسبة إلى نهر الرّس الذي يفصل الآن بين أذربيجان الإيرانية وجمهورية



أذربيجان، التي كانت ضمن الاتحاد السوفياتي حتى عام ١٩٩١)، مولى نذير الخرمي، وتكين التركي وبارس الصقلابي (وهو صاحب إسماعيل بن أحمد الساماني حاكم خراسان وبخارى. هرب من مولاه فنزل العراق بعدة هائلة والتحق بالخليفة المقتدر) وأنا معهم على ما ذكرت، فسلمت إليه (أي إلى ملك الصقالبة يلمش بن يلطوار) الهدايا له ولامرأته ولأولاده وأخوته وقواده وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها.

«فرحلنا من مدينة السلام (بغداد) يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلّت من صفر سنة تسع وثلاثمائة (يوافق ٢١ حزيران - يونيه سنة ٩٢١ ميلادية)...».

ووصف رحلته الطويلة من العراق إلى الري (طهران اليوم ومنها إلى الدامغان وإلى سرخس (في تركمنستان اليوم ومنها إلى مرو (كذلك في تركمنستان)، ثم بعد عبور المفازة على نهر جيحون (أموداريا) إلى بيكند (بالقرب من بخارى في أوزبكستان اليوم)، وقابل نصر بن أحمد الساماني سلطان بخارى وما وراء النهر وخراسان. وتحايل وكيل الوزير ابن الفرات في عدم تسليم المال، وهو الفضل بن موسى النصراني. ولم يستطع ابن فضلان أن يأخذ المال، واضطر إلى مواصلة رحلته دون مال على أمل أن يلحق بهم أحمد بن موسى الخوارزمي بالمال المطلوب، وذلك حتى لا يهجم عليهم الشتاء فتتوقف الرحلة.

وانتقل إلى خوارزم والجرجانية وقد «جهد نهر جيحون من أوله إلى آخره وكان سُمكُ الجُمُد سبعة عشر شبراً. وكانت الخيل والبغال والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتخلخل». واضطر ابن فضلان أن يبقى في هذه البلدة التي يقول عنها: «فرأينا ما ظننا إلا أن باباً من الزمهير قد فُتح علينا منه. ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ربيع عاصف»... «وتناول مقامنا بالجرجانية، وذلك أننا أقمنا بها أياماً من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال».

ثم تحركت القافلة من الجرجانية في الثاني من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة،

وعانى في رحلته من البرد الشديد حتى أن برد خوارزم والجرجانية كان بالنسبة لما رآه كأنه الصيف.

ثم وصل إلى الغز. (وهم بدو الترك) قال عنهم: «وهم مع ذلك كالحمير الضالّة لا يدينون بدين، ولا يرجعون إلى عقل، فإذا استشار أحدهم رئيسه قال له: يا ربّ إيش أعمل في كذا وكذا؟ وأمرهم شورى بينهم...» «وإذا ظلم أحد منهم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «بيرتنكري» (وبير بالتركية واحد وتنكري الله أي الله واحد). «ولا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك. وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء. ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم».

«ولقد نزلنا يوماً على رجل منهم فجلسنا وأمة الرجل معنا، فبيننا هي تحدثنا إذ كشفت فرجها وحكته، ونحن ننظر إليها فسترنا وجوهنا وقلنا: أستغفر الله!!! فضحك زوجها وقال للترجمان: قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه، هو خير من أن تغطّيه وتمكّن منه. وليس يعرفون الزنا. ومن ظهوروا على شيء من فعله شقّوه نصفين».

«وقال بعضهم، وسمعتني أقرأ قرآناً فاستحسن القرآن، وأقبل يقول للترجمان: قل له «لا تسكت» وسأل: هل لدينا عزّ وجلّ امرأة؟ فاستعظمت ذلك واستغفرت، فسبّح واستغفر كما فعلت...». وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمه»، «وأمر اللواط عندهم عظيم جداً» ويعاقبون عليه بالموت.

ووصف طريقه في بلاد الترك الغزية البادية وعاداتهم، وكيف أنهم كانوا يحرقون موتاهم وإذا كان من كبار القوم أحرقوا معه بعض أهله، وحاجاته وأدواته حتى يذهب بها جميعاً إلى العالم الآخر.

### الصقالبة

قال ابن فضلان: «فلما كنا من ملك الصقالبة (أي قريباً منه) وهو الذي

قصدنا، على مسيرة يوم وليلة، وجَّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وأخوته وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاروس (حبوب الدخن). فلما سرنا فيه على فرسخين تلقانا بنفسه، فلما رأنا نزل فخرَّ ساجداً شكرياً لله عزَّ وجلَّ، وكان في كُمَّه دراهم فنثرها علينا ونصب لنا قباباً فنزلناها».

«وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة من المحرم سنة عشر وثلاثمائة».. فلما اجتمعوا جميعاً مع أهل البلدة قرأ عليهم كتاب الخليفة رافعاً اللواء، وطالباً منه أن يقف أثناء قراءة خطاب الخليفة احتراماً له. وأخرج الهدايا والخلع والألبسة والطيب واللؤلؤ له ولامرأته التي كانت جالسة إلى جنبه، وتلك هي عادتهم.

ثم دعاهم الملك ألمش بن يلطوار إلى مائدته فأكلوا وشربوا من شراب العسل وهم يسمونه «السجو» ليومه وليلته حتى لا يتخمر (إذا تخمر يقال له البتع meed).

وكان يُخطب له على المنبر: «اللهم وأصلح الملك يلطوار ملك بلغار»؛ فقال له ابن فضلان: إن الله هو الملك ولا يسمّى على المنبر غيره. ثم أصبح يخطب: «اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين». لأنه تسمّى باسم أمير المؤمنين جعفر (المقتدر).

ثم طلب منهم الملك المال الذي أرسله الخليفة وقال لهم: «إنما جئتم بأجمعكم وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إليّ، حتى أبني حصناً يمني من اليهود (الخزر) الذين قد استعبدوني، فأما الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها. قلتُ (أي ابن فضلان): هو كذلك، إلا أنا قد اجتهدنا. فقال للترجمان: قل له: أنا لا أعرف هؤلاء، إنما أعرفك أنت، وذلك أن هؤلاء قوم عجم؛ ولو علم الأستاذ (أي الخليفة) أيده الله - أنهم يبلغون ما تُبلِّغ ما بعث بك حتى تحفظ عليّ وتقرأ كتابي وتسمع جوابي، ولست أطلب غيرك بدرهم».

«وكان مؤذنه يثني الإقامة إذا أذن، فقلت له: إن مولاي أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة، فلما طال انتظاره للمال قال الملك لابن فضلان وأصحابه: ما تقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثني الآخر، ثم صلى كل واحد منهما بقوم، أتجوز الصلاة أم لا؟ قلت له: الصلاة جائزة، فقال: باختلاف أم بإجماع؟ قلت: بإجماع، قال: قل له (أي للمترجم) فما يقول في رجل دفع إلى قوم محاصرين مالا لأقوام ضعفي محاصرين مستعبدين فخانوه؟ فقلت: هذا لا يجوز وهؤلاء قوم سوء. قال: باختلاف أم بإجماع؟ قلت: بإجماع، فقال للترجمان: قل له تعلم أن الخليفة أطال الله بقاءه - لو بعث إليّ جيشاً كان يقدر عليّ؟ قلت: لا، قال: فأمر خراسان؟ قلت: لا، قال: أليس لبعد المسافة وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟ قلت: بلى، قال: قل له (أي للترجمان)، فوالله إنّي لبمكاني البعيد الذي تراني فيه وإنّي لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك إنّي أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو عليّ فأهلك بمكاني وهو في مملكته، وبينني وبينه البلدان الشاسعة، وأنتم تأكلون خبزه وتلبسون ثيابه وترونه في كل وقت ختتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إليّ، إلى قوم ضعفي، وختتم المسلمين، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه. فألجمنا وما حرنا جواباً وانصرفنا من عنده».

وهذه المقابلة والخطاب تدلُّ على أن الملك ألمش بن يلطوار على فهم عميق بالإسلام، وأنه يعرف السنن والواجبات معرفة عميقة، ويفرق بين السنّة والواجب، والإجماع وغير الإجماع. ووصف ابن بطلان طول النهار لأنهم في الصيف وقصر الليل. ووصفهم ببلادهم، وحياتها، وثارها، وأن الرجال والنساء ينزلون النهر جميعاً عراة، ومن زنى يضربونه بالقأس حتى يموت. ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني. وذلك كله من المناطق التي لم يدخلها الإسلام بعد.

### الروسية

قال ابن فضلان: «ورأيت الروسية وقد وافوا في تجارتهم، ونزلوا على نهر إتل (الفولجا)، فلم أر أتمّ أبدأناً منهم كأنهم النخل، شقر «حمر» لا يلبسون القراطين

(قمص أو معاطف قصيرة تصل إلى منتصف الجسم) ولا الخفائين (جمع خُفّ) ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل على أحد شقيهِ ويُخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحدٍ منهم فأس وسكّين، ولا يفارقه جميع ما ذكرناه. وسيوفهم صفاع مشطّبة إفرنجية. ومن ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضّر، شجر وصور وغير ذلك (أي بالوشم الأخضر).

وذكر أن المرأة تضع على ثديها حقة من فضة أو نحاس أو ذهب على قدر مال زوجها وكذلك تضع في عنقها طوق من ذهب أو فضة، فإذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ طوقاً من ذهب، فإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين من ذهب، وهكذا على قدر ثروته.

قال: «وهم أقدر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنبابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل (أي نهر الفولجا)، وهو نهر كبير، وينون على شطّهِ بيوتاً كباراً من الخشب»... «وينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه... ولا بدّ لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقدر ماء يكون وأطفسه (أي أقدره). وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء فتدفعها إلى مولاهما فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه فيغسله ويسرّحه بالمشط في القصعة، ثم يتمخط وبيصق فيها ولا يدع شيئاً من القدر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه، حملت القصعة إلى الذي جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يتمخط وبيصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها».

وعندما يصلون إلى المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ويقدمه إلى وثن من الخشب يسجد له ويقول له: يا رب قد جئت من بلد بعيد، ويذكر جميع ما معه من تجارة، ثم يقول: أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم كثيرة فيشتري منّي كل ما أريد ولا يخالفني فيما أقول، ثم ينصرف. فإن تعسّر عليه البيع عاد

بهداياه إلى الخشبة، فإذا تسهّل له البيع ذبح غنماً وبقراً للخشبة، وفرّق الباقي على الناس. فإذا جاء الليل وافت الكلاب وأكلت جميع ما تركه على الخشبة (النُّصب) فيسرّ بذلك ويقول: قد رضي ربّي عني فأكل هديتي!!!

وإذا مرض الواحد منهم، ضربوا له خيمة وطرحوه فيها ومعه شيئاً من الخبز والماء ولا يقربونه حتى يشفى أو يموت، فإذا مات أحرقوه، وإن كان مملوكاً تركوه حتى تأكله الكلاب وجوارح الطير. فإذا مات أحد رؤسائهم جعلوه في قبره وسقفوا عليه حتى يخيطن له ثياباً. ويقسمون ماله أثلاثاً، فثلث يصنعون له بها ثياباً، وثلث لأهله، وثلث للنبيد يشربونه يوم يحرقونه مع جاريته. وإذا مات الرئيس منهم قالوا لجواريه وغلماه: من منكم يموت معه؟ فإذا قال أحدهم أنا، وجب ذبحه وحرقه معه.

ووصف ابن فضلان طقوس قتل الجارية وقد شاهد ذلك بنفسه، حيث يلبسونها أفخر الثياب وتشرب الخمر فيواقعها رجال من أهله، ثم تأتي امرأة عجوز يسمونها ملك الموت فتقتلها ومعها مساعدات لها. ويضعونها معه، مع اللحم والثياب الفاخرة والنبيد، ويضعون الميت وما معه في سفينة ويحرقونها معها.

قال ابن فضلان، بعد أن وصف ذلك كله وصفاً مفصلاً: «وكان إلى جانبي رجل من الروسية، فسمعتة يكلم الترجمان الذي معي فسألته عما قال، فقال: أنتم يا معشر العرب حمقى... تعمدون إلى أحبّ الناس إليكم وأكرمهم عليكم فتطرحونه في التراب، وتأكله التراب والهوام والدود، ونحن نحرقه في لحظة فيدخل الجنة من وقته».

قال: «ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه. ومع كل واحد منهم له جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل وما يشرب، وجارية أخرى يطؤها. وهؤلاء الأربعمئة يجلسون تحت سريره، وسريه عظيم مرصّع بنفيس الجواهر. ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه. وربما وطئ

الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا»<sup>(١)</sup>.

### الخزر

وصف ابن فضلان ملك الخزر وقال: اسمه خاقان (وهو من الترك وقد تهوّد) فإنه لا يظهر إلا في كل أربعة أشهر متنزّهاً، ويقال له خاقان الكبير. ويقال لخليفته خاقان به (بيه أو بك) وهو الذي يقود الجيوش ويغزو. ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان. ولا يدخل على الملك إلا هؤلاء.

وإذا مات الملك يُبنى له دار كبيرة فيها عشرون غرفة، ويحفر في كل بيت منها قبر. وتحت الدار نهر جاري حتى لا يصل إليه - حسب زعمهم - شيطان ولا إنسان. ويقتلون الذين دفنوه حتى لا يُدرى أين قبره.

«ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة. كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يجاذونه يأخذها طوعاً أو كرهاً. وله من الجوّاري السراري لفراشه ستون ما منهن إلا فائقة الجمال. وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد لها قبة مغطّاة بالساج، وحول كل واحدة منهن خادم يجلبها، فإذا أراد أن يطاء بعضهن بعث إلى الخادم الذي يجلبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه...

«وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه... ولا يراه أحد من رعيتّه إلا خرّ لوجهه ساجداً له لا يرفع رأسه حتى يجوزه.

«ومدّة ملكهم أربعون سنة، إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرعية وخاصته وقالوا: هذا قد نقص عقله واضطرب رأيه.

«وإذا بعث سرّية لم تولّ الدُّبر بوجه ولا سبب، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها، فأما القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضر نساءهم وأولادهم

(١) تبدو بعض المبالغات في هذا الوصف.

فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون، وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم. وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم، وربما علّقهم بأعناقهم في الشجر، وربما جعلهم - إذا أحسن إليهم - ساسة (للدواب).

ومما سبق يتضح أن ملك الخزر الذي تهوّد أبقى على كثير من عادات قومه الوثنية. ومع ذلك فقد كان يسمح للمسلمين المقيمين في مملكته «أن تكون أمورهم مردودة إلى ذلك الغلام المسلم ينظر في أمورهم ولا يقضي بينهم غيره». انتهى.

والخزر قوم من الترك تهوّد ملكهم على عهد هارون الرشيد، ورعيته وثنيون ومسلمون ونصارى ويهود. وامتدّت مملكة الخزر حتى وصلت بولندا وكانت مملكة عظيمة. ولما أسلم ملك بلغار الفولجا طلب العون من الخليفة المقتدر العباسي. وفي فتح بلاد الخزر سنة ٣٢هـ استشهد القائد عبد الرحمن بن ربيعة، فأخذ أهل خزر الجثّة، وجعلوها في تابوت ودفنوها وصاروا يستسقون به المطر. يقول أبو جمان الباهلي مفتخراً بعبد الرحمن بن ربيعة وقتيبة بن مسلم وكلاهما من باهلة (التي كانت تعد من أضعف قبائل العرب):

وإن لنا قبرين قبر بلنجر      وقبر بأقصى الصين يا لك من قبر  
فذاك الذي في الصين عمت فتوحه      وهذا الذي يُسقى به سبل القطر

وفي عام ١١٣هـ أغار مسلمة بن عبد الملك على بلاد الخزر، وحقق انتصارات عدة. وتكرّرت الغارات ولكن لم يتم إخضاع الخزر. وأسلم بعضهم طواعية ومنهم إسحاق بن كنداج الخزري في عصر المعتمد العباسي وولاه المعتمد إمارة قطعة إفريقية (تونس) سنة ٢٦٩هـ.

وفي مملكة الخزر مسلمون لهم مساجد وأئمة، ويحكمون بالشريعة فيما بينهم ويحاربون مع جند الملك. وقال البكري: إن أكثر الخزر من المسلمين، ووزير الملك من المسلمين أيضاً. (ذكره في كتابه الممالك والمسالك). قال: وللملك سبعة حكام من اليهود والنصارى والمسلمين وعبدة الأوثان.



وقال المسعودي في «مروج الذهب» إن الروس هجموا على مناطق المسلمين وأخذوا منهم أسارى، فعلم بذلك جنود ملك الخزر وهم مسلمون كما تقدم، فاستأذنوا من الملك أن يجاربوا الروس ويستنقذوا الأسارى المسلمين. فحاربوهم حتى انتصروا عليهم، وأطلقوا الأسارى من المسلمين. والغريب أن بعض النصارى قاتل مع المسلمين، لأن الروس آنذاك كانوا وثنيين. ففرّ من بقي من الروس في مراكبهم، ومنهم من وقع إلى بلاد البلغار المسلمين فقتلوه هناك أيضاً. (وقد نقل هذه الحادثة المؤرّخ الروسي كارامزين، وقال: إنها حدثت سنة ٩١٢/٣٠٠ ميلادية. وقد ذكرها المؤرّخون المسلمون مثل ابن جرير الطبري وابن الأثير أنها وقعت عام ٣٢٢هـ).

وقد ذكر الرمزي في كتابه: «تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» أن في بلاد الخزر من اليهود والمسلمين والنصارى وأهل الأوثان ومنهم الصقالبة والروس. وأنهم يحرقون موتاهم (كما سبق أن ذكره ابن فضلان). ونقل عن المسعودي أن المسلمين اشترطوا على ملك الخزر إظهار شعائر دينهم، ويحكم بينهم قضاة مسلمون، وأن تكون الوزارة فيهم. قال المسعودي: والوزير في وقتنا هذا أحمد بن كوبة. واشترطوا على الملك أن يقفوا على الحياد ولا يقاتلوا معه ولا ضده إذا كانت الحرب بينه وبين المسلمين فكان لهم ذلك. ووصفهم بتفصيل أيضاً ابن فضلان في رسالته. كما وصفهم المسعودي وابن رسته والبكري وياقوت الحموي وأبو الفدا إسماعيل بن علي المظفر في تقويم البلدان، ووقعت وقائع عدة بين الخزر والروس كان النصر فيها للخزر.



## الفصل السابع

### الغزو المغولي والدولة الإسلامية التتارية في روسيا<sup>(١)</sup>

لقد بدأ الغزو المغولي للعالم الإسلامي في القرن السابع الهجري وبالذات سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢٠م، عندما اجتاح جنكيزخان مملكة خوارزم الإسلامية، وسقطت على أثرها الممالك الإسلامية واحدة إثر الأخرى..

وبعد وفاة جنكيزخان قام أولاده وأحفاده بمواصلة الزحف شرقاً حتى احتلوا الصين وكوريا، وغرباً حتى وصلوا إلى روسيا وبولندا ودول أوروبا.

وقد بدأ الغزو المغولي على إمارة روس كييف سنة ١٢٢٣ ميلادية وأوقعوا بهم أول هزيمة على نهر كالكا. وفي عام ١٢٣٧ سقطت مناطق أخرى ودمقروا كييف سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، ومنها انتقلوا إلى بولندا وهنغاريا ووصلوا إلى أبواب فيينا. واضطر قائدهم باتو بن جوجي بن جنكيزخان للعودة إلى منغوليا عندما توفي الخاقان الأعظم وليشترك في القورلتاي (مجلس الشورى)، الذي سيختار القآن الأعظم الجديد.

ولكن المغول واجهوا مقاومة شرسة من بلغار الفولجا المسلمين، وهُزموا بالقرب من مدينة سهارا سنة ١٢٢٣، وكان قائد المغول أوران Uran ابن سبوطاي بهادر Subutai Bahadur.

وفي عام ١٢٣٦ عاد المغول بقوات أكبر واجتاحوا الإمارات المختلفة، ولكنهم احتاجوا إلى خمس سنوات كاملة حتى يتغلبوا على بلغار الفولجا.

(١) لمعرفة تاريخ المغول وكيفية إسلامهم، انظر كتاب «كيف أسلم المغول؟» للمؤلف.

وقد تحول الأورد الذهبي إلى الإسلام تدريجياً بعد أن تولى بركة خان إمرة الأورد الذهبي بعد وفاة أخيه باتو بن جوجي بن جنكيزخان. وكان بركة خان قد دخل في الإسلام.. وحكم بركة خان من سنة ٦٥٤ إلى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٥٦-١٢٦٧م)، وبدخول بركة خان في الإسلام ووصوله إلى الحكم انصهر المغول (التتار) مع إخوانهم المسلمين بلغار الفولجا. وأقام هذا التحالف الإسلامي دولته على طول نهر الفولجا (نهر إتل) وجعلوا عاصمتهم مدينة السراي على الجزء الأسفل من نهر الفولجا.

وقد امتد سلطان القبيلة الذهبية من شمال التركستان شاملاً بذلك ما يعرف اليوم بقازاقستان وامتدأ حتى سيبيريا، ومنها إلى نهر الفولجا، وروسيا، وبولندا، وأوكرانيا.

#### انتشار الإسلام في عهد التتار

وانتشر الإسلام على طول نهر الفولجا بواسطة الدعاة إلى الله والتجار بين بلغار الفولجا، ثم انتشر بعد ذلك انتشاراً عظيماً على يد القبيلة الذهبية التي أسسها جوجي ابن جنكيزخان والتي أسلم أميرها بركة خان سنة ٦٥٤ - ٦٦٥هـ / ١٢٥٦-١٢٦٧م...

وأصبح نهر الفولجا بأكمله نهراً إسلامياً، وكانت حاضرتهم مدينة السراي التي زارها ابن بطوطة في رحلته المشهورة ٧١٥هـ / ١٣١٤م، وفي ذلك العهد المبكر كانت قازان واسترخان والكفابل وشبه جزيرة القريم (كريميا) كلها إسلامية.. وعرف سكان هذه المناطق باسم التتار، وهم في الواقع من القبيلة الذهبية المغولية، ومن بلغار الفولجا المسلمين، ومن قبائل القبشاق (القفشاق) اختلطوا وتزاوجوا.. ثم ظهر تيمورلنك، وخضعت له جميع الأراضي المعروفة اليوم باسم الاتحاد السوفياتي كما خضعت له بولندا أيضاً..

وكان سلاطين التتار يحكمون نهر الفولجا بأكمله ابتداء من قازان القريبة من موسكو إلى استراخان الواقعة بالقرب من بحر قزوين (بحر الخزر)، كما قاموا بنشر الإسلام في بلاد البشكير. ويقول الكاتبان الفرنسيان بنجيس ولومرسييه في كتابهما «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي»: فمنذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) اصطحب التجار والسفراء العرب معهم دين النبي محمد إلى مملكة البلغار القائمة على المجرى المتوسط لنهر الفولجا.. ومع انتهاء القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كانت هذه المنطقة قد أصبحت في معظمها وفقاً على الإسلام الذي انطلق في القرنين التاليين ليعبر جبال الأورال ويمتد في بلاد البشكير.. وبفضل التجار المسلمين عرباً كانوا أم فرساً أم أتراكاً، تسرب الإسلام أيضاً إلى سهوب بلاد الكازاخ (كازاخستان) شمال نهر سرداريا (سيحون)، ومنها صعده في جبال قيرغيزيا حتى وصل إلى سينكيانغ (تركستان الشرقية التي تحكمها الصين)»..

«وفي مستهل القرن الثالث عشر الميلادي ٦١٧هـ/١٢٢٠م، حلت بالعالم الإسلامي كارثة عظمى هي كارثة الغزو المغولي التي اتخذت مظهراً صليبيّاً بتعاون البابا مع جنكيزخان وأولاده لسحق العالم الإسلامي.. وهنا نشطت الفرق الصوفية لإنقاذ الإسلام وأسبغت عليه طابعاً أكثر اتصالاً بالجذور الشعبية»..

«وتحوّل الغازي المغولي من مستأصل للإسلام إلى مدافع عنه وناشر له عندما اهتدى سلاطين القبيلة الذهبية في بداية القرن الرابع عشر للإسلام (الواقع في عهد بركة خان في القرن الثالث عشر الميلادي) مما أعطى الإسلام زخماً جديداً أوصله إلى شبه جزيرة القرم وسهوب روسيا الجنوبية (شمالى البحر الأسود وبحر قزوين) وسيبيريا الغربية.. وامتدت هذه المرحلة من الانتشار الإسلامي حتى القرن السادس عشر الميلادي».

«وقد دخلت قبائل النوغاي في الإسلام في القرن الثاني عشر الميلادي، وأدخلته إلى منطقة القفقاس الوسطى.. وما انتهى القرن الخامس عشر الميلادي

حتى كانت قبائل الكابارد والبلكار والشركس والكراتشاي قد دخلت جميعها في الإسلام».

وبهذا يتضح أن الإسلام لم يكن منتشرًا فحسب في آسيا الوسطى (بلاد ما وراء النهر) أو التركستان منذ القرن الهجري الأول (السابع الميلادي)، بل كان منتشرًا في أذربيجان وجنوب القوقاس أيضاً منذ القرن الهجري الأول...

ولم يأت القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، إلا وقد صار بلغار الفولجا مسلمين وكذلك أيضاً سكان التركستان الشرقية..

#### انهيار دولة كييف الروسية

ولقد أدى الغزو المغولي إلى انهيار دولة كييف الروسية (Keivan Rus) عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، وقامت بدلاً منها نوفوجورد وإمارة موسكو التي رعاها المغول وأقاموا معها علاقات تجارية وودية. وكان الروس يدفعون الجزية للحاكم المغولي، إلا أن علاقتهم كانت جيدة بالتتار (المغول). ويذكر المؤرخون الروس أنفسهم أن التتار شجّعوا على إقامة الطرق بين موسكو والمدن الأخرى، ونظّموا البريد، وازدهرت التجارة في أيامهم، كما أوجدوا نظاماً مالياً جيداً، وسمحوا للروس بالبقاء على نصرانيتهم ودينهم وعاداتهم. وكان أول حاكم لإمارة موسكو في دانييل ألكسندر وفيتش (وفاته سنة ١٣٠٣م)، وتولى بعده إيفان الأول (١٣٢٥ - ١٣٤٠) بعد فترة من الاضطراب، واشتهر باسم إيفان كاليتا أي كيس النقود لاكتنازه المال. فقد تعاون مع المغول واشتغل بالتجارة واستخدم المال للتغلب على خصومه وتقوية إمارته وتوسيعها. وفي عام ١٣٢٧ حوّل مقر الكنيسة الأرثوذكسية من مدينة فلادمير إلى مدينة موسكو، وكان بذلك العمل يقوِّي إمارته.

واستمر حكم المسلمين التتار لموسكو حكماً اسمياً، ويكتفون فقط بأخذ الجزية لمدة ٢٤٠ عاماً. وفي عام ١٤٨٠ أعلن إيفان الثالث أنه يرفض دفع الجزية

لخان قازان، وذلك بعد أن نشبت الخلافات في دولة التتار وانقسمت إلى عدة دويلات.

ولقد وصف لنا ابن بطوطة في رحلته الهامة مملكة تتار الفولجا وعاصمتها الجميلة السرا (ساراي) وملكها السلطان محمد أوزبك خان الذي آل إليه أمرها سنة ٧١٣هـ/١٣١٢م. وكان يحكم نهر الفولجا بأكمله وشبه جزيرة القرم وعبر جبال الأورال في بشكيريا، ويمتد حكمه إلى سهوب كازاخستان حتى خوارزم حيث يبدأ حكم قريبه السلطان علاء الدين طرمشيرين حفيد جغتاي ابن جنكيزخان الذي كان من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين.

وهكذا نرى اثنين من أحفاد جنكيزخان، أحدهما السلطان محمد أوزبك خان من فرع جوجي بن جنكيزخان (القبيلة الذهبية) يحكم معظم أراضي الاتحاد السوفياتي السابق ما عدا أوزبكستان وقرغيزيا وتركمنستان، والثاني هو علاء الدين طرمشيري الذي اشتهر بالعدل والتواضع حتى وصف بأنه يشبه عمر ابن عبد العزيز وقد حكم مناطق التركستان وخراسان وأفغانستان وشمال الهند.

#### بناء مدينة سراي

جاء في كتاب «وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» تأليف م. م الرمزي (وهو اسم مستعار لأحد أبناء تتارستان.. وتمّ طبع الكتاب سنة ١٩٠٧) ج ١/٣٧٦: (تحت عنوان بناء بلدة سراي): «ولما فرغ باتو (ابن جوجي) من حرب الروس وغيرهم والاستيلاء على بلادهم وأذعنوا له بالانقياد وأقرّوا له بأداء الجزية وترك العناد، رجع إلى مقر سلطنته بكمال الأبهة مستغرقاً في مراكز مهمة، فبدأ ببناء مدينة سراي بالجانب الشرقي من نهر إتل (نهر الفولجا) بساحل شعبة منه يقال له آق توبة أي التل الأبيض، فوق (أي شمال) مدينة حاجي طرخان (وجنوب قازان). وكلاهما أي مدينة حاجي طرخان وقازان قامتا بعد سراي) ليجعلها مقرّ سلطنته

وكرسي مملكته، وكان ذلك في حدود ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢ ميلادية، وأتمها أخوه بركة (خان) بعده فصارت دار ملكهم إلى أن انقرضت دولتهم».

ويعتبر بركة خان أول من أسلم من حكام المغول (انظر كتاب كيف أسلم المغول لكاتب هذه السطور). قال القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»: «وكان إسلامه (أي بركة خان) قبل تملكه حين أرسله أخوه باتو لاجلاس منكو قاآن (أي الخان الأعظم) على كرسي جدّه جنكيزخان، فأجلسه وعاد. فمرّ في طريقه على الباخرزي شيخ الطريقة فأسلم على يديه وحسن إسلامه، ولم يملك بعد أخيه باتو إلا وهو مسلم». وكان الباخرزي أحد أشهر علماء زمانه وأكثرهم صلاحاً مقيماً في بخارى. وذكر ذلك الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وابن خلدون في «تاريخه»، وابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

وقد وصف ابن عربشاه في كتابه «عجائب المقدر» مدينة سراي قانلاً: «وتخت (أي عاصمة) الدشت (أي دشت القفجق) سراي. وهي مدينة إسلامية البنيان، بديعة الأركان. وكان السلطان بركة خان لما أسلم بناها واتخذها داراً للملك واصطفاها. وكانت من أعظم المدن وضعاً، وأكثرها للخلق جمعاً». ودعا إليها بركة خان العلماء الأعلام من الآفاق ليقيموا فيها ويعلموا الناس أمور دينهم. واستمر الأمر على ذلك في عهد أحفاده وخاصة في عهد محمد أوزبك خان وجاني بك خان. ومن سكنها قطب الرازي (وهو غير الفخر الرازي المفسر المشهور)، والشيخ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الهروي الخراساني (٧٢٢ - ٧٩٢هـ) وهو فقيه وأديب حنفي. وحافظ الدين البزازي الخوارزمي الحنفي وفاته ٨٢٧هـ، وأحمد بن محمد الأحرز الخجندي (وفاته ٨٠٣هـ)، وغيرهم من العلماء والأدباء. وقال عنها ابن فضل الله العمري: إن مدينة سراي بناها بركة خان على شطّ نهر إتل، وهي أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم على عليائه هلال



ذهب، ويحيط بالقصر سور وأبراج.. وهذا النهر (أي نهر إتل = الفولجا) يكون قدر النيل ثلاث مرات وأكبر، ويجري فيها السفن الكبار يسافر بها إلى الروس والصقلب». وقد رأيت نهر الفولجا عند زيارتي لتارستان، وهو بالفعل أكبر وأعرض من نهر النيل.

ابن بطوطة يصف دولة الإسلام على ضفاف نهر الفولجا (نهر إتل)

وقد ترك لنا الرحالة الإسلامي المشهور ابن بطوطة وصفاً وافياً لمملكة السلطان محمد أوزبك خان، كما وصف لنا مدينة السرا والبلغار واستراخان والكفا ووصف شبه جزيرة القريم ومدنها.. وترك لنا أيضاً وصفاً عن بلاد الظلمة الواقعة شمال مدينة البلغار.. كما قام هذا الرحالة بوصف مملكة السلطان علاء الدين طرمشيرين، والتي كانت تضم ما يعرف اليوم بالتركستان الشرقية والتركستان الغربية.. ويصف لنا ابن بطوطة مدينة السرا الواقعة على نهر الفولجا بقوله:

«ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية في الكبر في بسيط من الأرض، تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق، متسعة الشوارع. وركبنا يوماً مع بعض كبرائها وغرضنا التطواف عليها ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاماً، فما وصلنا المنزل إلا عند المغرب، ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين، وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية، وأما المساجد سوى ذلك فكثير جداً..»

الإمام العالم الصوفي نعمان الدين الخوارزمي

مثال لمعاملة العلماء ورثة الأنبياء للملوك الدنيا

«وقاضي هذه الحضرة (الحاضرة أو العاصمة) بدر الدين الأعرج، من خيار القضاة. وبها من مدرّسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان

الذكي (من الداغستان).. وبها من المالكية شمس الدين المصري.. وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا.. وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي، رأيت بها، وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفس، شديد التواضع، شديد السطوة على أهل الدنيا، يأتي إليه السلطان محمد أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه. ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام، ويتواضع له والشيخ بضد ذلك. وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان (الذي هو أحد السلاطين السبعة في الدنيا كما وصفه من قبل ابن بطوطة نفسه). فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم، وأكرمني جزاه الله خيراً وبعث إلي بغلام تركي وشاهدت له بركة».

نعم هكذا كان أصحاب الزوايا من مشايخ الصوفية، علماء فقهاء زهاد، لا يلتفتون للسلاطين، بل السلاطين يجثون على أبوابهم، ويسمعون تقريرهم وتأنبهم بكل أدب وخضوع..

وسنرى في موضع آخر موقف هؤلاء العلماء الأتقياء من الصوفية مع السلطان العظيم المقدار السلطان طرمشيرين حفيد جنكيزخان وهو يتواضع ويسمع تقرير الإمام حسام الدين الياغي<sup>(١)</sup>.

فلله در أولئك العلماء الأفاضل الزهاد من الصوفية.. والله در أولئك السلاطين أحفاد جنكيزخان.. والسلاطانان العظيمان علاء الدين طرمشيرين سلطان ما وراء النهر (جميع التركستان الحالية).. ومحمد أوزبك خان سلطان البلغار والكفا واستراخان (أي نهر الفولجا الذي كان يعرف بنهر إتل) وسلطان شبه جزيرة القريم وبلاد الكازاخ حيث يمتد سلطانه إلى خوارزم ذاتها- كانا متواضعين للعلماء محيين لهم مستمعين إلى توجيهاتهم بل ومتحملين تقريرهم وتوبيخهم.. وقد زاد السلطان طرمشيرين على السلطان أوزبك بزهد واستقامته الشديدة وعدله وسيرته في المسلمين بسيرة ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.

(١) انظر كتاب «المسلمون في الاتحاد السوفيتي» لكاتب هذه السطور، الناشر دار الشروق- جدة.

## الأورد الذهبي في بلاد القفجق من خوارزم إلى حدود بولندا

### حكام الدشت بعد بركة خان

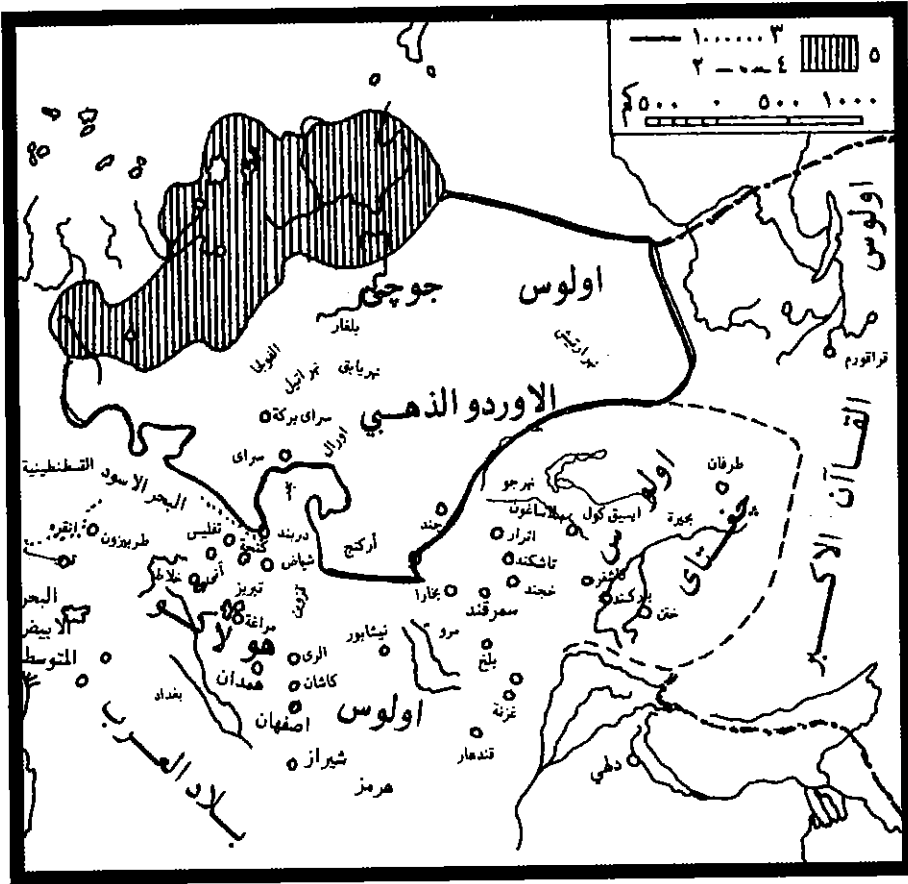
رغم أن بركة خان قد بذل جهوداً جبّارة في نشر الإسلام بين قاداته وجنوده وأهل بيته من التتار، إلا أنهم لم يسلموا جميعهم. وكانوا ينكرون عليه إلغاء بعض قوانين «الياصا» (اليساق) التي وضعها جده جنكيزخان الذي له القداسة والإكبار لدى كل التتار. ولذا كان بعضهم ترك الإسلام وعاد إلى دين آبائه.

ولما توفي بركة خان سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م، تولى بعده منكو تيمر بن طغان بن باتو بن جنكيزخان باتفاق أركان الدولة. قال ابن الفرات: في سنة ٦٦٥ جلس منكو تيمر بن طغان على كرسي مملكة القفجق ومدينتها سراي، وصارت إليه مملكة التتار بالبلاد الشمالية والقفجق والباب»، ووقع خلاف بين منكو تيمر وأبغا وتحاربوا على نهر كورا في القوقاس. وانتصر أبغا (وهو من نسل هولاكو) وعاد إلى بلاده. وقيل إن ذلك تم سنة ٦٦٥هـ، وقال آخرون بل سنة ٦٦٧هـ. وفي عام ٦٦٨هـ قصد الملك منكو تيمر القسطنطينية. وقالوا إن رسل السلطان بيبرس كانوا عند ملك القسطنطينية النصراني، وبينهما صلح ومودة، فذهب هؤلاء الرسل إلى منكو تيمر وأخبروه بأن السلطان بيبرس على علاقة وطيدة وصدّاقة مع ملك القسطنطينية، وبالتالي يرجوه عدم محاربة القسطنطينية فرجع منكو تيمر. وقد أعطى ملك القسطنطينية هذا الرسول مبالغ كبيرة من المال على هذه الخدمة التي لا تنسى، ولما عاد الرسول غضب عليه بيبرس وقتله.

وفي عام ٦٦٩هـ انتصر منكو تيمر على أبغا (من نسل هولاكو) وفرح بذلك المسلمون. وكان السلطان بيبرس قد بلغه أن بعض القواد في جيش منكو قد عادوا إلى دين أسلافهم، فأرسل رسولاً يستفهم عن ذلك، فجاءته رسالة من ييسو نوغامي قريب الملك بركة وقائد الجيش بأنه مسلم ومحافظ على دينه، وأنه

يشكر السلطان بيبرس على اهتمامه بتوطيد أركان الإسلام في بلاد القفجق. واستمرت الرسائل الودية بين السلطان بيبرس والملك منكو تيمر . وتولى السلطان قلاوون الحكم في مصر والشام سنة ٦٧٨هـ بعد وفاة السلطان بيبرس. واستمرت العلاقات الودية بينه وبين منكو تيمر الذي توفي سنة ٦٧٩هـ. وتولى بعده أخوه تدان منكوخان بن طغان بن باتو، وأعلن إسلامه أيضاً، وكانت علاقته بالسلطان قلاوون ودية. وتنازل تدان منكوخان لابن أخيه تلابغا بن منكو تيمر سنة ٦٨٦هـ وحاول تلابغا أن يفتك بقائد الجيش ييسو نوغاي، ولكن نوغاي عرف بالمكيدة فقتل تلابغا وأخوته سنة ٦٩٠هـ. ثم تولى طقطي ابن منكو تيمر بن طغان بن باتو بن جوجي. واستمرت المراسلة مع ملوك مصر. وساءت العلاقة بين طقطي وقائد الجيوش نوغاي ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٩٧هـ وانهمز طقطي. ثم دارت حرب أخرى بينهما سنة ٦٩٩هـ وانتصر طقطي هذه المرة وقتل نوغاي. واستمرت الحرب بين أبناء نوغاي والملك طقطي. وحصل جذب وقحط سنة ٧٠٢هـ ببلاد القفجاق. ومات طقطي على دين التتار سنة ٧١٢هـ رغم محبته للمسلمين. وتولى بعده الملك المسلم العادل السلطان محمد أوزبك بن طغرلجا بن منكو تيمر سنة ٧١٢هـ، الذي نشر الإسلام بين جميع أفراد مملكته من التتار. ويعتبر السلطان محمد أوزبك خان أعظم سلاطين الأورد الذهبي بعد بركة خان، الذي كان أول من دخل في الإسلام من أبناء جنكيزخان وقامت الحرب بين السلطان محمد أوزبك حفيد باتو بن جوجي بن جنكيزخان وبين حفيد هولوكو سلطان العراقيين أبي سعيد خان (عراق العرب وعراق العجم وإيران وأذربيجان وكرجستان وجورجيا) سنة ٧٢٢هـ، ثم وقع الصلح بينهما، ثم عادت الحرب سنة ٧٣٦. وتوفي السلطان محمد أوزبك خان سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤٢م.

خريطة توضح انقسام دولة المغول الكبرى إلى أربع ممالك كبرى: أولوس جوجي (الأورد الذهبي) والتي امتدت من خوارزم وجنوب سيبيريا إلى بولندا غرباً. وكان مقرها وعاصمتها مدينة سراي على نهر الفولجا. وحكمت الإمارات الروسية وغيرها كما هو موضح في الخريطة. لقد تحولت القبيلة الذهبية (الأورد الذهبي) في عهد بركة خان إلى الإسلام في القرن الثالث عشر الميلادي وتبعها بعد ذلك أولوس جغتاي وأولوس هولاقو... وأصبحت بذلك جميع الأراضي الواقعة في الاتحاد السوفياتي السابق تابعة للمسلمين...



إمبراطورية المغول في القرن الثالث عشر

- ١- أولوس جوجي الأورد الذهبي
- ٢- أولوس هولاقو (إيلخانات الفرس)
- ٣- أولوس جغتاي
- ٤- أولوس القآن الأكبر
- ٥- الإمارات الروسية الخاضعة للأورد الذهبي

ووسع السلطان محمد أوزبك خان مملكته، وخضعت له الإمارات الروسية المختلفة، ووصل حكمه إلى ما يعرف اليوم بروسيا البيضاء وأوكرانيا وبولندا ودول البلطيق (ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا)، كما امتد حكمه جنوباً ليشمل القرم وجزءاً كبيراً من سواحل البحر الأسود. كما أن حكمه يصل إلى شمال بحر الخزر (بحر قزوين) حيث قامت مدينة الحاج طرخان (استراخان)، ويتصل حكمه هناك بحكم حفيد هولوكو أبي سعيد خان. كما أن حكمه يصل إلى خوارزم وجنوب سيبيريا. ويتصل حكمه هناك بحكم ابن عمه السلطان طر مشيرين حفيد جغتاي ابن جنكيز خان (انظر الخريطة).

وقد تولى محمود جان خان الحكم بعد وفاة أبيه السلطان محمد أوزبك خان وذلك سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤٢م، وسار على سياسة أبيه في العدل والحزم ومحاربة أعداء الدولة وإخضاعهم، وخاصة الروس الذين بدأوا يتمردون. وعندما توفي محمود جان بك (خان) سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م، بدأت الدولة في الضعف. وتولى ابنه محمد بردي خان الحكم وكان ظالماً غشوماً، ودام حكمه من سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م إلى سنة ٧٦٢ / ١٣٦١م. واختلت الأمور وظهرت الفتن. ثم ظهر توقتامش خان بهادر وكان قد هرب إلى تيمورلنك في سمرقند، وأمدّه تيمور بالقوات فاستعاد مملكة آبائه سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م. وجاء فاسيلي الثاني حاكم روسيا إلى سراي لإظهار خضوعه وذلك عام ٧٩٤هـ / ١٣٩٢م. ويقول المؤرخ الروسي كارامزين (كما ينقله عنه الرمزي في كتابه «وقائع قزان وبلغار وملوك التتار»: «توجه فاسيلي كيناز (أمير) الروسية الأعظم إلى أوردو (أي الأورد الذهبي في سراي) لإظهار الطاعة وتجديد البيعة لتوقتامش خان. ولم يكن سبب مثوله لحضور الخان منحصراً في هذا فقط، بل أقواه وأهمه تقوية كينازية (إمارة) موسكو وتوسيع دائرتها بالتدريج، فصار فاسيلي مظهراً لما لم ينله غيره من حكام الروس قبله من التفات حضرة الخان وأمرائه.. ومن جملة ما نال فاسيلي في سفره هذا من الامتياز أنه تمكن من تحصيل الإذن من حضرة الخان بنصب بوريس جوردتسكي كينازاً (أميراً) بأطراف

نيزني».. وإلحاق عدة مدن صغيرة أخرى إلى إمارة موسكو.. ويقول كارامزين: إن سبب استجابة الخان توقتامش لمطالب فاسيلي هو أن الخان كان يستعد لمحاربة صديقه القديم وولي نعمته تيمورلنك الذي أراد أن يستولى على جميع ممالك الأرض وأن تكون كلها تحت طوعه وأمرته. وأبدى فاسيلي استعداداه لمحاربة تيمورلنك مع الخان توقتامش.

تيمورلنك وتوقتامش: وقد بدأ تيمورلنك بتوسيع مملكته على حساب أولوس (قبيلة) هولاكو، الذين كانوا يحكمون خراسان وإيران والعراقين وأذربيجان (السوفياتية والإيرانية) وكرجستان (جورجيا) إلى طرابزون (في تركيا حالياً) وبالتالي كل القوقاس الجنوبية. ولما مات السلطان أبو سعيد سلطان أولوس (قبيلة هولاكو) اضطرت البلاد وأصبحت في فوضى، فاستغل ذلك تيمورلنك واستولى عليها وذلك سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م وكعادته أجرى فيها مراسم القتل والنهب والتخريب. وكانت تبريز وعراق العرب وبغداد تحت حكم السلطان أحمد بن أويس الجللايري الإيلخاني (أيضاً من فرع هولاكو)، وكان بينه وبين توقتامش مودة ومواصلات وإمداد عسكري، فلما استولى تيمورلنك على القوقاس الجنوبي، أرسل توقتامش جنوده إلى السلطان أحمد بن أويس لحماية ثغوره وبلاده (خمسين ألف جندي مع الأمراء). ولكن حصل أن السلطان أحمد بن أويس وقع في غرام غلام مغولي كان مع قاضي سراي (رسول توقتامش)، فغضب القاضي ومن معه من هذا الفعل المشين. وقام توقتامش بإرسال جنده إلى تبريز واحتلالها بعد مقاومة شديدة، ولكن السلطان أحمد كان في بغداد فنجا من هذا الهجوم، وذلك عام ٧٨٧هـ/١٣٨٦م.

وغضب تيمورلنك لإقدام توقتامش على احتلال تبريز على اعتبار أنها ضمن دائرة نفوذه وأنه سيطش بها قريباً.

وسعى توقتامش لجلب سلاطين مصر والشام إلى جانبه. وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في تاريخه: أن رسل توقتامش قدمت إلى مصر في زمن السلطان برقوق

(أول ملوك الجراكسة)، وقد وصلت البعثة برئاسة حسن بن رمضان سنة ٧٨٦هـ ثم قدمت رسل أخرى عام ٧٨٧. وبدأت المناوشات بين عسكر توقتامش وتيمورلنك عام ٧٨٨هـ. وفي هذه السنة وما بعدها استولى تيمورلنك على تبريز والعراق وكرجستان وأذربيجان وبلاد الداغستان، وفعل من الشنائع ما هو معهود منه. وقام تيمورلنك باحتلال أرض الروم (أرضروم) ثم رجع إلى أصفهان وبخارى وخوارزم. وبدأت الحرب بين تيمورلنك وتوقتامش. وعندما كان تيمورلنك مشغولاً بهذه الحروب ثار الأهالي وأحرقوا قصر تيمورلنك في سمرقند (زنجيرسراي) وذلك بدعم من قوات توقتامش سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٨م. واسترجع تيمورلنك خوارزم. واستمرت الحرب بين توقتامش وتيمورلنك حتى أهلكت هذه الحروب الحرث والنسل، ولم ينتصر أحدهما على الآخر نصراً مؤزرًا، بل كانت الحرب بينهما سجالاتاً. ثم بدأ تيمورلنك في الانتصار وتوجه إلى دشت القفجاق وسراي لحرب توقتامش خان وتخريبه البلدان في طريقه. وذلك ما بين عام ٧٩١ و٧٩٣. وواجه تيمورلنك صعوبات جمة ولكنه تغلب عليها وانتصر على توقتامش في موضع قندزجه وعبر توقتامش نهر الإتل (الفولجا) مع من بقي من عساكره. واستولى تيمورلنك على كل الأراضي شرق النهر (أي الفولجا) فقتل ودمر وخرّب كل المدن هناك. ولم يخرب تيمورلنك مدينة سراي العاصمة في هذه النوبة كما يقول الرمزي في كتابه «وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» بل قنع بكسر عساكر توقتامش.

ووقعت المعركة الخامسة الفاصلة بين توقتامش خان وتيمورلنك التي أدت إلى تخريب مملكة الدشت (القفجاق) وتخريب سراي وسرايحق وحاج طرخان (استراخان) وأزاق والقرم وغيرها بعد معارك رهيبية وذلك عام ٧٩٧هـ / ١٣٩٦م. وهرب توقتامش إلى بلاد الروس لاجئاً بعد أن كان حاكماً. وقيل لم يهرب بل قتله تيمورلنك. وقيل هرب إلى الغابات والمشاجر في بلاده، وهو ما أيده الرمزي في كتابه «وقائع قزان وبلغار وملوك التتار».



وهذه الحوادث المؤسفة أدت إلى إضعاف دولة القفجق (الذشت) وإلى تقوية الإمارة الروسية، ومن حظ الروس أن دولة ليتوانيا القوية والتي كانت تهدد الروس ضعفت بمحاربة تيمورلنك لها.

وبدأت المعارك بعد انحسار تيمورلنك بين الأمراء الصغار من القفجق ولم يستطع توقتامش أن يعيد دولته، بل بقي بين القبائل يحاول إعادة دولته فلم يستطع حتى وافته المنية سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م.. وكان تيمر قتلغ أحد أمراء التتار قد هجم على سراي بعد أن أعيد بنائها جزئياً بعد ذهاب تيمورلنك وعودة توقتامش. وتغلب تيمر قتلغ على توقتامش الذي هرب إلى مملكة ليتوانيا (وكانت بلدة كييف عاصمتها). ولكن لم يستطع العودة إلى بلاده. واستولى تيمر قتلغ على مملكة القفجق وبقيت لها بعض هيبتها حتى أن الروس إذا اختلفوا في تولية أحد الأمراء بعثوا إلى تيمر قتلغ أن يولي أحدهم. فلما مات تيمر قتلغ انقسمت الدولة إلى ثلاثة حكام هم شاد بك خان وتوقتامش خان وقويرجق خان!!

وبالتالي بدأ الروس في رفض دفع الجزية المقررة كما بدأوا بسياسة استقبال من يفر من أمراء التتار إليهم ليستخدموهم في محاربة الجالس على التخت.

وزادت الأمور سوءاً بعد موت (أو قتل) توقتامش سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م، وذلك بسبب تنافس الأمراء الصغار، ورغم ذلك فإن بعض الأمراء مثل الأمير أيدكو هجم على الروسية وحاصر موسكو، وفر الكيناز (الأمير الروسي) فاسيلي منها. واضطر فاسيلي لدفع الجزية حتى ينسحب منها أيدكو وذلك سنة ٨١٢هـ / ١٤٠٩م.

وظهر جلال الدين بن توقتامش خان سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م ولكنه واجه منازعة من أربعة من الأمراء فلم يتم له الأمر. واستمر القتل واستبدال الأمراء واحداً بعد آخر حتى ضعفت دولتهم ضعفاً شديداً.

ونتيجة للخلافات انقسمت أملاك القبيلة الذهبية إلى عدة دويلات عرفت

باسم الخانيات وذلك منذ سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م وهي:

(١) خانية قازان: وظهرت سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨ بعد أن اندثرت دولة سراي على يد تيمورلنك أول الأمر، ثم على يد مختلف الأمراء المتنازعين. وحكمها ألغ محمد الذي قتل عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م، ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده إلى أن استولى عليها إيفان الرهيب (إيفان الرابع) سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٢م.

وقد كانت خانية قازان أهم هذه الخانيات، وظلّت موسكو تدفع لها الجزية حتى عام ١٤٨٠م. عندما رفض إيفان الثالث (جدّ إيفان الرهيب) دفع الجزية لأنه رأى ضعف دولة قازان وقوة دولته وأعلن نفسه قيصرًا وحاكمًا لكل الروس.

وكلمة قازان معناها «المرجل» أو القدر وقد سُمّي النهر الذي يمر بهذه المنطقة قازان لأن قدرًا لأحد الأمراء وقع فيه فسمي النهر قازان «أي القدر». وقد احتفلت قازان بمرور ألف عام على إنشائها لأول مرة عام ٢٠٠٥ وافتح في الاحتفال مسجد «قل شريف» وملحقاته. وقد ساهم في بناء المسجد دول إسلامية عدة منها المملكة العربية السعودية بالإضافة إلى تاتارستان.

وأول من ناهى كمدينة هو سرتق ابن باتو خان بعد أن صالحه الروس، فنزل في ذلك الموضع وبنى المدينة، واختار موقعاً قريباً من الروس ليدفعوا الجزية كل عام، وأن تكون ذات موقع جيد الماء والهواء صالحة للزراعة. فاجتمع فيها خلق عظيم من التتار وسرماتيا (جرميش) وجواش ووتاك وبرطاس (موردوفا) وبلغار وغيرهم، وكلهم مسلمون. وأهل قازان من نسل هؤلاء، حتى دخلها الروس واحتلّوها عام ٩٥٩هـ/١٥٥٢م، فصاروا يسكنونها بكثافة، حتى بلغوا نصف السكان أو أكثر.

وأول من تسلطن فيها هو ألوغ محمد خان بن تيمرخان عندما ترك سراي بسبب تغلب أخيه كجك محمد خان سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م وانتقل ألوغ محمد بجميع من معه من الحاشية والأنصار إليها، فأتى إلى قازان التي كان الروس قد خربوها سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، ولم يبق بها إلا المساكين. وبنى القلعة والمساكن

فانتقل إليها كثير من الأقوام الذين كانوا في أطرافها من التتار والبلغار وسمراتيا (جرميش) وجواش الذين كانوا يعانون من غارات الروس عليهم. وتمكن ألوغ محمد من إقامة إمارة قوية في فترة وجيزة. وهجم ألوغ محمد في السنة الثانية من إعادة بناء قازان على موسكو فهرب منها حاكمها فاسيلي. ونهب التتار أطرافها ورجعوا بغنائم جيدة. وفي عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م قصد ألوغ محمد بلاد الروس واستولى على نيزني نوفوجورد ثم بلدة مورم، فجمع فاسيلي جموعاً ضخمة حاشدة، فرأى ألوغ أن الوقت غير مناسب للحرب بسبب الشتاء القارس فعاد إلى قازان بما غنم. وفي ربيع السنة التالية أي ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م استولى ألوغ محمد على نيزني نوفوجورد وأرسل ابنه محمود ويعقوب لاحتلال سوزول، فحشد فاسيلي جيوشه والتقى الفريقان في مناسيتير يغمف، فتظاهر التتار بالانسحاب والانسحاب فنبههم الروس فخرجت عليهم فرق التتار من الغابات المحيطة وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، وسقط الكينار (الأمير) فاسيلي جريحاً فأسر. وأرسل الأميران محمود ويعقوب الصليب الذهب الذي كان في عتق فاسيلي إلى موسكو ليتأكدوا من هزيمة ملكهم. وحدث حريق في موسكو، فهربت أم فاسيلي وأولاده إلى رستوف.. وكان من السهل على التتار أن يحتلوا موسكو بسبب الفوضى التي وقعت فيها. ولكنهم ذهبوا بدلاً من ذلك إلى مدينة فلادمير، وسارعوا بالعودة إلى أبيهم بالأسرى والغنائم.

وأرسل ألوغ محمد إلى أحد قواد جيش فاسيلي وهو شياكو يعرض عليه كينازية (إمارة) روسيا بشرط أن تكون روسيا بلداً خراجياً تابعاً لمحمد ألوغ ففرح شياكو بذلك. ولكن الرسول تأخر وظهرت شائعات قوية بأن شياكو قتل الرسول واستعد لمحاربة ألوغ محمد، فقام ألوغ محمد بعرض شروطه على أسيره الكيناز فاسيلي، ففرح بذلك وعاد إلى موسكو ليكون تابعاً لألوغ محمد. وفي السنة التالية أي ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م قام الأمير محمود بن ألوغ محمد بقتل أبيه والاستيلاء على الحكم. ويقال إن السبب في ذلك رفضه لإطلاق فاسيلي حاكم موسكو وروسيا

فأدى ذلك إلى اضطراب عظيم. واستطاع فاسيلي أن يتخلص من شروط الجزية والخراج بسبب قتل ألوغ محمد. ولم يستطع الأمير محمود بن ألوغ محمد أن يخضعه رغم تكرر الغارات والمناوشات. وتوفي الأمير محمود سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م ثم تسلطن إبراهيم خان بن محمود خان بن ألوغ محمد سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م بعد معارك بين الأخوة وهروب قاسم خان بن ألوغ محمد إلى موسكو لاجئاً عند فاسيلي، ففرح بذلك فاسيلي وأعطاه قلعة ميشجر على نهر أوقه من ولاية رزان ليحكمها نيابة عن فاسيلي. وسُميت إمارة قاسموف وسماها الروس كاسيمسكي نسبة إلى قاسم هذا.

وكان من الطبيعي أن يذهب قاسم بن ألوغ محمد لمحاربة ابن أخيه وربيه إبراهيم خان بن محمود خان بتشجيع وتأييد كامل من إيفان ابن فاسيلي، فذلك يشكّل أقصر طريق للقضاء على أعداء الروس وهم التتار. وتوفي قاسم خان أثناء تلك المحاربة. وقامت زوجة قاسم وأم إبراهيم بإقناع الكيناز إيفان بإيقاف الحرب لأنها ستقنع ابنها بعدم محاربة الروسية، وتوقفت الحرب فترة وجيزة.

وفي عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م نقض إبراهيم خان الصلح مع روسيا وهجم على ولاية واتكا واستولى عليها فانتقم إيفان الثالث ابن فاسيلي وخرّب المدن والقرى التي بين نيزني نوفوجورد وبين قازان، وكانت تابعة لإبراهيم خان. ثم طلب إبراهيم خان الصلح فتصالحا مرة أخرى. وتوفي إبراهيم بعد الصلح أي عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م، وتولى بعده ابنه إلهام خان بعد خلافات بينه وبين أخوته. وكان أكبر أنصار إلهام خان منكلي كراي خان حاكم القرم القوي وزوج أمه، بعد أن طلقها والده إبراهيم خان. وأيد إيفان الثالث ذلك لكون منكلي كراي صديقه أيضاً. ولكن إلهام كان يغير على القرى التابعة لإيفان، فأرسل إيفان جيشاً لإخضاعه مع محمد أمين خان، الأخ الأصغر لإلهام خان، الذي كان لجأ إلى فاسيلي فراراً من أخيه. وتمت المعركة عام ٨٩٣هـ/١٤٨٧م، وانتهت بهزيمة إلهام خان وأخذه وأسرته أسرى إلى موسكو التي احتفلت بوقوع أول أمير من أمراء التتار أسيراً لديها.

وبطبيعة الحال تمّ تنصيب محمد أمين خان أميراً على قازان واشتهر بلقب أيجم وبذلك صارت قازان تابعة لروسيا لأول مرة في التاريخ.

وثار أهل قازان على محمد أمين خان لكونه خانعاً وخاضعاً لروسيا، فأجلسوا مأموق خان الشيباني (وهو أحد أحفاد باتو، وكان في برية القفجاق) أميراً على قازان وذلك سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م، ولكن مأموق خان أراد أن يستولي على أموال أهل قازان، فكرهه الناس وقبلوا بعودة محمد أمين خان الذي فرّ إلى موسكو مرة أخرى وعاد بجيش كثيف من الروس. وأرسل أهل قازان إلى إيفان أنهم لا يريدون محمد أمين ولا مأموق خان، ولكنهم يريدون عبد اللطيف خان أحد أخوة محمد أمين، فوافقهم إيفان الثالث على ذلك. ثم عاد محمد أمين مرة أخرى عام ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م بسبب سوء إدارة عبد اللطيف خان.

وتزوج محمد أمين خان من أرملة أخيه إلهام خان وكانت جميلة فاتنة فتعلّق بها وكانت تحته على محاربة الروس ورفض سيطرتهم عليه، فسار محمد أمين بجيش كثيف عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م نحو الروس وحاصر نيزني نوفوجورد. وكان في سجنها ثلاثة آلاف من ليتوانيا (أعداء الروس)، فأطلق الروس سراحهم بشرط أن يقاتلوا معهم، وكانوا رماة جيدين فقتلوا أخا زوجة محمد أمين، رئيس الطائفة النوغائية، وأراد النوغاي الرجوع بعد قتل رئيسهم فاقتتلوا هم والتتار من عسكر قازان فأصلح بينهم محمد أمين وكرّر راجعاً إلى قازان بما معه من الغنائم. ومرض إيفان الثالث وتوفي قبل أن ينتقم من محمد أمين خان في ٢٧ أكتوبر ١٥٠٤م / ٩١٠هـ.

وقام فاسيلي الرابع بن إيفان الثالث بمحاولة الانتقام من محمد أمين خان سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م، وفشلت الحملة الأولى فأرسل ثانية ففشلت فشلاً ذريعاً. ثم إن محمد أمين كتب إلى فاسيلي الرابع يعرض عليه الصلح، فوافق فاسيلي الرابع بشرط إطلاق الأسرى الروس لدى قازان وأن يعود الأمر كما كان في السابق.

وتوفي عبد اللطيف سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م، وتبعه في السنة التالية أخوه محمد أمين خان، وانقطع بذلك نسب ألوغ محمد بموتها إذ لم يعقبا. وقام فاسيلي الرابع بتنصيب شيخ ملي خان أميراً على قازان (وكان قد هرب من حاجي طرخان إلى إيفان الثالث والد فاسيلي الرابع وتطّيع بطباع الروس) وذلك سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م.

وكان محمد كراي خان صاحب القرم يريد تعيين «صاحب كراي خان» فراسل أهل قازان الذين كرهوا شيخ علي لتطّيعه بطباع الروس، فقبلوا «صاحب كراي» أميراً عليهم سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م، وهرب شيخ علي إلى روسيا فاستقبله فاسيلي الرابع بنفسه ووعد بالانتقام من أهل قازان وإعادته إليها.

وساءت العلاقة بين محمد كراي خان حاكم القرم وبين فاسيلي الرابع، فانفق محمد كراي وصاحب كراي على الهجوم على روسيا فهجما عليها سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م وهرب فاسيلي من عاصمته موسكو وبدأ الناس يهربون منها، فأرسلوا إلى محمد كراي خان يطلبون الصلح ويقرون بدفع الجزية فرضي الخان بذلك.

وفي سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٤م هجم محمد كراي خان على حسين خان حاكم حاج طرخان (استراخان) واستولى عليها. وبذلك توحدت معظم أراضي القفجاق (الدشت) وبقي عليه خانية النوغاي وخانية سييريا. ولكن محمد كراي لم يتمم خطته، ولو فعل ذلك لدانت له روسيا تماماً.

وقام فاسيلي الرابع بكل دهاء بمحاولة فصل قازان عن حكومة محمد كراي خان وذلك بإغراء أمراء قازان بصاحب كراي خان.

وللأسف انقلب سعادات كراي خان على أخيه محمد كراي خان حاكم القرم، وقتل أخاه وكتب فاسيلي فاتفق معه على ذلك. ثم إن فاسيلي الرابع بدأ بوجه قواته إلى صاحب كراي خان أمير قازان وقد باءت محاولاته بالفشل. وتكرر ذلك منذ عام ٩٣٠هـ/١٥٢٣م إلى عام ٩٣٦هـ/١٥٣٠م. وفي تلك الفترة انتقل صاحب كراي إلى القرم وطرد سعادات كراي خان وترك محله في قازان صفا كراي. وهجم جيش

فاسيلي بغتة على أهل قازان وقتلوا منهم ستين ألفاً وهم نيام سوى ما أحرقوا بالنار. ووافق القائد العام إيفان بن فيودر البيلسكي على الصلح بعد أن أخذ أموالاً كثيرة من أهل قازان، فغضب عليه الكيناز فاسيلي الرابع ورماه في الحبس لأنه ضيّع عليه فرصة القضاء على قازان.

ورأى أمراء قازان أن محاربة روسيا ستؤدي إلى خراب قازان خراباً تاماً فانحرفوا عن صفا كراي وذهبوا إلى فاسيلي وطلبوا منه أن يعيد شيخ علي (وهو لعبة الروس) إلى قازان فوافق، ولكن ذلك لم يتم بسبب انحراف أمراء آخرين عن شيخ علي، ووافق الجميع على جان علي خان.

وهجم صفا كراي خان علي بعساكر القرم على ولاية رزان الروسية، فأرسل إليهم فاسيلي جيشاً كثيفاً، ولكن الروس انهزموا واستطاع صفا كراي أن يقتل ويأسر منهم عدداً كبيراً. فمات فاسيلي الرابع كمدأ وذلك سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٣م. وتولى ابنه إيفان الرابع المشهور باسم إيفان الرهيب (جروزي بالروسية) الحكم وكان لا يزال طفلاً.

وفي عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م قام بعض الأمراء بخلع جان علي من حكم قازان وتولية صفا كراي خان. وانقسم أمراء قازان قسم مع صفا كراي ضد روسيا وقسم مع روسيا ويريدون عودة شيخ علي. ولكن صفا كراي استولى على قازان، وفي عام ٩٤٣هـ/١٥٣٧م هجم على أطراف موم من أراض روسيا. وحاولت روسيا الصلح معه فتمّ الصلح على رفع الخراج عن قازان، والعكس من ذلك أن يعود الروس لدفع بعض الخراج لقازان. وانتقض الصلح وجمعت روسيا جيوشاً كثيفة لمحاربة قازان سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م، ولكن صفا كراي فاجأ الروس بهجومه عليهم، ولكنه لم يستطع الانتصار عليهم لوفود إمدادات كبيرة للروس فاضطر صفا كراي للعودة.

وفي عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م اجتمعت الجيوش الروسية لمهاجمة قازان، واضطر

صفا كراي للخروج من قازان بعد حصول فتنة بين قاداته وجيشه من أهل قازان وأهل القرم حتى اقتتلوا. وعاد شيخ علي للمرة الثالثة لحكم قازان، ولكنه لم يلبث سيراً حتى عاد صفا كراي (أيضاً للمرة الثالثة) إلى قازان.

وقرر إيفان الرهيب القضاء على قازان وذلك عام ١٥٤٧هـ/١٥٤٧م وخاصة أنه قد اصططح مع ليتوانيا أشد أعداء روسيا في ذلك الحين. ولكن صاحب كراي القرمي كان لا يزال قوياً والهجوم على قازان يعني الهجوم على القرم للارتباط القوي بينهما فعمل إيفان على تسكين الأمور مؤقتاً وعلى رشوة رسل السلطان سليمان القانوني الذي كان أقوى ملوك أوروبا في حينها.

وفي صفر سنة ١٥٥٦هـ/١٥٤٩م توفي صفا كراي خان ولم يكن له عقب إلا طفل عمره سنتين فأجلسوه على التخت في قازان. وضعفت الدولة ضعفاً شديداً، فجمع إيفان الرهيب قواته وأرسلها إلى قازان عام ١٥٥٧هـ/١٥٥٠م فطلب أهل قازان الصلح وإعادة شيخ علي، ولكن الأمور لم تسر على ما يرام، وقرر إيفان استئصال قازان؛ واستمرت المعارك ولم يستطع إيفان الرهيب الاستيلاء على قازان إلا عام ١٥٥٩هـ/١٥٥٢م بعد معارك رهيبية. وبسبب اختلال الأمور في قازان وفي خانية القرم القوية. وواجهت قازان بعد احتلالها من الروس مزيداً من الأهوال فتمّ تدميرها، وبنى إيفان الرهيب كنيسة ضخمة وفرض على من بقي من أهل قازان أن ينتصروا، وأطلق يد المبشرين في فرض المسيحية على المسلمين ومعاقبة من يرجع منهم عن النصرانية بالقتل.

وقد استخدم إيفان الرهيب نفس الوسائل الهمجية التي استخدمتها أسبانيا لتنصير المسلمين بعد انهزامهم التام عام ١٤٩٢م، وانتشرت في أسبانيا محاكم التفتيش التي قامت بأبشع صور العذاب التي عرفت الإنسانية.

وقد استخدم إيفان كثيراً من وسائل الأسبان وإن لم يبلغ ما بلغوه من القسوة والهمجية.



وهكذا انتهت خانية قازان بعد أن انتهت من قبل المملكة الكبرى مملكة الأورد الذهبي التي أسسها باتو وأخوه بركة خان ابني جوجي بن جنكيزخان، والتي كانت قد امتد حكمها من خوارزم وسيبيريا إلى حدود بولندا. وكان أول تحطيم لهذه الدولة الكبيرة على يد تيمورلنك، ورغم ذلك بقيت قازان وعادت القرم. وصارت القرم أقوى هذه الخانيات حتى أنها هددت موسكو مراراً.

(٢) خانية القرم: انتقل حاج كراي ابن أخ ألوغ محمد (أول خانات قازان) إلى القرم حيث أسس خانية القرم، وكان هو أول خان لها، واستمرت سلالته في حكمها، حتى عام ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م عندما استولت عليها الأمباطورة كاثرين الثانية، وسيأتي الحديث عن القرم في فصل خاص.

(٣) خانية الحاج طرخان (استراخان): وهي تقع على مصب نهر الفولجا في بحر قزوين، وقد سُميت بالحاج طرخان لأن حاكم سراي أقطعها لأحد الحجاج الصالحين، وكان يدعى طرخان؛ فنمت حول ضيعته المدينة.

وقد تولى أمرها كوجوس سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م وبقيت في سلالته وخلفائه حتى عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م رغم أن حاكم القرم القوي محمد كراي استولى عليها سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٤م، لكنها عادت إلى أهل استراخان. وبقيت إلى أن استولى عليها إيفان الرهيب سنة ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م، وبذلك تم لإيفان إخضاع نهر الفولجا بأكمله.

(٤) خانية قاسموف: ذكرنا أن هذه الخانية تابعة من الأساس لروسيا وأقامها فاسيلي لقاسم بن ألوغ محمد الذي هرب من أخوته وأبناء أخوته في قازان سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م، وبالتالي استخدمه فاسيلي لحرب قازان. وبقيت إمارة ضعيفة في فلك روسيا، تأتمر بأمرها، فلما انتهت الحاجة لها انتهت تلك الخانية الصغيرة.

(٥) الشيبانيون: وهم ينتسبون إلى شيبان أصغر أحفاد جوجي بن جنكيزخان، ولما ضاق بهم الأمر في الأورد الذهبي ومملكته الواسعة، ذهبوا إلى بخارى، وهي في الأصل تابعة لألوس جغتاي، فاحتلّوها منهم، وأسّسوا دولة قوية هناك.

وامتد سلطان هؤلاء الشيبانيين إلى معظم بلاد أوزبكستان وما جاورها وانتزعوها من سلالة تيمورلنك، الذين اتجهوا إلى أفغانستان ومنها إلى الهند، حيث أسسوا الدولة التيمورية القوية في الهند، والتي تعرف باسم الدولة المغولية لدى الغربيين، والتي حكمت الهند حتى قضى عليها الإنجليز بمؤامرات متعددة على مدى قرنين من الزمان.

وصار الشيبانيون قوة، وحاربوا الدولة الصفوية الشيعية مراراً. ودام حكم الشيبانيين المعروفين باسم الاستراخانيين من عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٧م إلى عام ١١٥٧هـ/١٧٣٧م عندما استولى عليها المنغيت الذين حكموها إلى أن استولى عليها الروس عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م. وبقوا تحت الحماية الروسية إلى أن جاء لينين والبولشفيك واحتلوها عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م وفر من بقي منها من المنغيت وأهل بخارى وتلك النواحي إلى مختلف الأراضي حتى وصلوا إلى المملكة العربية السعودية واستقر قسم منهم فيها وصاروا من أهلها.

## الفصل الثامن

### التتار في العهود الروسية المختلفة

#### عهد إيفان الرهيب

سياسة إيفان الرهيب تجاه المسلمين: الإبادة أو الهجرة أو التنصير

وكانت سياسة إيفان الرهيب الذي احتلَّ قازان واستراخان فيما بين عامي ١٥٥٢هـ / ١٥٥٢م و٩٦٥هـ / ١٥٥٧م جعل نهر الفولجا لأول مرة خاضعاً للدولة المسكوبية.. وفي سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م اجتازت القوّات الروسية جبال الأورال وهدموا ثالث دولة تتارية وهي خانية سيبيريا.

ولقد استولى الروس على جميع الأراضي الخصبة المنتشرة على طول نهر الفولجا وروافده ونهر الأورال؛ وكما يقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: «لقد طُرد المسلمون من المدن المهمة، وشُيِّدت قلاع في النقاط الاستراتيجية التي يقطنها الروس.. وهكذا راحت الشعوب الإسلامية الأصلية لتلك المناطق تتحوّل إلى أقلية ريفية محضة يؤطرها المستعمرون الروس».

ولقد دُمِجَت الإمارات المسلمة بالمملكة المسكوبية، وعمِل الشعب كرعايا من الدرجة الثانية، ولم تكن للمسلمين الحقوق التي للمسيحيين. وكانت سياسة إيفان والقياصرة من بعده تتلخّص فيما يلي:

بالنسبة للأشراف المسلمين الخيار بين:

١- قبول مبدأ التعيين مع الارتداد إلى المسيحية.

٢- الخراب الاقتصادي.

٣- التصفية الجسدية لمن يُبدي أقل مقاومة للسلطة الروسية.

كما عومل الدين الإسلامي بكل قسوة، وهُدِمت الجوامع، وطُرِد رجال الملا (علماء الدين) من المدن، وصُوِّدِرت الأوقاف. وصار الإسلام مهتدداً بأن يتحوّل إلى دين فلاحين .

«أما بالنسبة للجماهير المسلمة فقد أُخْضِعَت للصهر الديني. فمنذ عام ١٥٥٥هـ / ١٥٥٥م اعتمدت سياسة رده بالقوة.. وكان المرتدون (ستاروكرياشين) يتمتمون بوضع شرعيّ تجاه القانون مماثل لوضع رعايا القيصر الآخرين، لكن من دون أن يتروّسوا. وألغيت الكتابة بالحرف العربي وحُوِّلت إلى الحرف الروسي».

وهكذا كانت سياسة إيفان وخلفائه من بعده تجاه الإسلام والمسلمين، وخاصة تثار الفولجا الذين عوملوا بقسوة بالغة، وقُتِل كلُّ من أبدى أدنى مقاومة لحركة التنصير بالقوة... كما أن سياسة إيفان وخلفائه من بعده اعتمدت على خطف أولاد المسلمين من آبائهم وتربيتهم في مدارس تبشيرية حتى ينشأوا على النصرانية الأرثوذكسية.

ورغم أن أكثر من مائة ألف تباري تحوّلوا بهذه الطريقة إلى النصرانية في عهد إيفان (وعُرِفوا باسم ستاروكرياشين)، ثم تم بنفس هذه الطريقة الهمجية تحويل أكثر من ثلاثمائة ألف تباري في عهد خلفائه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (وعُرِف هؤلاء باسم نوفوكرياشين أي المنتصرين الجدد) برغم ذلك كلّه؛ إلا أن هؤلاء التبار استطاعوا في الغالب المحافظة على إسلامهم في السر عبر أربعة قرون من الإرهاب الديني المعهود من أمة همجية كانت شديدة الحقد على الإسلام والمسلمين، هي أمة الروس التي وصفها لنا المؤرّخون المسلمون منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عندما رآهم ابن فضلان في أثناء رحلته، ثم بعد ذلك وصفهم ابن بطوطة وابن رسته والمسعودي. ولم يستطع تثار الفولجا الذين فُرِض عليهم التنصير بالقوة إعلان إسلامهم إلا عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م عندما منح البرلمان الروسي (الدوما) الحرية الدينية لجميع رعايا القيصر. ولقد استمرت

سياسة إيفان الرهيب تجاه المسلمين في عهد خلفائه ومنهم بطرس الملقَّب بالعظيم والأمباطورة حنَّة التي كانت شديدة الإحن والحقْد ضد المسلمين وتمثِّل سياسة إيفان بحذافيرها (١١٥١ - ١١٦٩ هـ) (١٧٣٨ - ١٧٥٥ م).

### الأمباطورة حنَّة تقتفي أثر إيفان الرهيب في سياسته ضد المسلمين

وإذا كان إيفان قد فرض التنصير بالقوة في قازان وما حولها، وأغلق المساجد والمدارس الإسلامية، وصادر الأوقاف، فإنَّ حنَّة (١١٥١ - ١١٦٩ هـ) (١٧٣٨ - ١٧٥٥ م) قامت بالدور نفسه في المجرى الأوسط لنهر الفولجا، حيث صادرت الأوقاف وأقفلت جميع المساجد هناك... وفي عهدها أُعفي التتار المرتدّون عن الإسلام إلى النصرانية من الضرائب ومن الخدمة العسكرية، وعمولوا معاملةً حسنة حتى يغروا بقية المسلمين أن يحذوا حذوهم... وفي ذات الوقت ازداد الضغط على المسلمين، وأثقلوا بالضرائب الفادحة، وأُجبروا على أحْسِّ الوظائف، ومُنِعوا من ممارسة شعائر دينهم، وأقفلت جميع مدارسهم ومساجدهم، وصُوِّدَت جميع الأوقاف الدينية... واختطف منهم أبناءهم الصغار بالقوَّة وأدخِلوا المدارس التبشيرية حتى ينشأوا على النصرانية الأرثوذكسية، وامتدَّت هذه المدارس من قازان إلى استراخان. أما المسلم الذي كان يدعو للإسلام حتى أخوته المسلمين فقد كان يُحكَم عليه بالإعدام.

ونتيجة لهذه الاضطهادات المستمرة التي عاناها المسلمون تجذَّر مفهوم الدين لدى هؤلاء التتار، وأصبح الإسلام مرادفاً للقومية. وأصبح الدفاع عن الدين هو الدفاع عن هوية الأمة.

وقد قام التتار بعدة ثورات منها ثورة كانجالالي بك سنة ١٦١١ وثورته بولوتنيكوف (Bolotnikov) (١٦٧٠ - ١٦٧١)، وثورته باتيرسا (Batirsa) (١٧٥٥ -

١٧٥٦)، وثورة بوجاشيف (Pugachev) (١٧٧٣-١٧٧٥). كما قام البشكير وسكان الأورال بثورات عديدة. وفي عام ١٧٧٣ أعطت كاترين الثانية للمسلمين بعض حقوقهم. وفي عام ١٧٨٤ اعتُبر النبلاء من التتار مساوين للنبلاء من الروس (بشرط تنصُرهم).

#### عهد كاترين الثانية المتسامح (١٧٦٢-١٧٩٦)

وفي عهد كاترين الثانية استولى الروس على مناطق إسلامية في القوقاس كما استولوا على القرم... ومع ذلك فيعتبر عهد كاترين العهد الذهبي بالنسبة للمسلمين في تاريخ الأمبراطورية الروسية، على الرغم مما لاقوه في عهدها، وخاصة في القرم من أهوال... إلا أن عهدها بالنسبة لمن سبقوها ولمن جاءوا بعدها كان عهداً مشرفاً... ففي عهدها مُنِع التنصير بالقوة، وُسِّمِح للمسلمين في جميع مناطقهم بفتح المساجد والمدارس... ومُنِع الإجراء الرهيب الذي كان سياسة متبعة من قبل ومن بعد، وهو اختطاف الأطفال المسلمين وفصلهم عن أهاليهم بالقوة، ووضعهم في مدارس كنسية، وتنشئتهم على الأرثوذكسية. وُسِّمِح للمسلمين بتعليم أطفالهم في مدارسهم الخاصة...

وفي عهدها انتشر التتار الذين كانوا قد طُردوا من ديارهم وعملوا كتجار وسطاء بين منتجات موسكو وبين سكان آسيا الوسطى ونجحوا في هذه المهمة... وكانوا بذلك عوناً للرأسمالية الروسية التي بدأت تظهر. ولكن التاجر التتري كان يحمل معه إسلامه أينما حلّ، ويفتح المساجد ويدعو للإسلام بكل لباقة وذكاء... وشهد عهدها تحوّل كثير من القبائل التي كانت وثنية أو نصرانية سطحية إلى الإسلام كما شهد أيضاً عودة التتار الذين أُجبروا على التنصُر في عهد إيفان وخلفائه إلى الإسلام. ورغم أن عهدها يتميز بتسامح ديني إلا أن أخصب أراضي المسلمين صودرت في عهدها لصالح النبلاء الروس، كما أن أموال الأوقاف

وأراضيه كثيراً ما كان يُعتدى عليها<sup>(١)</sup>.. وقد شهدت شبه جزيرة القرم الكثير من هذه الاعتداءات. ومع هذا فإن عهد كاترين الثانية هو أفضل العهود التي مرّت بالمسلمين في روسيا القيصرية والبلشفية... ما عدا الفترة التي ظهر فيها الدوما (البرلمان الروسي) إلى الوجود لأول مرة وذلك سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م.. والذي سمح بالحريات الدينية لجميع رعايا القيصر.. ومن ضمنهم المسلمين كما أُعطي الرعايا بما فيهم المسلمين، حق تأسيس الجمعيات الدينية والسياسية، وإن كان هذا البند الأخير قد أُلغي فعلاً عندما تكوّنت الجمعيات السياسية الإسلامية بعد عام واحد من صدور القرار.. ولم يُسمح لهذه الأحزاب بالعمل إلا بضعة أشهر فقط... وذلك بناء على توصيات وزير الداخلية الذي أرسل تقريراً في أوائل عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م يحذّر فيه مجلس الوزراء من مغبة إعطاء الحريات السياسية للمسلمين.. وبالفعل تمّ إلغاء هذه الجمعيات والأحزاب السياسية، كما تمّ القبض على مؤسسيها وزعمائها...

#### ظهور الحركة الإسلامية القومية (التتارية)

لقد ارتبط مفهوم القومية لدى مسلمي الاتحاد السوفياتي منذ وقت مبكر بالإسلام. وأصبح الحفاظ على الإسلام هو الحفاظ على هوية الأمة وذاتيتها، وذلك على نقيض ما نراه لدى المسلمين في الأقطار الأخرى، التي خضعت للتأثير الغربي؛ ففي تركيا والبلاد العربية وأندونيسيا وإيران، كانت الحركات القومية بعيدة عن الإسلام في إيديولوجياتها متصادمة معه في أكثر الأوقات، وإن كانت تتظاهر به أحياناً كتراث من أجل عدم إثارة غضب الجماهير المسلمة.

(١) قامت كاترين الثانية الألمانية الأصل بدعوة الألمان للاستيطان في المجرى الأوسط والأسفل لنهر الفولجا، واستجاب لها مئات الآلاف. وأعطتهم أراضي التتار المسلمين، وكونوا مقاطعة لهم تحوّلت في العهد الشيوعي إلى جمهورية ذاتية تابعة لموسكو، ولكنها أُلغيت، ونُفي جميع سكّانها عام ١٩٤١م بتهمة تعاونهم مع النازي ووطنهم الأم ألمانيا. وتم نفيهم إلى قازاقستان وإلى سيبيريا.

أما في الاتحاد السوفياتي، فمند هجوم إيفان الرهيب على مناطق المسلمين واتخاذ سياسة البطش بالمسلمين ومحاولة تنصيرهم بالقوة. فإن المحافظة على الإسلام كان معناها المحافظة على هوية الأمة التتارية. وكما يقول مؤلف كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: «أثناء الاضطهادات التي عاناها المسلمون في القرن الثامن عشر، ولا سيما قبائل التتار على نهر الفولجا، امتزج لدى هؤلاء التتار مفهوم الدين (الإسلام) بمفهوم القومية (الملة). فمن الآن وصاعداً سيصبح الدفاع عن الدين في نظرهم محافظاً لهوية الأمة».

وبما أن تتار الفولجا على وجه الخصوص واجهوا سياسة تنصير قوية لم يواجهها المسلمون في المناطق الأخرى من الأمبراطورية القيصرية الروسية. فإن إحساس هؤلاء التتار بالخطر الماحق ضد دينهم جعلهم أول من ربط هويتهم القومية ربطاً تاماً بالإسلام.. ولذا عندما ظهرت حركة القومية الإسلامية في الأمبراطورية الروسية في القرن التاسع عشر الميلادي، كان زعمائها ومؤسسوها من تتار الفولجا.. ثم انتشرت بعد ذلك بسرعة إلى الأقاليم الإسلامية الأخرى بتأثير تجار التتار الذين كانوا يمثلون الشتات التتاري بعد طردهم من وطنهم على نهر الفولجا..

ويصف بنجيسن ولومرسيه هذه الحركة بقولهما: «لقد كانت حركة مستقلة أصلية وُلدت عفويةً من الأوضاع الخاصة التي مرّ بها الإسلام الروسي».

«وكان لهذه الحركة طابعها الخاص المتميّز عن الحركات القومية التي ظهرت في البلاد العربية والإسلامية الأخرى، حيث كانت حركة تتار الفولجا قومية إسلامية منذ اللحظة الأولى؛ بينما كانت تلك الحركات القومية ذات مفاهيم غربية ليبرالية واشتراكية، بل ومتصادمة مع الإسلام في كثير من الأحيان».

«ولقد كانت أهداف هذه الحركة في الأمبراطورية الروسية هي المساواة في الحقوق مع الروس، الحرية الدينية، الاستقلال الثقافي، الحكم الذاتي السياسي، وفي بعض الحالات النادرة الاستقلال الكامل».



ولقد مرّت هذه الحركة القومية بمفهومها الإسلامي عند تتار الفولجا بثلاث مراحل هي: الإصلاح الديني، الإصلاح الثقافي، والإصلاح السياسي.

### الإصلاح الديني:

وكان الإصلاح الديني معتمداً على فتح باب الاجتهاد لحلّ المشكلات العصرية. وكان من رواد هذه الحركة شهاب الدين مردجاني ١٢٣٤ - ١٣١٧هـ/ ١٨١٨ - ١٨٩٩م، وعبد القيوم ناصري ١٢٤١ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٢٥ - ١٩٠٢م، وموسى جار الله بيجي ١٢٩٢ - ١٣٦٩هـ/ ١٨٧٥ - ١٩٤٩م وجميعهم من التتار. وقد سيطر هؤلاء المجدّدون على الساحة في مجرى نهر الفولجا أي في تتاريا وبشكيريا ولكنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى آسيا الوسطى (تركستان) ولا إلى القوقاس، حيث كان تأثير علماء الدين المحافظين مع الحركات الصوفية التي لا تقبل أي تفاهم مع الكفّار والرافضين لتقليد نمط الحياة لدى الروس الكفار أعداء الإسلام وأهله.

أما ما يسمى بالإصلاح الثقافي، فقد كان للمستشرقين الروس دور فيه حيث حاولوا منذ البداية إلغاء الكتابة بالحرف العربي وإبدالها بالحرف اللاتيني ثم بالحرف الروسي (الكريلي). ولقد فشلت هذه المحاولات القسرية مثلما فشلت محاولات التنصير الإجبارية رغم دخول مئات الآلاف في النصرانية. إلا أن هؤلاء جميعاً (تقريباً) حافظوا على إسلامهم في السر واستطاعوا أن يحتفظوا به لمدة أربعة قرون... ولم يستطيعوا إظهار إسلامهم إلا عندما أُعطيت الحريات الدينية عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. وكما يقول بنجيسن ولومرسيه: «فحتى منتصف القرن التاسع عشر كان المسلمون الروس يستخدمون اللغة العربية واللغة الفارسية ولغة علمية مركبة هي مزيج من التشاغاتاي ولغة تتار قازان وكانت جميع هذه اللغات تُكتب بالحرف العربي»، بل استمر استخدام الحرف العربي في بعض الحالات إلى منتصف القرن العشرين.

## الإصلاح الثقافي:

وكان من أهداف ما يسمّى بالحركة الثقافية تعميم اللغات العامية والمحلية وجعلها لغات كتابية. وأثيرت ضجة يبدو أنها مفتعلة لتمجيد الأعمال الأدبية التتارية والآزرية والكازاخية منذ عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م. وقد انتبه هؤلاء الأدباء الجدد أنفسهم إلى خطورة ظهور اللغات الإقليمية الجديدة لأنها تشكل عامل هدم للوحدة اللغوية القديمة، وبالتالي للثقافة الإسلامية الروسية. ولذا فقد بُدلت جهود طيبة لمحاولة التقريب بين هذه اللغات... وفي عام ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠م قام المفكر والسياسي التتاري القرمي إسماعيل غسبرالي (غسبرينسكي) بإطلاق شعار (كونوا متحدثين بلغتكم وأفكاركم وأعمالكم. وحاول إيجاد لغة تركية مبسطة جامعة تفهمها كل الشعوب التركية في روسيا والعالم... وكتب بها جريدته اليومية (الترجمان) التي ظلّ ينشرها في بغتشييساري (بغجه سراي العاصمة التركية الجميلة للقرم) من سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م حتى عام ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م، والتي اعتُبرت من أعظم الدوريات الإسلامية في ذلك الوقت.

ونتيجةً لتلك النهضة الثقافية انتشرت المدارس والمساجد في المناطق التتارية، ففي مدينة أوفا عاصمة بشكيريا كان هناك ١٥٥٥ مسجداً و ٦٢٢٠ مدرسة عام ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م). ومع بداية القرن العشرين كان في قازان جامعة إسلامية تضم سبعة آلاف طالب، ومطبعة إسلامية طبعت ٢٥٠ كتاباً في عام ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م)، كما كان بها مكتبة يرتادها عشرون ألف قارئ في العام. وظهرت مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات مثل «يلدز» و«الوقت» و«عزت» و«النور» و«الفكر» و«سورة» و«المكتب» و«الأورال»، وكلها تُكتب باللغة التتارية بالحرف العربي.

وكما يقول بنجيسن ولومرسييه: «وهكذا فما أن أقبل عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م حتى بلغ المستوى الثقافي لمسلمي روسيا درجة عالية بشكل ملفت للنظر، وذلك بفضل الجهود الجبارة التي بذلها المصلحون. وأصبحت مدن قازان وأوفا وأرنبورغ وترويتسك وبغتشييساري وباكو مراكز ثقافية وفكرية جديدة بأن تكون نداءً لدمشق وبيروت والقاهرة واسطنبول».

ومن الملاحظ أن المناطق التي شهدت صحوة إسلامية وثقافية في  
الأمبراطورية الروسية، كان مركزها مناطق التتار، فيما يعرف الآن بتتاريا  
وبشكيريا وما حولها وتتار القرم (كريميا)... ولقد ولدت القومية الإسلامية في  
الأمبراطورية القيصرية من الرغبة في استرجاع الماضي المشرق، والحصول على  
المساواة مع الأوربيين الروس... «وكان للملة الإسلامية (والجدير بالملاحظة أن  
لفظ الملة لدى الأتراك والفرس والأفغان يعني القومية) في روسيا أساس  
مزدوج: ديني وعرقي (إثني Ethnic) أو بمعنى آخر إسلامي وتركي» كما يقول  
بنجيسن ولومرسييه...

«ولم يكن يوجد في روسيا صراع بين الروح الدينية والروح الإثنية (أي  
القومية العرقية) على عكس ما ظهر في تركيا والبلاد العربية، بل كانت القومية  
العرقية تتحد وتجد ذاتها في الدين الإسلامي، الذي أصبح هو الممثل للقومية  
العرقية في الأمبراطورية الروسية».

#### الإصلاح السياسي:

كان التتار يعرفون أن الإسلام لم يكن قد بلغ من القوة ما يؤهله لفتح صراع  
مكشوف ضد الأمبراطورية القيصرية. ولذا تميّز قادة الحركة حتى عام ١٣٢٣هـ/  
١٩٠٥م بالاعتدال. ومن أشهر هؤلاء الزعماء إسماعيل غسبرالي من القرم،  
وصدري مقصودي، ويوسف أتشور أوغلو، وعبد الرشيد إبراهيم من تتاريا،  
ومروان توبتسيياش من أذربيجان. وكانت كل طلباتهم تتركز في المساواة في  
الحقوق الشخصية مع الروس. بيد أن هزيمة روسيا سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م في  
حربها ضد اليابان شجّع هؤلاء الزعماء على المطالبة بحقوق سياسية أكبر. ففي  
شهر أغسطس (آب) سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م عُقد في نيجني نوفجورد أول مؤتمر  
سري للمسلمين، اشترك فيه قرابة مائة مندوب تتاري، وصدرت توصيات  
بالمطالبة بالحقوق المدنية الشخصية، وبالمساواة في المواطنة مع الروس... وأُرفق  
ذلك بعرض للتعاون مع الأحزاب الليبرالية الروسية.

وفي ١٣ يناير (كانون الثاني) ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م عُقد مؤتمر سري ثان في مدينة سان بيترسبورغ<sup>(١)</sup> حضره مئة مندوب تناري وقرمي وقفقاسي وكازاخي وتركستاني.

وفي أغسطس (آب) من العام نفسه عُقد في مدينة نيجني نوفجورد مؤتمر ثالث حضره مئتا مندوب عن مختلف المناطق الإسلامية في الأمبراطورية الروسية. وكان هذا المؤتمر علنيًا على خلاف سابقه السريين... وأعلنت مقرراته المطالبة بالحرية الدينية وحرية التعليم، وتقرر لأول مرة ظهور حزب سياسي إسلامي لكافة مسلمي الأمبراطورية القيصرية.

ورغم أن هذا الحزب ظلّ متواضعاً في طلباته التي قصرها على حرية التدين، وحرية التعليم، ورغم أنه عرض تعاونه مع الليبراليين الروس الذين توقع منهم الموافقة على هذه الطلبات المتواضعة، إلا أن الليبراليين الروس خيّبوا آمال المؤتمرين برفضهم التعاون مما يدل على تجذّر الحقد الصليبي ضد المسلمين، حتى ولو لم يكونوا ملتزمين بالمسيحية. وحتى لو كانوا ممن ينادون بالحرية ويرفعون شعار العدالة والمساواة. إذ المقصود بهذه الشعارات أن تكون وفقاً عليهم وحكراً لهم، ولا ينبغي أن يتمتع بها معهم المسلمون.

وبعد سنتين من تكوين هذا (الاتفاق الإسلامي) أي في عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م، فقد قادته كل أمل في الليبرالية الروسية، وهاجر كثير منهم إلى تركيا، ومنها إلى مناطق العالم الإسلامي. وعندئذ أخذ كثير من شباب المسلمين بشعارات الاشتراكية والماركسية المنادية بإسقاط القيصرية والبورجوازية الروسية التي أذقت المسلمين الويلات... وكان الماركسيون في دعوتهم للمسلمين حذرين من توضيح حقيقة اتجاهاتهم نحو الإسلام، فكانوا يتحدثون لشباب المسلمين عن الإسلام التقدمي، والإسلام الاشتراكي، والإسلام التحرري، مما تكرر في نداءات

(١) سان بيترسبورغ هي نفسها مدينة بتروغراد (بتوجراد)، ثم سُمّيت لينينجراد، ثم عادت مرّة أخرى بعد عام ١٩٩١ إلى اسمها القديم بيترسبورغ (مدينة بطرس).

لينين وخطاباته وخطابات الزعماء الشيوعيين الآخرين منذ وقت مبكر سبق قيام ثورة أكتوبر سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م، واستمر فيها بعد إلى عام ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م. وللأسف لا نزال نسمع هذه النغمة في البلاد العربية والإسلامية بعد مرور أكثر من ستين عاماً على استهلاك هذه الأسطوانة الممجوجة في روسيا ذاتها<sup>(١)</sup>.. وحتى من قبل سقوط حزب (اتفاق المسلمين) نتيجة تعنت الليبراليين الروس تكوّنت في بلاد التار ثلاثة أحزاب راديكالية ثورية هي:

١- حزب (برك) أو الوحدة: الذي أُسس في قازان سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م، وكان يقوده علماء الدين المعروفون باسم الملا. كما اشترك معهم كثير من رجال الفكر. وكان هذا الحزب يدعو إلى قيام دولة إسلامية مستقلة مع برنامج ديمقراطي اشتراكي في المجال الزراعي والعمالي. واندس في هذا الحزب كثير من التار الماركسيين مثل حسين يامشيف، وغفور كولا حميد نوف، وعبد الله أباني.

وقد قامت السلطات القيصرية البوليسية بتصفية هذا الحزب بعد عدة أشهر من تكوينه وُرَجَّ بالقائمين به في السجون.

٢- حزب تانغ تشيلار (مخاربو نجمة الصباح): تأسس هذا الحزب في ربيع سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م في قازان، وتولّى قيادته شباب مثقفون تار منهم: أيازا سخافي، وفؤاد توكتار، وعبد الله دفلتشرين... وتأثرت أيديولوجية هذا الحزب بأفكار الاشتراكيين الثوريين الروس، مع تركيز اهتمامهم على مشاكل الفلاحين المسحوقين.

وقد قام البوليس القيصري بتصفية هذا الحزب ورجاله ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م.

(١) انتهت هذه النغمة بزوال الاتحاد السوفياتي وتفكّكه وانتهاء الشيوعية. وتحول ماركسيو البلاد العربية والإسلامية إلى حضن أمريكا الرأسمالية الليبرالية، وتبنّى كثير منهم العولمة. والله في خلقه شؤون. وهؤلاء قد تعودوا العمالة، إما للاتحاد السوفياتي أو لأمريكا، فلما انتهى دور الاتحاد السوفياتي تحوّلوا لسادتهم الأصليين.

٣- حزب أورال تشيلار (محاربو الأورال): تأسس هذا الحزب في يناير ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م في مدينة أورنبيرغ... وتبني هذا الحزب الأيديولوجية الماركسية مع تمجيده للدين الإسلامي... وهو نوع من الوهم اختلط في أذهان بعض مؤسسيه الشباب، ونوع من التكتيك في أذهان الماركسيين الروس الذين تعاونوا معهم... فكان في قيادته حسين ياماشيف وعمر تبريغولوف.

وقد قضى عليه البوليس في أبريل ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م، (أي بعد أربعة أشهر فقط من تكوينه). وهكذا واجهت الحركات السياسية الإصلاحية التي تزعمها تثار الفولجا في روسيا القيصرية مصيرها البائس مع العناصر الليبرالية الروسية.

#### طبيعة الحكم الروسي:

ورغم أن قانون سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م أعطى جميع الشعوب الموجودة في روسيا القيصرية الحرية الدينية، إلا أن الحكومة الروسية عندما رأت اندفاع الإسلام، وهو يعيد جميع المرتدين، ويفتح آفاقاً جديدة بقوة وفعالية أذهلت الروس... أصدر القيصر نيقولا الثاني قراراً بحل الدوما (البرلمان الروسي) وتعديل قانون الانتخاب بحيث يقل عدد الممثلين المسلمين من ٣٥ شخصاً في الدوما الثاني إلى ستة، وذلك في يونيو سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م. وأصدر رئيس الوزراء ستولينين سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م منشوراً يوضح فيه سياسة روسيا القيصرية تجاه المسلمين في أحسن فترة مرت بالمسلمين، والتي تعتبر قمة التسامح الديني الذي حصل عليه مسلمو روسيا. ومع هذا فهو يقول:

«إن الصراع القائم بين العالمين المسيحي والإسلامي لم ينشأ لسبب ديني فقط، بل علينا أن ندرك أنه صراع له طبيعة سياسية وثقافية دولية. وهنا يكمن بالتأكيد السر في النجاح الذي أحرزته الدعوة الإسلامية في الآونة الأخيرة. وإن لنجاح هذه الدعوة في وطننا روسيا لخطورة كبرى. إذ إن مسلمي روسيا وإن كانوا يتقسمون فيما بينهم إلى شعوب وقبائل مختلفة تتحدث بلهجات تختلف عن بعضها

بعض الاختلاف. إلا أننا يجب أن لا ننسى إطلاقاً أنهم جميعاً من أصل تركي واحد يتحدث الجميع نفس لغته».

وأخذت هذه الحركة الإصلاحية السياسية تفقد بريقها منذ سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ولكن ثورة ٨ فبراير ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م التي أطاحت بالقيصر نيقولا الثاني بعثت الأمل إلى كافة المسلمين في روسيا. وأدت إلى قيام حركة ثورية إسلامية راديكالية. وكما يقول بنجسين ولومرسييه: «ظلت متعلقة بالإسلام الأكثر استقامة في الرأي، ومع ذلك فبرنامجها الاجتماعي كان تقريباً اشتراكياً وقياداتها خططت جدياً لإمكان التعاون مع البولشفيك». وسبب هذا الانعطاف الجديد نحو اليسار كما يقول المؤلفان الأنفا الذكر، كان نتيجة لطروحات لينين التي وضعها في أبريل سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م والمنادية بالحرية الدينية التامة للمسلمين واستقلالهم الثقافي والتعليمي والسياسي. ونتيجة الموقف المعاكس الذي وقفه الليبراليون الروس من الإسلام، وهو موقف يتمثل في عدم إعطاء المسلمين أي استقلالية ثقافية ودينية يمكن أن تؤدي إلى نوع من الاستقلال السياسي.

ولذا فقد قوبل سقوط الملكية بحماس بالغ لدى أغلبية مسلمي الأمبراطورية الروسية. واعتبر بداية عهد جديد تستعيد فيه الأمة الإسلامية في روسيا وحدتها ومقوماتها. وعُقد في (أول مايو ١٩١٧م / ١٣٣٦هـ مؤتمر إسلامي كبير في موسكو حضره تسعمائة مندوب من كل الأقاليم الإسلامية في الأمبراطورية القيصرية السابقة، والتي ستُعرف فيما بعد باسم الاتحاد السوفياتي.. وكان من نتائج هذا المؤتمر محاولة التوفيق بين الإسلام والاشتراكية، والتشديد بقوة على الملة الإسلامية (أي القومية الإسلامية) في روسيا. ورغم الخلاف الذي حدث بين المؤتمرين الذين انقسموا إلى فريقين، أحدهما ينادي بالاستقلال التام للأمة الإسلامية في روسيا وإيجاد دولة مستقلة ذات سيادة كاملة، وكان هذا الفريق يناصره التركستانيون والأذربيجانيون (الأذريون)، بينما كان الفريق الآخر الذي يناصره التتار ينادي بتكوين اتحاد فيدرالي للمناطق الإسلامية مع روسيا. ومع هذا فقد اتفق الجميع

على إنشاء إدارة مركزية أنيطت بها مهمة تنسيق شؤون الملة الإسلامية في روسيا بالإضافة إلى مجلس شورى مركزي (ملي شورى) ولجنة تنفيذية إسلامية. وفي يوليه ١٩١٧م / ١٣٣٦هـ عُقد في قازان المؤتمر الثقافي لمسلمي روسيا، حضره ممثلون عن تار الفولجا والبشكير والقرم... وأما ممثلو التركستان والقوقاس وأذربيجان فلم يتمكنوا من الحضور نتيجة الحرب الأهلية الطاحنة والفوضى العارمة التي كانت تحتاج أنقاض الأباطورية القيصرية مع استمرار روسيا في الحرب العالمية الأولى.

وفي مؤتمر قازان ظهر الاتجاه إلى قيام دولة إسلامية فيدرالية قوياً بصورة أقوى من مؤتمر موسكو. وشدد المؤتمر على وحدة مسلمي روسيا الثقافية والسياسية، وعززت الإدارة الإسلامية المركزية بإنشاء مجلس حربي (حربي شورى) مركزه قازان ومجلس شورى (ملى مجلس)، وحكومة وطنية (ملى إدارة). وأعلنوا قيام دولة إيديل - أورال Idel - Ural. وفيما بعد تحركت قوات لينين من موسكو للقضاء عليها بمساعدة مجلس العمال البولشفيك في قازان نفسها، والذين كانوا ضد روسيا البيضاء التي وقفت ضد المسلمين.

ومنذ يوليه ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م بدأ هذا المجلس بتجنيد المسلمين تحت قيادة ضباط تار وبشكير. كما أنشأ المؤتمر أيضاً إدارة ملية مركزها مدينة أوبا في بشكيريا، وكلفوها الإعداد لعقد مجلس ملي في أوبا في ٢٠ نوفمبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م الذي سيناط به تقرير مستقبل الأمة الإسلامية في روسيا.

تكتيك لينين تجاه الدعوة إلى قيام دولة إسلامية في روسيا:

ورغم هذه القرارات الإسلامية المتشددة، إلا أن لينين والبولشفيك عامة، أظهروا تأييدهم لها ووقوفهم معها. وهو تكتيك رهيب اتسم بالغدر والخسة، وجعل معظم العناصر الإسلامية تقف في صف لينين عندما قام بالاستيلاء على نتائج ثورة فبراير ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م التي قادها الليبراليون الروس ضد القيصر



نقولاً. واستطاع بمساعدة البحرية الروسية وبمساعدة الأقليات (وأكبر هذه الأقليات هم مسلمو روسيا)، أن يستولي على روسيا في ثورته التي قادها في ١٧ أكتوبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م. وانضم أكثر المسلمين بما فيهم العلماء إلى صفوف لينين، بعد أن صدقوا وعوده لهم بالاستقلال، نتيجة لهول ما عانوه من القياصرة. ولذا كان موقفهم ضد قوات الأمير كولشاك الذي كان يحارب من أجل إعادة روسيا البيضاء... ولهذا لم تعش جمهورية ترانس بولاك في تتاريا إلا أسبوعاً واحداً ١٣٣٧هـ / ٢١ - ٢٨ فبراير ١٩١٨م لأنها لم تجد تأييداً من التتار المسلمين الذين ضاقوا بالقياصرة الروس، وجربوا التعاون مع الليبراليين فوجدوهم شديدي العداوة للمسلمين. وكان الأمل الأخير لهم، هو عود لينين الخلاب، ولذا وقفوا معه ضد قوات روسيا البيضاء.

وفي عام ١٩١٩ أعلن تكوين الجمهورية للتتار والبشكير السوفياتية الذاتية. ولكن بحلول عام ١٩٢٠ تبين لكثير من التتار والبشكير أن لينين يكذب عليهم. فقاموا بثورة بتشفورك Pitchfork التي حاربها لينين بالحصار والمجاعات لمدة عامين ١٩٢١ و ١٩٢٢ ومات من جرائها نصف مليون تترى مسلم.

وصدق بعض شباب تار الفولجا إمكانية التوافق بين البلشفية والإسلام. وكما يقول مؤلفاً كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: «تعتبر الشيوعية الوطنية الإسلامية في الاتحاد السوفياتي حدثاً فريداً في التاريخ. فقد دامت حوالي عشر سنوات من ١٩١٨ حتى ١٩٢٨، بل أكثر في بعض المناطق... وقد كانت نتاجاً أيديولوجياً وعلمياً لفريق من الشباب الوطني المثقف عماده تار الفولجا».

«وحاول الشيوعيون الوطنيون المسلمون أن يكيّفوا الماركسية اللينينية الروسية مع الأوضاع التاريخية والاجتماعية والثقافية للإسلام ففشلوا. وصُفّي معظمهم تصفية جسدية بأمر من ستالين بين سنتي ١٣٤٨هـ / ١٩٢٨م و ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

وهكذا استخدمت الشيوعية الروسية هؤلاء الشباب المتحمسين لتوطد أركانها في وطنهم. ثم قامت بعد ذلك بقتلهم وسحلهم. ويقول كاتبنا «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: «إن كل الذين انخرطوا في صفوف الحزب الشيوعي لم يكونوا عن الماركسية سوى مفاهيم غائمة. فالعقيدة الماركسية في وجهها الاجتماعي والاقتصادي والعقائدي لم تكن تثير اهتمامهم... وإنما كان اندفاعهم نحو البولشفيك لأسباب عملية محضة وهي:

١- عدم الأهلية السياسية لرؤساء الجيوش الروسية البيضاء، وعدم تفهّمهم لقضايا مسلمي الأمبراطورية الروسية، بل وموقفهم العدائي حتى من الذين ناصرهم من البشكير والказاخ في حزب الآش أوردا مما أدى بهؤلاء إلى الارتقاء في أحضان البولشفيك رغم قناعاتهم الأساسية بخطر البولشفيك.

٢- العمل الشخصي الذي قام به ستالين (أيام لينين) فقد نجح في أن يجذب إليه أهم قادة الجناح الأيسر في الحركات الوطنية الإسلامية.

٣- الوعود التي أطلقها لينين بمنح المسلمين المساواة التامة مع الروس، والحرية الدينية، بل وحق الاستقلال الكامل.

٤- الأمل بأن ثورة أكتوبر لم تكن سوى خطوة أولى نحو تحرير العالم الإسلامي بأكمله من نير الاستعمار الأوربي، حسب ما أوحى لهم بيانات لينين ومؤتمر باكو المنعقد في ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م.

٥- الاعتقاد الساذج بأن ثورة أكتوبر ستكون في الأقاليم الإسلامية امتداداً لحركة الإصلاح التجديدية. ورغم أن أغلبية هؤلاء الذين انخرطوا في صفوف البولشفيك عرفوا الحقيقة المرة، وثاروا ضد البولشفيك بثوراتهم المعروفة المشهورة، إلا أن قلة استمرت في التعاون والإخلاص للحزب الشيوعي الروسي.. ومع هذا لم يشفع لهم إخلاصهم هذا، فبمجرد أن تمّ للروس البلاشفة (المستعمرين الجدد) القضاء على المقاومات الشعبية، قاموا بالتصفية الجسدية

لرفاق الأمس الذين وُطدوا لهم أركان حكمهم الاستعماري في المناطق الإسلامية (حالما شعروا أنهم لم يعودوا في حاجة إلى هذا التعاون المرحلي)..

ومن هؤلاء الشيوعيين المسلمين الذين لقوا جزاءهم على يد أسيادهم الروس:

\* مير سعيد غالياف أحد تثار الفولجا، والذي أصبح مساعداً لستالين في مفوضية الشعب للقوميات، وعضواً في المفوضية المركزية الإسلامية، ورئيساً للمدرسة الحرية الإسلامية، وعضواً في اللجنة المركزية لجمهورية تارتستان الاشتراكية السوفياتية.. وناشراً لجريدة (جزن ناتسيونال نوستي). ومع هذا فقد أُوقف في مايو ١٩٢٣م / ١٣٤٢هـ، وطُرد من الحزب الشيوعي باعتباره منشقاً قومياً، وسُجن حتى عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م، ثم سُجن مرة أخرى مع الأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات.. واختفى أثره سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م، أي بعد خروجه من السجن... وهي طريقة معروفة لدى الشيوعيين في تصفية خصومهم حيث يبعثونهم إلى العالم الآخر ويُعلنون اختفاءهم. وأصبح اسمه في الاتحاد السوفياتي مرادفاً لخائن وقومي برجوازي.

\* طرار ريسكوف وهو قازاخي راديكالي انتسب إلى الحزب الشيوعي في سبتمبر ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م، وأصبح مفوض تركستان للصحة، وعضواً في القيادة الجماعية لمفوضية الشعب للقوميات عام ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م، وعضو مكتب آسيا الوسطى في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي، ورئيساً للجنة الشعبية السوفياتية لجمهورية تركستان ١٣٤١ - ١٣٤٣هـ / ١٩٢٢ - ١٩٢٤م. أُقيل عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م، ونُقِدَّ فيه حكم الإعدام سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م بصفته منحرفاً ينادي بالوحدة التركية.

\* أحمد بيطرسون القازاخي وأحد مؤسسي حزب (الآش أورددا) ويعتبر من أهم الشخصيات الثقافية في قازاقستان.. صُفِّي جسدياً سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م.

\* علي خان بوكيخانوف زميل أحمد بيترسون، مؤرّخ وعالم أنثروبولوجي انضم إلى الحزب الشيوعي سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م، وتولّى مناصب قيادية، وصُفّي جسدياً سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م.

\* غاليموجان إبراهيموف من تثار الفولجا الذي عيّنه ستالين سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م رئيساً للمفوضية المركزية للشؤون الإسلامية.. وتولى مراكز هامة للشيوعيين ثم سُجن عام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م لأنه قاوم تحويل الكتابة التترية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، وأُعدم في السجن سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.

ومنذ سنة ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م بدأ النزاع بين الشيوعيين المسلمين وبين أسيادهم الشيوعيين الروس فقد كان الشيوعيون المسلمون يُصرّون على وجهة نظرهم القائلة بأن الثورة الشيوعية في الشرق (الإسلامي) يجب أن تظهر بمظهر التحرر الوطني من الاستعمار، وأن الثورة الوطنية في الشرق يجب أن تتم دون تدخل الروس فيها.. أما نظرهم إلى الإسلام فهي نظرة احترام لأنه يمثل تراثاً ثقافياً هائلاً تجب المحافظة عليه وتنميته، كما تجب مقاومة تأثير المدينة الأوربية بما فيها الروسية على مسلمي الاتحاد السوفياتي، وينبغي حماية لغتهم وآدابهم الخاصة، كما ينبغي حماية أراضيهم من المستوطنين الروس، بل ويجب طرد جميع المستوطنين الروس الذين احتلّوا الأراضي الإسلامية في الاتحاد السوفياتي. ولهذا فقد قامت السلطات الروسية بمدارة هؤلاء الشيوعيين المسلمين عندما كانت في حاجة إليهم من سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م إلى سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م، فلما ثبت لها الأمر، واستقرّ بها المقام، قامت بتصفيتهم جسدياً واحداً أثر الآخر.. ولم يأت عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م حتى كان معظم الشيوعيين المسلمين الذين ساهموا في تثبيت دعائم الحكم البلشفي قد صُفّوا جسدياً ولاقوا جزاءهم على يد رفاق الأمس وخسروا بذلك دُنياهم وأخراهم.. وذلك هو الخسران المبين..

وتلخيصاً لما سبق فإننا نرى أن تثار الفولجا كانوا هم عماد حركة القومية

الإسلامية في روسيا منذ بداية هذا القرن، وعلى أكتافهم قامت تلك النهضة القوية التي شهدها مسلمو قازان، والتي امتدت إلى عاصمة البشكير أوفاء، ثم إلى أورنبغ في الأورال، ومنها إلى كافة المناطق الإسلامية..

وللأسف وقع المسلمون في روسيا في شباك لينين وستالين ورفاقهما الذين أعلنوا مراراً وتكراراً عن تأييدهم للمطالب الإسلامية، ثم ما لبثوا أن غدروا بهم بصورة قذرة بعد أن تمكّنوا من تشديد قبضتهم على الأباطورية الحمراء الجديدة.. ومنذ أن استتبَّ الأمر للبولشفيك تمَّ إلغاء الحرف العربي الذي كان التتار المسلمون يكتبون به، وتمَّ تحويله أولاً إلى الحرف اللاتيني، ثم بعد ذلك إلى الحرف الكيريلي. وبذلك تمَّ القضاء على الثقافة التتارية والإنتاج العلمي والأدبي الواسع الذي ظهر في العقدين الأولين من القرن العشرين. ومن عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٥٠ تمت إبادة الثقافة التتارية، وفُرضت الكتابة بالخط الكيريلي الروسي.

والمنطقة الوحيدة التي تعاونت مع قواد روسيا البيضاء، كانت بشكيريا، حيث أعلن البشكير في ديسمبر سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م استقلالهم الذاتي وشكّلوا حكومة في أورنبغ، ووقفوا على الحياد في الصراع بين البولشفيك وأعدائهم.. لكن البولشفيك سيطروا في فبراير ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م على مدينة أورنبغ واعتقلوا قادة البشكير ومنهم زكي والدي طوقان..

وبعد شهرين فقط أي في أبريل سنة ١٩١٨م / ١٣٣٧هـ عاد البيض فاستولوا على أورنبغ، والتحق البشكير بالقوات البيضاء فوراً، وكونوا ثاني حكومة قومية بشكيرية في يونيو سنة ١٩١٨م / ١٣٣٧هـ، وبقيادة زكي والدي طوقان أعلن البشكير في سبتمبر من نفس العام ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م، بالتعاون مع البيض، قيام حكومة روسيا المؤقتة ومركزها مدينة أوفاء.. وفي تلك الأثناء كانت الوحدات البشكيرية تحارب في خندق واحد مع الجيوش البيضاء.. غير أن هذا التحالف لم يدم طويلاً، فقد قام الأمير كولشاك، قائد القوات الروسية البيضاء، بحلّ حكومة

أوفا المؤقتة، وتصفية الفرق البشكيرية التي كانت تحارب إلى صفه خوفاً من قيام دولة بشكيرية إسلامية مستقلة.. وذلك لأن الروس البيض كانوا يرون في قيام دولة إسلامية، حتى ولو كانت حليفة لهم، خطراً يماثل خطر الشيوعيين بل أشد..

وكما يقول مؤلفاً كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: «وكان لِقَصْر النظر السياسي الذي يميّز به القادة البيض نتائجه الفورية والمأسوية».. فما أن تأكد زكي والدي طوقان ورفاقه من استحالة التعاون مع كولشاك حتى انتقلوا إلى حرب العصابات ضده. وفي ١٩ فبراير ١٩١٩م / ١٣٣٨هـ التقى زكي طوقان سرّاً برُسل لينين، ووقع معهم معاهدة تمهيدية، أُنْشِئت بموجبها الحكومة المؤقتة لبشكيريا السوفياتية.. وفي ٢٢ فبراير كانت الوحدات البشكيرية تخرق الجبهة وتلتحق بالجيش الأحمر بكامل عدتها.

وعُيّن زكي طوقان رئيساً للجنة البشكير الثورية، التي كانت تقوم مقام الحكومة البشكيرية، وكما كان التعاون بين البشكير وقادة روسيا البيضاء قصير الأمد، كذلك كان التعاون بين البشكير وقوات الحمراء أيضاً قصير الأمد.. لأن كلا المعسكرين الأبيض والأحمر، لا يريد قيام دولة إسلامية مستقلة. وسرعان ما ظهرت نواياهم الخبيثة تجاه المسلمين.

ولذا كانت سياسة البشكير في هذه الحرب، بعد أن كانوا أول من أدرك خطورة كلا المعسكرين الرأسمالي والشيوعي على المسلمين والإسلام، كانت سياستهم تنحصر في أن ينتزعا من البولشفيك أكبر قدر ممكن من الحريات السياسية والثقافية والدينية.. أما البولشفيك فكانوا يعتبرون التحالف (المضاد للطبيعة) مع المسلمين البشكير يمثل مرحلة عابرة فقط هدفها بلشفة البشكير والاستيلاء على أرضهم..

وما أن تمكّن لينين من توطيد دعائم دولته الحمراء المخضبة بالدماء، حتى بدت نواياه الخبيثة تجاه المسلمين تظهر على حقيقتها، رغم ما كان يدبجه من مقالات وخطب رنانة لخطب ودّ المسلمين. وفي تلك الفترة بدأت تتضح أكاذيب

لينين لقادة المسلمين في مختلف مناطقهم، ومن هؤلاء الذين عرفوا حقيقة لينين البشعة زكي طوقان ورفاقه في لجنة البشكير الثورية.. وعندئذ فرّ زكي طوقان ورفاقه إلى التركستان، حيث كانت ثورة الباساش على أشدها ضد البلاشفة، والتحقوا بها وذلك في يونيه ١٩٢٠م/ ١٣٣٩هـ.

وعندما استتبّ الأمر للينين، قام بتقسيم تتار الفولجا إلى عدة مقاطعات وجمهوريات اسمية تابعة مباشرة لموسكو..

وفي الشمال والشمال الشرقي من المجرى الأوسط لنهر الفولجا، أقام لينين عام ١٩٢٠م/ ١٣٣٩هـ جمهورية تتاريا وجمهورية بشكيريا.. أما بقية مجرى الفولجا الأوسط والأسفل بالقرب من استراخان، فجعله داخلاً في جمهورية روسيا الاشتراكية الفيدرالية السوفياتية، دون أن تكون له أي صفة إدارية مستقلة أو شبه مستقلة. وقد أعيد القادة المسلمون الذين تعاونوا مع لينين في مرحلة سابقة بعد أن تمّ الاستغناء عنهم. ومن هؤلاء مجموعة من الكازاخيين والأوزبك وتتار القرم، الذين تعاونوا مع البولشفيك، فكان مصيرهم السجن والإعدام ومنهم أحمد بيطرسون الكاتب والمؤرخ الكازاخي الذي أُعدم سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، وعلي خان بوكيخانوف الكازاخي عالم الأنثروبولوجيا الوصفية، والمؤرخ الذي ينتسب إلى جنكيزخان ورفيق أحمد بيطرسون وأحد الأعضاء البارزين في الحزب الشيوعي.. ومع هذا فقد تمّ إعدامه سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م بتهمة الميول القومية.. ومن هؤلاء سلطان علي أوغلي المعروف باسم سلطان غلبيف الذي طُرد من الحزب الشيوعي سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م لانحرافه القومي، وسُجن في نفس العام، وأُعدم سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

وفي خلال عامين فقط هما عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م وعام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م صُنِّي جسدياً جميع رؤساء لجان نهر الأوب التتارية والبشكيرية في الحزب الشيوعي التتاري، وكذلك كل قادة اتحاد الكتاب، ومصالحة المنشورات في قازان وأفا..

وواجه تتار القرم، الذين انضموا تحت راية الحزب الشيوعي، نفس المصير

الأسود مثل ولي إبراهيم الذي تولى منصب رئيس جمهورية القرم بعد بالاكون المجري. وقام ستالين بإعدامه وإعدام جميع وزرائه سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م. وفي عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م قتلوا رئيس الجمهورية محمد قوباي مع جميع وزرائه، وتكررت نفس القصة عام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م مع رئيس الجمهورية إلياس طرخان مع جميع أعضاء حكومته. فإذا كان هذا هو مصير كل من تعاون من المسلمين مع البولشفيك، فكيف يا ترى كان مصير المسلمين الذين قاوموا الطغيان الشيوعي؟!!

لقد هدم الشيوعيون الروس عند دخولهم قازان سبعمائة مسجد من مساجدها الشهيرة، كما حطّموا وحولوا آلاف المدارس الإسلامية في قازان إلى مدارس لتعليم الشيوعية.. كما حطّموا المطبعة الإسلامية التي كانت تطبع القرآن الكريم ومئات الكتب الإسلامية، وكذلك استولوا على جامعتها الإسلامية التي كان يدرس فيها سبعة آلاف طالب، وحولوها إلى جامعة شيوعية..

استراخان:

أما مدينة الحاج طرخان (استراخان)، فقد فصلت عن تاريا، وأصبحت تابعة مباشرة لروسيا. وحقيقة اسمها أن أحد الحجاج الأتراك الصالحين نزل بموضعها، وحزّر له سلطان تار الفولجا رقعة ليسكن فيها بدون مكوس أو ضرائب. وهذا معنى لفظ طرخان، فكثر فيها نزول الحجاج من تلك المناطق، وأصبحت مدينة كبيرة يقيم فيها سلاطين التتار في الشتاء لأنها تقع على بحر قزوين على مصب نهر الفولجا.. وتعتبر دافئة نسبياً..

وتأسست بها خانية تارية مستقلة سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م عندما انفصل كوجوس عن أقاربه الذين كونوا خانية قازان وخانية القريم.. واستولى عليها إيفان سنة ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م، وواجهت نفس حرب الإبادة التي واجهتها قازان والسرا ومدينة البلغار وكافة المدن الإسلامية التي وقعت في قبضة إيفان وخلفائه، كما واجهت نفس الحرب الشرسة ضد الإسلام، منذ أن استولى عليها البولشفيك سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م.



ورغم وجود المستعمرين الروس بها، إلا أن أغلبية سكّانها من التتار المسلمين، وتصل إليها أنابيب النفط من باكو عاصمة أذربيجان، لتوزيعه على مناطق مجرى نهر الفولجا ونهر الأورال... وبلغ مجموع التتار في الاتحاد السوفياتي السابق ٦,٣١٧,٤٠٠ عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ربعهم فقط في تتاريا (١,٦٤١,٦٠٠)، وأكثر من مليون تتاري في الحوض المتوسط والأدنى لنهر الفولجا، وقرابة المليون في بشكيريا، ومليون في الأورال وسيبيريا الغربية.

ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي، حصلت تتاريا وبشكيريا على حرية نسبية، وتمت الانتخابات الحرّة في يونيه ١٩٩١. وفي استفتاء ٢١ مارس ١٩٩٢ صوتت أغلبية السكّان للاستقلال، ولكن روسيا رفضت ذلك. وفي عام ١٩٩٤ فُرِضت معاهدة تجعل تتارستان جزءاً من روسيا، وتمّ تأكيد ذلك في مارس ٢٠٠٢، وأن تتارستان جزء لا يتجزأ من روسيا.

وتقول دائرة المعارف ويكيبيديا (Wikipedia net): إن استراخان الآن هي مقاطعة (أوبلاست Oblast) تقع على مصب نهر الفولجا في بحر قزوين. وكان سكّانها في إحصاء عام ١٩٨٩ (٥٠٩,٢١٠)، ولكنهم انخفضوا قليلاً بحلول عام ٢٠٠٤ حيث وصلوا إلى ٥٠٢,٨٠٠.. وهي ظاهرة تتميز بها روسيا بعد الاستقلال، حيث ينخفض السكّان ولا يزيدون بسبب الدمار الذي قام به يلتسين بعد انتهاء الحقبة الشيوعية والاتحاد السوفياتي. وقد تحسّن الوضع الاقتصادي كثيراً بعد تولي بوتين رئاسة الدولة سنة ٢٠٠٠، ولكن هذا التحسّن تدريجي، وستظهر آثاره على السكّان ونموّه في السنوات القادمة.

### تاريخ استراخان

وكما أسلفنا، فإن هذه المدينة تكوّنت عندما سكنها أحد الحجاج وأعطاه سلطان تتر الفولجا رقعة بأن يسكن فيها. واشتهر هذا الحاج طرخان لصلاحه، وسكن الناس معه، فتكوّنت المدينة، وسُمّيت مدينة الحاج طرخان، ثم تحوّل الاسم إلى «استراخان». ولما انقسمت مملكة التتار إلى عدة خانيات، انفصل

كوجوس عن أقاربه، وكونَ خانية في استراخان عام ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م. ولكنها كانت مدينة عامرة قبل ذلك بقرن من الزمان. وعند اجتياح تيمورلنك لجميع الممالك، وصل إلى بولندا، وفي طريقه حطّم خانية التتار في الفولجا، وحطّم مدينة استراخان وأحرقها وسواها بالتراب سنة ١٣٩٥م، لأن مقاومتها له كانت شديدة جداً. وكان تيمورلنك أحد طُغاة العالم رغم أنه يدين بالإسلام ويشبه جدّه لأمه جنكيزخان.

وقد تكوّنت خانية استراخان سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م، وبقيت منتعشة حتى قضى عليها إيفان الرهيب في هجومه المدمّر على تتار الفولجا وممالكهم، وذلك سنة ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م. وبطبيعة الحال، طرد إيفان سكّانها الذي رفضوا أن يتنصّروا، وجلب إليها القازاق والروس، وبنى فيها الكنائس الأرثوذكسية.

وقد تعرّف علماء الآثار على المدينة القديمة على بعد ١٢ كيلومتراً من المدينة الحديثة، ولا تزال أطلالها موجودة إلى اليوم.

وقد قامت الدولة العثمانية بمحاولة استرداد استراخان عام ١٥٦٩، ولكن الهجوم والحصار فشل مما أدّى إلى اعتراف السلطان العثماني بالسيطرة الروسية على استراخان. وفي القرن السابع عشر الميلادي، نمت المدينة تجارياً، واعتُبرت بوّابة روسيا للشرق، وامتلأت بالتجار من فارس والدولة العثمانية وأرمينية والهند وخبوه (Khiwa)، التي تقع اليوم في قازاقستان، وكانت خبوه حلّت محلّ خوارزم.

وقامت ثورات القوزاق (Cossacks) واحتلّوها عامي ١٦٧٠ و١٦٧١، ولكن الثورة أُخمدت وعادت إلى السيطرة القيصريّة. وفي عهد بطرس، الذي يدعونه عظيماً، جعلها مركزاً لتوسّعه البحري، وجعلها مقراً لبناء الأسطول، ومنها توجه بقوّاته لمحاربة الدولة الصفوية (الفارسية الشيعية) في منطقة القوقاس. وكانت استراخان مركزاً متقدماً للتوسّع في أراضي القوقاس التي كانت بيد المسلمين، وبالذات بيد الدولة الصفوية والدولة العثمانية، وكلاهما يحارب الآخر. وقد أدّت الحروب العنيفة بينهما (سنة وشيعة) إلى إضعافها وجعلها لُقمة سائغة لبطرس وخلفائه.

وفي عهد كاثرين الثانية، ازدادت أهمية استراخان، وأقامت فيها مراكز صناعية بالإضافة إلى مركزها التجاري والعسكري.

وقد عانت استراخان من الحروب المتكررة، ومن الحرائق المدمرة التي حدثت في الأعوام ١٧٠٢، ١٧١٨، و١٧٦٧. وفي عام ١٨٣٠ اجتاحتها الكوليرا التي قضت على عدد كبير من السكان.

وقد بُني كرملين (وسط) استراخان فيما بين عامي ١٥٨٠ و١٦٢٠ من قصور مدينة ساراي (عاصمة الدولة التتارية على نهر الفولجا). وبيّنت كاتدرائيتان تابعتان للكنيسة الأرثوذكسية الروسية عامي ١٧٠٠ و١٧١٠.

وهاجمها الألمان عام ١٩٤٢ واحتلّوها رغم المقاومة الباسلة، وكانت مقدّمة المعركة الفاصلة في فولفوجراد (في الجزء الأسفل من نهر الفولجا)، والتي عُرفت فيما بعد باسم ستالينجراد حيث تكبّد الألمان خسائرهم الفادحة. وبدأت بعدها الانتصارات الروسية حتى وصلوا إلى برلين نفسها واحتلّوها.

وتعتبر استراخان مدينة مختلطة حيث يسكنها الروس والتتار (وهم سكّانها الأصليون)، والقوزاق والقوقاسيون (من مختلف مناطق القوقاس). وليست لديّ أية إحصائية حديثة عن عدد المسلمين. والمفروض أن يكونوا هم الغالبية لأنهم أهل البلاد الأصليين. ولكن دائرة المعارف اليوكيبديا على الأنترنت لم تذكر أي شيء عنهم ولا عن مساجدهم، وإنما اهتمت بذكر الكاتدرائيات الأرثوذكسية، والكنيسة الكاثوليكية الكبيرة التي بُيّنت عام ١٧٧٨، وقالت عنها إنها ثالث كنيسة كاثوليكية تُبنى في روسيا، حيث كانت الأولى في بطرسبورج، والثانية في موسكو، والثالثة في استراخان.

وتشتهر استراخان بالكافيار من سمك الاسترجون Sturgeon (وهو بيض هذا السمك)، ويُعتبر أفخر أنواع الكافيار، ولا يشابهه إلا الكافيار الإيراني، وكلاهما يستخرج من سمك الاسترجون الموجود في بحر قزوين، ولكن كميته في استراخان أكبر بكثير من تلك الموجودة في شواطئ إيران.



## الفصل التاسع

### البشكير (الباشقرد) وجمهورية بشكيريا

قال الرمزي في كتابه «وقائع قزان وبلغار وملوك التتار» ج ١/ ٢٣٦: «والحاصل أن المؤرخين متحدون في القول بكون أصل الماچار والبلغار والخزر والباشقرو وجنسهم متحداً... وقال رفاعة بك: «وإذا تأملنا في أوصاف هؤلاء الأقسام ومنازلهم وأزمنة خروجهم يمكننا أن نحكم بكونهم من جنس واحد، وإن لم نحكم بكونهم ملّة واحدة من جميع الوجوه.

وقال عن (الباشقرد = الباشقرت = البشكير): «هم أمة عظيمة من الأقسام التركية، ومسكنهم الآن بين نهر وولغا (فولجا) وجبال أورال، وفي شريقيها. والمشهور أنهم كانوا ممتدين قبل التاريخ بمائتي سنة إلى نهرى إيلك وقوبدابل إلى مسافة في شريقيها من صحراء قذاق حال كونهم رحالة.

«وقال المؤيد أبو الفدا<sup>(١)</sup> في تاريخه: ومن النصارى أيضاً باشقرد، وهم أمة كثيرة ما بين ألمان وبلاد إفرنجة وملكهم. غالبهم نصارى وفيهم أيضاً مسلمون». وفي كتابه «تقويم البلدان» قال: بلاد الباشقرد في الإقليم السابع، وهم ترك جاوروا الألمانين على عهد متواتق، وهم مسلمون من جهة فقيه تركماني، بصّرهم بشرائع الإسلام، وأكثر عمائرهم في نهر دوما (لعله طونه). وقال القزويني في «عجائب

(١) أبو الفداء إسماعيل بن علي الأيوبي، وهو أحد ملوك بني أيوب وصاحب حماة، وتوفي سنة ٧٣٢هـ، من تصانيفه «الأحكام الصغرى» في الحديث «وتقويم البلدان»، و«كتاب البلدان»، و«كتاب الكناش»، و«كتاب الموازين»، و«كشف الوافية في شرح الكافية لابن الحاجب»، و«المختصر في أخبار البشر»، و«نظم الحاوي الصغير في فروع الفقه ونوادير العلم» (كشف الظنون ج ٥/ ٢١٤).

المخلوقات»: باشغرت: جبل عظيم من الترك بين القسطنطينية وبلغار... وقال لي فقيه: إن أهل باشغرت أمة عظيمة، والغالب عليهم النصارى وفيهم جمع من المسلمين على مذهب الإمام أبي حنيفة، ويؤدون الجزية إلى النصارى كما تؤدي النصارى هنا إلى المسلمين، ولهم ملك في عسكر عظيم».

قال الرمزي: ليس هؤلاء الباشقر الذين في أطراف أورال، بل طائفة من الباشقر الذين في حدود الإفرنج (بالقرب من الألمان).

وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: وأما أنا فإني قد وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقرية شقر الشعور والوجوه جداً، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، فسألت رجلاً منهم، استعقلته، عن بلادهم وحالهم فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر (الهنغاريون)، ونحن مسلمون رعية لملكهم من طرف بلاده، نحو ثلاثين قرية، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة، إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصي عليه، ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالنا بلاد الصقالبة، وقبلنا (أي جنوبنا لأن القبلة بالنسبة لهم من الجنوب) بلاد البابا يعني رومية، وفي غربنا الأندلس، وفي شرقنا بلاد الروم القسطنطينية وأعمالها. وقال: ولساننا لسان الفرنج وزيتنا زيتهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام. فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر؟ فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أن قديم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار، وسكنوا بيننا وتلطّفوا في تعريفنا وما نحن عليه من الضلال، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً، وشرح صدورنا للإيمان. ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولّونا أمور دينهم».

وقد علّق على ذلك الرمزي وقال: إن هؤلاء الباشقر قوم آخرون موجودون في أوربا في هنغاريا، وأكثرهم كما قال القدماء نصارى. ولكن الباشقر المقصودون

موجودون شرق نهر الفولجا إلى جبال الأورال. وقال إن بعض المؤرخين قال إن الباشقرد هم من عين جنس الهنغار والمجر (ماجار)، ثم رحلوا منها إلى الشرق وسكنوا شرق الفولجا عند جبال الأورال... واعتبر الرمزي أن هذه الأقوال لا دليل يثبتها. والباشقرد أو الباشكير موجودون منذ مئات السنين شرق نهر الفولجا على نهر كاما، وبالقرب من جبال الأورال، وهل هم والمجر (الماجار والهنغار) أمة واحدة أم لا؟ أقوال تحتاج إلى دليل ولا دليل هناك.

### جمهورية بشكيريا

هي إحدى الجمهوريات العشرين ذات الاستقلال الذاتي اسمياً، والتابعة لجمهورية روسيا الاشتراكية الفيدرالية (الاتحادية)... والتي تأسست عام ١٣٣٨هـ/١٩١٩م، وتقع هذه الجمهورية شرق جمهورية تاتاريا. ويشكل نهر كاما، وهو أهم روافد نهر الفولجا أهم أنهارها... وتقع مدينة أوبا الشهيرة على ملتقى أنهر أوبا وبيلافا وكاما.

ولقد دخل البشكير في الإسلام منذ وقت مبكر، بعد أن دخل الإسلام إلى نهر الفولجا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وفي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى بشكيريا، ولم يأت القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلا وقد كان البشكير جميعاً قد دخلوا في الإسلام، وذلك على يد الدعاة إلى الله من الصوفية، وعلى يد مرديهم وأتباعهم من التجار المسلمين.

وعندما ظهرت القبيلة الذهبية واستولت على جميع أراضي الفولجا والبشكير في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، كانت هذه القبيلة أيضاً قد دخلت في الإسلام... واختلط هؤلاء التتار من القبيلة الذهبية (أحفاد جنكيزخان) بالسكان البشكير أيما اختلاط، كما اختلطوا أيضاً ببلغار الفولجا حتى أصبحوا أمة واحدة يجمعها الإسلام والمصاهرة واللغة المشتركة. وقد لعب السلطان محمد أوزبك دوراً هاماً في نشر الإسلام في قبائل البشكير وجبال الأورال (١٣١٢ - ١٣٤٢م).

وقد احتل إيفان الرهيب منطقتهم بعد أن احتل قازان عاصمة التتار الأولى، وفي نفس العام الذي احتل فيه استراخان، عاصمة التتار الثانية، أي في عام ١٥٥٧هـ/١٥٥٧م.

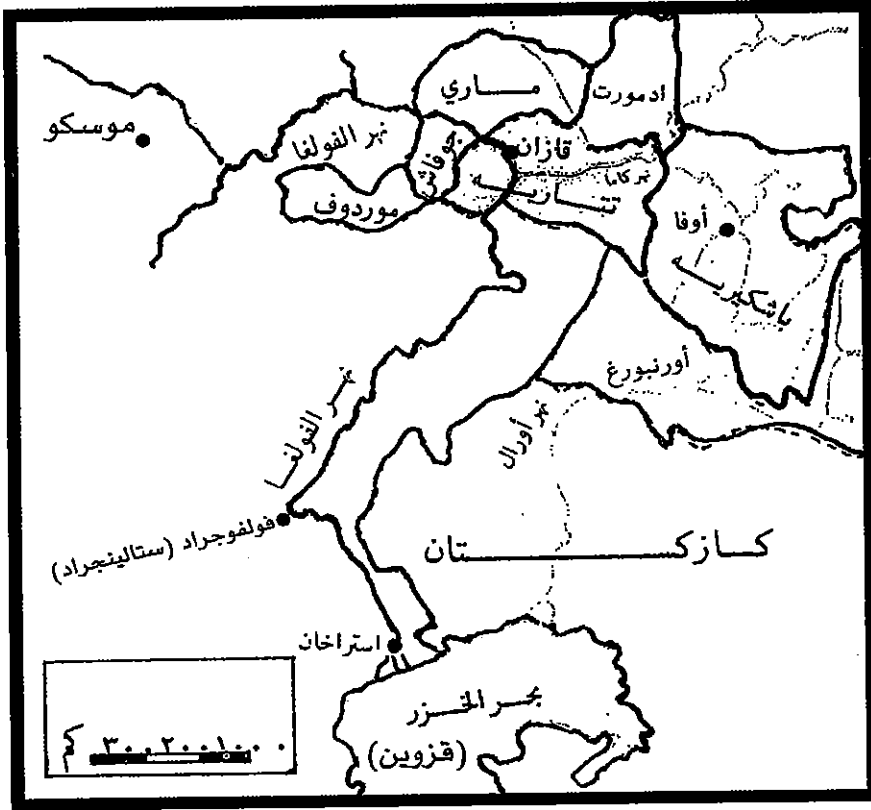
وواجه البشكير نفس حرب الإبادة التي واجهها تتار الفولجا وفرض عليهم التنصير أو القتل أو التشريد. وشكّلوا مع تتار الفولجا الشتات التتري المعروف باسم الدياسبورا، والذي امتد على طول الأراضي التي احتلتها روسيا القيصرية... وقد استطاعت الكنيسة الأرثوذكسية أن تفرض التنصير على ١٥ ألفاً من الناغايك إحدى قبائل البشكير. وذلك في القرن الثامن عشر الميلادي.

وقد قام البشكير بعدة ثورات ضد حكم القيصرية أشهرها ثورة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م، التي قادها الشيخ «صلوات الله ييف» والتي استمرت حتى عام ١٧٧٥... وقد أخذت جميع هذه الثورات بقسوة بالغة...

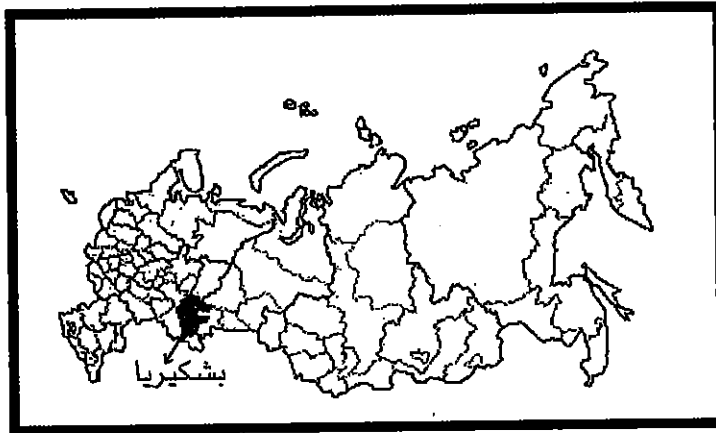
وفي عهد كاترين الثانية، التي أعطت المسلمين شيئاً من الحرية الدينية نشط البشكير نشاطاً عظيماً في بناء المساجد والمدارس الإسلامية... ورغم أن عهد التسامح الديني، لم يدم بعد وفاة كاترين، لأن خلفاءها عادوا إلى سياسة الكبت والضغط على المسلمين، ورغم أنه لم يسمح ببناء مساجد جديدة في عهدهم، إلا أن ما بقي من المساجد التي شيدت بكثرة في عهد كاترين بلغ عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م ١٥٥٥ مسجداً كما كان يوجد في ذلك الوقت أيضاً ٦٢٢٠ مدرسة إسلامية.

ولقد شارك البشكير مشاركة فعّالة في النهضة العلمية والثقافية، التي شهدتها تتار الفولجا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل العشرين؛ وظهر منهم كثير من الكتاب والأدباء، كما ظهر منهم كثير من الزعماء الذين كانوا ينادون أولاً، بالمساواة في الحقوق مع الروس وإعطاء الحريّات الدينية والثقافية الكاملة وحق إنشاء المدارس الخاصة بهم، ووضع مناهجها الإسلامية، كما كانوا يطالبون بمحاكمتهم الشرعية...





حوض الفولغا



خريطة حوض بشكيريا في الجمهورية الاتحادية الروسية موسكو فولفوجراد (ستالينجراد)

ولقد تطوّرت هذه الدعوة بعد عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م إلى إيجاد دولة إسلامية لجميع مسلمي الأمبراطورية الروسية تكون لها ارتباطات بدولة روسيا.

وفي ثورة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م وقف البشكير أولاً مع قوّات روسيا البيضاء وأقاموا دولتهم بزعامة زكي والدي (فيلدي) طوقان، وحاربوا القوّات البلشفية... ولكن سرعان ما تبين لهم أن الأمير كولشاك، يرفض أن يعطي المسلمين أي نوع من الحريات الدينية والسياسية. بينما كان لينين ينادي بالحريّات الكاملة للمسلمين، وبحقّهم في إنشاء دولة مستقلة إسلامية...

ولذا تحوّل زكي طوقان إلى صفوف البولشفيك، ووقّع معاهدة مع لينين يتعهّد فيها لينين بتأييد الدولة الإسلامية... ولكن سرعان ما غدر لينين بالمسلمين. واستطاع زكي والدي طوقان مع أعضاء حكومته أن يفرّ إلى مناطق الثورة ضد لينين في التركستان وأن ينضم إلى ثورة الباسماش الشهيرة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م...

ولقد شهدت مدينة أفا عاصمة بشكيريا الشهيرة العديد من المؤتمرات الإسلامية منذ عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، وكانت أحد المراكز الهامة للثورة الإسلامية في روسيا في القرن العشرين، وهي المركز الديني لروسيا- الأوربية وسيبيريا.

ومنذ عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م تحوّلت بشكيريا إلى جمهورية سوفياتية. ومنذ ذلك الحين واجهت بشكيريا حرباً سافرة ضد الإسلام مثلما واجهته بقية المناطق التي وقعت في برائن الدب الروسي الأحمر.

ورغم ذلك فقد كان ستالين وخلفاؤه يتظاهرون أحياناً بإعطاء بعض الحريات الدينية المحدودة، وخاصة عند مجيء رؤساء الدول العربية والإسلامية إلى روسيا... وقد جعلت أفا مركزاً لمفتي روسيا منذ سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.

تبلغ مساحة بشكيريا ١٤٣,٦٠٠ كم مربع، ويبلغ سكّانها قرابة أربعة ملايين لا

يبلغ المسلمون منهم سوى ٥٥٪، وذلك نتيجة لحركة الاستيطان والاستعمار الروسي التي اتبعتها إيفان من قَبْل ولينين وخلفاؤه من بعد. وبلغ عدد السكّان في تعداد ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م<sup>(١)</sup> ... ٣,٨٤٩,٠٠٠ منهم ٢٤,٣ بالمئة بشكير، و٢٤,٤ بالمئة تثار، و٤٠ بالمئة روس، و٢٪ أوكراينيون... ويقطن الروس في المدن أساساً... ويبيدهم الإدارات الحكومية والحزبية والصناعات. أما البشكير فأغلبهم مزارعون. وقد تمّ طرد كثير من البشكير من وطنهم منذ أيام إيفان الرهيب. ولذا تجدهم في مناطق أخرى مثل قازاقستان وسيبيريا وتتاريا وموسكو وبطرسبورج. ولا تزال بشكيريا ضمن الاتحاد الفيدرالي لجمهورية روسيا الاتحادية.

وقد تكوّنت الإدارة الدينية عام ١٧٨٨ وهي المسؤولة عن المسلمين في روسيا،

(١) لقد تجاوز السكّان الخمسة ملايين (٢٠٠٧م)، ويبدو أن نسبة المسلمين تزداد كما أن العودة إلى الدين بين المسلمين تتحسن كثيراً، ففي مجلة أخبار الأدب ٩ يناير ٢٠٠٥ العدد (٦٠٠) في مقال محمد قجة بعنوان (بوابة سيبيريا) والذي زار بشكيريا ذكر أن رئيس البلدية «ريف قلم الدينوف» في احتفال غرس الأشجار رفع يديه لقراءة الفاتحة، وقال لمن حوله: اتجهوا نحو القبلة، وأنتم تفرسون الأشجار. وأخبرته مُدرّسة اللغة الإنجليزية أن والدها يحتفظ بمكتبة مليئة بكتب اللغة العربية أو باللغة البشكيرية بالحرف العربي. وقد تحوّلت الكتابة إلى الحرف اللاتيني، ثم إلى الحرف الروسي بعد دخول الشيوعية أيام ستالين. وتقول المدرّسة «فريدة نور الدينوف» إن الكتابة بالحرف العربي استمرت حتى الخمسينات من القرن العشرين. وتقول إن والدها نور الدين أحد قضاة مدينة أوفا كان يجيد اللغة العربية.

وكانت زميلتها سعاد كريموفا تتحدث الإنكليزية... وكلاهما يتلهّف لأي حديث عن الثقافة العربية. وأصبحت ظاهرة في هذه المناطق التي يسكنها مسلمون. والاتجاه بفضل الله قوي إلى دراسة القرآن وخاصة للأطفال. وهناك مسابقات تعقد لأجل ذلك. كما أن عدد الحجاج من روسيا الاتحادية يزداد، وقد وافقت المملكة العربية السعودية على قدوم عشرين ألف حاج عام ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م على الرغم من تحديد عدد الحجاج بسبب الهدميات والإصلاحات في مكّة المكرمة.

ويبلغ سكّان أوفا عاصمة بشكيريا مليون نسمة. وبشكيريا بلد غني بالنفط والمعادن والألماس والزراعة والغابات.

ورئيس هذه الإدارة حالياً هو المفتي طلعت تاج الدين؛ وقد درس في مدارس بخارى. وبشكيريا غنيّة بمواردها الزراعية لخصوبة تربتها وكثرة المياه المتدفقة من الجبال مشكّلة أنهاراً كثيرة يلتقي منها عند مدينة أوفانهر بيلافا وكاما وأوفا. وفي جنوب بشكيريا تنبجس ينابيع كثيرة تشكّل أنهاراً ترشد نهر الأورال وأهمها النهر الذي يلتقي بنهر الأورال عند مدينة أورنبرغ.

كما أن بشكيريا غنية بثروتها المعدنية، ففي جبال الأورال توجد معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والتنجستين كما يوجد في بشكيريا أيضاً حقول للنفط هامة، بل تعتبر بشكيريا المركز الثاني بعد سيبيريا لإنتاج النفط. واكتشف سنة ٢٠٠٣ كمية كبيرة من الماس في بشكيريا تفوق الكمية الموجودة في أستراليا وتقدر كميتها بثلاثة مليارات قيراط!!!<sup>(١)</sup>

#### جمهورية الجوفاش (تشوفانيا)

تبلغ مساحتها ١٨,٣٠٠ كم مربعاً، تقع غرب جمهورية تتاريا بين نهر الفولجا، الذي يجري على حدودها الشمالية وبين أحد روافده الذي يجري من الجنوب إلى الشمال قريباً من حدودها الغربية؛ وهي تتبع جمهورية روسيا ويسكنها مليون ونصف المليون من الجوفاش المسلمين الذين يتكلمون لغة خاصة بهم. وهي منطقة سهول تتخللها بعض التلال... وقد احتلها الروس عام ٩٦٠هـ/١٥٥٢م في عهد إيفان الرابع المسمى إيفان الرهيب... ونسبة المسلمين تبلغ ٦٠ بالمئة.

وقد ضغط عليهم القياصرة ليتحوّلوا إلى المسيحية فتحوّلوا ظاهرياً إليها كما فعل بعض مسلمي أسبانيا الذين لم يستطيعوا الهجرة منها.

وفي عهد كاثرين أعطي المسلمون شيئاً من الحرية الدينية، فأظهر هؤلاء الجوفاش إسلامهم فاشتدّ عليهم الضغط عندئذ... ولكنهم صمدوا وبقوا على إسلامهم رغم التنكيل.. وعندما أعلنت الحرية الدينية ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، أظهروا

(١) معلومة من الأنترنت، لم يتح لي التأكد منها.

إسلامهم في صورة جماعية أذهلت المراقبين وفاقت كل تصوّر، إذ تحوّل أكثر من مليون شخص في وقت واحد إلى الإسلام. وأنشئت جمهوريتهم عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م وأصبحت عاصمتهم شبوقساري التي تقع في شمال البلاد قريباً من نهر الفولجا. جمهورية موردوف

وهي جمهورية صغيرة تتبع جمهورية روسيا، ويسكنها مليون وربع من المسلمين، وهي أكثر الجمهوريات الإسلامية امتداداً نحو الغرب في الأرض الروسية... وتشكّل السفوح الشمالية لتلال بينزا. وتبلغ مساحتها ٢٥٠,٠٠٠ كم مربعاً، وتقع جنوب غرب جمهورية الجوفاش، ولا تبعد كثيراً عن موسكو، وعاصمتها سرانك، ونسبة المسلمين فيها ٥٥ بالمئة. جمهورية آدمورت

وتقع شمال تاريا... وتشمل هضاب الأورال الغربية وتنبع منها بعض الأنهار التي ترفد نهر الفولجا... حيث تنحدر مباشرة نحو نهر كاما الرافد الرئيسي لنهر الفولجا، ومن الشمال حيث تشكّل قوساً ثم تؤوب إلى الفولجا... ويمر نهر كاما ذاته في جنوبها الشرقي. وتبلغ مساحتها ٤٢,١٠٠ كم مربعاً، ويقيم على أرضها مليون<sup>(١)</sup> وهم من القبائل الوثنية أصلاً مثل قبيلة ألفن، وقبيلة الفويتاك، وقبيلة الشيريمسي. فلما احتكّت هذه القبائل بالتتار والبشكير، الذين اضطروا للهجرة والتجوال في أراضي الأمبراطورية الروسية بعد أن احتلّ إيفان أرضهم وشردهم وأجبرهم على التنصر وترك الإسلام فاضطروا للهجرة... وكان من نتائج هذه الهجرة الاحتكاك بكثير من القبائل الوثنية، وبعض القبائل البدوية النصرانية فتحوّل هؤلاء بفعل الاحتكاك إلى الإسلام... وجنّ جنون القياصرة لإسلام الأدمورت؛ ورفضوا أن يعترفوا لهم بذلك حتى في عهد كاثرين التي اشتهرت بتسامحها الديني.. ولم يسمح لهم بإقامة المساجد فكانوا يصلّون في بيوتهم..

(١) زاد السكّان في بداية القرن الواحد والعشرين إلى ١,٠٦٠,٠٠٠، وعاصمة أدمورت مدينة إجيفسك، ونسبة المسلمين في الجمهورية تبلغ ٦٠ بالمئة.

ولما كانوا يَخْتَنون كعادة المسلمين في كل الأصقاع، فإن الروس أطلقوا عليهم اسم (الكلاب المختونين).

وقد احتل إيفان الرهيب أرضهم سنة ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م، وحاول فصلهم عن جيرانهم من التتار والبشكير حتى لا يتأثروا بهم... فلما أُعطيَت الحرية الدينية عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م أظهر سگان أدمورت إسلامهم وبنوا مساجدهم، ولكن سرعان ما جنّ جنون الروس لذلك، فحاولوا تقليص هذه الحريات إلى أقصى ما يمكن..

ولما قامت الثورة البلشفية سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م.. سمح بالحرية الدينية لفترة مؤقتة ثم عاد الضغط من جديد.

وفي عام ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م أُقيمت لهم جمهورية خاصة... وعاصمتها إيجفسك، وتقع في القسم الجنوبي، وتمرّ بها جملة من الخطوط الحديدية التي تربطها بمختلف المناطق المحيطة بها...

### الجمهوريات والأقاليم الواقعة في حوض نهر الفولجا

(من كتاب المسلمون في العالم للدكتور عادل طه)

الجمهورية أو الإقليم	عدد السكان	عدد المسلمين	النسبة المئوية
جمهورية بشكيريا	٤ مليون	٢,٥ مليون	٦٠٪
جمهورية تتاريا	٣,٥ مليون	٢,٣ مليون	٦٥٪
جمهورية جوفاش	١,٥ مليون	٨٧٠ ألف	٥٨٪
جمهورية الموردوف	١,٢ مليون	٦٧٠ ألف	٥٥٪
جمهورية الأدمورت	١,٦ مليون	٧٥٠ ألف	٥٢٪
جمهورية ماري	٧٥٠ ألف	٤٠٠ ألف	٥٢٪
إقليم أورنبغ	٢ مليون	١ مليون	٥٠٪

ويشكّل المسلمون في هذه المناطق نسبة ٥٩ بالمئة وعددهم نحو ٨.٦ مليون. وهم الآن (في بداية الألفية الثالثة) يزدادون بفضل الله تعالى، كما أن مجال الحرية الدينية يزداد بصورة أفضل بكثير عما كان عليه في العهد الشيوعي أو العهد القيصري،

فكلاهما كان محارباً للإسلام حرباً شعواء. ومنذ انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ حتى عام ٢٠٠١ تم تشييد أربعة آلاف مسجد في روسيا الاتحادية. وأغلبها مساجد صغيرة وكثير منها بدون مئذنة، والمهم أنها تمتلئ بالمصلين وخاصة يوم الجمعة.

### جمهورية شكالوف (أورنبرج)

تقع في حوض نهر الأورال جنوب غرب بشكيريا مساحتها ٨٥٠٠ كم<sup>٢</sup>، وعدد سكانها مليوني نسمة أكثر من نصفهم مسلمون (٥٣٪). وتعد العاصمة أورنبرج ذات ماضي إسلامي عريق. اشتهرت بالصناعة وبالكتب الدينية والكتب التي تبحث تاريخ التتار. وقد أسلموا على يد تاتار الفولجا.

### جمهورية ماري<sup>(١)</sup>:

وتقع شمال جمهوريتي تتاريا والجوفاش... وهي منطقة سهلية يمر نهر الفولجا من جنوبها، وترفده فيها بعض الأنهار وهي تشغل الجزء الجنوبي من منطقة كيروف. تبلغ مساحة هذه الجمهورية ٢٢,٨٠٠ كم مربعاً (أي أكثر من ضعف مساحة لبنان) ويسكنها ثلاثة أرباع المليون وتبلغ نسبة المسلمين ٦٠ بالمئة من السكان... وشعب الماري يتكلم لغة خاصة به لا تمت إلى اللغة التركية بصلة، وعاصمتهم (يوشكار أولا)؛ وقد احتل إيفان الرهيب أرضهم سنة ١٩٦٠ هـ/١٥٥٢ م وواجهوا الاضطهاد الديني... وأظهروا إسلامهم عندما أعلنت الحريات الدينية ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م... ثم بدأ الضغط عليهم بعد أن استتب الأمر للينين.. وقد أقامت لهم السلطات الروسية جمهورية خاصة بهم، وذلك سنة ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م. والجدير بالذكر أن هذه الجمهوريات ليس لها من سلطات الجمهورية إلا الاسم؛ وأما الواقع فهي بلديات ومحافظات لتنظيم الشؤون الداخلية والبلديات، وحتى هذه تخضع

(١) جمهورية ماري أو ماري إل (إيل). عاصمتها يوشكار. كانوا وثنيين ثم دخل بعضهم إلى المسيحية الأرثوذكسية. وعندما نشأت التتار في عهد إيفان الرهيب نشروا الإسلام بين سكان ماري. وتم تحويلهم قسراً إلى المسيحية، ثم عادوا إلى الإسلام عام ١٩٠٥ عندما أعلنت الحريات الدينية.

خضوعاً تاماً لأوامر الحزب الشيوعي، ولكن بفضل الله انتهت الفترة الشيوعية  
المستبدّة الطاغية إلى غير رجعة منذ عام ١٩٩١.



## الفصل العاشر

### القرم (القريم) Crimea

الجغرافيا: تقع شبه جزيرة القرم شمال البحر الأسود بين أزوف والبحر الأسود. وتقترب من الجهة الشرقية من البرّ مكونة شبه جزيرة كرش التي تكوّن باقترابها من البر مضيق كرش الذي يصل بحر أزوف بالبحر الأسود.

وللقرم تاريخ طويل، ولكنها منذ عام ١٩٥٤ أعطاهما الاتحاد السوفياتي لأوكرانيا التي كانت جزءاً منه<sup>(١)</sup>. ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٩٩١ تعتبر مقاطعة (أوبلاست Oblast) تابعة لأوكرانيا، وفي عام ١٩٩٣ اعترفت أوكرانيا باستقلال جمهورية القرم سياسياً واقتصادياً، ولكنها لا تزال تتبع أوكرانيا.

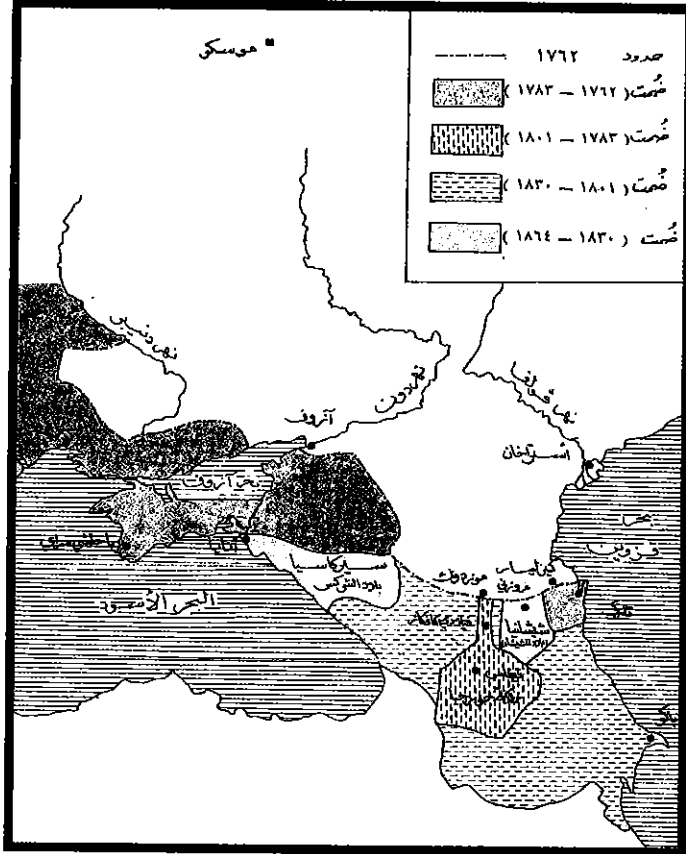
وتبلغ مساحتها ٢٧.٠٠٠ كم مربع، وعاصمتها سيميفروبول (Simferopol) وبها عدة مراكز صناعية. كما أن الصناعة تتركّز في منطقة كرش في الشمال (Kerch) حيث توجد مناجم للحديد. ويرسل الحديد المحتوي على كمية كبيرة من الفوسفات عبر البحر إلى زدانوف (Zhdanov) وإلى حوض الدونست (Donest Basin). ومن أهم الصناعات بها صناعة السفن والتعدين وصيد الأسماك.

وتشكل الجبال الجزء الجنوبي من الجزيرة، وفيها غابات، وتوجد فيها زراعة الكروم. بينما السهل المنبسط من الشمال يزرع فيه القمح والذرة وعباد الشمس (دوار الشمس Sun flower)، ويتم ريّها من الأمطار، ومن قناة متصلة بنهر الدينير Dnever عند كاخوفا (Kakhova)، ويعتبر الجنوب منتجاً سياحياً جميلاً وبها عدة ينابيع ومراكز صحية.

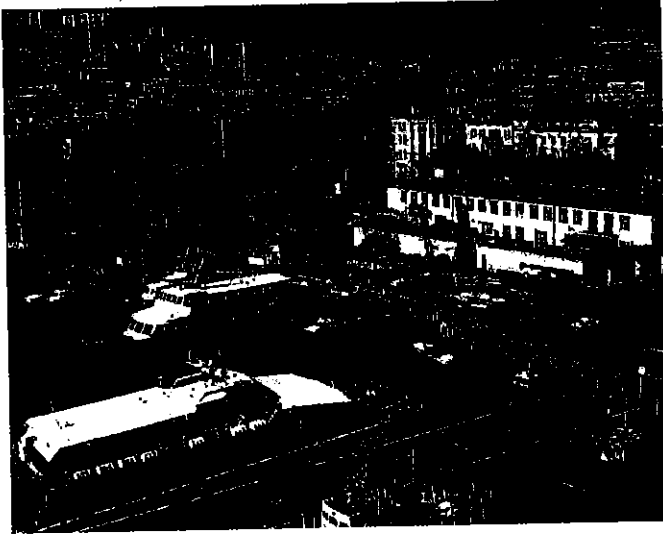
(١) قام بذلك الرئيس خروتشوف لأنه أوكراني. وأدى ذلك إلى معاناة روسيا فيما بعد عندما تفكّك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ على عهد الرئيس المخمور يلتسين.

## المدن الهامة

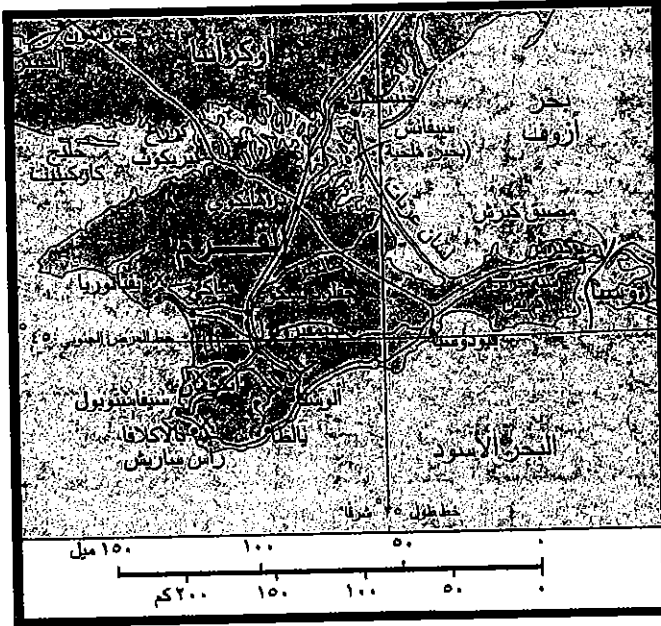
ومن مدنها الهامة بغجة سراي (بقتشساري) Bakhchisaray الجميلة التي أعاد بناءها العثمانيون عند استيلائهم على الجزيرة بطلب من سكانها التنازل للوقوف في وجه روسيا القيصرية. ورغم ذلك سقطت القرم وعاصمتها الجميلة بيد الروس سنة ١٧٨٣ في عهد كاترين الثانية. وبقيت منذ ذلك العهد تحت السيطرة الروسية. وعند قيام الثورة البلشفية، انضم كثير من سكانها للثورة ضد قوات كولشاك ودينكين (روسيا البيضاء)؛ وأقيمت جمهورية ذات حكم ذاتي بعد فترة مقاومة شديدة من سكانها (سيأتي تفصيل ذلك)، واستمرت حتى عام ١٩٤٥ عندما قام ستالين بنفي جميع السكان بتهمة التعاون مع النازي، وهو أمر قد برأها منه فيما بعد مجلس السوفيات الأعلى. وتمّ النفي إلى سيبيريا وقازاقستان، ومات في النفي مئات الآلاف وخاصة من النساء والأطفال. (٤٥) بالمئة من جميع المنفيين كما تذكره دائرة معارف الوكيبيديا).



خريطة توضح التوسع الروسي القيصري (١٧٦٢-١٨٦٤) صوب القرم والقوقاس



مدينة يالطا الشهيرة التي عقد فيها مؤتمر يالطا (١٩٤٥) وهي مدينة ساحلية جميلة وبها صناعة السفن. واجتمع فيها ستالين روزفلت وتشرشل وقسما العالم (أي ستالين وروزفلت) بينها.



خريطة حديثة للقرم.

وقد اهتم بها كثير من الأدباء والشعراء الروس وعلى رأسهم شاعر روسيا الأكبر ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧) الذي زارها وأعجب بها. ووضع بوشكين مسرحيته الشعرية (نافورة الدموع = نافورة بغجه سراي = نافورة باختيساري).

وتتحدث المسرحية الشعرية عن الخان التتري المسلم، الذي كان يحكمها كريم جيراي، الذي استطاع أن يوسع دولته، وأن يردّ على غزوات القياصرة حتى وصل موسكو ذاتها ثم انتقل إلى بولندا. ومن هناك وقعت في يده أميرة بولندية جميلة اسمها ماريا... وأحبها الخان كما تقول الرواية الشعرية حباً شديداً، وهي لا تبادله هذا الحب بل تتطلع دائماً بحزن إلى أن تعود إلى وطنها.

وقد كان الخان متزوجاً من زاريا (جورجية مسلمة) وكان زوجها محباً لها، فلما جاءت هذه الأميرة البولندية تحوّل حبه كله إليها، بل وصار لا يلتفت إلى شيء سواها.

فغارت زاريا الجورجية غيرة شديدة من ماريا البولندية. وحاولت أن تشني زوجها عن هذا الحب العنيف لغريمته، فلم تفلح. فما كان منها إلا أن أخذت خنجرها وأغمدته في صدر غريمته الجميلة التي سلبت منها حُبَّ زوجها ولبّه واهتمامه. فحزن الخان حزناً شديداً، وأقام لها نافورة في القصر لتحكي دموعه عليها. وقد زار بوشكين هذه النافورة، وتأثر بالقصة فصاغها بأسلوبه الشعري الجميل... وقد بدأها بوشكين بقوله:

كثيرون مثلي

زاروا النافورة هذه.

وتقول الدكتورة مكارم الغمري في كتابها «بوشكين عند نافورة الدموع»<sup>(١)</sup>:

(١) بوشكين عند نافورة الدموع، تقديم وترجمة د. مكارم الغمري، إصدار المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٩. انظر كتاب «بوشكين شاعر روسيا، والقرآن الكريم» لكاتب هذه السطور، إصدار شركة كنوز المعرفة - جدة.

«إن البصمة الشرقية تظهر كذلك في لوحات وصف طبيعة القرم غير المألوفة»،  
وتقول: «وتعكس الأغنية التتارية في نافورة باختشي سراي معرفة بوشكين  
بالتصورات الإسلامية، فالقرآن يبشر الشهداء بالجنة حيث النعيم والحدود الحسان،  
والناسك الزاهد تجازيه السماء خير الجزاء فهو في الكبر يزور مكة، وهي زيارة يرنو  
إليها المسلم ليستكمل أركان دينه».

ومن مدن القرم الهامة مدينة يالطا الشهيرة التي عُقد فيها مؤتمر يالطا في نهاية  
الحرب العالمية الثانية بين الرئيس الأميركي روزفلت ورجل روسيا القوي ستالين،  
ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل. وبموجبها اقتسم العملاقان روزفلت والطاغية  
ستالين مناطق النفوذ في العالم، وأعادوا تقسيم الخريطة العالمية، واتفقوا على إقامة  
الأمم المتحدة ونظامها الجديد، بعد أن اندثرت سالفتها «عصبة الأمم».

وسكان القرم خليط من الأمم، ولكن العنصر التتاري كان هو السائد  
والمسيطر منذ القرن الثالث عشر الميلادي إلى عام ١٩٤٥، عندما قام ستالين بنفي  
السكان التتار بأكملهم إلى مجاهل سيبيريا، وإلى جمهورية قازاقستان. ومنذ احتلال  
القرم لأول مرة، على عهد كاترين الثانية، تقاطر عليها الروس والقوزاق وأعطت  
كاترين الثانية عشاقها المفضلين أخصب الأراضي في القرم وغيرها. ولكن أكبر  
هجوم استيطاني تم بعد النفي عام ١٩٤٥ وسكنها عدد كبير من الروس  
والأوكرانيين وروسيا البيضاء وغيرهم.

وعند انتهاء العهد السوفياتي عام ١٩٩١ أعلنت القرم استقلالها. ولكن  
أوكرانيا لم تعترف بهذا الاستقلال إلا عام ١٩٩٣. وقد اقتسمت روسيا وأوكرانيا  
الأسطول الحربي فيها<sup>(١)</sup>.

(١) حدث ذلك في عهد الرئيس يلتسين، ولكن بما أن غالبية سكان القرم هم من الروس فإتهم  
قاموا بانتخاب رئيس لهم في ٣٠ يناير ١٩٩٤ هو الروسي يوري موشكوف الذي أراد  
الانفصال عن أوكرانيا والانضمام إلى روسيا. وبعد مباحكات ألغت أوكرانيا منصبه في ٧  
سبتمبر ١٩٩٤. وبقيت القرم بدون رئيس جمهورية إلى اليوم. ولهم رئيس وزراء يعينه  
البرلمان القرمي المنتخب. ووافقت روسيا على حدود أوكرانيا الجديدة في معاهدة الصداقة  
الجديدة في مايو ١٩٩٧ وبموجبها وافقت أوكرانيا على إعطاء روسيا ٨٠ بالمئة من الأسطول  
البحري في البحر الأسود وعلى استخدام ميناء سيفاستبول الهام لمدة ٢٠ عاماً. وسيطرت  
روسيا على القنار وكثير من الموانئ.

وكانت بالطا وألوشا وبالاكلافا وسيفاستبول مراكز هامة للأسطول السوفياتي ولصناعة السفن، وصيد الأسماك، والتعدين. كما أن هذه المدن الساحلية تعتبر مراكز جذب سياحي كبير لجهاها ودفء جوها وكثرة الينابيع الصحية بالقرب منها.

ويبلغ عدد سكان القرم ٢,٣٠٩,٠٠٠ كما تذكر الموسوعة العربية العالمية (الطبعة الثانية ١٩٩٩) وأغلب سكانها من الروس، ويطالب بعضهم بالانضمام إلى روسيا وتعارض ذلك أوكرانيا بشدة. وللأسف رغم أن مجلس السوفيات الأعلى قد برأ سكان القرم المسلمين من تهمة التعاون مع النازي (ما عدا أفراد)، فإن سكان القرم التتار المسلمين لم يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم. وهي عملية إجرامية قام بها ستالين سنة ١٩٤٥ ولا يشبهها إلا ما فعله الأسبان في أسبانيا واليهود في فلسطين التي أطلقوا عليها اسم إسرائيل. ولكن منذ عام ١٩٩٣ سمح للتتار المنفيين بالعودة، وقد بلغت نسبتهم في إحصاء عام ٢٠٠١ أكثر من ١٨,٥ بالمئة<sup>(١)</sup>.

### تاريخ القرم

لقد سكن السكيثيون (Sycythians) القوقاس والقرم. وهم قوم قد قدموا من آسيا. ويعتبر الجنس القوقاسي (Caucasians)، ومنهم الأوربيون يرجعون إلى هذا العصر. ثم سكنها اليونانيون منذ القرن السادس قبل الميلاد. واستولى عليها بلغار الفولجا المسلمون في القرنين العاشر - الحادي عشر الميلاديين؛ ثم جاء التتار (المغول) في القرن الثالث عشر، واختلطوا ببلغار الفولجا وغيرهم. وقامت بها

(١) جاء في الوكيبيديا (دائرة المعارف على الأترنت) أن عدد سكان القرم عام ٢٠٠١ كان ٢,٠٣٣,٧٠٠ نسمة على النحو التالي: ٥٢,٣٢ بالمئة روس، ٢٤,٣٢ بالمئة أوكرانيون، تبار ١٨,٦٤ بالمئة، بيلاروس ١,٤٤ بالمئة. وقد انخفض عدد السكان ما بين ١٩٨٩ إلى ٢٠٠١ بمقدار ٣٩٦,٧٩٥ شخص رغم السماح بعودة التتار القرميين المنفيين منذ أيام ستالين. ثم انخفضوا من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٥ بمقدار ٣٩,٤٠٠ شخص. وأعداد السكان من الروس والأوكرانيين في تناقص. والوحيدون الذين يزدادون هم التتار المسلمون بسبب عودتهم من المنفى، وبسبب تناسلهم، وطول أعمارهم بالنسبة لبقية السكان الذين تؤثر عليهم الخمور والمشاكل الأخرى.

دولة تابعة لدولة التتار المسلمين، وبلغت أوج مجدها في عهد محمد أوزبك خان، واستمرت قوية إلى القرن الثامن عشر الميلادي بعد انهيار قازان واستراخان.

وصل الإسلام إلى جزيرة القرم، بعد أن دخل أولاد جنكيز خان وأحفاده في الإسلام، وذلك في أواخر العهد العباسي. وقد أسس أباتو بن جوجي بن جنكيز خان القبيلة الذهبية التي كانت تحكم وسط آسيا وروسيا... واعتنق بركة خان الإسلام منذ صغره، وحفظ القرآن الكريم على يد أحد علماء مدينة خوقند... ولما تولى أمر هذه القبيلة سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م جعل معظم جنوده من المسلمين واجتهد في نشر الإسلام في أفراد قبيلته...

وكان التنافس شديداً بين النصارى والمسلمين لاكتساب المغول، القوة العالمية الجديدة إلى صفهم، وفي أول الأمر بدا أن بابا روما سيكسب الجولة إذ تزوج هولاكو من نصرانية، بل أن جنكيز خان نفسه تزوج نصرانية... وكذلك فعل أوجتاي بن جنكيز خان، ثم ابنه كيوك بن أوجتاي، والذي تولى أمر المغول، وهو الذي حرض هولاكو على غزو بغداد... وكذلك فعل ابن هولاكو أباقا الذي دخل النصرانية. أما تكودار ابن هولاكو الثاني فقد تحوّل من النصرانية إلى الإسلام، ولذا قتله ابن أخيه أرغون ابن أباقا الذي كان شديد العداء للإسلام<sup>(١)</sup>.

وفي عهد بركة خان ٦٥٤ - ٦٦٥ هـ / ١٢٥٦ - ١٢٦٧م، انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في القبيلة الذهبية... وتعاون هذا السلطان المغولي المسلم ضد ابن عمه هولاكو ووقف مع الظاهر بيبرس في حربه ضد طاغية المغول هولاكو. وكانت حاضرة الأسرة الذهبية مدينة السرا على ضفاف نهر الفولجا... وكان من هذه الأسرة السلطان أوزبك الذي آل إليه أمرها عام ٧١٣ - ٧٤١ هـ / ١٣١٣ - ١٣٤٠م، وفي عهده كانت كثير من مناطق روسيا قد تحوّلت إلى الإسلام ومنها حوض نهر الفولجا (نهر إتل) وشبه جزيرة القرم.

(١) انظر تفاصيل إسلام المغول في كتابي: «كيف أسلم المغول؟» إصدار دار الفتح للنشر -

وقد زار الرحالة الإسلامي المشهور ابن بطوطة السلطان محمد أوزبك، وقال عنه: «وهذا السلطان عظيم المملكة، شديد القوة، كبير الشأن، رفيع المكانة، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم... وبلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وأزاق وسرادق وخوارزم وحاضرتهم السرا».

«وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم: مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق، إلى قيام الساعة أيد الله أمره، وأعز نصره، وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان أوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين...».

ووصف ابن بطوطة المدن الكبيرة التي في حوزة هذا السلطان، ومنها مدن شبه جزيرة القرم وهي كفا والقرم وسرادق التي سننقل ما قاله عنها، وقد نقلنا ما قاله عن مدينة السرا عند الحديث عن تتاريا (تتارستان).

وقال يصف مدينة الكفا، التي تقع في أضيقة نقطة بين البحر الأسود وبحر أزوف: «وهي عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى، وأكثرهم الجنوبيون، ولهم أمير يعرف بالدمدير، ونزلنا منها بمسجد المسلمين، وطفنا المدينة ورأيناها حسنة»<sup>(١)</sup>.

ويصف مدينة القرم، التي تقع غرب مدينة كفا: «وهي مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان، وعليها أمير من قبله اسمه تلتكمور».

ووصف مدينة سرادق، التي تقع جنوب مدينة القرم... كما وصف المدن الواقعة على بحر أزوف وهي مدينة أزوف... ووصف مدينة الماجر، التي تقع على نهر الدون على البحر الأسود شرق أزوف؛ كما وصف مدينة السرا، على نهر الفولجا...

(١) في القرن الثالث عشر الميلادي سيطر الجنوبيون على كثير من المدن الساحلية في القرم وأقاموا لهم مستعمرات هناك ومن أهمها مدينة الكفا وسمبالو وشركو. وعندما وصل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي كانت السيطرة للمسلمين وبقي الجنوبيون والبنادقة كتجار.



واستراخان ومدينة البلغار... وذكر مساجدها وسعتها ومدارسها.. ووصف الروس بقوله: نصارى، شقر الشعور، زرق العيون، قباح الصور، أهل غدر.

وتوالى استقرار التتار المسلمين في شبه جزيرة القرم، منذ ذلك الوقت المبكر، الذي زارها فيه ابن بطوطة (أوائل القرن الثامن الهجري حيث ابتداء ابن بطوطة رحلته عام ٧١٥هـ) في عهد السلطان محمد أوزبك ٧١٣هـ إلى ٧٤١هـ أي (١٣١٣م إلى ١٣٤٠م)...

ولم يكتمل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) إلا وكانت جزيرة القرم إسلامية خالصة، وأصبح للقرم سلطان خاص بها من التتار... وعندما دمر تيمورلنك القبيلة الذهبية، تفرقت دولتها التي كانت تحكم نهر الفولجا، والقرم والأورال إلى قازاقستان إلى ثلاث خانيات هي: خانية قازان، وخانية استراخان، وخانية القرم. وتولت عائلة كيراي الحكم في القرم منذ سنة ١٤٢٧ إلى سنة ١٧٨٣.

وعندما ضعف أمر التتار في روسيا، وحوض نهر الفولجا واستولى إيفان الرهيب على عاصمتهم قازان القريبة من موسكو عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م، وفي نفس العام استولى إيفان على أرض الشوفاش وبلاد ماري وموردوف... واستولى على مدينة أوبا عاصمة بلاد البشكير سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٥م، واستراخان (الحاج طرخان) ٩٦٥هـ / ١٥٥٧م، وبلاد الأدمورت عام ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م. وعندما ضعف أمر المسلمين في روسيا ذاتها قام سلطان القرم، الذي كان قوي الشوكة بالنسبة لبقية سلاطين التتار (الذين مزقتهم الخلافات وجعلتهم لقمة سائغة لإيفان الرهيب بحيث استطاع أن يحتل ٤٤٥.٠٠٠ كم مربعاً من أراضيهم في غضون عشر سنوات) قام سلطان القرم هذا بالهجوم على روسيا ذاتها سنة ١٥٧١ كرد فعل على أعمال إيفان الرهيب الذي أباد المسلمين في المناطق الشاسعة التي كانوا يحتلونها حول نهر الفولجا والذي شرّد الملايين منهم... واستطاع تثار القرم بقيادة الخان محمد كيراي عام ٩٧٩هـ / ١٥٧١م أن يحتلوا منطقة الدوننتز... وأن تصل جيوشهم إلى موسكو، بل وصلت جيوشهم إلى بولندا حيث هزموها وفرضوا عليها الجزية. ولكن الخلافات مزقت سلاطين التتار، فعاد الروس من جديد، وانتزعوا الأراضي

التي حررها تثار القرم من روسيا، وذلك عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م، ليس ذلك فحسب بل اقترب الروس من القرم ذاتها عندما احتلوا منطقة أزوف عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م. وعندئذ استنجد تثار القرم بالسلطان العثماني، فنزلت القوات العثمانية لحماية القرم ذاتها، واستلموا مضيق كرش الهام من تثار القرم للدفاع عنه. وقامت القوات العثمانية باسترداد أزوف سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، وأعادوا بناء مدينة باغجة سراي الجميلة ذات المساجد العظيمة وجعلوها عاصمة القرم. إلا أن الروس في عهد كاترين الثانية، عادوا إلى جزيرة القرم مرة أخرى بجحافل قوية قادها الجنرال بوتكين عشيق كاترين الثانية سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م، واحتلوا أزوف، بل واحتلوا القرم ذاتها، وأقام الروس مذبحه لتثار القرم وشرّدوا في ذلك العام نصف مليون تتاري قرمي. وذلك بعد محاولة فاشلة لاحتلالها عام ١١٩٤هـ/ ١٧٧٨م عندما صدّتهم القوات العثمانية. وفي عام ١٨٥٣ قامت بريطانيا وفرنسا بتشجيع الدولة العثمانية لنقض اتفاقية «يونيكار سكيليسي» التي أعطت الحق لروسيا في عبور الدردنيل بأساطيلها إلى البحر الأسود، وقامت بالتالي حرب القرم بين تركيا وبريطانيا وفرنسا من جهة، وروسيا القيصرية من جهة أخرى. وانتهت بهزيمة روسيا عام ١٨٥٦ واضطرت روسيا للتخلي عن القرم مؤقتاً، وفي المقابل أخذت بريطانيا جزيرة قبرص من الدولة العثمانية كما سمح لروسيا بالتوغل شرقاً في التركستان.

وظل التثار خاضعين للحكم القيصري الذي كان يشتد في التعصّب ضدّهم حيناً ويرخي قبضته حيناً آخر. ولكن الجهود المبذولة لتنصير التثار لم تتوقف قط طوال تلك العهود. وكانت الحرب الدينية بين روسيا ممثلة الأرثوذكسية بعد سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين المسلمين مستمرة بين روسيا والمسلمين، ولذا كان الاضطهاد بل والقتل والتشريد والتنصير بالقوة هو السمة المميزة للعهود القيصرية ما عدا فترات قليلة كان يسمح فيها بشيء يسير من الحرية الدينية كما حدث في عهد الأمبراطورة كاترين. إلا أنه حتى في تلك الفترات كان ينظر لتثار القرم على أنهم حوّنة مستعدون التعاون مع أعداء روسيا وهي الخلافة العثمانية...

## عهد الإصلاح عام ١٩٠٥

ولذا عندما نشطت الحركة الإصلاحية في روسيا والمطالبة بالحريات الدينية والحريات المدنية، وتكون الدوما (البرلمان الروسي) سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م، نشط المسلمون نشاطاً قوياً في كل مناطق روسيا، وعلى الأخص في القرم، مما جعل الحكام الروس يتخوفون من هذه الحرية، ويصدرون أوامرههم إلى وزير الداخلية بالحد من نشاط المسلمين وتكميم أفواههم. ومنع فتح مساجد جديدة وتشديد الرقابة على زعمائهم...

## الثورة البلشفية وبداية عهد الإرهاب والمجاعات

ولهذا عندما قامت الثورة البلشفية بقيادة لينين في أكتوبر عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م وجدت مساندة من جميع مسلمي روسيا، وذلك لأن لينين كرّر وعوده في خطبه ومنشوراته بأن المسلمين سيحظون بالحرية الدينية الكاملة بل وبالاستقلال الذاتي في شؤون دولتهم.. بل وأيد لينين قيام دولة مستقلة للمسلمين. فأيد عندئذ قيام دولة القرم الإسلامية التي أعلنت عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م والتي أجريت فيها انتخابات عامة لأول مرة لاختيار حكومة وطنية، وكانت تلك الثورة بقيادة الزعيم التاريخي القرمي شلبي (جلبي نعمان جهان)، وسيطرة حزب (ملي فرقة).. وفي يناير ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م احتلت البحرية السوفياتية مدينة سمفروبول القرمية بعد هجوم مفاجئ وأسقطوا حكومة شلبي (جلبي) وقاموا بإعدامه. ولكن الألمان طردوا الروس الحمر منها ثم جاءت قوات دينكين الذي قاومه بشدة أهل القرم... ولم يحاول لينين في ذلك الوقت إخضاعها مباشرة... وإنما ابتداءً بمحاربة قوات روسيا البيضاء، وطلب مساعدة المسلمين، وخاصة مسلمي القوقاز، فلما تم له القضاء على قوات دينكين وكولشاك الذي كانت تسانده قوات الحلفاء أصدر لينين في أبريل (نيسان) سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية التي كانت واقعة تحت سيطرة القياصرة من قبل. فبدأ بشمال القوقاز وجمهورية أوديل أورال وخانية خوقند... وتم إخضاع هذه المناطق قبل انتهاء عام ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م، وفي عام ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م استولى لينين على جمهورية ألشي... وفي أبريل

سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م استولى على أذربيجان، وفي نفس العام توجهت جحافل قواته إلى القرم، فواجه مقاومة شديدة، واعتصم أهلها بالجبال، وبدأت حرب عصابات مروعة. وعندئذ فرضت القوات البلشفية الروسية الحصار الشديد على أهل القرم حتى انتشرت المجاعة. وقد نشرت جريدة أزفستيا في عددها الصادر ١٥ تموز سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م تقريراً للرفيق كالينين اليهودي الذي تولى أمر القرم ما يلي: (بلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة في يناير ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، ٣٠٢,٠٠٠ مات منهم جوعاً ١٤,٤١٣ شخصاً، وفي مارس أصيب ٣٧٩,٠٠٠ بالمجاعة مات منهم بالمسغبة ١٩,٩٠٢ شخصاً، وفي أبريل بلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة ٣٧٧,٠٠٠ مات منهم ١٢,٧٥٤، وفي يونيو بلغ عدد الذين أصابتهم المجاعة ٣٩٢,٠٧٢. ومن هذا التقرير يتضح أن من أصيبوا بالمجاعة الشديدة أكثر من مليون تتاري قرمي في خلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، مات منهم بسبب الجوع أكثر من ستين ألفاً بينما يقول تقرير رفعة الفارون من الاتحاد السوفياتي إلى عصبة الأمم أن الذين لقوا حتفهم في هذه المجاعة كانوا أكثر من مائة ألف مسلم.

أكل لحوم الأطفال والموتى بسبب المجاعة وإبادة السكان من التتار المسلمين

وجاء في تقرير الرفيق كالينين الذي نشرته أزفستيا في ١٥ تموز سنة ١٩٢٢م/ ١٣٤١هـ: «إن أكل لحوم الأطفال، بل والموتى، لم يكن من الحوادث المستغربة أثناء تلك المجاعة». وكان سكان القرم عندما دخلت القوات الروسية البلشفية خمسة ملايين نسمة من التتار المسلمين أبعد أكثرهم حتى لم يبق عام ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م إلا نصف مليون فقط<sup>(١)</sup>... وكان المفروض أن يزدادوا خلال عشرين عاماً لا أن يقلوا، ولكن نتيجة الحكم الإرهابي الدموي الأحمر، والبطش الشيوعي الذي هان بجانبه بطش القياصرة، فإن سكان القريم كانوا يموتون جوعاً وقتلاً وسحلاً، ويفرّ من يستطيع منهم الفرار، حتى أصبح عددهم خلال عشرين عاماً من هذا الحكم الرهيب خمسمائة ألف نسمة فقط. وتقول دائرة المعارف الوكيبيديا إن القرم

(١) كتاب الكيد الأحمر، لعبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، وكتاب الإسلام في وجه الزحف الأحمر، للشيخ حسن الغزالي.

عانت من المجاعة المروّعة في العهد الستاليني مرتين، الأولى عام ١٩٢١-١٩٢٢ (لينين وستالين) والثانية عام ١٩٣٢-١٩٣٣. ثم انتهت بطرد ستالين لجميع السكّان من التتار القرميين عام ١٩٤٥.

### تخطيط المساجد والمدارس

وكان في القرم عند دخول قوات لينين ١٥٥٨ مسجداً حطمت جميعاً وحوّلت إلى نواد واصطبلات ومتاحف ما عدا بضعة مساجد أقيمت للعبارة... حتى الجوامع الأثرية مثل جامع حان وجامع اصهاقيو وجامع طوزيازار هدمت وحطمت أو حولت إلى متاحف<sup>(١)</sup>.

### حكم بالاكون اليهودي الهنغاري

ورغم أن القرم بعد المجاعة أظهرت استسلامها للحكم البلشفي الرهيب، وأظهرت الخضوع، وافق لينين على أن يجعل لها حكومة أناط بها تصريف الشؤون المحلية، وجعل رئيس هذه الجمهورية الشيوعي الهنغاري اليهودي (بالاكون)، وعرفت هذه الجمهورية باسم جمهورية القرم (كريميا) الآسيوية الاشتراكية السوفياتية.

واستمر بالاكون في سياسة تهجير أهل القرم من التتار وإحلال روس وسلاف وأوكرانيين وبلغار محلهم. ورغم انخراط بعض سكّان أهل القرم في الحزب الشيوعي، وتظاهرهم بالشيوعية حتى وصل بعضهم إلى رئاسة جمهورية القرم بعد بالاكون، مثل ولي إبراهيم، إلا أن ستالين قام بقتل رئيس الجمهورية هذا وجميع وزرائه عام ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م، وذلك لأنه رفض إقامة وطن قومي لليهود في القرم. وكان كثير من يهود روسيا الذين سيطروا على الثورة البلشفية يرون وجوب إيجاد وطن بديل لليهود في حالة فشل إقامة وطن لليهود في فلسطين. ولذا فقد اتفقوا مع ستالين على توطين اليهود الروس الموزعين في أرجاء الأمبراطورية على الاستقرار في القرم الجميلة وجعلها وطناً قومياً لهم<sup>(٢)</sup>، وفي عام ١٣٤٩هـ /

(١) المصدر نفسه.

(٢) من مقدّمة الدكتور محمد حرب لكتاب «السنوات الرهيبة»، للكاتب القرمي التاريخي جنكيز ضاغجي، والذي ترجمه الدكتور محمد حرب، ونشرته دار المنارة، جدة، ط٢، سنة

١٩٣٠م قتلوا رئيس الجمهورية محمد قوياي مع جميع وزرائه، وفي عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م تكررت نفس القصة والمشهد الأليم حيث قام قياصرة روسيا بإعدام رئيس الجمهورية إلياس طرخان مع جميع أعضاء حكومته.

ونتيجة لما قاساه تثار القرم من أهوال على يد البلاشفة الروس كان موقفهم في مقاومة الألمان ضعيفاً ولذا استسلم الفيلق القرمي البالغ عدده ثمانية عشر ألفاً للألمان بعد مقاومة بسيطة على أمل أن ذلك ربما جعل الألمان يعطفون عليهم... ويعاملونهم معاملة طيبة... ولكن ما أن علم الألمان أن هذا الفيلق هو من المسلمين حتى منعوا عنهم الطعام وحبسوهم في زنانات قدرة صغيرة وجعلوا في كل زنزانة مئات الأسرى دون طعام أو شراب فبدأوا يتساقطون واحداً إثر الآخر من المجاعة بعد أن كانوا يحاولون أكل الجدران الخالية وكشط ما بها من دهان بأسنانهم. ولما لاحظ مسؤولو هذه السجون أن عدد الموتى بدأ يقل بعد فترة بدلاً من أن يزيد اكتشفوا أن هؤلاء الأسرى بدأوا يأكلون جثث رفاقهم... عندئذ أمرت الضابطة الألمانية التي كانت مسؤولة عنهم بمجازاتهم على أكل لحوم الموتى من إخوانهم ورفاقهم بقتلهم جميعاً بالرصاص<sup>(١)</sup>... وبذلك تمّ لألمانيا قتل ثمانية عشر ألف تتاري قرمي. والغريب حقاً أن ستالين استشاط غضبه لاستسلام الفيلق التتاري القرمي ورغم استسلام مناطق كثيرة من روسيا للألمان، إلا أنه بعد نهاية الحرب صبَّ جام غضبه على تثار القرم المسلمين... فأمر بقتل وطرده نصف مليون تتاري وإخراجهم جميعاً من بلادهم وتهجيرهم إلى سيبيريا... وذلك سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه المحنة الأخيرة سقطت مئات الآلاف أثناء رحلة الموت والعذاب... وبقي الباقون يتيهون في مجاهل سيبيريا وفي قازاقستان وأوزبكستان وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى.

وكانت القوانين الروسية تمنع أي فرد من سكان تثار القرم بالعودة إلى موطنه

(١) المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، لمحمود شاكر.

(٢) المرجع نفسه.

وإذا اكتشفت مثل ذلك الشخص فإنه يعاقب بالسجن والضرب وإعادة تهجير...  
ولأول مرة في التاريخ يهجر شعب بكامله من موطنه بحيث لا يبقى شخص  
واحد منه ليحلّ محله أمة مستعمرة قاسية وجبارة عاتية...

ورغم أن مجلس السوفيات الأعلى برأ التتار القرميين من تهمة التعاون مع  
النازي، وذلك في القرار الصادر في الخامس من سبتمبر عام ١٩٦٧م / ١٣٨٧هـ إلا  
أن التتار القرميين لا يزالون يعانون من التشريد والاضطهاد<sup>(١)</sup>. وكانت السلطات  
تعاقب كل من يؤوي أو يؤجر أو يبيع مسكناً لأي تباري قرمي بموجب القرار رقم  
٧٠٠ الصادر في أغسطس عام ١٩٧٨م / ١٣٩٨هـ... وحتى في مفاهيم في سيبيريا فإن  
اللغة التترية القرمية قد حوربت ولا يدرس لأطفال هؤلاء القرميين إلا باللغة  
الروسية أو اللغات الأخرى الموجودة في تلك المناطق وبالحرف الروسي... ولقد  
اختفى ذكر التتار القرميين من الإحصائيات الرسمية الصادرة سنة ١٣٧٩هـ،  
١٣٩٠هـ / ١٩٥٩م، ١٩٧٠م. ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م إذ لا يعتبر لهم أي وجود رسمي...

وأصبحت القرم تابعة لأوكرانيا عام ١٩٤٥. وعندما استقلت أوكرانيا وتفككت  
الاتحاد السوفياتي في ديسمبر ١٩٩١ أصبحت القرم تابعة لهذه الجمهورية واقتسم  
الروس والأوكران الأسطول السوفياتي الموجود فيها. وساءت العلاقات جداً بين  
الجمهوريتين السلافيتين روسيا وأوكرانيا. وهي لا تزال بين شدّ وجذب. وقد سمح  
لكثير من الأفراد والأسر من التتار بالعودة إلى القرم وطنهم، ولا يزال الملايين من  
أهل القرم مشتتين في كل مكان فيما كان يسمى الاتحاد السوفياتي وخارجه.

وقد قام الصديق العزيز الدكتور محمد حرب أشهر الباحثين في التاريخ  
التركي من العرب في العصر الحديث، بترجمة بعض أعمال الأديب القرمي جنكيز  
ضاغجي. وقد قرأت منها كتاب «السنوات الرهيبة». وهو كتاب سلبي النوم ولم  
أتركه حتى أتمته لسلاسة أسلوب المترجم ولعمق تأثره بالكاتب، حتى إن المترجم

(١) سُمح لهم بالعودة إلى وطنهم منذ عام ١٩٩٣ أولاً بأعداد محدودة ثم بأعداد أكبر. ولكن  
مشكلتهم كانت في محاولة استعادة بيوتهم وأراضيهم وقد منعوا من ذلك فقاموا بشرائها  
من جديد من الروس والأوكرانيين وغيرهم من المستوطنين.

قد تقمّص عواطف الكاتب فأحسن الترجمة وأجاد. كما أضاف إلى ذلك مقدمة هامة مختصرة عن القرم ومآسيه وتاريخه.

وبفضل الله تعالى يعود التتار القرميون إلى وطنهم بأعداد متزايدة حتى أن نسبتهم بلغت عام (٢٠٠١) ١٨,٦ بالمئة من السكّان. وتقول الوكيبيديا إنّ السكّان الروس في القرم ينخفضون بنسبة ٠,٦ بالمئة سنوياً والأوكرانيون بنسبة ٠,١٢ بالمئة. بينما يزداد التتار القرميون بنسبة ٠,٩ بالمئة سنوياً. ومعنى ذلك أنّهم يشكّلون عام ٢٠٠٩ أكثر من ٢٦ بالمئة من السكّان.



## الفصل الحادي عشر

### سيبيرا Siberia<sup>(١)</sup>

سيبيريا هي الجزء الشرقي والشمالي الشرقي من روسيا. وتمتد من جبال الأورال غرباً حتى المحيط الهادي شرقاً، والمحيط المتجمد الشمالي في الشمال الشرقي والشمال، وجنوباً تحاذي حدود قازاقستان ومنغوليا والصين. وهي بذلك أكبر من الصين والهند مجتمعتين وتشكل ٧٧ بالمئة من مساحة روسيا، وحوالي ٣٠ بالمئة من سكانها. وتبلغ مساحتها ١٣,٠١ مليون كيلومتر مربع.

وبها أطول أنهار روسيا، وهو نهر لينا، ويبلغ طوله ٤٤٠٠ كم، يليه نهر الأوب ثم نهر ينسي ثم نهر أمور، وكلها أطول من نهر الفولجا (أهم أنهار روسيا وأطول الأنهار في أوروبا). ولكن أنهار سيبيريا تبقى متجمدة ما بين سبعة إلى تسعة أشهر في السنة. وفيها منطقة التاندورا، أي منطقة الجليد الدائم طوال العام، يليه نطاق الغابات ثم نطاق السهوب.

وسيبريا غنية بالبتروال والغاز والفحم والألماس والذهب. وقد سُميت أكبر مقاطعاتها مقاطعة (ياقوتيا) لكثرة الياقوت والجواهر والألماس والذهب فيها. وهو لفظ عربي. وقد وصل إلى سكانها الدعاة من بخارى وقازاقستان، ثم بعد ذلك المغول الذين أسلموا. ولكن بعد أن استولت عليها روسيا في القرن السادس عشر الميلادي، تكاثرت السكان من روسيا وأوكرانيا وبييلوروسيا وألمان الفولجا وغيرهم، حتى صار المسلمون أقلية الآن. وقد تكاثروا في آخر القرن العشرين،

(١) سيبيريا تحريف لكلمة الصبر = سير. وذلك أن الدعاة إلى الله من بخارى وما جاورها ذهبوا إليها في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي وحاولوا نشر الدعوة بين سكانها القليلين وهم من أصول مغولية وتركية. وسموا تلك المناطق بلاد الصبر، لأنها تحتاج إلى مكابدة المشقات والصبر في ذلك الزمهرير حتى وقت الصيف..

وبداية القرن الواحد والعشرين، بسبب اكتشاف الثروات الهائلة لهذه المنطقة. وتعتبر سييريا مخزن الثروات الهائلة لروسيا. وفي جنوبها تقع بحيرة بايكال أضخم بحيرة ماء عذب في العالم.

وسييريا تشبه قارة، إذ تبلغ مساحتها ١٣.١ مليون كم<sup>٢</sup> تغطي الثلوج معظم أراضيها وخاصة مناطقها الشمالية (منطقة التاندورا).

وهناك مناطق سهلية في الغرب بينما تشكل المرتفعات معظم أجزائها في الشرق. وتسيل مياهها من الجنوب إلى الشمال على شكل أنهار غزيرة تتجمد في الشتاء لشدة البرد الذي يسود هذه المنطقة.

وتشكل الصحارى الثلجية مساحة واسعة من سييريا، بينما تغطي الغابات الصنوبرية مساحة كبيرة تجعلها أكبر منطقة غابات في أوروبا. وكانت تنقل في هذه الأرجاء الواسعة قبائل تختلف وسائل حياتها بين منطقة وأخرى، ولكنها ترجع جميعاً إلى الجنس المغولي التركي.

#### تاريخ الدعوة في سييريا

لم يترك الدعاة المسلمون هذه القبائل منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي... وكان الدعاة إلى الله من الصوفية يخرجون إليهم من خوارزم وبخارى وطشقند ليدعوهم إلى الله، وأول مجموعة وصلتهم حوالي عام ٧٥ هجرية.

وقد انضوت سييريا تحت راية الحكم الإسلامي عندما استطاع كوتشم خان، أحد أمراء القبيلة الذهبية التي أسسها باتو بن جوجي بن جنكيز خان، والتي دخلت الإسلام في عهد بركة خان (٦٥٤ - ٦٦٥ هـ) (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م)، أن يتولى أمرها.

وقد غزا كوتشم خان سييريا وتولى أمرها عام ٩٧٨ هـ (١٥٧٠ م)، أي في الوقت الذي كان فيه إيفان الرهيب يدكّ عروش الخانات المسلمين من التتار في قازان واستراخان وأوفا، ويمدّ سلطانه فيه عبر نهر الفولجا ونهر الأورال، ويشيد بذلك أمبراطورية روسية أرثوذكسية ضخمة شديدة التعصب ضد المسلمين.. وقد استطاع كوتشم خان أن ينشر الإسلام في أصقاع سييريا، وطلب الدعاة المسلمين من بخارى وسمرقند وخوارزم، فجاءوه يلبّون داعي الحق وينشرون راية الإسلام...

وكانت مناطق سيبيريا قد دخلت في الإسلام من قبل وفود كوتشم خان إليها، ومنها مدينة سيير الواقعة على نهر أوبي... وعُرفت البلاد التي تقع شرقي جبال الأورال باسم سيبيريا على اسم مدينة سيير...

### روسيا القيصرية

كانت أطماع القيصرة تتجه لتستولي على كل الأراضي الإسلامية القريبة منهم. وفي عام ٩٨٨هـ (١٥٨٠م) استطاعت القوات الروسية القيصرية الاستيلاء على سيير.. وقد رفض السلطان كوتشم (كوجم) الاستسلام وقال قولته: «لا أقبل عيش الأسير ولا موت الذليل، ولست أحزن لفقد أملاكي؛ وإنما حزني من أجل أولئك التعساء الذين وقعوا تحت الاستعباد الروسي» ثم قاتل حتى استشهد<sup>(١)</sup>. وتوسّعت روسيا القيصرية تدريجياً في أراضي سيبيريا، حتى وصلت إلى المحيط الهادي في وسط القرن السابع عشر الميلادي، وبدأ تكوين أول خط حديدي عام ١٨٩١ ولم ينته إلا عام ١٩١٦ في عهد نيقولا الثاني آخر قيصرة روسيا. وتقع جبال ألتاي وبحيرة بايكال (أكبر بحيرة للماء العذب في العالم) في جنوب سيبيريا.

ونتيجةً لُبعد سيبيريا عن مركز الحكم الروسي، ونتيجةً لطرده سكان قازان واستراخان ونفيهم إلى سيبيريا ومجاهلها، فقد دخل سكان سيبيريا والقبائل التي تقطن فيما بين نهري أوبي وأريتش في الإسلام، وذلك عام ١١٥٨هـ (١٧٤٥م)... ولم يأت القرن الثالث عشر الهجري إلا وكانت جميع هذه القبائل مسلمة...

وبما أن نكبات المسلمين قد توالفت في روسيا والقريم وتركستان وغيرها من المناطق، فإن السلطات القيصرية ثم البلشفية كانت تقوم بنفي المسلمين إلى مجاهل سيبيريا.

ورغم الظروف القاسية التي يعيش فيها المسلمون المنفيون من ديارهم، إلا أن كثيراً منهم قام بنشر الإسلام فيمن حوله من القبائل السيبيرية.

(١) كتاب الإسلام في وجه الزحف الأحمر، للشيخ محمد الغزالي.

وهكذا انتشر الإسلام في سيبيريا انتشاراً عظيماً... ومنذ أن احتل القياصرة سيبيريا الغربية سنة ٩٨٨هـ (١٥٨٠م)، قام المسلمون بعدة ثورات أشهرها ثورة سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٣م) التي اضطرت القياصرة لإرسال جيوش ضخمة لإخضاعها.

ورغم أن سيبيريا لا تزال في أغلبها صحارى ثلجية، إلا أن الثروات الهائلة من الغاز الطبيعي والبتروول جلبت إلى سيبيريا مشاريع ضخمة لاستخراج الغاز الطبيعي... وقد عقدت روسيا اتفاقات ضخمة مع ألمانيا الغربية وفرنسا لإمدادها بكميات هائلة من الغاز الطبيعي، وساهمت شركات ألمانية وفرنسية ويابانية في عملية استخراج الغاز الطبيعي، ومدّ خطوط أنابيب ضخمة تصل سيبيريا بغرب أوروبا.

ومن مدن سيبيريا الهامة مدينة سيير الإسلامية، ومدينة أبركوتسك التي تقع بالقرب من بحيرة بايكال، وبها مراكز صناعية للآلات وصناعة الأحذية، ومناجم للفحم والملح. يبلغ عدد سكانها أكثر من ربع مليون، كثير منهم مسلمون.

وتقسم سيبيريا التي يعتبرها الروس جزءاً لا يتجزأ من بلادهم إلى المناطق التالية:

١- جمهورية ياقوتيا (ساخا) وسيأتي الحديث عنها مفصلاً.

٢- مقاطعة سيبيريا الاتحادية.

٣- مقاطعة شرق الأورال.

وبها عدد كبير مما يسمى الأوبلاست Oblast (أي مقاطعات ذات حكم ذاتي وداخلي)، فتتبع الأورال أربع مقاطعات، وتتبع سيبيريا اثنتي عشرة مقاطعة، وتتبع سيبيريا الشرق الأقصى ثمان مقاطعات.

وكان سكان سيبيريا حتى عام ١٩٧٩ حوالي عشرة ملايين، ولكن مع تقدّم الاكتشافات وزيادة الثروات النفطية والغاز والألماس والذهب، توجّه إليها مهاجرون من روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء (قبل تفكك الاتحاد السوفياتي) وألمان من ألمان الفولجا المتروسين بالإضافة إلى التتار والبشكير ومجموعات المنفيين مثل القرميين التتار (وهؤلاء الأخيرين مسلمون). وفي عام ٢٠٠٧ ارتفع عدد السكان إلى ٤٢ مليون من الروس والصينيين والمغول والقازاخ والأوربيين، وخاصة الألمان لمشاريع استخراج البتروول والغاز وإرساله إلى أوروبا، وبالذات إلى ألمانيا.

ويقول مفتي سيبيريا الشيخ طاهر عبد الرحمانوف إن عدد المسلمين اليوم أكثر من أربعة ملايين ويحتاجون إلى القرآن الكريم وترجمته إلى لغاتهم.

وتقسم سيبيريا إلى ثلاثة نطاقات وهي:

(١) - نطاق التاندورا Tandora الشمالية وفيها منطقة الجليد الدائم طوال العام. وتصل درجة الحرارة (بالأصح البرودة) إلى خمسين تحت الصفر وأحياناً ما دونها.

(٢) - نطاق الغابات: وهي منطقة واسعة غنية بالغابات والحيوانات وخاصة الدبية.

(٣) - منطقة السهوب والمراعي والتربة السوداء التي توجد فيها زراعة القمح خاصة.

وفي سيبيريا أطول أنهار روسيا وهو نهر لينا ويبلغ طوله ٤٤٠٠ كم. وبها عدد كبير من الأنهار الكبيرة والعظيمة ومجراها الشمالي متجمد تسعة أشهر في العام. وكلما اتجهنا جنوباً أمكن استخدام الأنهار في الزراعة والملاحة (نقل البشر والبضائع). وفي جنوب سيبيريا بحيرة بايكال أعظم بحيرة ماء عذب في العالم.

#### ثروات سيبيريا

تعتبر سيبيريا من أغنى المناطق في العالم، ففيها أكبر كمية من النيكل والزنك والذهب والرصاص والفحم والألماس والفضة والموليبدنيم (Molybdenum) في العالم، كما أن بها ثاني أكبر مخزون من النفط في العالم، وأكبر مخزون من الغاز الطبيعي. وتعتبر روسيا ثاني أكبر مصدر للبتترول في العالم (معظمه اليوم من سيبيريا مع كميات كبيرة من بشكيريا وتتاريا، وكمية لا بأس بها من الشاشان). وهي أكبر منتج للنفط، إلا أن السعودية تعتبر أول مصدر للنفط (عشرة ملايين برميل يومياً). وروسيا هي أكبر منتج ومصدر للغاز في العالم، وتأتي قطر بعدها، ولكن الفرق شاسع بين إنتاج روسيا وإنتاج قطر.

وهناك إنتاج زراعي ضخم من جنوب سيبيريا مع مراعي واسعة وأراضي

للغابات (أوسع أراضي الغابات في العالم وتفوق حتى غابات الأمازون المشهورة). ويعتبر بحر أوكتسك (Okhtosk) ثاني أو ثالث منطقة لصيد السمك في العالم. وهناك عدد كبير من المصانع في غرب سيبيريا وبالقرب من بحيرة بايكال.

### السكان



خريطة سيبيريا

٤٢ مليون من كل العناصر بما فيهم الصينيون والمغول والأتراك والروس والألمان. ويدينون بالمسيحية والإسلام والبوذية والعقائد الشامانية القديمة، كما أن هناك سبعين ألف يهودي.

مقاطعة سيبيريا الفدرالية (باللون الداكن) تتوسط  
سيبيريا الكبرى (باللون الرمادي)

### الشيخ عبد الرشيد إبراهيم السيبيري<sup>(١)</sup>:

ظهر من سيبيريا شخصية دعوية بارزة في العصر الحديث. وُلد عبد الرشيد في سيبيريا سنة ١٨٥١ (أي أواخر أيام ثورة الشيخ شامل الجهادية في القوقاس). وانتقل إلى المدينة المنورة وهو صغير. وبها تعلّم اللغة العربية والعلوم الشرعية وأتقنها. وزار القاهرة سنة ١٩٢٨ وألقى خطبة (محاضرة) في دار الشبان المسلمين، ونشرتها مجلة الشبان المسلمين آنذاك؛ وتمّ نشر ملخص هذه المحاضرة ضمن مجموعة «المتقى من محاضرات جمعية الشبان المسلمين» ج ٢/٢٠. وقد التحق عبد الرشيد بعد دراسته في المدينة، بالسياسي التركي مدحت باشا. وفي سن

(١) د. محمد رجب بيومي: من تاريخ الدعوة الإسلامية: بين جمال الدين الأفغاني وعبد الرشيد إبراهيم، مجلة الحج، السنة ٦٣، والعدد ٧ شهر رجب ١٤٢٩هـ/ يولييه ٢٠٠٨، ص ٣٦-٣٨.

الأربعين اتصل بجمال الدين الأفغاني. والتحق بجيش الدولة العثمانية، وحارب في اليونان وغيرها. كما حارب في صفوفها أثناء الحرب العالمية الأولى.

وقد قابل جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٩٣ عندما كان واقفاً أمام مسجد السلطان عبد الحميد فرأى شيخاً مهيباً يسلم عليه، ويسأله أن ينتظره بعد الصلاة. ويبدو أن جمال الدين الأفغاني قد سمع عن الشيخ عبد الرشيد وعن جهوده. فلما قُضيت الصلاة انطلقا إلى منزل جمال الدين الأفغاني، الذي سأله بدقّة عن الأحوال في روسيا، والتي كان يتابع أخبارها وأخبار المسلمين فيها.

وقد أرسل أمبراطور اليابان إلى السلطان عبد الحميد يرجوه فيها إرسال بعثة دينية لتشرح أصول الإسلام لليابانيين. ولكن جمال الدين الأفغاني رأى أن العلماء الذين سيرسلهم السلطان عبد الحميد لا يعرفون سوى الفقه وأحكام الوضوء والصلاة والحج والصوم، وأنهم لا يعرفون مغزى رسالة الإسلام، ودعاه أن يترتّب في إرسالهم (وفي ظني أن ذلك خطأ). ولما عرف عبد الرشيد بهذه القصة عرف أن أهل اليابان يبحثون عن دين جديد. وقرّر في نفسه أن يذهب إليهم وكاشف بذلك الأفغاني الذي أمده ببعض المال. فذهب إلى اليابان واستقبل هناك استقبالاً حافلاً ظانين أنه مرسل من السلطان عبد الحميد. وأسلم على يديه الآلاف من أهل اليابان. ثم عاد إلى تركيا ليعمل مع جمال الدين الأفغاني. واشترك في صفوف الجيش التركي في الحرب العالمية الأولى. وبعد انتهاء الحرب عاد مرة أخرى إلى اليابان. وفي عام ١٩٢٩ اعترف البرلمان الياباني بالإسلام ديناً من الأديان المعترف بها فصارت ثلاثة: البوذية والمسيحية والإسلام. وهدى الله على يديه الآلاف المؤلفة.

#### جمهورية ياقوتيا (ساخا) (Yakutia = Sakha)

تعتبر ياقوتيا (ساخا) جزءاً من سيبيريا، وهي تمتد عبر مساحة واسعة تبلغ ٣,١٠٣,٢٠٠ كم مربع، وعدد سكانها مليون نسمة فقط لأن ٤٠ بالمئة من ياقوتيا في المنطقة القطبية الشمالية، وهي مغطاة بالثلوج طوال العام، وقليلة السكّان جداً.

أما جنوبها فهي منطقة الغابات التي تغطي ٤٧ بالمئة من مساحة ياقوتيا. ويوجد بها أطول أنهار روسيا نهر لينا الذي يبلغ طوله ٤٣١٠ كيلومترات، ويتجمد النهر ما بين ٨ و ٩ أشهر في السنة، أما الأشهر الباقية فيُستخدم فيها للملاحة والزراعة. وهناك أنهار عديدة تلتقي بنهر لينا وتعتبر من فروعه مثل نهر فيليوي (Vilyoy) الذي يبلغ طوله ٢٦٥٠ كيلومتراً، ونهر أولينيوك (Olenyok) الذي يبلغ طوله ٢٢٩٢ كيلومتراً، ونهر ألدان (Aldan) الذي يبلغ طوله ٢٢٧٣ كيلومتراً.

وبهذه المنطقة ٧٠٠ بحيرة ماء عذب إلا أنها مثل الأنهار تكون متجمدة ثلاثة أرباع العام. ويعود السكّان الأصليون إلى أصول تركية هاجرت من آسيا الوسطى يُعرفون بالساخا.

#### الثروات الطبيعية

لقد حبا الله هذه الأرض بثروات كبيرة من النفط والغاز والفحم والألماس والذهب والفضة وغيرها من المعادن. ويستخرج ٩٩ بالمئة من الألماس الروسي من ياقوتيا. ويبدو أن المسلمين قد وصلوا لهذه المنطقة وعرفوا ثرواتها من الياقوت والألماس فأطلقوا عليهم اسم ياقوتيا. وأطلق على عاصمتها ياقوتسك (Yakutsk).

#### الطقس

تكوّنت هذه الجمهورية في أبريل عام ١٩٢٢ وكانت ضمن جمهورية روسيا الاتحادية، ولا تزال كذلك. وتبلغ درجة البرودة في يناير ٤٧ تحت الصفر في المناطق القطبية، و ٢٨ تحت الصفر في المناطق الساحلية والجنوبية. وقد سجّلت درجة ٦٧,٨ مئوية تحت الصفر في بعض الأعوام. أما في الصيف في يوليه فتتراوح ما بين درجتين فوق الصفر على السواحل و ١٩ فوق الصفر في المناطق الوسطى.

#### السكان

أغلبهم شامانيون يؤمنون بقوى الطبيعة. وفيهم بعض النصارى والمسلمين، وهم من التتار والبشكير والأذريين (من أذربيجان) والجوفاش الذين نفتهم روسيا من بلادهم.



ويقول الشيخ الرحّالة محمد بن ناصر العبودي إنه زار مدينة نوفي أورنجواي وتقع في دائرة القطب الشمالي حيث يمتدّ النهار في الصيف إلى أربع وعشرين ساعة، بينما يمتدّ الليل في الشتاء إلى أربع وعشرين ساعة. ووجد بها مسجداً بمنارة يُصلّي فيه المسلمون. وقد كانت هذه المنطقة لا تسكن قبل اكتشاف البترول والغاز بها. وكلّ سكّانها يعملون لدى شركة الغاز والبترول. (أذيع حديث الشيخ من محطّة القرآن الكريم بالرياض يوم ١٢/٥/٢٠٠٩ الموافق ١٨/٥/١٤٣٠هـ).



## الفصل الثاني عشر

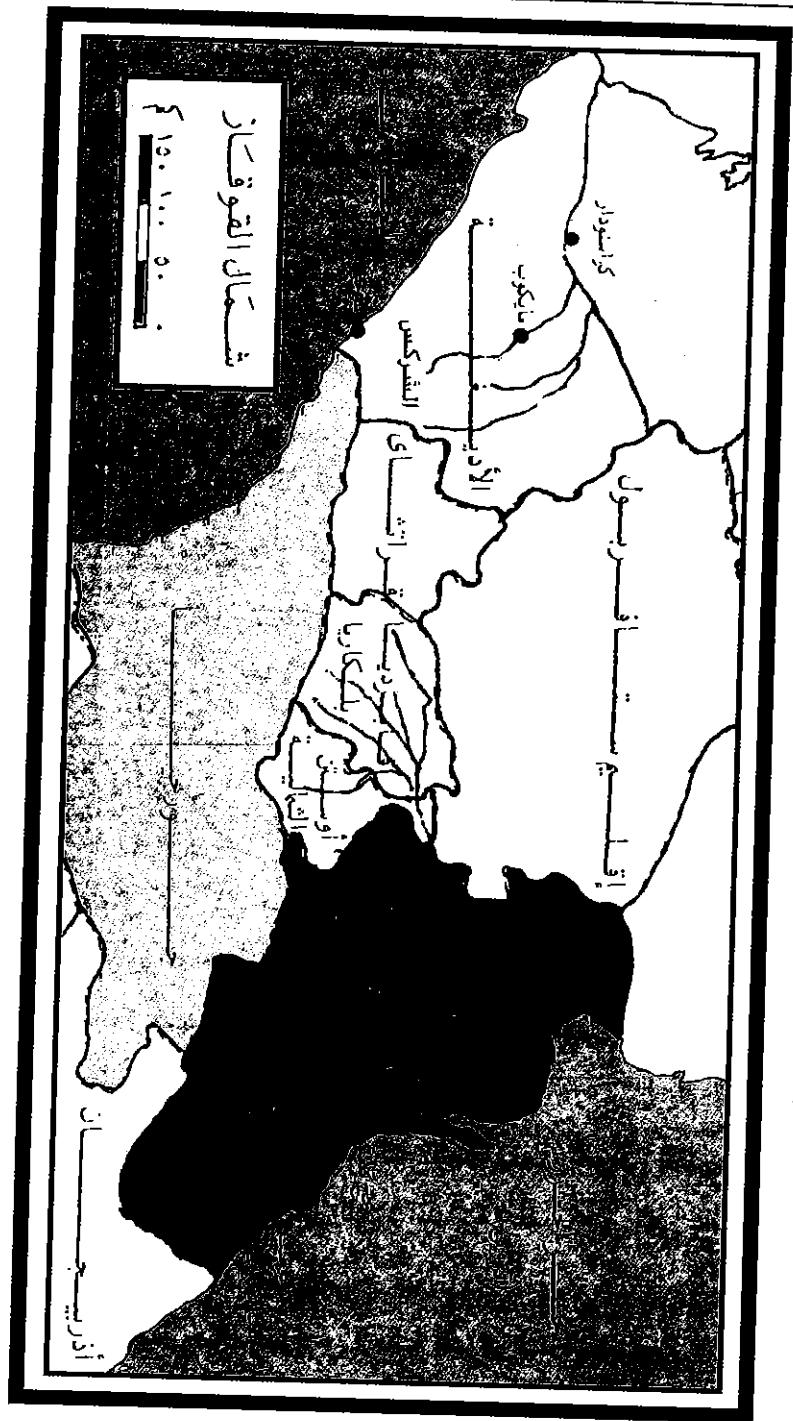
### القوقاس (قفقاسيا) (Caucasus)

#### نظرة عامة

مدخل: عُرفت منطقة القوقاس منذ أقدم العصور، وعرفها المصريون القدماء واعتبروها مقرّ الأرواح بعد الموت، ولذا سموها «أرض الأموات»، والمقصود بذلك الجنة لأنها أرض خصبة، وأهلها مشهورون بجواهرهم وخاصة نساءهم. وقد أطلق عليها المؤرخ اليوناني هيرودوتس اسم القوقاز (Caucasus). كما وصف جبالها الشّم الأديب اليوناني وكاتب المسرحيات أسخيلبوس، وخاصة في مسرحيته «برومثيوس» سارق النار المقدسة، نار المعرفة والتي أعطاها لبني البشر، فغضب عليه زيوس، كبير الآلهة عند اليونان، وقيدّه في جبال القوقاس، وسلّط عليه نسرأ ينهش كبده كل صباح، فإذا جاء المساء عاد الكبد كما كان. وهكذا كل يوم لأجيال وأجيال حتى جاء هرقل (هريكولوس) وهو أيضاً من تزواج الآلهة بالبشر، حسب زعمهم، فصارع النسر وقضى عليه، وخلّص برومثيوس من أسرهِ الأبدي، متحدياً بذلك كبير الآلهة زيوس.

وكلمة القوقاز كلمة أديغية (لغة الشراكسة) بمعنى الوطن القديم... وتأتي أيضاً بمعنى خلف الجبل إشارة إلى البلاد المنتشرة خلف الجبل التي كانت موطن القبائل الشركسية القديمة.

وتعرف سلسلة جبال القوقاس العالية الذرى عند الآشوريين باسم الجبال الكيميرية (أي السومرية)، وهي سلسلة جبال تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي عبر ١٢١٠ كم ما بين بحر قزوين شرقاً والبحر الأسود وأزوف غرباً.





خريطة عامة للقوقاس التي تقع ما بين بحر قزوين والبحر الأسود غرباً، وتوسطها جبال القوقاس العالية الذرى الممتدة عبر ١٢١٠ كيلومتراً. وما كان شمال الجبال فهو من أوروبا، وما كان جنوبها فهو من آسيا. ويشمل جنوب القوقاس ثلاث جمهوريات مستقلة حالياً وكانت ضمن الاتحاد السوفياتي وهي:

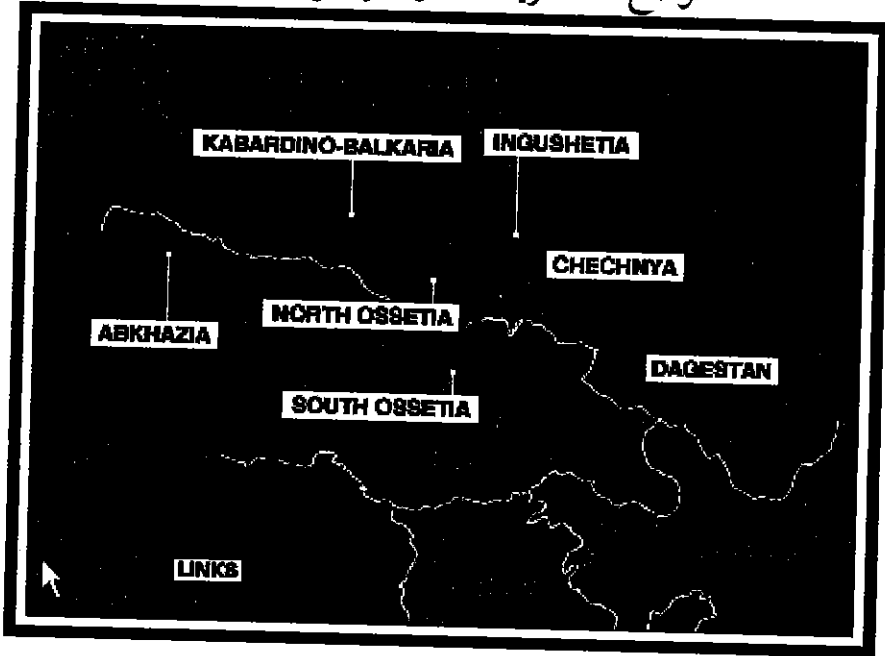
١. أذربيجان في الجنوب الشرقي: ويقصلها نهر الرس عن أذربيجان الإيرانية، وعاصمتها باكو، وسكانها مسلمون في غالبيتهم الساحقة وتتبعها ناخيتشيفان وقره باخ، وهما محل نزاع شديد بين أذربيجان وأرمينية.

٢. أرمينية: وهي في جنوب القوقاس غرب أذربيجان. ويفصلها عن إيران أيضاً المجرى الأوسط لنهر الرس كما يفصلها أيضاً عن تركيا (وهي منطقة كانت تُعرف بأرمينية التركية) وعاصمتها أريفان. وأغلب سكانها من الأرمن وهم كاثوليك نصارى.

٣. جورجيا: وتقع غرب أذربيجان وشمال غربي أرمينية. وعاصمتها تبليسي (تفليس) وتتبعها أوستيتيا الجنوبية وأبخازيا وأجاريا. وأغلب سكانها من الكرج وهم نصارى. وأما أبخازيا فأغلب سكانها مسلمون، وهي شبه مستقلة، وتحارب من أجل استقلالها وكذلك أجاريا. وأما أوستيتيا الجنوبية فكثير من سكانها مسلمون، ولكن الأغلبية نصرانية.

٤. ست مقاطعات أو جمهوريات تتبع روسيا الاتحادية: وهي الداغستان، والشاشان-أنجوشيا والأديغة (شركس)، وقارتشاي (شركس)، وقابرديار-بلكاريا، وأوسيتيا الشمالية. وغالبية السكان في هذه المناطق مسلمون... وكلها تقع على جبال القوقاس وشمالها مباشرة (Cis Caucasus).

## توضح هذه الخريطة مناطق القوقاس الهامة



في الوسط: الداغستان على بحر قزوين ثم جورجيا وفيها مقاطعتان حولها خلاف كبير، هما أبخازيا، وسكانها مسلمون ومستقلة من الناحية الواقعية وتقع على البحر الأسود، وأوسيتيا الجنوبية. وأغلب سكانها نصارى ويريدون الوحدة مع أوسيتيا الشمالية. وقد اعترفت بها روسيا في نزاعها مع جورجيا في أكتوبر ٢٠٠٨.

في الشمال من الشرق إلى الغرب: داغستان، الشيشان، أنجوشيا، أوسيتيا الشمالية، كابردينو بلكاريا (وهم القبرطاي).

أقصى الشمال: كراسنو دار كراي، ثم الأدیغة، وهم شركس، أو من فرق الشركس. وفي الغرب إلى البحر الأسود قاراتشاي - شركسيا (أي الشركس).

وهذه التقسيمات أوجدها الاتحاد السوفياتي وعدّها وغيّرها مراراً، وألغى جمهوريات ذات حكم ذاتي مثل الشيشان والانجوش وقابردينا - بلكاريا (القبرطاي). ثم أعاد تكوينها بعد سني النفي إلى سيبيريا وفيافي قازاقستان (١٩٤٤ - ١٩٥٧) ... وأوجد مشاكل عديدة بين الأقاليم والجمهوريات، وخاصة بعد عام ١٩٩١ الذي تفكّك فيه الاتحاد السوفياتي، وتكوّنت فيه جمهوريات مستقلة ذات سيادة كاملة، وبقيت أقاليم أخرى تطالب بالاستقلال.

وتعتبر جبال القوقاس الحد الفاصل بين أوربا التي تقع شمال القوقاس، وآسيا الغربية التي تقع في جنوبه. ويقول الأوربيون إنهم قوقاسيون Caucasians، وإن الجنس الأوربي يعود إلى هؤلاء الأقوام الذين يعتبرونهم قد قدموا من آسيا (هنود أوربيون Indo-Europeans).

وقد كانت هذه المنطقة ضمن دولة ميديا القديمة، ثم احتلها جزئياً اليونان. ثم تنافس عليها الرومان والفرس. وتلى الرومان البيزنطيون (ويذكرهم العرب دائماً باسم الروم). وكان الجزء الشرقي منها تابعاً للدولة الفارسية، والجزء الغربي للدولة البيزنطية. وبدأ الفتح الإسلامي منذ عهد عمر رضي الله عنه واستمر طوال العهد الأموي ثم العباسي في أيام السلاجقة خصوصاً.

#### طوبوغرافية القوقاس

تلي منطقة الجبال منطقة الغابات الكثيفة بدءاً من ارتفاع ١٨٠٠ متر وغالبيتها دائمة الخضرة مثل البلوط والدردار والصفصاف والخور والكستناء والصنوبر وأشجار الزان الضخمة. ويبلغ عرض المنطقة الغابية ٢٥ كم تقريباً. وتلي هذه المنطقة المروج والمراعي ثم بعد ذلك مناطق الزراعة.

وتقسم جبال القوقاس إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

١. القوقاس الغربي: يمتد من شبه جزيرة طامان وحتى أعلى قمة في جبال البروز، وهي قمة «أوشحة مافه» بطول ٥٥٠ كيلومتراً. وتحاذي معظم هذه السلسلة السواحل الشمالية للبحر الأسود، ولا تترك سوى عمق ضيق في الأجزاء الغربية، وتنحدر منها أنهار ساحلية قصيرة سريعة الجريان، بينما يتسع السهل الساحلي في جمهورية أبخازيا (تابعة لجورجيا وأغلب سكانها مسلمون وتحارب من أجل استقلالها) وترويه أنهار عديدة مثل نهر جاجرا وجومتسا. وتزرع الحمضيات

والتبغ والشاي. ويمتاز سهل كوبان بمساحته الواسعة التي يرويها نهر القوبان (الاسم القديم بشيز والاسم الروماني أنتي كيتس). ويبلغ طول هذا النهر ٨١٠ كم ويرفده ١٤ ألف رافد أهمها لوبا، وروب، وشحه كواشه، وأين. وأقيم سد كبير على المجرى السفلي للنهر بالقرب من مدينة كراسفودر يحصر خلفه بحيرة تصل مساحتها إلى ٥٠٠ كم'. وتهطل في هذه المنطقة أمطار غزيرة، ولذا فهي غنية بمزروعاتها.

٢. القوقاس الأوسط: يمتد من قمة جبل البروز «أوشحه مافه» وحتى قمة قازبك بطول ١٥٠ كم وتتميز بارتفاعاتها الشاهقة. وهي أعلى من جبال الألب المشهورة. وقمة «أوشحه مافه» يصل ارتفاعها إلى ٥٦٣٠ متراً وهي أعلى بكثير من قمة إيفرست في الألب. وينبع من هذه الجبال نهر الترك والقوبان (الكوبان) وتضم السهول الداخلية الخصبة جمهورية كبردينو- بلقاريا (قابردياريا بلقاريا) التابعة لروسيا.

٣. القوقاس الشرقي: يمتد من قمة قازبك حتى نهاية السلسلة على شواطئ بحر قزوين بطول ٤٠٠ كم. ويمر هذا القسم في أراضي جمهورية أوسيتيا الشمالية التابعة لروسيا، ثم تمر عبر أنغوشيا والشيشان في الوسط لتصل في الشرق إلى جبال داغستان، إلى عمر دربند ومنه إلى مدينة دربند (دربنت = باب الأبواب). وينبع من هذه السلسلة عدة أنهار أهمها سونجي وغيجي وأمرغون التي تلتقي مع نهر التيرك.

وتعد جبال القوقاس الحد الفاصل بين آسيا وأوروبا ولهذا تقسم بلاد القوقاس إلى جزئين رئيسيين:

١- الجزء الشمالي يقع ضمن قارة أوروبا (Cir-Caucasus).

٢- القسم الجنوبي ويقع في أقصى الغرب من قارة آسيا (Trans-Caucasus).



ويحد القوقاس من الشرق بحر قزوين (بحر الخزر، أو بحر الديلم، أو بحر باكو، أو بحر شروان، وهي أسماء مختلفة لبحر قزوين)... أما من الغرب فيحد القوقاس البحر الأسود... ويحدها شمالاً جبال القوقاس العالية الذرى وسفوحها الشمالية، ويجري في المنطقة الشمالية نهر تيريك (أترك) وكوبان، أما في المنطقة الجنوبية فيجري فيها نهرا كورا وريفون مع روافدهما الكثيرة... ويحدها جنوباً نهر الرس (ARAS) مشكلاً الحدود بين جمهورية أذربيجان (السوفياتية سابقاً) وأذربيجان الإيرانية.

وجبال القوقاس شاهقة الارتفاع، صعبة الاجتياز، قليلة الممرات، تمتد على طول ١٢١٠ كم لتصل ما بين البحرين الأسود في الغرب، والخزر (قزوين) في الشرق...

وأما ممراتها فهي قليلة، وأهمها ممر دريال الذي يجري فيه أحد روافد نهر أترك... وتبلغ مساحة القوقاس ٣١٤,٤٠٠ كم مربع<sup>(١)</sup> أما عدد سكانها فلا يزيدون عن ٢٧ مليون نسمة في التسعينات من القرن العشرين.

وتضم القوقاس شعوباً مختلفة متباينة، وانضمت إليهم على مرّ العصور عناصر عرقية مختلفة مثل التتار والعرب والأترك. وقد خضعت معظم مناطق القوقاس لسيطرة الدولة البيزنطية، ما عدا بعض المناطق الجنوبية الشرقية، فخضعت للدولة الساسانية الفارسية... ومن قبل قامت فيها دولة ميديا في القرن السابع قبل الميلاد، ثم استولى عليها الإسكندر المقدوني، ثم ظهرت الدولة البيزنطية، واستولت على أغلب مناطقها، بينما استولت الدولة الساسانية الفارسية على المناطق الجنوبية الشرقية... وعندما ظهر الإسلام، وانتصر المسلمون في معركة القادسية ونهاوند على الدولة الساسانية، وفي معارك الشام واليرموك على الدولة البيزنطية، وذلك في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب انداحت الجيوش الإسلامية لتغزو القوقاس الشرقي الجنوبي... وكان المسلمون يسمّون جبال

(١) تذكر دائرة المعارف البريطانية الطبعة ١٥ لعام ١٩٨٢ ج٣/ ١٠١٥ أن مساحة القوقاس هي ٤٤٠,٠٠٠ كم<sup>٢</sup> وتحدها جنوباً إيران وتركيا.

القوقاس بلاد الألسن لكثرة الأقوام المختلفي الألسن فيها. وقد ذكر بليني الأكبر مؤرِّخ الرومان أن بها ٨٠ لهجة ولغة.

### فتح القوقاس

أرسل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قائده عياض بن غنم سنة ١٩هـ / ٦٣٩م لفتح مناطق أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا)، وأرسل عياض بن غنم أربع فرق لفتح هذه المناطق... واشتهر حبيب بن مسلمة الفهري بفتوحاته الباهرة وبتنصاراته الرائعة على الروم..

أما إقليم أذربيجان الواقع في شمال إيران حالياً، فقد فتحه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله ﷺ سنة ١٨هـ / ٦٣٨م، ثم ولّى عمر بن الخطاب أمر أذربيجان إلى عتبة بن فرقد السلمي فواصل فتوحاته فيها حتى وصل إلى إقليم أَرَّان المعروف حالياً باسم جمهورية أذربيجان السوفياتية والواقع في جنوب شرق القوقاس.. وسيأتي نص العهد في فصل أذربيجان.

وشارك سليمان بن ربيعة أيضاً في فتح مناطق من أذربيجان السوفياتية..

ولم يأت عام ٢٤هـ / ٦٤٤م إلا وقد خضعت مناطق واسعة من القوقاس للحكم الإسلامي ورضيت بدفع الجزية، وتلك المناطق هي أَرَّان المعروفة اليوم باسم جمهورية أذربيجان السوفياتية، وكرجستان (أي جمهورية جورجيا) وجمهورية أرمينية، أي أن الإسلام قد وصل إلى الحدود الشمالية للقوقاس... ووقف عند جبال القوقاس العالية الذرى في فترة وجيزة من الزمن، حيث أن تلك الفتوح بدأت عام ١٨هـ / ٦٣٨م، ووصل المسلمون إلى شمال القوقاس خلال ست سنوات فقط أي عام ٢٤هـ / ٦٤٤م.

ورغم أن هذه المناطق قد شهدت انتفاضات ضد الحكم الإسلامي في فترات

متقطعة، إلا أنها منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، وبقيادة حبيب بن مسلمة، ثم بعد ذلك بقيادة الأمير الأموي الشجاع محمد بن مروان، ثم ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك بن مروان، كانت مناطق إسلامية... وقد كانت سياسة المسلمين المتساهلة المتساهلة مع السكّان النصارى هي الباعث لوقوف الأسر النصرانية الأرمنية والكرجية مثل الأسرة البكراتية في صف المسلمين ضد الأمباطورية البيزنطية المسيحية الأرثوذكسية..

وذلك لأن نصارى بيزنطية كانوا يسمون أخوانهم في العقيدة من الأرمن الخسف والهوان ويصادرون كنائسهم وأوقافها، لأنها كانت في خلاف شديد معهم حول طبيعة المسيح عليه السلام... فقد كانت بيزنطة تتزعم القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بينما كان الكاثوليك من الأرمن يقولون بالطبعتين للسيد المسيح أي الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية...

وعلى أي حال فقد رضي هؤلاء السكّان بالحكم الإسلامي ووقفوا في كثير من الأحيان في صفه ضد الأمباطورية البيزنطية الظالمة الغاشمة... ولكن الكرج (الجورجيين) وقفوا مع هولاء ضد المسلمين. ووقف الجورجيون مع روسيا القيصرية ضد الدولة العثمانية، بينما كان الأرمن إلى بداية القرن التاسع عشر مع الدولة العثمانية، ثم انقلبوا ضدها وتمت المذابح المتبادلة بين الفريقين.

وكانت هناك عدة دويلات نصرانية تدفع الجزية للخلافة الأموية ثم العباسية... وأشهرها حكومة الأسرة البكراتية الكرجية (من جمهورية جورجيا الحالية)، والتي حكمت معظم مناطق أرمينية وكرجستان (جورجيا)، كما كانت هناك حكومة اللان التي كانت تحكم قبائل القوشحة (القوصحة) في المنطقة المعروفة حالياً باسم أوسيتيا الجنوبية والشالية، وهي منطقة تقع في وسط القوقاس، في حدوده الشالية... وتتبع أوسيتيا الجنوبية حالياً جمهورية جورجيا،

وأغلب سكّانها لا يزالون على نصرانيتهم، أما أوسيتيا الشمالية فتتبع موسكو مباشرة لأن سكّانها كانوا قد تحوّلوا إلى الإسلام، ولكن توطنها الروس القوزاق حتى صاروا هم الأغلبية!!

وكانت معظم المناطق القوقازية مناطق خاضعة للنفوذ الإسلامي منذ القرن الهجري الأول، أي السابع الميلادي، وقد أطلق المسلمون اسم (القفجاق) و(القبق) و(القبحق) على شمال جبال القوقاس...

وقد ألمحنا إلى موقف نصارى أرمينية وكرجستان من الحرب الدائرة بين الخلافة الإسلامية في عهد الأمويين ثم العباسيين وبين الأباطورية البيزنطية وكيف اشتركوا في القتال في عدة مواقع مع المسلمين ضد أخوانهم في العقيدة نصارى بيزنطة.

ولذا أُعفيت هذه المناطق التي اشتركت في قتال بيزنطة من الجزية وأُعطي لهم الحكم الذاتي.

وكانت قبائل القوموق من أوائل القبائل التي دانت بالإسلام وكانت القوقاس بأكملها خاضعة للخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية حتى عام ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م، حيث حكم بنو الساج قسمها الشرقي إلى عام ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م، وتقدم البيزنطيون. واحتل نصارى كرجستان بالتعاون مع البيزنطيين مدينة تفليس عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م<sup>(١)</sup>.

(١) مدينة تفليس هي نفسها مدينة تبليسي (Tbilisi) عاصمة جمهورية جورجيا، وقد وصلها المسلمون لأول مرة في عهد عمر رضي الله عنه، ثم انتفضت وعادت إلى الحكم الإسلامي في العهد الأموي والعباسي. وأسلم كثير من سكّانها طواعية. وظهر من أهلها علماء ومؤلفون باللغة العربية. ولكن الروس بالتعاون مع الكرج طردوا المسلمين، ولم يبقَ فيها من المسلمين إلا النزر اليسير، واختفت الثقافة العربية منذ القرن التاسع عشر الميلادي اختفاء تاماً، عندما انضم أهل جورجيا إلى تحالف مع روسيا، والذي تحوّل فيما بعد إلى خضوع تامّ لروسيا.

ولكن القائد السلجوقي ألب أرسلان استطاع أن يعيد كرجستان إلى السيطرة الإسلامية وذلك سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٤م... ووصل المغول المسلمون إلى قفقاسيا، وقامت لهم خانيات وكانوا يعرفون باسم الإيلخان.

ثم استولى تيمورلنك على تلك المناطق عام ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م وتعاون معه التركمان، ثم قامت الدولة التركمانية بقيادة أوزون حسن، وكانت قفقاسيا والأناضول الشرقي جزءاً من ممتلكاتهم..

وفي سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م استولى عليها الأتراك العثمانيون ولكن لم تطل بها مدتهم...

وقد اشتهر من ملوك القبايق السلطان أحمد خان الذي بنى مدينة «المجالس» التي سُميت بهذا الاسم لكثرة مجالس العلم بها، وقد توفي هذا السلطان سنة ٩٩٦هـ / ١٥٨٧م...

وفي سنة ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م تكوّنت إمارة مستقلة جنوب الداغستان تولى أمرها الأمير حسين خان...

وكانت الدولة العثمانية والدولة الصفوية تتنافسان النفوذ على مناطق القوقاس. وخضعت أذربيجان للدولة الصفوية بينما نرى المناطق الواقعة على البحر الأسود تخضع للدولة العثمانية بحكم قربها منها. أما المناطق الأخرى فكانت تارة تخضع للدولة الصفوية الإيرانية وتارة تخضع للدولة العثمانية.

وخضع أمراء الداغستان (الشامكال وأمير تابازاران) للخلافة العثمانية فترة، ثم انحازوا إلى سلطان الدولة الصفوية في أيام الشاه عباس الذي وسّع رقعة دولته الصفوية بحيث شملت إيران وخراسان وأفغانستان وأذربيجان (الإيرانية والسوفياتية) كما شمل نفوذه كرجستان وداغستان...

وعندما مات الشاه عباس وضمَّف أمر الدولة الصفوية بعث أمراء الداغستان إلى الخليفة العثماني يعلمونه أنهم من رعاياه، وكانت الخلافة العثمانية مشغولة بحروبها الكثيرة في وسط أوربا. عندئذ اهتبل بطرس (الملقب بالعظيم وقيصر روسيا) الفرصة وهجم على الداغستان وسائر سواحل الخزر الغربية، وذلك في عام ١١٣٥هـ/١٧٢٢م واستولى على دريند (دريند التي كانت تسمى الباب أو باب الأبواب).

وفي عام ١١٤٨هـ/١٩٣٥م زحف نادر شاه من فارس، وخلص جميع هذه المناطق من الحكم الروسي..

وضعف أمر الدولة الفارسية بعد وفاة نادر شاه الذي اشتهر بالحكمة والشجاعة، فاهتبل الروس الفرصة مرة أخرى وهجموا بجحافل قوية على الداغستان عام ١١٩١هـ/١٧٧٥م واستمرت الحروب إلى عام ١١٩٩هـ/١٧٨٤م عندما خضع لهم أمير القومق (الشامكال) مرتضى علي... وتوسع الروس في احتلال القوقاس.

ومرة أخرى قامت الدولة القاجارية الإيرانية لمحاربة قوات القياصرة يساندها في ذلك الأمراء المحليون واستمرت الحرب حتى عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦م عندما انهزمت القوات الإيرانية...

وفي عام ١٢٢٨هـ/١٨١٣م تنازلت الدولة القاجارية عن الداغستان للأمبراطورية الروسية...

### روسيا القيصرية

بدأت روسيا القيصرية تتوسع منذ عهد إيفان الرهيب وتقضي على الخانيات التترية الإسلامية الموجودة في قازان واستراخان. وامتد نفوذ الأمبراطورية

الروسية في عهد بطرس الملقب بالعظيم وفي عهد كاترين حتى وصلوا إلى القرم وإلى القوقاس...

وقد أعلنت روسيا نفسها حامية لنصاري كرجستان عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م، ثم ضمتها إليها نهائياً بعد حروب ضارية قادتها ضد العثمانيين، والدولة الصفوية الشيعية، والأمراء المحليين، وسيطرت روسيا على كرجستان والداغستان والشاشان عام ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م...

وقامت ثورة الشيخ شامل المشهورة في الداغستان<sup>(١)</sup> والتي استمرت أكثر من ٣٥ عاماً، وبعد معارك ضارية أسر هذا الشيخ المجاهد الجليل سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م، وقابله القيصر وأسكنه أرضاً بالقرب من موسكو ثم ذهب للحج، ومنها ذهب إلى المدينة المنورة ليدفن في بقيعها.

سكان القوقاس: التقسيم الإثني الذي قدمه حيدر بامات:

وقد قام حيدر بامات (وزير خارجية الداغستان عند إعلان استقلالها عام ١٩١٨) في كتابه «القفقاس والثورة الروسية»<sup>(٢)</sup> بتقسيم سكان القوقاس إلى العناصر التالية حيث قال: «تنتمي شعوب القوقاز إلى عرقين:

١- الهندي الأوربي (Indo - European).

٢- الطوراني (Touran) أي التركي من وسط آسيا.

المجموعة الأولى: العرق الهندي الأوربي: وتنتمي إليه الشعوب التالية:

١- الإيرانيون: ويشمل الأوسيت (Ossites) والتاتس (Tates) والتاليش

(Talyches).

(١) سيأتي الكلام عن الشيخ شامل تفصيلاً.

(٢) عندي صورة من ترجمة الكتاب الذي ترجمه سمير محمد خضر، باريس ١٩٢٩، الاتحاد الوطني لمهاجري جمهورية القفقاس الشمالية ولا يزال مخطوطاً. ونقلت هنا التقسيم عنه بتصريف يسير.

٢- شعوب القوقاز نفسه التي تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

(أ) مجموعة كارتفيل التي تقطن جنوب القوقاز والتي تتألف من الكارتفيل (Kartvel)، والأميرت (Imeretiens)، والمنعزلين (Mingerliens)، والغور (Gouris)، والأدجار (Adjars)، واللازين (Lazes)، والسفانتين (Svanetes)، والتوشين (Tochins)، والبشاق (Pschav)، والخيفشور (Khevsours)، وكلهم يسكنون في جورجيا الحالية (ويعرفون في التاريخ العربي باسم الكرج).

(ب) المجموعة الغربية أو الشركسية: التي تقطن ساحل البحر الأسود، وجزءاً من القوقاس الشمالي والتي تنقسم إلى ثلاثة فروع هي الأبخاز (Abhazes)، والشركس والكبارد (Kabards). وهي لا تختلف عن بعضها البعض إلا بأسمائها واختلاف يسير في اللهجات.

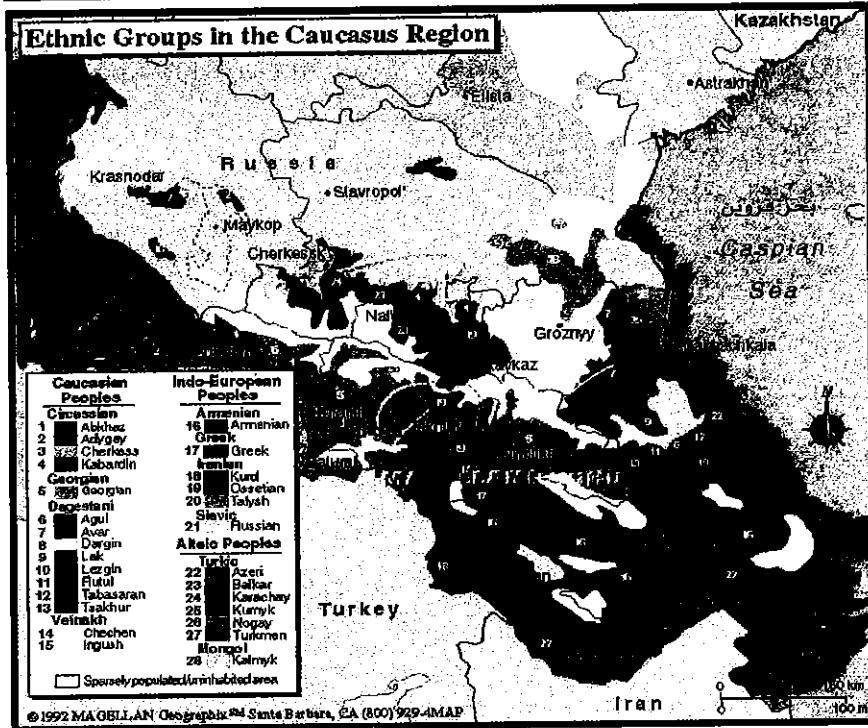
(ج) المجموعة الشرقية: وتنقسم إلى الشيشان (Techtchiens) والداغستان (Daghestan). وينتمي للشيشان الأنجوش (Ingouch). وينتمي إلى المجموعة الثانية: التابازاران (Tabasaran)، والدارغي (Dargui)، والليك (Lakes) وآخرون. وقد انصهرت هذه المجموعات، ويتكلمون لغتين هما الكوميك (Koumyk)، والآفار (Avar).

(د) الأرمن: ويسكنون في القوقاس الشرقي على شكل كتلة متراسة ولهم طوائف عديدة.

المجموعة الثانية: العرق الطورابي التركي وينتمي لها: الأذربيجانيون (الأزريون) والكوميك والآفار والبولكار والناغاي والقاراتشاي.

وفي القوقاس طوائف من الروس والألمان واليونان واليهود ومجموعات أخرى صغيرة متفرقة.





خريطة توضح العناصر الاثنية في القوقاس وقد قسمهم الكاتب إلى مجموعات:

- (١) القوقاسيون (شمال جبال القوقاس (Circassian) وهم الأبخاز والأديغة والشركس والقباردين (وكلهم مسلمون).
- (٢) الداغستانيون: وهم الأفار والدراجينيون واللزكيون والتباساران وتشغرو، وهم مسلمون.
- (٣) فيناخ Veinakh وهم الشاشان والأنجوش، وهم مسلمون.
- (٤) الجورجون: (الكرج عند العرب) وهم أيضاً مجموعات مختلفة إلا أن لغتهم واحدة. وهم نصارى.
- (٥) الأرمن: وهم نصارى ولغتهم واحدة مع اختلاف مجموعاتهم.
- (٦) الأصول الإيرانية: وهم الكرد والأوسيتيون والتاليش، وغالبيتهم مسلمون.
- (٧) الألتاي: وهم الأذريون (الأذربيجانيون = الأزيون) والبلكار - والقاراتشاي والنوغاي والتركيان والكيمون وكلها أصول تركية جاءت من آسيا الوسطى، وكلهم مسلمون.
- (٨) المغول: وهم قبائل الكالمك و جاؤوا من منغوليا مع الغزو المغولي، وهم مسلمون.
- (٩) السلاف: وهم الروس، وهم نصارى.
- (١٠) بعض الألمان، وهم نصارى.
- (١١) يهود، وقد هاجر أكثرهم إلى إسرائيل.



## الفصل الثالث عشر

### الداغستان

#### الداغستان (أرض الجبال)

تعتبر الداغستان دولة إسلامية عريقة. وقد فتحت لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب ؓ، وبدأ أهلها في التحول إلى الإسلام في عهد الإمام علي بن أبي طالب ؓ. تقع الداغستان في الشمال الشرقي للقوقاس وشمال أذربيجان على طول الساحل الغربي لبحر الخزر.

وقد تحوّل الداغستان جميعاً إلى الإسلام واختلطوا بالقبائل العربية اختلاطاً شديداً.. وعاصمتهم (باب الأبواب) أو مدينة (دربند)<sup>(١)</sup> مدفون فيها كثير من الصحابة حيث فتحت في أواخر عهد عمر ؓ<sup>(٢)</sup>، ثم في عهد عثمان ؓ، وعندما

(١) تعتبر مدينة دربند من أقدم المدن، فعمرها خمسة آلاف سنة، وقد مرّت بها حضارات وأمم كثيرة من الميديين والساسانيين والإسكندر المقدوني، ثم الرومان، والدولة البيزنطية. ثم غزاها المسلمون منذ عهد عمر بن الخطاب ؓ، ودخلها الإسلام منذ ذلك الحين. وفي العصور المتأخرة حكمها الشاه عباس والدولة الصفوية، ثم نادر شاه الأفشاري وضعفت بعد ذلك قبضة الدولة الفارسية فدخلها الروس.

(٢) جاء في كتاب الفتوحات الإسلامية لعلامة مكة السيد أحمد زيني دحلان عن فتح مدينة الباب: (وتسمى أيضاً باب الأبواب، كما تدعى دربند)، ففي هذه السنة، أعني سنة ٢٢هـ أمر عمر ؓ سراقه بن عمرو، وكان يدعى ذا النور بالمسير إلى الباب، فجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي، وكان له صحبة وكان أيضاً يدعى ذا النور. وجعل على أحد مجنبيه حذيفة بن سعيد الغفاري، وعلى الأخرى بكير بن عبد الله الليثي. وكان بكير سبقه إلى الباب، وجعل على القاسم سليمان بن ربيعة الباهلي، فسار سراقه فلما خرج من أذربيجان قدم بكير إلى الباب... ثم يعرض المؤلف كيف أن ملك الباب شهريار =

أرسل الإمام عليّ واليه إلى الداغستان بشره أن أهلها قد قرأوا القرآن وأسلموا طواعية. ثم واصل مسلمة بن عبد الملك بن مروان فتوحاته فيها سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م. وفي الداغستان (الطاغستان) كثير من القبائل العربية بل وفيهم مجموعة كبيرة من السادة الذين ينتسبون إلى سبطي رسول الله ﷺ الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة..

وكان أهل الداغستان يتكلمون اللغة العربية بطلاقة.. وخاصة منهم القبائل اللزكية، التي تعتبر اللغة العربية لغتها، وليس لهم كتابة غيرها، إلا بعد أن استولى عليها الروس الشيوعيون، وحولوا كتابتها إلى الحرف اللاتيني أولاً ثم إلى الحرف الروسي الكيريلي.

ولقد واجه المسلمون في القوقاس حروباً شرسة منذ أن دخلتها قوات القياصرة، واستعصت مناطق كثيرة على القياصرة، وخاصة منطقة الداغستان، التي اشتهرت بمقاومتها البطولية الفذة للقوات الروسية.. والتي أخرجت لنا القاضي محمد الكمراوي المشهور باسم الغازي محمد، وتلميذه الأمير حمزة الخنزاجي، ثم الإمام المشهور محمد شامل .. وجميعهم من شيوخ الطريقة النقشبندية ومريديها، والتي كان لها أكبر الأثر في إذكاء روح المقاومة لدى أهل القوقاس...

= صالح المسلمين وقال لهم: أنا منكم، ويدي مع أيديكم والنصر لكم، فلا تسومونا الجزية. فقبل منه سراقة ومنع الجزية عمّن يجارب العدو، وأخذ الجزية ممن لا يجارب، وكتب سراقة بذلك إلى عمر ﷺ فوافق على ذلك.

ولما فرغ سراقة من الباب (دريند) أرسل بكير بن عبد الله وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية فوجه بكيراً إلى موقان، وحبيباً إلى تفليس (وهي عاصمة كرجستان أو ما يسمى اليوم بجمهورية جورجيا)، وحذيفة إلى جبال اللان (في أوسيتيا الجنوبية) وسلمان إلى الوجه الآخر. وفتح بكير موقان وصالحه أهلها على الجزية، ومات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فلما بلغ عمر ﷺ ذلك أقرّ عبد الرحمن على الباب وأمره بغزو الترك في بلنجر في أقصى ولاية الباب، فغزاهم في زمن عمر، وهربوا منه وتحصنوا. ورجع عبد الرحمن بالغنيمة ثم غزاهم بعد ذلك في أيام عمر ﷺ.

تعني كلمة الداغستان باللغة التركية بلاد الجبال، وحقاً هي كذلك.. وتقع شمال جمهورية أذربيجان على الشواطئ الغربية الشمالية من بحر قزوين.. وتفصل بين بحر قزوين وجبال القوقاس، وتشكّل الجبال ثلاثة أرباع أراضيها، وتنحدر الأنهار من الجبال نحو البحر، والمسافة بين الجبال الشاهقة والبحر قريبة، ولذا فإن جبالها ووديانها شديدة الانحدار. وأطول الأنهار فيها هو نهر ترك الذي ترفده أنهار كثيرة، ويمر في (غروزني) مركز بلاد الشاشان، ثم نهر صولاق الذي يصب شمال مدينة (محج قلعة) العاصمة الحديثة.. وتبلغ مساحتها ٥٠.٣٠٠ كم مربعاً، وهي ضعفا مساحة الكويت، وعدد سكانها ٢.٦٠٠.٠٠٠ نسمة (إذاعة موسكو العربية من الأترنت)، وسهلها ضيق في الجنوب، ويتسع شمالاً بالقرب من مصب نهر ترك...

وتزرع الداغستان القمح والذرة والخضروات، وبها ثروة حيوانية من الأغنام.. ويشكّل النفط والغاز الطبيعي أهم ثرواتها ويستخرج النفط من شواطئها على بحر الخزر (قزوين) على بعد ١٠ كم من الشاطئ.

وتصنع الداغستان الزجاج والسجاد وخاصة في مدينة دربند (دربنت) المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم باب الأبواب، كما توجد بها أحواض لإصلاح السفن ومعامل لتعبئة السمك..

وتعتبر مدينة دربند أو باب الأبواب الممر الرئيسي الشرقي إلى قفقاسيا (القوقاس).. وقبائل الداغستان كثيرة وهم:

١- سكان الجبال أو الداغستان.

٢- القوموق: وهم أول من اعتنق الإسلام في هذه المناطق، ويعيشون شمال الداغستان، وتأسست في بلادهم إمارة طارقي، وعاصمتها مدينة طارقي، وقد غير الروس اسمها إلى بتروفسك.. ويلقب ملك القوموق بالشامكال (الشامخال).

٣- الأندي: وهم مجموعة من القبائل يعرفون باللزكي.. ولغة هذه المجموعة هي اللغة العربية خطابةً وكتابةً.. ويزعمون أن أصولهم عربية.. ولا شك أنهم

اختلطوا بالقبائل العربية منذ أن دخلها هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م. ووطد أحد كبار قواده، أخوه مسلمة بن عبد الملك أركان الحكم الإسلامي فيها، وأسكن كثيراً من القبائل العربية في الداغستان، وجعل دربند (باب الأبواب) أحد ثغور الإسلام الهامة التي انتشر منها إلى كافة المناطق في القوقاس الشمالي...

٤- الآثار.

٥- التباساران (التبارزان).

٦- الدارغي.

٧- الليك.

وكان أهالي الداغستان عند دخول الإسلام إليها وثنيين ويهوداً ونصارى.. أما اليهود فقد كانوا هم حكام بحر الخزر، وإيهم يعود سكان أوربا الشرقية وروسيا من اليهود، وبالتالي معظم يهود إسرائيل وزعمائهم من أمثال بن جوريون وجولدا مائير ومناحم بيجن، وهؤلاء جميعاً من سكان الخزر الذين اعتنقوا الديانة اليهودية في عهد مبكر... ولم يكونوا أبداً من نسل داوود وإسرائيل عليهما السلام... وكانت دولة الخزر القوية وثنية أول الأمر، ثم تهوّد ملكهم وأبقى على كثير من العادات الوثنية. وحكمت المنطقة بأكملها إلى الفولجا في القرن الثامن الميلادي.

وانتشر الإسلام على أيدي قبائل الداغستان نفسها، وأشهرها القبايق والقومق، الذين كانوا أسرع الناس استجابةً لدعوة الإسلام في تلك المناطق..

ولقد ذكر الأمير شكيب أرسلان أن عدد سكان الداغستان يتراوح ما بين سبعة ملايين إلى ثمانية ملايين، وذلك عند بداية الثورة البلشفية، حسب ما ذكر في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»..

أما الآن، وبعد مرور أكثر من ثمانين عاماً على احتلال الشيوعيين للداغستان، فإن سكانها قد تناقصوا إلى مليونين ونصف المليون فقط، بدلاً من أن يزيدوا؛

وذلك نتيجة حرب الإبادة التي شنتها الشيوعيون على الداغستان، مما اضطر الملايين منهم إلى الهجرة إلى تركيا، ومنها إلى مختلف الأراضي الإسلامية.

لقد قام الشيوعيون الروس بقتل جماعات كاملة من المسلمين، كما شردوا أمماً أخرى. ولا يزال مسلمو القوقاس وبالذات الشيشانيون يعانون من الاضطهاد.

المعطيات الدينية: باستثناء عدد قليل من اليهود الذين يطلق عليهم (داغ تشوفوت) أي يهود الجبل، فإن أهالي الداغستان جميعاً هم من المسلمين السنة الأحناف والشافعية، (والشافعية أظهر).

وللطرق الصوفية، وخاصة الطريقة النقشبندية، ثم القادرية، نشاط قوي وبارز. ولهم تاريخ مجيد في نشر الإسلام، ثم في الذب عنه، وفي محاربة الغزو الروسي القيصري، ثم البلشفي الشيوعي، ولا يزال تأثير الطرق الصوفية يعمل بعمق في الجماهير.

وفي استفتاء أُجري في عام ١٩٧٤ (ذكره كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» أجاب ٦٨ بالمائة بأنهم مؤمنون بالله ورسوله، وتمسكون بالإسلام، وأجاب ٦ بالمائة بأنهم مترددون حائرون.. وقال ٢٦ بالمائة إنهم غير مؤمنين. وذلك بعد أكثر من خمسين عاماً من التربية الشيوعية القسرية التي فرضها الروس فرضاً على سكان الداغستان. والعودة إلى الإسلام الآن (في بداية القرن الواحد والعشرين) هي أقوى مما كانت عليه في السابق.

#### المعطيات اللغوية في الداغستان

لقد كانت اللغة العربية هي اللغة الأولى في الداغستان إلى ما قبل الغزو البلشفي الروسي لها. وتعتبر قبائل اللزكي أن لغتهم الأساسية هي اللغة العربية كتابةً وخطابةً، ويزعمون أن أصولهم عربية..

وبما أن اللغة العربية هي لغة الإسلام، فقد كان أكثر أهل الداغستان يعرفونها حتى تلك القبائل التي كانت تتحدث باللغات التركية أو اللغات المحلية، فإنها كانت

تحرص على تعليم أطفالها القرآن الكريم واللغة العربية منذ الطفولة البكرة..

ولكن ما أن دخل البلاشفة داغستان حتى قاموا سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م، (أي بعد عام واحد من ضمها إلى روسيا، بحظر استعمال اللغة العربية كتابةً وحديثاً لأنها لغة رجال الدين!!

ويقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» ما يلي:

(أثناء الحكم السوفياتي، حوالي عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م، حظرت اللغة العربية كلغة أدبية لكونها لغة (رجال الدين)، وطبقت سياسة تترك لغوية حتى عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م. فاستخدمت التركية الأزرية في البداية وحتى عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ثم استخدمت لغة الكوميك... ولم يكن بين الجرائد اليومية الاثني عشر التي كانت تصدر في الداغستان، أي جريدة عربية، وكلها كانت بلغات تركية مثل الكوميك والأزرية والنوغاي..

«وعندما أتمت روسيا عملية إقصاء اللغة العربية قامت أيضاً بمحاربة اللغة التركية، وقامت موسكو بحملة تصفية للمنادين بالوحدة التركية، وكتبت اللهجات الداغستانية بالحروف اللاتينية أولاً ثم بالحروف الروسية الكيريلية وذلك منذ عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٧م، وقد قامت الحكومة الروسية بتحويل اللهجات الداغستانية العديدة إلى لغات كتابة بالحرف اللاتيني، ثم بالحرف الروسي. وفي عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، كان للداغستان اثني عشر لغة رسمية كلها تكتب بالحرف اللاتيني أو الروسي»... وذلك من أجل تمزيق الداغستان التي واجهتهم بحرب شرسة لا تزال ذكراها عالقة بالأذهان.

وقد اشتهر من أدباء الداغستان في الحقبة الشيوعية رسول حمزاتوف، وأبدع شعره باللغة الداغستانية الأفارية، وترجمت أشعاره إلى الروسية وغيرها من اللغات حتى اعتبره بعضهم أفضل شعراء القرن العشرين. وذكرت إذاعة موسكو العربية في لقاءٍ معه بدأه بـ«السلام عليكم»: «إن العالم العربي يستهويني دائماً، وقد تخصصت في الدراسات العربية. وكان ينظم الشعر بالعربية. ويعرف أهل بلدي داغستان



الثقافة العربية جيداً.. وأنا أحبُّ امرأ القيس، وحكايات ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة». ويحدد الدين الإسلامي نمط حياة شعوب داغستان (بشكل كبير جداً).

الداغستان في أواخر القرن العشرين وبداية الواحد والعشرين

- جمهورية ذات حكم ذاتي
- عدد السكان ٢.٥٨٤.٢٠٠
- العاصمة: محج قلعة (مخشكالا Makhachkala).
- اللغات: متعدّدة، ولكنها ترجع إلى أصل واحد تقريباً (داغستاني)، الروسية.
- الديانة: الإسلام، وهناك قليل من الروس (أرثوذكس نصارى) وأرمن (كاثوليك)، وبقايا يهود.
- المدن الهامة: محج قلعة العاصمة، دربند.

في عام ١٩٩٩ امتدت الثورة من الشيشان لتدعم الحركة الإسلامية الاستقلالية في الداغستان. ولكن القوّات الروسية سارعت بالقضاء عليها. كما كانت هذه الثورة السبب في الحرب الشيشانية الثانية (تمت الأولى عام ١٩٩٤ وانتهت بهزيمة الروس ١٩٩٦ وتدمير جروزني العاصمة والعديد من المدن والقرى الشيشانية).

ومنذ عام ١٩٩٩ شهدت الداغستان العديد من الانتفاضات والثورات ضدّ الحكم الروسي.

وطبيعة الداغستان خلّابة، ومتنوعة من الجبال والأنهار والأحراش والسواحل الدافئة في بحر قزوين؛ وبها أنواع من الطيور مثل الفلامنجو والبجع. وأرض داغستان غنيّة بالمياه المعدنية، وبالتالي الحمامات التي يستشفى بها.

وتنتج الداغستان الغاز والبتروول من بحر قزوين، وهو أهم ثرواتها، بالإضافة إلى المزروعات مثل القمح والذرة والخضروات والثروة الحيوانية من الأغنام.

ومدينة دربند (دربنت = باب الأبواب) من أقدم المدن في العالم، وعمرها خمسة آلاف سنة، وشهدت حضارات الميديين والفرس واليونان والرومان والبيزنطيين، ولا تزال بها بعض آثارهم؛ وبها قبور بعض الصحابة والآثار

الإسلامية والمساجد الأثرية والقلاع والحمامات الشرقية.

الثورة المريدية والشيخ شامل

الإمام الشيخ محمد شامل الكمراوي<sup>(١)</sup>:

كان أول الثائرين الشيخ المنصور أو شورمة وهو أول الأئمة من المريدين من الطريقة النقشبندية. وقد حارب الروس ستة أعوام حتى استشهد (١٧٨٥ - ١٧٩١ م). ثم هدأت الأمور حتى ظهر الشيخ القاضي الغازي محمد الكمراوي الذي بدأ بالدعوة إلى تطبيق الشريعة عام ١٨٢٦ م، ثم بدأ الجهاد بالسيف ضد الروس حتى استشهد عام ١٨٣٢، ثم ظهر حمزة بيك واغتيل عام ١٨٣٤، ثم تولى الشيخ شامل وطال عهد جهاده حتى عام ١٨٥٩.



يعتبر الشيخ شامل أشهر الثوار في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي وقد دوّخ الأمير اطورية الروسية، وأذاقها سيلاً من الهزائم، رغم قلة عدد أتباعه أول الأمر، وأنه لا يملك من السلاح إلا السيوف والبنادق القديمة، ولكنه كان يغنم من الروس المدافع، واستطاع هو بمساعدة صانع داغستاني أن يصنع مدفعاً وبواسطة ذلك المدفع أخضع معارضيه وفرض أحكام الشريعة... وصار أسطورة.

وقد ولد الشيخ محمد شامل في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (١٧٩٨؟) في مدينة ججري (كمري) وينسب إليها فيقال له الكمراوي. وهو مثل شيخه الإمام الغازي القاضي محمد والأمير حمزة بك، ينتسب إلى قبيلة الأوار الداغستانية.

(١) جمعت هذه المادة من دائرة المعارف البريطانية ودائرة المعارف الإسلامية، وكتابي «المسلمون في الاتحاد السوفياتي»، و«بارقة السيوف الداغستانية في الغزوات الشاملة» جمعها تلميذ الإمام شامل محمد طاهر الكراخي، وهو مطبوع على الآلة الكاتبة، نسخة ابن المصنف بأمر والده. وقد جمعها محمد طاهر بأمر الإمام شامل ومراجعته بنفسه لبعض ما كتب. وكتاب «قتلة الأمم» لروبرت كونكوست، ترجمة صادق إبراهيم عودة.

كان أبوه صاحب ضيعة، فدرس شامل اللغة العربية، والنحو والمنطق، والعلوم الشرعية، وانتسب إلى الحركة المريدية (الطريقة النقشبندية) التي كانت تنادي بتطبيق الشريعة الإسلامية وأحكامها، التي تركها أمراء الداغستان والقوقاز، وأخذوا يستسلمون جميعاً للكافر الروسي الذي غزا أرضهم. وكثير منهم يشرب الخمر علانية ويقتدي بهؤلاء الروس.

وكما أسلفنا فإن الروس قد احتلوا منذ أيام بطرس الأكبر دربند (١٧٧٥م / ١١٩١هـ) ثم استعادها نادر شاه. وفي آخر عهد نادر شاه الأفشاري (حاكم إيران) اعترف بسلطة روسيا على القوقاس عام ١٢٢٨هـ / ١٧٨٤م.

ولم يصمد الأمراء المحليون لروسيا، وسارع كثير منهم في الاستسلام لها. وقد أبقّت روسيا القيصرية على سلطاتهم المحلية تحت نفوذها وأوامرها... وانغمس كثير منهم في شهواتهم وشربوا الخمر علناً، وتركوا حكم الشريعة، فاجتمع العلماء وشيوخ الطريقة النقشبندية بالمريدين، وأعلنوا سخطهم على ذلك. فكان على رأسهم القاضي العالم المجاهد الملا محمد الكمراوي الذي وضع كتابه المشهور «إقامة البرهان على ارتداد عرفاء داغستان» بسبب رفضهم تطبيق الشريعة الإسلامية، واستهزائهم بأحكامها. وتبعه «المريدون» ومنهم الأمير المجاهد حمزة بك الخنزاجي، والشيخ محمد شامل. وبدأ حركته الجهادية سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م، وجاهد الروس وأتباعهم من أمراء الداغستان المحليين حتى استشهد عام ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م.

وقد بدأ جهاده بالدعوة إلى الالتزام بالشريعة عام ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م، ودخل على شمخال (شمكال) وهو أحد أمراء الداغستان المهمين، وقال له بعنف: «أفعل في ولايتك الشريعة» فأوقع الله في قلبه مهابته فقال: أفعل أفعل.

وكما يقول محمد طاهر القراخي صاحب كتاب «بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملة»: إن الإمام ملا محمد الكمراوي كتب إلى جميع النواحي للأمراء والعرفاء يتهدّدهم ويتوعّدهم إن لم ينفذوا أحكام الشريعة، فلم يستجب منهم إلا القليل.

فقام الغازي القاضي الملا محمد الكمراوي بتكوين فرق للدوران على البلدان والقرى لإرشاد المطيعين لأحكام الشريعة، وتقويم المعوجين والمكابرين والمعاندين لله ورسوله.

ووقعت الواقعة الأولى في خنخ ومعه تلميذه ورفيقه الأخص محمد شامل قائداً وسائساً لجيشه<sup>(١)</sup>. واستمرت المعارك حتى استشهد القاضي الغازي محمد بعد أن قاتل الروس وأعوانهم من أهل الداغستان، سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م وجرح في هذه المعركة محمد شامل. وكانت هذه المعركة في قرية (جيمري) (جمر). واجتمع المريدون فاخترأوا بعده الأمير حمزة بك، وكان من رجال الإمام القاضي محمد، ومن أتباع الطريقة، فقاتل بهم الروس والأعداء، واستشهد بعد أن تأمر عليه أهل خنز من المنافقين وأتباع الروس الذين ثقلت عليهم أحكام الشريعة، فقتلوه غيلة وهو ذاهب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة بعد سنة ونصف من ولايته.

ثم اجتمع المريدون واختاروا الشيخ شامل لتولي أمرهم وذلك سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م وفي السنوات الثلاث الأولى واجه صعاباً جمة. وفي عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م هزمه الروس واضطر إلى مهادنتهم، وطلب الروس منه رهناً (وكان نظام الرهن فاشياً في ذلك الزمان) فأعطاهم ابن أخته وابن مرضى الطلقي وابن عبد الرحمن القراخي الهجوي.

وحاول قائد الروس ميخائيل أن يغري الشيخ شامل، ويوليه على جميع أمور الداغستانيين بشرط الخضوع التام لروسيا فرفض ذلك رفضاً باتاً.

وتوالت المعارك بين كز وفر مع الروس وأعوانهم، ثم إن قائد الروس دعا

(١) سباه محمد طاهر القراخي في كتابه «بارقة السيوف الداغستانية» شمویل. وشمویل هو اسم النبي صموئيل الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الْمُرِّي إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ هُمْ أَوْعَدُ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (البقرة: من الآية ٢٤٦)، والنبي هذا هو شمویل (أي سمع الله لي) إذ كانت أمه عاقراً فدعت الله فاستجاب لها، فلما ولدته سمته شمویل. ويقال كذلك إن اسم إسماعيل أيضاً معناه «سمع الله لي».

شمويل إلى المهادنة والصلح، وطلب الرهن ابن شمويل (شامل) وهو ابن ثمان سنين فأبى شامل، ولكن من معه كانوا قد تعبوا من القتال فأصروا عليه بقبول ذلك، فأذعن لهم وسلّم ابنه محمد جمال الدين (الذي تلقّب فيما بعد بالغازي) فلما سلّم ابنه، نكص القائد الروسي على عقبه. وقال: «إنها أمرنا بأسره وسبي الذراري»، وهذا ما حدّتهم منه شامل، فإنهم أهل غدر ولا وفاء لهم.

واستطاع شامل أن ينظم أموره خلال عام، وبدأ منذ عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م نجمه في الصعود، وانضمت إليه القبائل واحدة بعد الأخرى، واستمرت المعارك بينه وبينهم حتى عام ١٢٨٦هـ/١٨٥٩م. وفي تلك المعارك الضارية قتل من الروس عشرات الآلاف (وجندهم فيه روس وجورجيون وبولنديون وغيرهم) وفي معركة واحدة قتل من الروس ثلاثة وثلاثين ألفاً في معركة قلعة فدلار. وقتل منهم في يوم واحد خمسة آلاف. وكانت غنائم الإمام شامل تزداد، وتزيده قوة إلى قوة حيث وجد المدافع والذخائر والمؤن الحربية. وفي حملة دارغو (Dargo) عام ١٨٤٥ قتل منهم أربعة آلاف رجل.

واستطاع شامل أن يحكم الداغستان وشيشن (الشاشان) بحكم الشريعة الإسلامية الغراء، وعرف عهده بعهد الشريعة. وكانت دولته مقسّمة إلى ٣٢ ناحية، على رأس كل ناحية منها نائب. وفيها مفتي، ويعمل تحت إمرة المفتي أربعة قضاة. وبلغت قوات شامل في أقصاها ستين ألف رجل، وكانوا يقلّون ويزيدون، ويعتمدون على نداء الجهاد، وكانت الغنائم تحمّس كما كانت تحمّس أيام النبي محمد ﷺ، وأربعة أخماس الغنائم للمقاتلين (للمشاة سهم وللفراس ثلاثة أسهم كما كان يفعل النبي ﷺ)، وللدولة - ممثلة بالإمام - الخمس مع الاحتفاظ بالمدافع والمؤن للجيش والقتال.

وكان شامل يوصي أهله وعياله بالمقاتلة حسب الطاقة. ومن أنختته الجراح فليشب في النهر الكبير ولا يستسلم للأسر. واستشهد كثير من أهله، وكان يتشوّق إلى الشهادة، وقد جاءه خبر سار وهو أن ابنه غازي محمد وأمه فاطمة قد تخلّصا من

أسر الروس، وكان أهله من النساء، وحتى الأطفال لا يستسلمون للأسر، بل يرمون أنفسهم في النهر بناء على وصية والدهم شامل. ولكن الله كان يلفظ بهم ويفكّهم من الأسر.

وكانت بطولات شامل الخارقة ومجاهدته للروس وأتباعهم بسيفه، وانتصاره عليهم في بعض الوقعات بعدد قليل جداً من رجاله. واشتهرت شهامته، فكان عندما يأسر النساء والولدان من الروس يُحسن معاملتهم، ويبادل بهم الأسرى، ويأخذ الفدية وخاصة إذا كانوا من عليّة القوم. ويتقوى بذلك في مدافعتهم، وتقوية جيشه ودولته. حتى أن الروس كانوا يعجبون به أيما إعجاب. وأما أوربا فقد طار صيته فيها، وكتبت عنه الصحافة هناك ووسائل الإعلام. وسُرَّ الإنجليز بمقاومته لأنه شغل ثلاثمائة ألف من الجيوش الروسية من أن تصل إلى تركستان وأفغانستان، وبالتالي تهدد الهند، درة التاج البريطاني آنذاك. فكانت وسائل الإعلام والحكومة البريطانية وأوربا كلها تكيل المديح لشامل وبطولاته وإنسانيته!!! وتهاجم الروس ووحشيتهم وقتلهم الأبرياء، وحرقتهم للقرى والبلدات!! ولكن بريطانيا وأوربا لم تمدّ شامل بأي مدد سوى هذه الدعاية.

واستمرت المعارك ونجم شامل في صعوده، وهو يحقق الانتصار تلو الانتصار مع هزيمة هنا أو هناك: واستطاع شامل أن يفتح من الروس معظم القلاع في الداغستان والشيشن (الشاشان)، وأن يقتل من جيوشهم الآلاف. حتى أن قادتهم أصبحوا يرهّبونه رهبة شديدة.

وكانت جبال الداغستان وغابات الشيشن معاقل حصينة. وكان مقرّ حكمه في حصن (ودنو) منذ عام ١٢٦١هـ/١٨٤٥م حتى استسلامه عام ١٨٥٩م/١٢٨٦هـ، وقد حاول الروس - كما تقول دائرة المعارف البريطانية - القضاء عليه بفضل تفوّقهم في العدد والعدة والمدافع والجنود إلا أن محاولاتهم باءت بالخيبة والخسران. ومن سنة ١٨٤٥ شرعوا في سياسة جديدة، وهي التغلغل ببطء في الجبال والمواضع المكشوفة من الغابات، وقد أحرقوا العديد من الغابات والقرى،

وبنوا العديد من القلاع. واستمروا في زحفهم وفي استمالة الأهالي الذين ملّ كثير منهم الحرب، وأعطوا رؤساءهم الأموال.

ورويداً استطاع الجنرال ايفدوكيموف (Evdokimov) والجنرال بارياتنسكي (Baryatinski) أن يهاجماه من كل جهة. وأخيراً في أبريل ١٨٥٩ هاجمت قوات ضخمة قلعة شامل في ودنو (Vedno). وانسحب شامل بمن بقي معه من أفراد (بضع مئات) إلى جبل جونيب Gunip. ولكنه في ٦ سبتمبر ١٨٥٩ رأى أن لا فائدة من القتال بعد أن تفرّق عنه جميع أصحابه إلا أفراداً معدودين، فاستسلم.

والغريب حقاً أن الروس أكرموا الإمام شامل إكراماً كبيراً وعاملوه معاملة ممتازة. ويبدو أن معاملته الحسنة للأسرى الروس وبطولاته العديدة جعلته بطلاً أسطورياً. فطلب القيصر أن يبعثوه له مكرماً معززاً إلى عاصمته بطرسبورج، فوصل إلى هناك وقابله القيصر وأهداه سيفاً من ذهب، اعترافاً بطولته الخارقة وحسن معاملته للأسرى الروس. وأعطاه بلدة صغيرة في كالوجا Kaluga بالقرب من موسكو على نهر أوكا Oka.

وفي عام ١٨٦٩ استأذن القيصر للذهاب للحج فأذن له، فذهب أولاً إلى الآستانة فاستقبل هناك استقبال الفاتحين حتى قبّل البادشاه يده، وهو أمر لم يحدث من قبل لأحد. ثم ذهب للحج بعد أن زار مصر أيضاً في طريقه. وفي عام ١٨٧١ أتته المنية وهو في المدينة المنورة - على ساكنها أفضل السلام - ودفن في بقيعها.

وكان ابنه الغازي محمد استأذن القيصر في اللحاق بأبيه عندما مرض في المدينة فسمح له، ودفن والده في البقيع، ولكنه لم يعد إلى روسيا بل عاد إلى تركيا ودخل الجيش التركي، ثم أثار أهل الداغستان مرة أخرى، وفشل في ذلك. وفي عام ١٩٠٣ حجّ وتوفي في الحج في مكة المكرمة.

وهكذا دُفن شامل في المدينة المنورة، ودُفن ابنه الغازي محمد في مكة المكرمة وهما خير بقاع الأرض. فرضي الله عن الشيخ شامل وكل من رفع راية الجهاد وأعلى راية الشريعة الإسلامية.

ويقول روبرت كونكست في كتابه «قتلة الأمم» الذي ترجمه صادق إبراهيم عودة نقلاً عن أحد الكتاب الروس في القرن التاسع عشر: «أثناء إخضاع شيشانيا، تدنّى سكانها بين سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٠ إلى نصف عددهم السابق، وبحلول عام ١٨٦٠ أصبح عددهم ربع ما كانوا عليه»، وهو أمر يوضح حرب الإبادة التي شنتها الجيوش الروسية على أهل الشيشان والداغستان، والأمر ذاته فعلوه في مناطق الشركس والتتار وغيرها من المناطق الإسلامية التي قاومتهم.

ومنذ أن تخلّصوا من شامل واستسلامه لهم عام ١٨٥٩ بدأ تركيز الهجوم على الشركس. وبما أن القوات الروسية كانت مشغولة تماماً بمحاربة شامل فإن الشركس استطاعوا أن يقيموا لهم حكومة محلية في سوتشي (Sochi). وبدأ الهجوم الروسي الماحق على الشركس عام ١٨٦٢، وتم طرد أكثر من ستمائة ألف شركسي من بلادهم الذين هاجروا إلى تركيا، ولكن كثيراً منهم مات في أثناء الهجرة أو غرق في السفن التي كانت تحمّل بأضعاف طاقتها.

وجاء خضوع القوقاس بعد نصف قرن من قبول جورجيا في جنوب القوقاس للحكم الروسي (طلب الجورجيون النصارى المعونة من روسيا ضد تركيا وإيران اللذين كانا يغزونها من حين لآخر). ولكن القوقاس الشمالي لم يخضع للروس، بل ظلّ يقاوم، فما أن تهدأ منطقة حتى تبدأ منطقة أخرى. وفي عام ١٨٧٧ عندما قامت الحرب بين تركيا وروسيا مرة أخرى، قام أهل القوقاس الشمالي بثورة عارمة تطلّبت إرسال ست فرق لإخضاعها.

وهكذا لم تنتهِ الثورة الجهادية في الشيشان، فبعد إخضاع «شامل» واستسلامه عام ١٨٥٩ قام كونتا حجي (Konta Hadgintsi) بثورته في الشيشان عام ١٨٦٧، وبعد أن تم إخضاعها، قامت ثورة أخرى عام ١٨٧٧. واستمرت الثورات في الشيشان إلى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. وستحدث عنها بإيجاز عند الحديث عن الشيشان، وكيف واجهوا حرب إبادة حقيقية ونفي طوال تاريخهم مع روسيا القيصرية، ثم روسيا البلشفية الشيوعية، ثم الآن مع روسيا الاتحادية الديمقراطية!!



## شامل في الأدبيات الروسية

اعتبر شامل حتى في الأمبراطورية الروسية القيصرية بطلاً من الأبطال، وعامله القيصر بعد استسلامه عام ١٨٥٩ معاملة حسنة جداً. وقد مدحه تولستوي في قصته المسماة «الحاج مراد». وجاء ذكره في الفصل التاسع عشر بعد حملة سنة ١٨٥٢ الذي أنهكته الحرب، ولكنه مع ذلك لا يزال يشعر بالكرامة والسيطرة.

## الأدبيات الشيوعية

كانت مقالات ماركس وأنجلز تشيد بثورة شامل التي تعتمد على الفلاحين والبسطاء ضد الإمبريالية الروسية القيصرية. وقال أنجلز: «لقد اشتق هؤلاء الثوار المساواة المدنية، من المساواة بين أبناء الله». ويقول أنجلز: «إن فكرة المساواة موجودة في أساس الديانة الإسلامية كما فسرتها الجماهير الشعبية في حركة الانتفاضة القفقاسية (أي ثورة شامل)». ويروي أنجلز عن المرشد كورالي ماغوما (أي محمد) قوله: «يجب أن توحد المساواة بين كافة المسلمين». أما عن شامل فيقول أنجلز: «أنه أظهر صفات زعيم سياسي بارز وقائد حربي قدير، وأنه كان يتمتع بسلطة بين الجماهير، وأبدى بطولة شخصية، ومهارة فائقة فأصبح أسطورة شعبية. وأن أفكاره العامة، والتنظيم الديني السياسي الذي وضعه لتنفيذها قد خلق وحدة غير عادية حتى في القفقاس المتعدد العناصر واللغات، والذي تمّ توحيد في الكفاح المباشر ضد السياسة الاستعمارية القيصرية. ومن أجل تحرير القفقاس القومي<sup>(١)</sup>». ونقلت الموسوعة السوفياتية الكبرى في طبعتها الأولى ١٩٣٤ بعد ذلك كلام كارل ماركس في الإشادة بثورة شامل وأن شامل نفسه كان ديمقراطياً عظيماً!!

وعند بداية الحرب العالمية الثانية استغلّ ستالين عواطف مسلمي روسيا عن

(١) الموسوعة السوفياتية الكبرى، الطبعة الأولى، مجلد ٦١ لعام ١٩٤٣ كما ينقلها عنها روبرت كونكوست في كتابه قتلة الأمم، ترجمة صادق إبراهيم عودة، نشره الدكتور طه سلطان مراد، الأردن- عمان، ١٩٨٨، ص ١١٨-١٢٩.

شامل وثورته والملا (أي رجال الدين)، وأقحم اسم شامل في موضوع الجهاد ضد الألمان الغزاة!!

وقد جُمع من أهل الداغستان ٢٥ مليون روبل لتجهيز رتل من الدبابات أطلقوا عليه اسم «رتل شامل».

وفي كتاب بانكراتوفا A.M. Pankratova «تاريخ الاتحاد السوفياتي» الذي صدر بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن تمّ نفي الشيشان باعتبارهم خونة قد تعاونوا مع النازي، وكذلك تمّ نفي تثار القرم من وطنهم بنفس التهمة الفظيعة، قالت المؤلفة عن شامل: «كان شامل زعيماً سياسياً، وقائداً عسكرياً بارزاً... وكان منظماً موهوباً لدولة أهل الجبال، وكفاحهم المسلح ضد المستعمرين القيصريين... وتمت تصفية سلطة البكوات والخانات في كل مكان... كما أعتق شامل عدداً كبيراً من الأرقاء... ولم يكن عمل شامل موجّهاً إلى القيصرية وحسب، بل كان أيضاً موجّهاً ضد كبار الإقطاعيين، كما كان ديمقراطياً وتقدّمياً!!!» وقالت المؤلفة ذاتها: «إن معظم القرى في غرب القفقاس قد حُرقت ونهبت سنة ١٨٥٩، وأن ما بين سنة ١٨٥٨ وسنة ١٨٦٤ تمّ نفي أربعمئة ألف جبلي من القفقاس، وحلّ محلّهم الروس في أراضيهم!!».

الحزب الشيوعي يتحوّل إلى ذمّ شامل وثورته ويصفها بالرجعية!!

ومنذ عام ١٩٤٧ بدأت هجمات متقطعة على شامل، ولكن في سنة ١٩٥٠ تبنّى الحزب رسمياً موقفاً معادياً لشامل. وأعلن الحزب أن جائزة ستالين التي أُعطيت عام ١٩٤٩ للمؤرخ الأزري (الأذربيجاني) في باكو جيدار غصينوف (Geidar Guseinov) قد سحبت منه لأنه أشاد في كتابه «من تاريخ الفكر الاجتماعي والفلسفي في أذربيجان في القرن التاسع عشر» بالشيخ شامل وثورته. وأن الكتاب يصوّر المريدن على أنهم تقدميون ديمقراطيون، ووطنيون متحرّرون. ووصف شامل بأنه بطل وصانع أبطال، وعدوّ للإمبريالية الروسية القيصرية.

واعتبر هذا الكتاب مناقضاً للحقائق التاريخية، وأن شامل وثورته كانت في

خدمة الرأسالية البريطانية، والسلطان التركي. وأن كتابه هذا معادٍ للماركسية. ونشر ذلك في البرافدا وإزفستيا، فما كان من جيدار غصينوف إلا أن بادر بالانتحار قبل أن يُلقى القبض عليه ويُعذَّب، ويهان، ويصقَّى جسدياً كما هو معتاد من هذه الأنظمة.

وتلا هذا الإعلان الرسمي المفاجئ، حملة منظمة لتطهير كتب التاريخ السوفياتية من أي مدح وإشادة بشامل وثورته بعد أن مدحها وأشاد بها ماركس وأنجلز، والطبعة الأولى من الموسوعة السوفياتية الكبرى (مجلد ٦١ لسنة ١٩٣٤).

ونشرت النشرة الرسمية للحزب «بولشفيك العدد ١٣ تموز ١٩٥٠» مقالاً لباجيروف (Bagirov) سكرتير الحزب في أذربيجان (الذي قتل فيما بعد) تحت عنوان «مشكلة طابع الحركة المريدية لشامل» جاء فيها: «يعلّمنا لينين وستالين، أن ليس كل حركة قومية، هي حركة تقدّمية تحرّرية، إذ إن ثمة حركات قومية ذات طابع رجعي، وتتصادم مع مصالح تطوير الحركة الثورية، وتضع عائقاً في سبيل تطوير، تحقيق الذات الطبقي للشعب العامل...»

«من الضروري أن ندرس، وننتقد بناء على هذا المفهوم، الرأي الخاطئ الذي شاع كثيراً في مؤلفاتنا السوفياتية التاريخية، والذي يزعم أن حركة المريدية وشامل في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت حركة ذات طابع قومي تحرري»، ويذكر باجيروف (باقر) عدداً من المؤلفين المؤرخين الروس مثل بوشويف (S.K. Bushuev) ومحمدوف (R.M. Magomedov) وكروفياكوف (M. Krovyakov)، ومقالات الموسوعة السوفياتية الكبرى، وكتب التاريخ المقررة في المدارس، والمعاهد التعليمية العليا الذين اعتبروا أن المريدية وشامل ظاهرة تحررية تقدمية.

يقول باجيروف (باقر): «ومن أجل تقييم تصحيح الحركة المريدية وشامل، لا بدّ أن نعرف أن المريدية اتجاه ديني، وأحد مظاهر الإسلام الرجعية، الحربية النزعة. وكما هو معلوم، فإن الإسلام ظهر في القرن السابع الميلادي وسط أرسقراطية إقطاعية تجارية، استخدمت الإسلام لتوحيد القبائل العربية، وإقامة سلطتها!!»

«والمريديّة أشدّ النزعات الحربية في الإسلام تطرفاً، وأوصلت التعصّب إلى أقصى حدوده في فكرة الحرب المقدسة (الجهاد) ضد الكفار».

وتّم اتهام شامل بالعمالة لبريطانيا وتركيا، وبالتالي فإن حركة شامل حسب زعمه لم تكن حركة تحررية، بل حركة رجعية إسلامية كانت تساندها تركيا العثمانية، وبريطانيا العظمى لأهدافها الاستعمارية الكبرى، مع أن البريطانيين لم يكونوا مستعدين لمساعدته مساعدة فعّالة لأن أهدافه تتناقض مع أهدافهم.

وينهي مقاله بالعبارة التالية: «ورغم الإجراءات التعسّفية والقسوة التي مارسها المستعمرون القيصريون، إلا أن روسيا (القيصرية) لعبت دوراً إيجابياً وتقدماً لصالح شعوب القفقاس... فقرب هذه الشعوب من الشعب الروسي، وكفاحها المشترك مع عمال روسيا وفلاحها ضد الاستبداد القيصري... وأسهم ذلك في رفع المستوى الحضاري المادي والروحي لشعوب القفقاس... وقد عكس كفاح الناس المتقدمين في القفقاس من أجل الاتحاد مع روسيا رغبة الجماهير في ذلك».

وهكذا تحوّل شامل وحركة المريدين من حركة ثورية تقدمية ضد الإمبريالية والاستعمار الروسي القيصري إلى حركة رجعية عميلة للإمبريالية البريطانية والعثمانية، وضد تقدم شعوب القوقاس، وهي حركة رجعية ظلامية تنادي بحرب الكافر الروسي مهما كانت طبقتة. وتحول النظام القيصري بكل بشاعته إلى نظام تقدمي!!؟

وواضح جداً أن موقف ستالين من سكان القوقاس وخاصة الشيشان واتهامه لهم بالتواطؤ مع النازي أدى إلى نفيهم وإلى تلوّث سمعة ثورة المريدين وشامل أمام الجماهير والتاريخ.

وهكذا تغلّبت الشوفينية (التعصّب القومي) الروسية ضد كل المبادئ. وتمت الإشادة بالجهود القيصرية في توحيد الشعوب!!

وتمت مهاجمة غصينوف وميرزا إبراهيموف، ومحمد عارف دواش زاده، ومهدي حسين، ممن أيدوا غصينوف في اتجاهاته الرجعية، حسب وصفهم. وبالتالي اعتُبروا جميعاً أعداء الثورة البروليتارية، «وضللوا جماهيرنا» فاستحقوا السحل والإبادة، كما هو معتاد في الأنظمة البروليتارية الشيوعية، وتاريخها الأسود الحافل بالمخازي والمجازر حتى ضد من عملوا معها.

وازدادت الحملة ضد شامل، وصنّف بافلينكو (P. Pavlenko) رواية تهاجم شامل وثورته المريديّة، كما صدر مرسوم من المجلس الأعلى لأكاديمية العلوم السوفياتية يهاجم سلسلة كاملة من المؤلفين «الذين وضعوا كُتباً ضارة، تشيد بشامل وثورته» ويوجب إعدام هذه الكتب والمقالات، وتعرية الجوهر القومي الرجعي للحركة المريديّة ولشامل.

وتحوّل أيضاً الشيخ منصور أوشورما (أوشرمة) أول الثوار من الحركة المريديّة، إلى عميل للأتراك الذي قال عنه تولستوي إن أهل الجبال اعتبروه قديساً أو ولياً لأنه أوقف ممارسة تقاليد الثأر، وعمل على محاربة الروس والكفار. وهكذا تحوّلت ثورة منصور (Ushurma) إلى صاحب ثورة رجعية توجهها أيد أجنبية، وبدأت حملة لتصحیح كتب التاريخ التي كانت تُدرّس في المدارس وتشيد بالمريدين ابتداء من منصور أوشرمة إلى الشيخ شامل، مروراً بالغازي محمد وحمة بك.

واعتبروا أن كتابات الرحالة الإنجليز مثل سبنسر (E.Spencer) وبل (J.S.Bell) ولونجورث (JA.Longworth) وأوركهارت (D.Urquhart) هي السبب في تضليل ماركس وأنجلز، وجعلها لا يُدرّكان الأهداف الرجعية الحقيقية لحركة المريدين وشامل!!

وحتى بعد موت ستالين استمرت الموسوعة السوفياتية (في الطبعة الثانية ١٩٥٣ المجلد ١٩) في الهجوم على الحركة المريديّة وشامل واعتبارها حركة رجعية دينية ظلامية.

وهكذا عومل البطل القديم للقوقاس على أنه شخص ضار منحط ورجعي لمدة ست سنوات ثلاث منها في عهد ستالين، وثلاث بعد انتهاء عهده. ثم بدأت بعد ذلك مرة أخرى إعادة تقييم شامل وثورة الميردين في الأدبيات الروسية، ولقي بعد ذلك شامل وثورته إعادة تقييم ورد اعتبار، وإن كان ذلك بقدر جزئي وحاقد. ولم تتم إعادة صورة شامل والحركة المريدية إلى ما كانت عليه قط، وذلك لعدة أسباب منها أن ثورات الشيشان المتعاقبة كانت تستمد من شامل وثورة الميردين مثلها، وبالتالي كان لا بدّ من تشويه هذا المثل الأعلى لشعب الشيشان والداغستان والقوقاس الشمالي عامة، ولهذا لم تعد في الأدبيات الروسية صورة شامل المشرقة التي كانت له حتى عام ١٩٤٩ عندما بدأت الحملة الستالينية عليه وعلى الميردين.

### الأدباء الروس والقوقاس

بعد الغزو الروسي للقوقاس في أواخر القرن الثامن عشر واستمرار المقاومة حتى عام ١٨٦٠، فإن كثيراً من أدباء روسيا وشعرائها ذهبوا إلى القوقاس، إما اختيارياً أو نفيًا. وقد أعجبوا إعجاباً شديداً بهذه البلاد وأهلها الجبلين الأشداء ذوي الخلق. وكانت مصدر إلهام لهم.

(١) ليرمنتوف<sup>(١)</sup>: لقد تمّ نفي ليرمنتوف، أحد أبرز شعراء روسيا، عام ١٨٣٧

(١) ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤٧) أي أنه عاش ٣٣ عاماً فقط، ومع ذلك فهو يحتلّ المكانة التالية لأكثر شعراء روسيا ألكسندر بوشكين. وقد تأثر ميخائيل ليرمنتوف بسلفه بوشكين. وقد رثى بوشكين لموته المفاجئ في معركة غير متكافئة (مبارزة) مع أحد أمهر الضباط في استخدام السلاح عام ١٨٣٧، واشتهرت قصيدة «موت الشاعر» شهرة كبيرة، واعتبر وريثاً لبوشكين. وارتبط ليرمنتوف بالرومانتيكية الثورية للديسمبريين. ومن أشهر ما كتبه وصفه لحياة وطبيعة أهل القوقاس المسلمين، والتي أعطى خلالها كثيراً من المعلومات عن القوقاس، وأهله، وأساطيره. وقد كتب ثلاث قصص شعرية من القوقاس هي «إسماعيل بيه»، و«الحاج أبريك» و«أسير القوقاز»، وله قصائد تناهض الظلم الاجتماعي مثل «شكوى التركي»، و«السجين»، و«الوطن». وفي قصيدة فاليريك يبدو تأثيره بالإسلام، كما أن له قصيدة في مدح الرسول محمد ﷺ.

إلى القوقاس، وقد أعجب هذا الشاعر بالقوقاس وبنهر تيرك (Terek) وبجبال فتياتها، وقد أعلن أنه زارها في صغره قبل أن يُنفى إليها. يقول ليرمنتوف:

«سلام عليك يا قفقاسيا ذات الجين الأبيض

أنا لست غريباً عن أرضك الجذابة

فقد عوّدتني في صغري منعزلاتك

ومنذ ذلك الحين

كم مرة سرت أحلامي فوق سفوحك الجميلة مندهشاً

لرؤية الشرق الساحر

إيه يا أرض الجبال الحرة

كم أنت متوحشة

ولكن كم أنت جميلة

إيه يا قفقاسيا

كم كنتُ أحبُّ بناتك الجميلات المعصومات، وطبائع أبنائك الحربية».

وقد كتب ليرمنتوف رواية «بطل من هذا الزمان»، ووصف فيها الأراضي القوقاسية كما كان يشاهدها من مدينة بياتيجورسك (Pyatigorsk)، حيث يشمل المنظر الجنوبي امتداداً من جبل البروز (Elbrus) (أعلى جبال القوقاس في بلاد القراشاي- بلكار) إلى جبل كازيك، على حدود أنجوشيا. يقول ليرمنتوف وكأنه يكتب مذكرات: «في ١١ أيار (مايو): وصلت البارحة إلى بياتيجورسك، ووجدت سكناً داخل المدينة، على أرض مرتفعة، على سفح جبل ماشوك (Mashok). وإذا ما ساء الطقس، فإن السحب سوف تغطّي سطح مسكني. وعندما فتحت النافذة في الخامسة صباحاً، كانت الغرفة تعبق برائحة الزهور، التي كانت نابثة في الحديقة الصغيرة أمام البيت، كما أن أغصان الكرز المزهرة، كانت تمعلق في النافذة، وتشر أريجها، والريح تنشر بتلات أزهارها البيضاء على طاولتي التي أكتب عليها.

والمنظر رائع من ثلاث جهات: ففي الغرب توجد القمم الزرقاء الخمس لجبال بشتو (Beshtu). وتبدو، على حدّ قول بوشكين، كأثار لعاصفة رعدية متناثرة. أما في الشمال فالأفق مسدود بجبل ماشوك، الذي يشبه غطاء الرأس الفارسي المصنوع من الفراء. وأما من الشرق فالمنظر لطيف نسبياً، لأن المدينة الحديثة النظيفة تقع إلى أسفل منّي. تلك المدينة التي يصعد إليها خريز الينابيع المعدنية، وأصوات أقوام من شتى الملل والنحل، وإلى الخلف منها تقع التلال الزرقاء الضبابية، مكوّنة أشبه ما يكون بالمدّرج، تطوّقها سلسلة فضية من الثلوج ممتدة من جبل كازبك إلى قمتي البروز التوأمين.

«ومن المبهج أن يعيش المرء في مكان كهذا. ويغمر جسمي شعور بالرضا. الهواء نقي ومنعش كقبلة الطفل. وتسطع الشمس ببريقها حيث لا توجد غيمة واحدة في السماء».

وكتب ليرمنتوف «قصة بيلا» وفيها يظهر شخص من القبرطاي يتحدث اللغة التتارية ولكنه يقول: «واللهجة الشائعة الاستعمال كانت لهجة الكومك (Kumyk)، وهي لغة تركية في داغستان».

وتظهر في آثار الشعراء والأدباء الروس مثل بوشكين وليرمنتوف وتولستوي فكرة قفقاس روسية. ويقول ولتر كولارز Walter Kolarz<sup>(١)</sup>: تظهر عند ليرمنتوف فكرة القفقاس بصورة خاصة «كفترة كاملة من التاريخ الروسي وكبرنامج سياسي ذي نكهة رومانسية». وقد تأسّف ليرمنتوف على زوال حرية أهل تلك الجبال. ولكننا نرى في كتابته النبرة الروسية المتعالية والشوفينية حين يقول: «إن الشراكسة سوف يشعرون بالفخر عندما يقولون: قد نكون عبيداً حقاً، ولكننا على الأقل عبيد لمن يحكم الكون بأسره». وهي نظرة مغرقة في التعصّب

(١) كما ينقله عنه روبرت كونكوست في كتابه «قتلة الأمم» The Nation Killers

١٩٧٠، Robert Conquest, Macmillan، وقد قام بترجمته صادق إبراهيم عودة

يأشرف الدكتور طه سلطان مراد (عمان الأردن، وهو الناشر)، ١٩٨٨، ص ٣٤.



للأمة الروسية، ونستغريها جداً من شاعر وأديب إنساني النزعة، ومتأثر بالأدب العربي والإسلام، أو على الأقل معجب بهما. صحيح أنه عاش في القرن التاسع عشر بعد أيام بطرس الملقب بالعظيم حيث وصلت القومية الروسية (الشوفينية) إلى قمة تعصبها، وبطبيعة الحال كان متأثراً بها. ولم تكن روسيا في أي يوم من تاريخها تحكم الكون بأسره، بل لم تكن تحكم سوى بعض أراضي المسلمين في الفولجا والقوقاس والبشكير وأجزاء من سيبيريا في أيام ليرمنتوف، وبعض أجزاء من أوروبا الشرقية.

ولكننا نجد ليرمنتوف في قصته بطل من هذا الزمان (Hero of our Times) يصوّر محارباً روسياً يقول عن الشيشان: «وإن كانوا من اللصوص والأوغاد إلا أنهم على أية حال سيوف مستميتة»، ويقول على لسان على هذا المحارب الروسي: «حسناً أيها العجوز. لقد كانوا يقطعون الرقاب هناك. والحمد لله، يسود السلام الآن. ولكنني قد شهدت الأيام التي إذا مشيت فيها مائة خطوة خارج الأسوار، ستجد شيطاناً رثّ المظهر يترصدك، وعليك أن تفتح عينك جيداً قبل أن يلتفت حبل حول عنقك، أو تستقر رصاصة في مؤخرة رأسك. لقد كانوا قوماً رائعين!».

ورغم وصفه لهم على لسان الجندي الروسي بأنهم أوغاد وقطاع طرق إلا أنه يعترف بجسارتهم وشجاعتهم، وأنهم كانوا قوماً رائعين.

ويقول محارب روسي آخر في قصة ليرمنتوف عن هؤلاء الشيشان المقاتلين الأشداء: «لقد رأيت بعضهم أثناء القتال ممزقين إرباً، وأجسامهم مخرقة بالمنخل من جراح الحرب، ومع ذلك يستمرون في استعمال سيوفهم كأنهم لا يشكون من شيء». وهي شهادة لهم بالصبر، والشجاعة الفائقة، والقدرة على تحمل الجراح وأعباء الكفاح.

ويصف ليرمنتوف شعوب القوقاس بأنهم أبطال.

ألكسندر بوشكين<sup>(١)</sup>:

يعتبر بوشكين أعظم شعراء روسيا. وقد تأثر القرآن الكريم والآداب العربية التي قرأها مترجمة عن الفرنسية. وقد ذهب بوشكين بأمر القيصر إلى القوقاس وإلى القرم. وفي القرم وضع قصيدته الطويلة «نافورة الدموع». وقد سبق ذكرها عند الحديث عن القرم وعن العاصمة التركية القديمة «بغجة سراي» (باغتشساري)، وقد أقام الخان كريم جيري هذه النافورة في ذكرى الأميرة البولندية التي وقعت أسيرة له أثناء غزوه لبولندا، والتي أحبها حباً شديداً أثار غيرة زوجته الجورجية زارينا لدرجة أنها قامت بقتلها.

وقد زعم بعض الكتاب الروس أن بوشكين أيد الغزو الروسي للقوقاس واعتبر إخضاع الجبلين ضرورة تاريخية، رغم تعاطفه معهم. وفي كتابه الأسير القفقاسي «Caucasian Prisoner» وصف الجنرال الروسي «كوتلياريفسكي» بأنه سوط عذاب للقوقاس، وأنه كالطاعون الأسود يزيل القبائل ويبيدها... وقال لجبال القوقاس العالية الذرى «اهتزي وارتحفي فإن يرمولوف قادم».

(١) ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٩) أعظم شعراء روسيا على الإطلاق. وكان لجده لأمه إبراهيم هانيبال الذي خدم في بلاط بطرس الأكبر أثر في حياته بما سمعه عنه، وقد كان جده مسلماً أهدها الخليفة العثماني إلى بطرس فأدخله في حاشيته، وكان ضابطاً جيداً بسلاح المدفعية حتى بلغ رتبة جنرال وقائداً لسلاح الهندسة وتأثر بوشكين بالإسلام وبالقرآن الكريم ومدح الرسول ﷺ مدائح عديدة، وأشهر قصائده قصيدة النبي أو الرسول، ووصف فيها بداية الوحي:

«وناداني صوت الله

انهض يا رسول وأبصر لبّ إرادتي

وجب البحار والأراضي

والهب بدعوتك قلوب الناس»

كما أخذ مقاطع من معاني القرآن، وتحذث عن زوجات الرسول ودافع عنهن، وذكر طهرهن ومقامهن العالي. وترجم مقاطع كثيرة من معاني القرآن الكريم شعراً جميلاً «أحب اليتامى وقرآني... إلخ». انظر كتاب «بوشكين شاعر روسيا، والقرآن الكريم» لكاتب هذه السطور.

ويرمولوف هو القائد الروسي الشهير (Yermalov) الذي حقق انتصارات دموية في القوقاس، وهو الذي بنى غروزني ومعناها «الرهية»، وبنى تلك القلعة، وسلسلة من القلاع القوية. وأسكن القوزاق والروس في أرض القوقاس وبالذات في أراضي الشيشان والأنجوش والشركس. وكان يرمولوف أحد الطغاة والجبابرة الذين أنجبتهم روسيا في العهد القيصري، وقد أباد مدناً وقرى بكاملها مع النساء والأطفال لأنها قاومته.

وقد كتب بوشكين قصيدته الملحمية «أسير القوقاس» وتتلخص القصة في أن أهل القوقاس الأشداء أسروا فتى روسياً، وقيدوا رجله، ومع ذلك سمحوا له بالحركة المحدودة وعاملوه معاملة حسنة. وكانت فتاة شركسية جميلة تقدم له الغذاء، فأحبته الفتاة وتعلقت به. وقامت ذات ليلة بتحطيم أغلاله وكسر قيده بالمنشار وأطلقت أسره وقادته إلى النهر ليجتاز إلى الضفة الأخرى ومنها إلى القوآت الروسية وإلى روسيا حيث الأهل والوطن. وحاول أن يأخذها معه فرفضت. وعرفت أن أهلها سيعذبونها إذا عرفوا بفعلتها الشنيعة، وهي إطلاق أسر عدو من الروس الذين غزوا بلادهم وقتلوا النساء والأطفال ودمروا الحقول والمزارع، فقررت بعد أن وصل حبيبها إلى الضفة الأخرى من النهر أن تلقي نفسها بين أمواجه المنحدرة من الجبال لتموت في أعماقه.

وقد أحسّ بوشكين وهو في القوقاس بصدق وفطرية القبائل المسلمة وحسها الرائع وشجاعته المثالية. وبدا بوشكين مثل كثير من الرومانسيين الذين يهربون من صحب المدينة وطبقتها المخملية المترفة إلى نقاوة الطبيعة والريف وإنسانيه الصادق البسيط.

لقد استطاع بوشكين بواسطة شعره عن إنسان القوقاس البسيط والشجاع الأبي أن يغيّر الصورة النمطية لدى الروس التي كانت تنشرها الأدبيات الروسية وأجهزة إعلامها آنذاك، والتي تصوّر الرجل القوقاسي بالصورة البشعة لرجل متخلف إرهابي مسلم متعصب. وهي صورة قريية لما تفعله أجهزة الإعلام اليوم عن المسلمين في كل مكان.

لقد كان بوشكين لساناً جديداً صادقاً حازراً يتحدث عن بساطة هذا الإنسان الجبلي الفطري وعن شجاعته وكرمه ونبله والذي لا يعرف مترفات الحضارة وكذبها وزيفها وخداعها... ولم يكن يقبل الضيم ولا أن يتحكم فيه عدوٌ مستبد غاشم كافر يقتل رجاله ونساءه وأطفاله ويستعبدهم ويأخذ أرضه ويستولي عليها ويجعلها أراضي للملاك من الضباط ومن الروس المستوطنين وخاصة من القوزاق. لقد أوضح بوشكين في قصائده عن القوقاس التنافر بين جمال القوقاس وجبالها الشمّ التي تمر من تحتها السحب، وطهارة سكانها الجبليين الأشداء وبين سكان المدن الروسية وخاصة الطبقة الأرستقراطية المترهلة والفاصلة.

وقد كان بوشكين معارضاً للقيصر ومؤيداً إلى حدّ ما للثورة الديسمبرية سنة ١٨٢٥، ولهذا قام القيصر بتشديد الرقابة عليه وإرساله إلى القوقاس سنة ١٨٢٥ بسبب شعره الداعي إلى الثورة، ثم إلى الشمال، إلى ضيعة مخايلوفسكي بعد عودته من القوقاز.

وكان الأدباء الروس: بوشكين وليرمنتوف وتولستوي يخلطون في أسماء الشعوب التي تسكن منطقة القوقاس، تارة يطلقون عليهم اسم الشركس وأحياناً ينسبونهم إلى إحدى القبائل القوقاسية.

### تولستوي

يعتبر ليو تولستوي من القمم الشاخنة في الأدب الروسي. ورغم أنه من طبقة النبلاء، إلا أنه انحاز إلى صف الفقراء والفلاحين ووزّع أرضه عليهم في أخريات أيامه. وكان يشعر بالسعادة وهو يعمل معهم بيده.

وقد انخرط في شبابه في الجيش كملازم، واشترك في الحرب التي كانت دائرة في القوقاس وأمضى هناك خمس سنوات من عام ١٨٥١ إلى عام ١٨٥٥.

وقد كتب تولستوي عدة روايات عن القوقاس التي أحبها رغم الحرب وهي «الحاج مراد» و«القوقاز» و«نهاية حب».

في رواية «نهاية حب» يذكر تولستوي أن الجيش الروسي نزل في قرية «نوفوميلينسكا» من بلاد القوقاس، ويصف نهر تيرك، وجبال القوقاس، وسكانها الذين أطلق عليهم اسم «الأبركة»، وهو الاسم الذي أطلقه الروس على سكان الجبال الذين حملوا السلاح وقاوموا الغزو الروسي.

وقد ذكر تولستوي أن المنطقة غنية بالعسل ونبات دوار الشمس... وهو يتحدث عن منطقة الشيشان. ومسرح الأحداث ليس بعيداً عن غروزني العاصمة والقلعة التي بناها ليرمنتوف. ولا تزال الشيشان مشهورة بعسلها الجلي الصافي الذي يعرض للبيع في الطرقات، كما أن دوار الشمس (عباد الشمس) يملأ الحقول.

وفي رواية «الحاج مراد»<sup>(١)</sup> يصف تولستوي غارة روسية على قرية شيشانية، وكان صادقاً في وصفه للوحشية الروسية رغم أنه روسي، وضابط في الجيش الروسي الإمبراطوري، ووصف بكل دقة كيف تُحرق البيوت والأشجار، وكيف يُقتل الأطفال عمداً، وتُلوث النافورة، ويُدنّس المسجد.

«وعندما يعود الشيشان من الجبال التي اعتصموا بها، لم يتحدث أحد عن كراهية الروس، فالشعور الذي كان يساور جميع الشيشان من أصغرهم إلى أكبرهم كان أقوى من الكراهية، إنه لم يكن شعور كراهية، لأنهم لم يعتبروا هؤلاء الكلاب الروس بشراً، بل كان شعور نفور واشمئزاز، وحيرة من هذه الوحشية غير المعقولة لهذه المخلوقات، بحيث أن الرغبة في إبادتهم، كما تباد الجرذان، أو العناكب السامة، أو الذئب كانت غريزة طبيعية كغريزة حب البقاء.

وكان أهل القرية يُخبرون في الخضوع للروس مع إعادة بناء قريتهم، أو النفي والتشريد فكان الأهالي يرفضون الخضوع، ويبعثون إلى الشيخ شامل يسألونه في المساعدة على المقاومة ويلجأون إلى الجبال... وتستمر المقاومة دون توقف».

(١) نقلاً عن روبرت كونكوست «قتلة الأمم»، مرجع سابق، ص ٣٩.

وقد قال الكاتب الروسي «كورولينكو»<sup>(١)</sup> إنه خلال العام ١٨٢٥ «قامت قواتنا بترك القرى والبلدات في منطقة ما وراء نهر الكوبان (القوبان) مدمرة. وفي هذه القرى الملتهبة قتل الشراكسة بالآلاف، إما بالنيران أو بحراب القوزاق «السلاف» المتوحشين. وكثيراً ما يقع النساء والأطفال الهاربين من الموت بالنار. وفي كثير من الحالات كانت النساء يُفضّلن الموت على الأسر، فكن يلقين بأنفسهن في الوديان السحيقة، أو في تيارات الأنهار الجبلية المتدفقة الهائجة. بالإضافة إلى ذلك كانت قواتنا، خصوصاً في منطقتي الأبراخ والبجدوغ تقوم بنهب الممتلكات الثمينة للسكان، وسوق آلاف رؤوس القطعان والماشية».

وقد قام الروس فيما بين عامي ١٨٠٧ و ١٨١٠ بتدمير مائتي قرية وبلدة شركسية في منطقة نهر الكوبان (القوبان). وفي عام ١٨٢٢ قام الجنرال الروسي فلاتسوف بإحراق وتدمير ١٧ بلدة و ١١٩ قرية في المنطقة ذاتها.

وفي منطقة الشيشان قام الجنرالات الروس، وأشهرهم يرمولوف الذي لُقّب بجزار القوقاس، بعشرات المذابح لكل ما يدبّ على الأرض. وتمّ قتل وتشريد مئات الآلاف من السكان المدنيين والاعتداء على النساء وقتل الأطفال والشيوخ. وقد قامت روسيا القيصرية بإرسال ما يزيد على ثلاثمائة ألف جندي على دفعات لاحتلال القوقاس وتشريد أهلها<sup>(٢)</sup>.

لقد كتب أحد الشعراء المحليين يصف الهول الذي شاهده: «لقد ذبحوا الأطفال كأنهم نعاج، وقتلوا الشيوخ كأنهم شباب، واستباحوا النساء كأنهن بغايا. لم يبق في القرية حجر على حجر، أو جذع على شجر، أو طير على غصن، أو طفل على ذراع... الموت يحصد بمنجمله الرؤوس، والمرض ينتشر في الجو كالضباب، والوباء الفتاك يطلُّ برأسه الأسود على القرى المقوّضة، وينعق على خرائبها كالغراب».

(١) نقلاً عن كتاب «الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر» لإحسان عبد الحميد حُسن، دار

المناهل، دمشق، ١٩٩٨، ص ٢١، ٢٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣.

ويصف أحد الضباط الأدباء الروس الموتى<sup>(١)</sup> (مات بعضهم بحراب القوزاق وبالنار، ومات الآخرون من الجوع والمرض): «رأيت أناساً رجالاً ونساءً مستقلين على الأرض أفراداً وجماعات، وأحياناً بشكل صفّ طويل. بعضهم انكبَّ على وجهه أو على جانبه، والأكثر كان مستلقياً على ظهره... مشيتُ مارّاً فوق الجثث. ورأيت إحدى الجثث قد غطّي وجهها قلبق شركسي ووقف أمامها حصان دون سرج، وقد أخفض رأسه، ولاحظت أن الحصان هزيل جداً وبرزت عظام ظهره، وغار بطنه. وفهمت أنه يقف بصعوبة وقد قرر الموت إلى جانب صاحبه. وعندما أدرت وجهي جانباً رأيت امرأة عجوزاً وجهها مغطى بمنديل صوف، ظهر من تحتها شعر رمادي طويل، وصبيّاً متقوقعاً على نفسه حتى أن ركبتيه قد وصلت إلى ذقنه (وهو ميت)، وامرأة شابة بثوب ذي صدر مفتوح ظهر منه صدرها الناصع المغطى بالندى، وكانت شفتاها المغلقتان بقوة قد ارتختا قليلاً عند الجوانب فبدت وكأنها في شبه ابتسامة، ويدها ملقاة إلى جانبها، وبين أصابعها قميص طفل صغير، فتشّط عنه فلم أجدّه. كم كانت هذه المرأة الشابة جميلة!! رموش طويلة، فم صغير، أنف أقتى كأنه محفور من العاج، شعر كستنائي. كانت رائحة الجبال، وهي جثة هامدة، فكيف لو بقيت مليئة بالحياة. وانتبهت إلى ملابسها، ثوب زهري اللون بأزرار معدنية، وقميص ذو ياقة عالية، وحذاء أحمر لطيف في قدميها الصغيرتين. هل كانت دائماً ترتدي هكذا، أم أنها لبست أجمل ما عندها لتقف أنيقة أمام الله!!».

ويصف شاعر جموع المهجرين<sup>(٢)</sup>:

«ألقوا بهم على شاطئ البحر، وتركوا المصيرهم الفاجع

لقد هلكوا من الجوع والبرد

كانوا على طول الشاطئ أحياء وأمواتاً

ملقى بهم عراة

الغريان الغريان تنعق فوق رؤوسهم.

(١) المصدر السابق ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧.





## الفصل الرابع عشر

### استمرار الثورات في الداغستان وشمال القوقاس

#### بعد ثورة شامل

لم تنتهِ مقاومة الداغستان لروسيا بانتهاء ثورة الشيخ شامل الجهادية.. وإنما قامت الثورات تلو الثورات ضد المستعمر الروسي الغاشم..

وفي عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، نشبت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية فثار أهل الداغستان وافتحوا قلعة القومق. ولكن عندما انهزمت الدولة العثمانية استطاعت قوات القيصرية إخضاع ثورة المردين من الطريقة النقشبندية..

وعندما قامت الثورة البلشفية بقيادة لينين في أكتوبر ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، ساندها المسلمون في جميع بقاع روسيا القيصرية لأنهم صدقوا وعود لينين لهم بالاستقلال وبالحرية الدينية...

وتألفت في القوقاس أربع جمهوريات اتحادية هي الداغستان وأذربيجان وكرجستان (جورجيا) وأريفان (عاصمة أرمينيا) في أواخر أيام الحرب العالمية الثانية.. واعترفت الأستانة بهذه الجمهوريات ولكن حليف تركيا وهم الألمان لم يعترفوا إلا بجمهورية أريفان الأرمنية النصرانية وبلاد جورجيا النصرانية أيضاً<sup>(١)</sup>.

(١) وصف الأمير شكيب أرسلان في (حاضر العالم الإسلامي) هذه الوقائع التي عرفها عن كتب. وقد أوفدت الجمهوريات الأربع وفودها إلى الأستانة (إسطنبول)، وكان الوفد الداغستاني الجركسي مؤلفاً من عبد المجيد بك وعلي بك وحيدر بك بامات الذي كان ناظر الخارجية الداغستانية. وذهب شكيب أرسلان بتوجيه من أنور باشا إلى ألمانيا كي تعترف بالدول الأربع، ولا تقصرها على جورجيا (بلاد الكرج) كما فعلت. وانتهت =

وعندما احتلّ الإنجليز القوقاس في نهاية هذه الحرب وعدوا أهل القوقاس المسلمين بالاستقلال، ولكنهم كعادتهم أخلفوا وعودهم وسلموا القوقاس بأكمله لقوات الأمير كولشاك وقائده دينكين الذين كانوا يقودون حرباً شرسة ضد لينين وضد المسلمين وخاصة في الداغستان.

وفي صيف ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، بايع أهل الداغستان الإمام الرباني الصوفي نجم الدين غوتسو، الذي لقبه الروس غوتسنسكي، وهو من شيوخ الطريقة النقشبندية أيضاً وكوّن حكومة إسلامية (ثيوقراطية كما يسمّيها الكتاب الغربيون).

وكان يجارب الروس الحمر بكل شراسة لأنهم جميعهم كفار محاربون للمسلمين، وانتشرت بطولات نجم الدين غوتسو ورفيقه الشيخ الصوفي أوزون حجي. وحارب أهل القوقاس جميعاً قوات روسيا البيضاء بقيادة دينكين ليحصلوا على استقلال بلادهم وبتحريض من لينين، فلما تم لهم ذلك، غدر بهم لينين واستولى على بلادهم واحدة إثر الأخرى من عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م، إلى عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، حتى وطّد حكمه فيها.. ثم أقام المذابح الجماعية للمسلمين بما لم يشهده تاريخ الإسلام حتى في أشدها ظلمة وقمامة أيام جنكيزخان وهولاكو، ولكنه واجه مقاومة شرسة في الداغستان استمرت سنة ونيف بعد أن احتل الجيش الأحمر الداغستان في ربيع ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م. ولكن الثورة استمرت بقيادة شيوخ الطريقة النقشبندية وعلى رأسهم الإمام نجم الدين غوتسو وأوزون حجي ومحمد البلوكاني وسيد أمين ودرويش محمد الأندي. ولم يقض عليها نهائياً إلا في خريف ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، عندما أسر نجم الدين غوتسو وسيد أمين وأعدما، كما استشهد العديد من مشايخ الطريقة في ميدان القتال.

وقد كان عدد سكان الداغستان عند قيام الثورة الشيوعية يتراوح بين سبعة

---

= الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، ودخلت بريطانيا إلى القوقاس لمناصرة قوات كولشاك ودينكين خوفاً من لينين. ولكن دينكين هاجم الداغستان وبقية القوقاس. وثار أهل القوقاس ضدهم وهزموا قوات روسيا البيضاء مما مهد الأمر لقوات لينين للاستيلاء على القوقاس.

وثمانية ملايين كما يقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»: فأصبحوا بعد مرور أكثر من ستين عاما مليونين ونصف<sup>(١)</sup>، وذلك نتيجة حرب الإبادة التي شنتها روسيا السوفياتية، والتي فاقت في ذلك روسيا القيصرية الصليبية..

وقد استمرت الثورات في الداغستان حتى بعد عام ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، عندما أعلنت روسيا أنها جعلت الداغستان جمهورية تتبع موسكو مباشرة..

واستطاعت موسكو أن تخضع هؤلاء المقاتلين الأشداء بعد أن قتلت مئات الألوف وشرّدت الملايين منهم.. ورغم أن المسلمين وخاصة هؤلاء الجبليين مشهورون بكثرة تناسلهم إلا أننا نجد ظاهرة انخفاض السكان من سبعة ملايين إلى مليونين ونصف خلال ستين عاماً من الحكم الشيوعي البوليسي الإرهابي.. وفي إحصاء عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، انخفض عدد سكان الداغستان إلى ١,٦٢٧,٠٠٠<sup>(٢)</sup> ولكنهم زادوا بعد ذلك إلى مليونين وستمائة ألف في بداية القرن الواحد والعشرين.

والغريب حقاً أن الأمير شكيب أرسلان قد ذكر أن مسلمي روسيا عند قيام الثورة البلشفية قدروا بعدد يتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين مليوناً.. ورغم مضي أكثر من ستين عاماً على هذا التقرير فإن إحصائيات عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، تجعل عدد المسلمين ٤٣ مليوناً في الاتحاد السوفياتي بأكمله.

حيدر بامات<sup>(٣)</sup> يشرح أوضاع القوقاس بعد ثورة ١٩١٧

يعتبر حيدر بامات أحد رجال الداغستان المهمين. وقد تولى وزارة الخارجية لحكومة شمال القوقاس، ثم تولى لفترة قصيرة رئاسة الوزارة. وقد حصلت على

(١) الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي.

(٢) كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» تأليف بنجنسن ولومرسيه.

(٣) حيدر بامات (١٨٩٠-١٩٦٥): ولد حيدر بامات في تيمرخان شورى في شمال القفقاس سنة ١٨٩٠... داغستاني درس الحقوق في جامعة بتروجراد (سانت بيترسبورج) ونال الدكتوراه بتفوق. اشترك سنة ١٩١٧ في إقامة اتحاد شعوب القفقاس الشمالية والداغستان. وقاد حيدر بامات الحركة الاستقلالية. وقاتل الروس البيض (حكومة كيرانسكي) والبيض الحمر =

صورة من مخطوط «تقرير القفقاس والثورة الروسية» (الطابع السياسي) تأليف حيدر بامات، وترجمة سمير محمد خضر، وصدر في باريس ١٩٢٩ من الاتحاد

= (لينين وستالين). وترأس وفد القوقاس الشمالية إلى مؤتمر الصلح في باريس (مؤتمر فرساي ١٩١٩). وبعد أن اجتاحت الجيش الأحمر القفقاس الشمالية لجأ حيدر بامات إلى باريس وقاد نضالاً سياسياً وثقافياً وأنشأ صحيفة شهرية باسم «قفقاسيا» باللغات الروسية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والجورجية والأرمنية، وبالتركية أحياناً. وقد كان يجيد العديد من اللغات بالإضافة إلى لغة أهل الداغستان، منها الروسية والفرنسية والألمانية والتركية وغيرها. وبما أنه كان مقيماً في فرنسا فإن كتاباته كانت في معظمها بالفرنسية التي كان يجيدها إجادة تامة.

وقد عمل ممثلاً لحكومة الأفغان في سويسرا (١٩٣٨-١٩٤٨) ثم عاد إلى باريس لينصرف كلياً لخدمة الإسلام بالكتابة في الصحف والمجلات وكتابة الكتب وإلقاء المحاضرات حتى وفاته سنة ١٩٦٥.

من مؤلفاته: «قضية القفقاس» و«القفقاس والثورة الروسية» وكتاب «مجالي الإسلام» و«فضل المسلمين على الحضارة» الذي نشره المركز الإسلامي في جنيف بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والعربية. أما مقالاته عن الإسلام في المجلات الأوروبية فلا تحصى. وأشهر أبنائه العلامة الدكتور نجم الدين بامات الذي تخصص في القانون الروماني من جامعة السوربون، ثم درس في جامعة كامبردج والأزهر وجامعة باريس الحضارة الإسلامية. واختارته الحكومة الأفغانية ممثلاً لها في الأمم المتحدة. ثم انضم إلى منظمة اليونسكو مديراً للقسم الثقافي. واختارته منظمة المؤتمر الإسلامي ممثلاً لها في باريس. واختير سنة ١٩٧٧ أستاذاً للحضارة الإسلامية في جامعة باريس، ثم جامعة السوربون. وكان يجيد العربية والفارسية والتركية والفرنسية والألمانية والإنجليزية والروسية والأسبانية والإيطالية واليابانية!!

ومن كتبه «وضع العلوم والتكنولوجيا في الحضارة الإسلامية»، و«مظاهر من الإسلام»، و«الشرق في مرآة»، و«مكة المكرمة والمدينة المنورة»، و«مواضيع واتزان في أدب الإسلام»، كما أعد سلسلة برامج ثقافية مهمة حول الحضارة الإسلامية، وقدمها في التلفزيون الفرنسي، ونالت اهتماماً كبيراً في أنحاء أوروبا.

وكانت وفاته في باريس سنة ١٩٨٥ ودفن في مقابر المسلمين إلى جوار قبر أبيه. وحضر الصلاة عليه ودفنه عدد كبير من مسلمي فرنسا وممثلي السفارات، وأكمل الدين إحسان أوغلو (الأمين العام الحالي لمنظمة المؤتمر الإسلامي) أحد أعزّ أصدقائه. وقد أوصى نجم الدين بامات بمكتبته الغنية بالمخطوطات والكتب القيمة بالعديد من اللغات إلى مكتبة الأبحاث والتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي (هذه المعلومات من مقال للأستاذ أكرم زعيتر، نشرته «الشرق الأوسط» بتاريخ ١/٣/١٩٨٧).

الوطني لمهاجري جمهورية القفقاس الشمالية، في ٣٨ صفحة. والترجمة هي المسودة الأصلية للمترجم وفيها شطب. ولكن لأهميتها سألتخصها هاهنا مع إضافات أخرى.

وقد بدأ المصنف تقريره (أو كتابه) بلمحة تاريخية عن القوقاس وأهميتها كمعبر هام بين أوروبا وآسيا. ولهذا اهتمت روسيا القيصرية بالقوقاس اهتماماً كبيراً. وقد بدأ بطرس الأكبر هجومه على القوقاس واحتل دربند (باب الأبواب) كما احتل أزوف على البحر الأسود ومنها إلى القرم. وقد واجه الاحتلال صعوبات شتى واضطرت روسيا مرات للانسحاب من مواقعها، ثم تعود بهجوم أفسى وأشد. فمئذ عام ١٧٦٠ كانت روسيا تتوسّع بشكل كبير على حساب الأراضي التي كان يقطنها الشركاسة في شمال القوقاس. وفي عام ١٧٨٣ اتصلت مقاطعة جورجيا النصرانية بروسيا لتحميها من الأتراك (الدولة العثمانية) والفرس (الدولة الصفوية)، وعقدت مع روسيا معاهدة تحالف واستقرت بذلك روسيا في قلب القفقاس الجنوبي الشرقي. وفي عام ١٨٠١ أصبحت جورجيا تابعة لروسيا.

وفي ذلك الوقت كان نهر كوبان (المجرى الأسفل منه) يفصل بين الأراضي الجديدة التي استولى عليها الروس وبين بلاد الشركس. وفي عام ١٨٢٩ انهزمت الدولة العثمانية أمام روسيا ووقعت معاهدة أندرينوبل (Andrinople) وبموجبها تنازلت عن بلاد الشركس التي لم تكن تسيطر عليها أصلاً. وإنما كانت لها، باعتبارها دار الخلافة، هيمنة اسمية.

وتنبّه الإنجليز إلى مخاطر التوسّع الروسي في القوقاز، وبالتالي سيصل إلى إيران وأفغانستان والهند. والهند في ذلك الوقت هي درّة التاج البريطاني. كما أن بريطانيا تسعى بقوة لمدّ نفوذها في إيران وتحاول الوصول إلى باكو التي عُرفت بنفطها منذ أيام المقتدر العباسي. وزادت أهميته في القرن التاسع عشر.

ولهذا فقد شجعت بريطانيا أهل القوقاس على المقاومة، دون أن تقدّم أي دعم حقيقي. واكتفوا بالكتابات والزيارات المتعددة التي قام بها سياسيون وكتاب مثل دافيد أوركرارت (David Urquart) وجيمس بيل (James Bell) ولونجورث (Longworth).

وقد قال جيمس بيل، الذي مكث في بلاد الشركس (القوقاس الشمالية) ثلاث سنوات (١٨٣٧ - ١٨٤٠): «إذا قررت إنجلترا أو أي قوة أخرى تعارض العدوان الروسي أن تنشئ هنا، أفضل الحواجز، في مواجهة هذا العدوان، فإن ذلك لن يكلفها إلا القليل من الجهد لتجمع تحت لوائها كامل شعوب القوقاس».

ولكن بريطانيا وأوروبا انشغلت بحروبها النابليونية وغيرها فلم تتقدم بأي مساعدة حقيقية لثورة القوقاس (القاضي محمد والأمير حمزة الخنزاجي والشيخ شامل). وقد دامت هذه الثورة العظيمة الجهادية أكثر من ستين عاماً دون أي دعم من إنجلترا أو دول أوروبا الغربية. وانتهى المارد الروسي بسحق الشعوب القوقازية بعد أن أرسل أكثر من ثلاثمائة ألف جندي لسحق الثورة. وتمّ أسر البطل الشيخ شامل عام ١٨٥٩ وسقطت بلاد الشركس تحت الحكم الروسي عام ١٨٦٤.

وما أن انتهت روسيا من احتلال القوقاس حتى انداحت قواتها في التركستان واحتلت خوقند (Kokand) وسمرقند ومرو (وهي مرو الشاهجان أعظم مدن خراسان في التاريخ الإسلامي) وبدأت تقترب من أفغانستان، وهاهنا انتهت بريطانيا لخطر التقدّم الروسي القيصري على مستعمراتها في الهند والشرق وعلى نفوذها في إيران.

وقد قامت روسيا منذ عام ١٨٢٨ بالضغط على إيران لتسمح لها بتواجد أسطول حربي في بحر قزوين بموجب معاهدة تركمنتشاي (Turkmentchai). وتمت السيطرة لروسيا باحتلال القوقاس ووصلت من شواطئ بحر قزوين إلى شواطئ البحر الأسود عام ١٨٨٣ وبذلك جعلت هذه المنطقة حكراً لها، وبدأت بتوطين الروس والقوازق والأوكران والبولنديين التابعين لها في هذه المناطق.

وأصبح نفوذ الأمبراطورية الروسية قوياً جداً على إيران. كما أن الخلافة العثمانية، وهي العدو التقليدي لروسيا، اضطرت في أحيان كثيرة لتوقيع اتفاقيات مُهينة لصالح روسيا. وكما هو معتاد فإن إنجلترا اتفقت مع روسيا لاقتسام النفوذ في إيران عام ١٩٠١ ولكن المطامع جعلت من العسير على القوتين الاستعماريّتين أن تتفقا تماماً.

وعند بداية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ حرصت روسيا على أن تأخذ من حلفائها بريطانيا وفرنسا تعهداً بحق روسيا في الاستيلاء على القسطنطينية (اسطنبول) وإعادتها لتكون عاصمة للمسيحية الأرثوذكسية تحت الرعاية الروسية. كما أكدت حقها في الاستيلاء على طرابزون وأرضروم (أرض الروم) وتبليس وقان (في شرق تركيا). وبالفعل اندفعت القوات الروسية عبر القوقاس إلى هذه المناطق لاحتلالها، ولكنها وجدت مقاومة شرسة. وكانت الأوضاع تغلي بالثورة داخل روسيا ضد النظام القيصري الاستبدادي، فقامت الثورة عام ١٩١٧. ولم تكن الثورة شيوعية بلشفية، بل كانت في غالبيتها تطالب بدولة دستورية ملكية مثل دول أوروبا الغربية. وأدى الاضطراب إلى تفكك الجيوش الروسية في القوقاس وغيرها وإلى ازدياد الدعاية البلشفية الشيوعية التي أدارها بحنكة شديدة لينين وستالين، وعرضوا فيها على مناطق القوقاس والتركستان والتتار والبشكير بأن يستقلوا بدولتهم، ويحكموا شريعتهم الإسلامية التي أعلنوا احترامهم التام لها. وفي الوقت ذاته كانت قوات روسيا البيضاء بقيادة كيرنسكي (Kerensky) والأمير لفوف (Lvov) تعلن أنها لا تقبل بانفصال أي جزء من روسيا، أي أن أراضي المسلمين يجب أن تبقى تحت الحكم الروسي المباشر.

ومع وجود الفوضى واستيلاء البولشفيك على السلطة في موسكو انهارت القوات الروسية (البيضاء)، وعقدت معاهدة برست ليتومنسك مع تركيا واستعاد الأتراك بموجبها مقاطعاتهم التي احتلها الروس بعد معارك دامية استمرت قرناً من الزمان. واستعادت شعوب القوقاس قدرتها على الحركة، وبدأت شمال القوقاس بالدعوة إلى إيجاد حكومة قوقاسية مستقلة.

وفي جنوب القوقاس اتفقت المجالس الوطنية الجورجية التي يسيطر عليها الاشتراكيون المنشفيك (Mencheviks)، والأرمنية التي يسيطر عليها حزب دشناكزوتون (Dachnakzoutune) القومي الاشتراكي، والأذربيجانية (الأذرية) التي يسيطر عليها حزب «مساوات» ذو الميول الديمقراطية. واتفق هؤلاء على أن

يقيموا حكومة فيدرالية مستقلة للقوقاس وعاصمتها تفليس (تبليسي Tbilisi) الجورجية، وأخذت اسم «مفوضية عبر القوقاس». واستدعت البرلمان من ممثلي عبر القوقاس المنتخبين من قبل للجمعية التأسيسية الروسية، وتمّ استكمال العدد بمندوبين عن المجالس الوطنية. وتمّ الإعلان الرسمي للدولة المستقلة في ٢٢ نيسان (أبريل) ١٩١٨. والغريب حقاً أن جورجيا وأرمينية كانتا على استعداد للعودة إلى الاتحاد الروسي بشرط التخلص من البلاشفة، بينما كانت أذربيجان تدعو إلى استقلال حقيقي عن روسيا (بيضاء أو حمراء).

وبموجب معاهدة برست ليتوفسك (Brest – Litowsk) التي وقعتها حكومة كراينسي مع تركيا، فقد استعادت تركيا مقاطعات باطوم وكارس (Kars) وأردوغان (Aradhan) ولم يقبل الأرمن خاصة ذلك، وساندهم الجورجيون إلى حدّ ما، بينما رفض الأذربيجانيون محاربة تركيا، فهم جميعاً أتراك ومسلمون. واستطاعت القوات التركية أن تقضي على المقاومة الأرمنية بسهولة.

وتحوّل الجورجيون المونشفيك إلى تأييد لينين وستالين البولشفيك، وأخذوا بزمام المبادرة الثورية، وخاصة بعد أن استولى البولشفيك على موسكو وعلى بتروجراد (Petrograd) والتي تدعى أيضاً بطرسبرج، وفيها كانت عاصمة حكومة كراينسكي. ولهذا توجه الجورجيون إلى دعم روسيا البلشفية، تماماً كما دعم آباءهم روسيا القيصرية، وأعلن ذلك جورдания (Jordania) القائد السياسي لجورجيا.

وقد ساعدت بيانات لينين وستالين<sup>(١)</sup> المؤيدة لاستقلال المناطق التي كانت تحكمها روسيا القيصرية في جذب الأنصار ورفعوا شعار «لا ضم ولا مساهمة» أي لا يمكن ضم هذه المناطق بالقوة، بل تعطى حريتها في اختيار نظامها الخاص. ولا يفرض عليها المساهمة في قيام الدولة الروسية الموحدة. وقاوم الأرمن بقوة، توجهات تركيا لاستعادة أراضيها بموجب اتفاقية برست ليتوفسك، وانضموا إلى قوات لينين بعد أن تخلّت عنهم قوات روسيا البيضاء. وبما أن الحرب العالمية

(١) ستالين جورجيّ، وبالتالي فإن الجورجيون كانوا يؤيدونه تأييداً كاملاً.



الأولى أوشكت على الانتهاء، هزيمة تركيا، فإن الأرمن وجدوها فرصة سانحة لمحاربة تركيا واستعادة ما يعتبروه «أرمينيا الكبرى».

لهذا تفكك الاتحاد الفيدرالي بين جورجيا وأرمينيا وأذربيجان بسرعة، وانتهت دولة عبر القوقاس، وتحولت إلى ثلاث جمهوريات، وتم الاعتراف بها من قبل تركيا، التي أقامت معاهدات صداقة وحسن جوار مع هذه الدول الثلاث، وحكومة شمال القوقاس.

### القوقاس الشمالي

عندما اندلعت الثورة عام ١٩١٧ اجتمع أهل القوقاس الشمالي في مدينة فلادي قفقاس (Wladi Caucase) وتم إعلان وحدة شعوب القفقاس الشمالي وداغستان. وعندما استولى البولشفيك على السلطة في بتروجراد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ رفضت حكومة شمال القوقاس الاعتراف بسلطة الدولة البلشفية، وأعلنت استقلالها.

وبما أن القوزاق (وهم من الروس) الذين استوطنوا القوقاس منذ الزمن القيصري شعروا بأنهم غرباء في هذا الوضع الجديد، فقد قاموا بالاتصال بحكومة الثورة البلشفية، وأظهروا استعدادهم لمحاربة أهل القوقاس المحليين. وبالفعل أمدهم الثورة وقاموا بمساندتها (وهو أمر ملاحظ في التركستان أيضاً حيث وقف المستوطنون الروس وأصحاب الأراضي مع الثورة البلشفية - بعد أن تبين انتصارها - ضد السكان المحليين. وتغلّبت النزعة القومية السوفياتية على الشعارات الرأسمالية والإقطاعية والشيوعية).

وحاولت حكومة شمال القوقاس الدخول في مفاوضات مع حكومة مفوضية عبر القوقاس التي تمثل جورجيا، وأرمينيا، وأذربيجان الاتحادية في مارس ١٩١٨. وقد أصدر رئيس الوفد المفاوض حيدر بامات في طرابزون بياناً في ١ نيسان (أبريل) ١٩١٨ جاء فيه: «إن القفقاسيين الشماليين مقتنعون بأن جنوب القفقاس لا يمكن أن تكتب له الحياة كدولة مستقلة، دون روابط مع أراضي الداغستان وشمال القوقاس»

ودعا بقوة إلى إنشاء دولة قفقاسية متحدة. ولكن الخلافات لم تكن يسيرة، ولذا اضطرت شمال القوقاس إلى إعلان استقلالها في ١١ أيار (مايو) ١٩١٨. وفي ٨ يونيو (حزيران) ١٩١٨ عقدوا معاهدة صداقة مع تركيا، كما فعلت جمهوريات جنوب القوقاس.. ولأسباب عديدة لم يتمكنوا حتى من إيجاد كونفدرالية بين هذه الدول الأربع، رغم الدعوات المتكررة من حيدر بامات الذي تولى رئاسة حكومة شمال القوقاس، كما كرر ذلك في مؤتمر السلام بباريس مطلع عام ١٩١٩.

وللأسف فإن قوات الجنرال دينكين (روسيا البيضاء) كانت تحارب قوات القوقاس الشمالية بدعم كامل من بريطانيا.

ورغم أن شمال القوقاس حارب طوال عام ١٩١٨ قوات لينين الحمراء، إلا أن بريطانيا التي دخلت إلى باكو في تشرين (أكتوبر) ١٩١٨ بعد انتهاء الحرب، تحولت من الاعتراف بحكومة شمال القوقاس إلى تأييد قوات دينكين للقضاء عليها.

وقد كان الجنرال تومسون البريطاني الذي احتل باكو يقول لأهل القوقاس الشمالي: إن الهدف الوحيد للجنرال دينكين هو النضال ضد البولشفيك الأحمر. ولكن دينكين أعلن بكل صراحة بأن قواته تحارب من أجل «روسيا موحدة وغير قابلة للتقسيم». وهكذا وقفت بريطانيا العظمى ضد رغبات شعوب القوقاس المسلمة، وسلّمت دينكين العتاد والمساعدات العسكرية الضخمة للاستيلاء على القوقاس.. إن بريطانيا ودول أوروبا لا تتحمل قيام دولة إسلامية، مهما بذلوا لها من المواعيد والأكاذيب. والشيء ذاته فعله لينين فيما بعد. فقد استغلّ لينين وقوف بريطانيا مع قوات دينكين وأركينجل البيضاء ضد رغبات الشعوب المسلمة المضطهدة في روسيا القيصرية، وأصدر البيان تلو البيان يدعو المسلمين للانضمام إليه وإلى ثورته، للقضاء على المستعمرين الروس القيصرية الجدد، وبريطانيا العظمى أكبر دول الاستعمار في العالم، والتي استولت على بلاد المسلمين وذبحت رجالهم ونساءهم واستولت على أراضيهم وثرواتهم. ووعدهم بالاستقلال التام والحرية الدينية واحترام الدين الإسلامي!! ولم يكن أمام المسلمين الذين اكتووا

باستبداد القياصرة ومحاربتهم للإسلام إلا أن انضموا إلى لينين لمواجهة القياصرة الجدد دينكين وأركينجل وكراينسكي.. (قوات روسيا البيضاء التي أيدتها بكل قوة بريطانيا العظمى).

وهاجمت قوات دينكين في يناير ١٩١٩ مدينة «فلادي قفقاس» وطالب أهل القوقاس الشماليين بتسليمه جروزي وحقوقها الغنية بالبترو، ودفع تعويضات مالية له لأنهم قاوموه.

وفي فترة أشهر كان دينكين قد استولى على معظم أراضي القوقاس الشمالي، وبدأت المقاومة من الجبال. وقام دينكين - كما فعل أسلافه القياصرة - بارتكاب المجازر البشعة بحق السكان المدنيين وقتل النساء والأطفال والشيوخ والعجزة.

وحاولت حكومة شمال القوقاس أن تستنجد ببريطانيا العظمى، ولكن تلك النداءات ذهبت أدراج الرياح، فبريطانيا العظمى التي تدعي مناصرة المسلمين، تقف دائماً مع أيّ عدو لهم، سواء كان ذلك في فلسطين أو في الهند أو في غيرها من أقطار الأرض، وهو ما حدث في القوقاس.

ووجّه وزير خارجية شمال القوقاس خطاباً في ١٧ حزيران ١٩١٩ لوزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور (هو نفسه صاحب الوعد المشؤوم لإقامة دولة إسرائيل عام ١٩١٧)، وأكد له أن أهل القوقاس سيستمرون في المقاومة ضد قوات دينكين التي تدعمها بريطانيا العظمى. ولو انتصرت هذه القوات مؤقتاً فإنها ستنهزم في المستقبل، وستواجه الثورات المستمرة من هؤلاء الجبلين الأشداء، كما واجهتها من قبل قوات القياصرة. كما أن دعم بريطانيا لقوات دينكين هو أعظم دعاية لقوات لينين البلشفية التي ما برحت تصدر البيان تلو البيان في تأييد استقلال القوقاس وكل الشعوب المستعبدة.

وفي مطلع عام ١٩٢٠ اندحرت جيوش روسيا البيضاء أمام جيوش لينين الحمراء، وكانت قوات أهل القوقاس تستعيد أراضيها من قوات دينكين المنسحبة، والتي قامت بالاعتراف باستقلال القوقاس الشمالي (وهي مرغمة بعد أن انهزمت

أمام قوات لينين) المكوّن من دولة موحدة من القابارد والأوسيت وأنغوشيا  
والشيشان والداغستان.. إلخ، والاعتراف بها رسمياً!!

ويعلق «بامات» على هذه الوثيقة: «لسوء الحظ، لم يكن هذا الاعتراف  
المتأخر ليغير شيئاً من الأحداث، فالجيش الأحمر الذي استمر بتقدّمه، اجتاح  
أراضي الجمهورية واحتل شمال القوقاس، وأخذ يتصرّف وكأنه في بلد محتل، رغم  
الوعد الرسمي بالاعتراف واحترام جمهورية شمال القوقاس المستقلة». (انتهى  
كلام بامات).

والأكاذيب لا تنقطع لا في زمن البيض ولا في زمن الأحمر. ولكن الأغبياء هم  
الذين يقعون باستمرار فريسة لها.

في ١٣ نيسان ١٩٢٠ قام السيد حيدر بامات الذي انتخب لتوّه رئيساً للحكومة  
المؤقتة في القوقاس الشمالي بتوجيه كلمة إلى مفوض الشؤون الخارجية لحكومة  
السوفييات عبر الإذاعة ذكره فيه بما كان يصدره من بيانات جاء فيها: «إن جمهورية  
روسيا الاشتراكية الاتحادية السوفياتية لم يكن أبداً من أهدافها غزو أو إنشاء حكم  
سوفياتي بالقوة على أراضي الغير. فيما يتعلق بجمهوريةكم خاصة، أيها الرفاق  
العمال والفلاحين في الداغستان، فإن روسيا لا تنوي الزحف على جمهوريتكم. إن  
روسيا السوفياتية ملتزمة بحق تقرير المصير للشعوب. وإذا كنتم أنتم مسلمي  
القفقاس راضين بنظام حكم جمهوريتكم، فلتعيشوا بسلام، ولتطوروا، ولتقيموا  
معنا علاقات حسن جوار!!».

وطالب بامات بالوفاء بتلك العهود والوعود. ولكن أنّى يستجاب له. وما  
كانت البيانات إلا خداعاً، وليشغلوا عدوهم، قوات دينكين. فلما تمكّنوا، قاموا  
بنفس جرائم دينكين والقياصرة، بل أشدّ من ذلك بكثير. وكان الردّ على بيان  
بامات حملة من الشتم البذيء والعنيف ضد حكومة البورجوازيين والإقطاعيين  
القفقاسيين الرجعيين.

وأقامت حكومة لينين المذابح والنفي لآلاف المجاهدين الذين قاتلوا قوات روسيا البيضاء، ثم قاتلوا دفاعاً عن استقلال بلادهم، قوات روسيا الحمراء. واحتلّ السوفييات أراضي جمهورية شمال القوقاس. وخلال أسابيع قليلة سقطت باكو في ٢٧ نيسان ١٩٢٠ في هجوم غادر حيث كانت حكومة أذربيجان في مفاوضات مع حكومة موسكو البلشفية... وبدأت المذابح.

وجاء بعد ذلك دور الأرمن، الذين استغلّوا فرصة انهزام تركيا، وقاموا باحتلال جميع الأراضي التركية التي كانوا يدعون ملكيتها.. وسارع الأرمن إلى الاتفاق مع الجيش الأحمر الذي اعتبروه ضماناً لدولتهم. ولكن ذلك لم يتحقق لأن السوفييات كانت لهم أهداف أخرى، ويسعون لدعم كمال أتاتورك العلماني. وخضع الأرمن للجيش الأحمر بعد أن حاولوا التمرد.

وتفاوضت جورجيا لإعلان استقلالها وعقدت معاهدة في ٧ أيار (مايو) ١٩٢٠، يعترف فيها السوفييات رسمياً باستقلالها. ولكن روسيا الشيوعية ألغت تعهدها السابقة وهجمت على جورجيا في يناير ١٩٢١، وانتهت المعركة بعد شهرين باستسلام جورجيا، وخروج حكومتها إلى أوروبا، وانضمت إلى الحكومات الفارة من القوقاس وأرمينية وأذربيجان. وبدأت مرحلة المطالبات والشكاوى في أوروبا الغربية، والتي لم تثمر أبداً رغم إعلان الحكومة الفيدرالية للقوقاس في المنفى في باريس!!.

واستطاعت روسيا السوفياتية أن تستولي على نفط باكو، ونفط جروزني، في أذربيجان والشيشان، كما استولت على المناطق الغنية بالبترول في بشكيريا وتتاريا وقازاقستان وسيبيريا. وبذلك تمكّنت روسيا البلشفية من تحقيق أحلام بطرس الكبير الذي حلم بهذه الأمبراطورية وبدأ في السعي لتحقيقها. ولكنها لم تتحقق بصورتها التي أرادها إلا في العهد السوفياتي البلشفي الشيوعي!!.



## الفصل الخامس عشر

### الشاشان (الشيشن) Chechnya

تقع الشيشان في السفوح الشمالية لجبال القوقاز العالية الذرى، وتشكل مناطق ذات غابات كثيفة بسبب تدفق المياه من الجبال، التي تشكل روافد كثيرة لنهر ترك (Terek) الذي يعدّ أهم أنهار القوقاس الشمالي.

ويعتبر الشيشان والأنجوش من أرومة واحدة، ولغاتهم متقاربة جداً. ولهذا جعلتهم الإدارة الروسية في جمهورية واحدة ثم ألغتها من الوجود بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ زمن الطاغية ستالين. وتمّ نفي جميع السكّان إلى مجاهل سيبيريا وفيافي قازاقستان، ومات ربع السكّان في عملية النفي البشعة هذه... ثم لما جاء عهد خروتشوف، وأدان حكم ستالين، أصدر المجلس الأعلى للسوفييات تبرئة الشيشان والأنجوش من تهمة التعاون مع النازي. والجدير بالذكر أن النازي الألماني لم تصل قواته إلى الشيشان وأنجوشيا قط. بل عمد ستالين إلى ذلك النفي عقوبة للشيشان على ثورتهم هذه أثناء الحرب، واعتبر أن القوات الروسية، وخاصة الجوية، انشغلت لفترة لإخماد الثورة بدلاً من مواجهة الألمان في ستالينجراد (فولفوجراد).

وهذه الشعوب الجبلية القوية المراس لم تخضع للحكم الأجنبي. وتمتّع أهلها بحكم أنفسهم، ولم يكن لديهم طبقة من الحكام أو ملاك الأراضي، بل كان الناس سواسية. وكانت القيمة الأدبية والاحترام الفائق دائماً لعلماء الدين وشيوخ الطريقة (النقشبندية).

وقد دخل أهل الشيشان والأنجوش في الإسلام في فترة متأخرة نسبياً. فرغم

أن الإسلام دخل إلى دربند (باب الأبواب) في الداغستان منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أنه لم يدخل إلى تلك الجبال العالية المنيعة إلا في القرن السادس عشر الميلادي على يد دعاة إلى الله من رجال الطريقة النقشبندية خاصة، وعلماء الإسلام الذين قدموا من الداغستان وأذربيجان ومن الدولة العثمانية في تركيا.

ولم يتغلغل الإسلام ويصبح دين الغالبية من السكّان إلا في بداية القرن الثامن عشر الميلادي. وفي ذلك الوقت بدأ الغزو الروسي القيصري لمنطقة القوقاس، وواجه الروس مصاعب جمة، وحروباً كثيرة. وكانوا يضطرون للانسحاب بعد أن يحققوا عدة انتصارات (قد تم شرح ذلك فيما سبق عند الحديث عن القوقاس).

وفي القرن الثامن عشر، قرب نهايته، قام الشيخ منصور أشرمة شيخ الطريقة النقشبندية بثورته الجهادية ضد الروس التي استمرت من عام ١٧٨٥ حتى عام ١٧٩١م عندما استشهد.

وبعد ذلك قام القاضي محمد الكمراوي (الغازي محمد) بدعوته لتطبيق الشريعة في الداغستان والشيشان عام ١٨٢٦، ثم تحول إلى الجهاد بالسيف سنة ١٨٢٨ ضد الروس وأعاونهم من الأمراء المحليين. وانضم إليه الأمير حمزة الخنزاجي، وكان من تلامذته ومريديه، فلما استشهد القاضي الغازي محمد اجتمع المريدون وولّوا أمرهم حمزة بيك وذلك سنة ١٨٣٢.

وكان حمزة بيك شديداً على الأمراء المحليين الذين رفضوا أو تلكأوا في تطبيق الشريعة فدبروا مؤامرة لاغتياله أثناء ذهابه لصلاة الجمعة، ولم يكن معه سلاح ولا حراس، فاغتيل عام ١٩٣٤، ثم قام بالأمر الإمام محمد شامل الكمراوي عندما اختاره المريدون بإجماع، واستمر في الجهاد حتى عام ١٨٣٧ حيث واجه انتكاسة، ولكنه صبر وصمد وبدأت الأمور تتحسن في المعارك الجهادية منذ عام ١٨٣٨، ووصلت ذروة انتصاراته عام ١٨٤٥، وانضم إليه أهل الشيشان الأشداء، بل انضم إليه كثير من أهل القوقاس الشمالي من الشركس وغيرهم. وأقام دولة في شمال القوقاس تضم الداغستان والشيشان والأنجوش، وبعض مناطق الشركس



والأديغة، وتحكم بالشرعية، وقد نظّمها تنظيمًا قوياً رائعاً، أعجب به أعداؤه الروس، فضلاً عن غيرهم، حتى صار أسطورة. ولكن الأمور تحولت بعد ذلك. وبدأ الروس في سياسة جديدة، وهي احتلال القوقاس ببطء وبناء القلاع، وتدمير القرى المقاومة تدميراً كاملاً وإحراق الغابات التي كان يختبئ فيها المجاهدون. واضطرت روسيا القيصرية لإرسال أكثر من ثلاثمائة ألف جندي، على فترات. ووصلت جيوش شامل في ذروتها إلى ستين ألف مقاتل. ثم بدأ العدد في التناقص والأنصار يقلّون. والناس يملّون من طول المعارك حتى اضطر إلى الاستسلام في أبريل (نيسان) عام ١٨٥٩ كما سبق شرحه.

ولكن الشيشانيين لم يهدأوا إلا فترة وجيزة، ففي عام ١٨٦٧ قام كونتا حجي (Konta Hadgintsi) بثورة أخرى، وقامت الجيوش الروسية بإخضاعها، واستشهد قائدها البطل، شيخ الطريقة كونتا حجي. وبعد عشر سنوات أخرى قامت ثورة أخرى. ثم عندما قامت الحرب بين تركيا العثمانية وروسيا (وهي حروب كثيرة) عام ١٨٨٧، قامت ثورة كبيرة في الداغستان والشيشان. وعندما انهزمت الدولة العثمانية تمكنت الجيوش القيصرية من القضاء على الثورة الجهادية التي كان رجال الطريقة النقشبندية (وانضم إليهم رجال الطريقة القادرية) دوماً أول من يشعلها، ويواصل الجهاد حتى الشهادة.

وعندما قامت الثورة الروسية ضد القيصر نيقولا الثاني في فبراير ١٩١٧ وكانت ثورة دستورية تطالب بأن يُعفى القيصر من واجباته ويتولاها الدوما، فنجحت في ذلك، ولم تكن ثورة شيوعية. ولكن البلاشفة بجهود لينين وأعدائه من اليهود داخل البلاد وخارجها، أقاموا ثورة بلشفية شيوعية، وبدأت الحرب الأهلية منذ أكتوبر ١٩١٧. وفي تلك الفترة قام أهل القوقاس بثورتهم ضد روسيا وحكومة كراينسكي وقائد جيشه دينكين وكان قائد هذه الثورة الشيخ الصوفي نجم الدين غوتسو (غوتسنكي كما يسميه الروس) والشيخ الصوفي المجاهد أوزون حجي. كما قامت حركة سياسية لإعلان استقلال القوقاس، وقامت

حكومة شمال القوقاس المستقلة وعاصمتها فالدي قفقاس (Wladi Caucasus) في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧، ولكن البيض الروس وبريطانيا التي تمدت قوات دينكين وقفوا لها بالمرصاد، وحاربوها حرباً شعواء حتى كادوا أن يقضوا عليها. ومع ذلك استمرت في المقاومة. ولما انهزمت قوات روسيا البيضاء (حكومة كراينسكي) أمام قوات لينين في موسكو وبطرسبرج، قام دينكين وهو يتخلى عن القوقاس باعتزافه بحكومة القوقاس التي تقف ضد لينين. ولكن قوات لينين، وعدم وجود أي دعم من بريطانيا أو غيرها للثورة، أدت إلى القضاء على حكومة شمال القوقاس التي كانت تضم الداغستان والشيشان والأنجوش الشركس والأديغة، وفي عام ١٩٢٠ تم احتلال القوقاس بأكمله من قبل قوات لينين وأنصاره. ولكن الثورة استمرت في جبال الداغستان وغابات الشيشان وجبالها الوعرة على يد رجال حركة المريدين من أصحاب الطرق الصوفية (النقشبندية وهي الغالبة على أهل هذه المناطق والقادرية التي دخلت بعدها). واستمرت الحركة الجهادية بقيادة نجم الدين غوتسو وأوزون حجي ومحمد البلوكاني وسيد أمين ودرويش محمد الأندي. ولم يقص عليها نهائياً إلا في خريف عام ١٩٢٥ عندما أسر نجم الدين غوتسو وسيد أمين، وحكم عليها بالإعدام فوراً. كما استشهد العديد من المشايخ في ميدان المعركة.

وعندما استولت القوات البلشفية على القوقاس عام ١٩٢٢ قام لينين في نوفمبر ١٩٢٢ بجعل الشيشان مقاطعة ذات حكم ذاتي، وكذلك جعل الأنجوش، في يوليو ١٩٢٤. وفي يناير ١٩٣٤ تم دمج هاتين المقاطعتين. وفي ديسمبر ١٩٣٦ أعطيت اسم جمهورية ذات حكم ذاتي (الشيشان- أنجوشيا). وبلغت مساحتها آنذاك ١٩,٣٠٠ كم<sup>٢</sup>، وتتكون من ١٢ مقاطعة وسبع مدن رئيسة أهمها العاصمة غروزني وغودرميس وفيدينو وهي العاصمة الإدارية لإقليم اتشكيريا.

وغروزني هي قلعة بناها سفاح القوقاس الجنرال يرمولوف ومعناها المرعبة (أو الرهيبة) وقد جعلها مقراً لقيادته في هذه المنطقة وأسكن فيها الروس القوزاق وأعطاهم أراضي أهل الشيشان وما حولها في القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد قام الروس في حروبهم المتكررة في القوقاس الشمالي بإحراق وإبادة مئات القرى، وتكرر ذلك منهم طوال فترة الغزو، وكلما قامت ثورة. وكان آخر تدمير لغروزني في حرب الشيشان عام ١٩٩٤، ثم عام ١٩٩٩ حتى جعلتها القوات الروسية خراباً وبياباً. وكان السكّان يواجهون حرب إبادة متكررة كلما قامت ثورة. وكان السكّان ينخفضون إلى النصف وأحياناً إلى الربع بعد كل ثورة عارمة ضد الروس، حيث لا يتوّرع الروس عن قتل النساء والأطفال والشيخوخ، وقتل كلّ ما هو حيّ حتى الحيوانات والأشجار.

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، ظهرت في الشيشان وأنجوشيا حركة مقاومة للروس، وجرّ جنون ستالين واعتبر أهل الشيشان متآمرين مع هتلر، مع أن كثيراً من الشيشان قاتلوا في صفوف الجيوش الروسية، ونالوا أرفع الأوسمة من ستالين نفسه. ولكن ما أن انتهت الحرب إلا وقام ستالين بطرد مجموعة من شعوب الاتحاد السوفياتي بتهمة التعاون مع النازي وهؤلاء هم:

(١) تثار القرم: حيث قام ستالين بنفيهم إلى سيبيريا وإلى فيافي قازاقستان. ومات منهم مئات الآلاف. ورغم أن مجلس السوفيات الأعلى قد برأهم من تهمة الخيانة عام ١٩٥٦ إلا أنهم لم يعودوا إلى وطنهم قط، وأعطيت بلادهم إلى جمهورية أوكرانيا وصارت تابعة لها. ولما انهار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ بقيت القرم مع أوكرانيا إلى اليوم، ولم يسمح للتتار رسمياً بالعودة إلى وطنهم. وهي أكبر جريمة تهجير في التاريخ. وهي تماثل جريمة تهجير الفلسطينيين من وطنهم عام ١٩٤٨، بل تفوقها بشاعة وقسوة.

(٢) الشيشان- أنجوش: وقد تم إزالة الجمهورية من الوجود وقُسمت أراضيها إلى جورجيا وأوسيتيا الشمالية. ومات ربع السكّان في المنفى. ولكن قرار عام ١٩٥٦ سمح بإعادة المنفيين إلى وطنهم. وبالفعل عادوا إلى الشيشان والأنجوش وجُعِلت كل واحدة منهما جمهورية مستقلة ذات حكم ذاتي، وذلك منذ عام ١٩٥٧. وبطبيعة الحال بقيت مناطق من الشيشان مع جورجيا ومناطق من الأنجوش مع أوسيتيا الشمالية. ولكن روسيا الاتحادية قبل انتهاء العهد السوفياتي

أعادت بعض الأراضي التي كانت مع جورجيا تحسباً لاستقلالها عنها. أما أوسيتيا فهي تابعة لروسيا ولذا بقيت بعض الأراضي الأنجوشية معها إلى اليوم. وهي محل نزاع بينهما (أنغوشيا وأوسيتيا).

(٣) القراتشاي والبلكار: وهي في شمال القوقاس وغالبية سكانها مسلمون. وقد نفاهم ستالين أيضاً بتهمة التعاون مع النازي. ولكنهم عادوا بعد عام ١٩٥٦ واستعادوا كيانهم. وسيأتي الحديث عنهم.

(٤) ألمان الفولجا: وهؤلاء من العنصر الألماني الذي جلبته كاترين الثانية الألمانية الأصل والتي وسّعت أراضيها في بلاد المسلمين، وعلى طول نهر الفولجا، وأسكنت في المناطق الإسلامية روس قوزاق. ولكن بعد ثورتهم التي قادها بوجاشيف، جلبت الألمان وأسكنتهم مقاطعة في الفولجا، وجعلت لهم حكماً ذاتياً. وقد نجحوا في زراعتها وتنميتها. ولكن ستالين تخوّف منهم عند بداية الحرب العالمية الثانية، وتأكد لديه أنهم سيقفون مع النازي ضده. فقام بنفيهم إلى مناطق في التركستان. وأسكنهم أراضي زراعية جيدة، وعاملهم معاملة حسنة بالمقارنة مع معاملته للمسلمين من الشيشان والإينغوش والقراتشاي والقرم. وهؤلاء لم تسمح السلطات الروسية بإعادتهم أو إعادة كيانهم أبداً بعد الحرب.

(٥) الكالموك: وهؤلاء بوذيون من أصول مغولية. وقد تم أيضاً نفيهم إلى منغوليا وكانوا مستسلمين لهذا النفي دون أي مقاومة، بل كانوا قد بدأوا هم أنفسهم بالانتقال الجماعي المنظم إلى منغوليا وطنهم الأصلي.

ورغم أن مجلس السوفيات الأعلى قد أدان حكم ستالين الاستبدادي الرهيب ووصفه بأنه أشنع ما شهدته البشرية حتى أنهم نبشوا قبره وأحرقوا جثته لتنتهي أسطورة ستالين الذي أمّوه وعبدوه، ورغم هذا كله إلا أن شعب القرم لا يزال يجوب فيافي سيبيريا، ويمنع من العودة رسمياً إلى وطنه، وقد عاد بعضهم إلى وطنه ولا يزال يحاول أن يوجد له أرضاً وسكناً.

وقد قام مجلس السوفيات الأعلى بإلغاء قرار ستالين الذي اتهم فيه هذه الشعوب الإسلامية بالتعاون مع النازي وبرأ هذه الشعوب من هذه التهمة... وسمح لشعب الشاشان والإينغوش بالعودة إلى وطنهم وذلك في عام ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م وعند عودتهم إلى وطنهم وجدوا جميع مساجدهم وجوامعهم مهدمة وظلت جمهورية الشاشان الإينغوش حتى عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، الإقليم المسلم الوحيد في الاتحاد السوفياتي<sup>(١)</sup> الذي أجريت فيه التجربة الجذرية القاضية بحق الدين الإسلامي من خلال هدم وحل جميع مؤسسات وأمكنة العبادة<sup>(٢)</sup>.

السكان: يذكر إحصاء عام ١٩٧٩<sup>(٣)</sup> أن سكان الشاشان- الإينغوش يبلغون ١,١٥٥,٠٠٠ ويشكل المسلمون ٦٦,٥ بالمئة موزعين كالتالي:

تشاشان: ٦١١,٠٠٠، إينغوش: ١٣٥,٠٠٠، داغستان: ٢٢,٠٠٠. أما الروس فقد أخذ عددهم يتناقص، ففي حين كانوا يشكلون ٤٩ بالمئة من مجموع السكان عام ١٩٥٩ إلا أنهم أصبحوا يشكلون ٢٠٪ فقط من السكان عام ١٩٧٩. وذلك (بسبب عداء السكان الأصليين المسلمين للعنصر الروسي) كما يقول المؤلفان الفرنسيان بنجنسن ولومرسييه في كتابهما (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي).

وهذا يعني أن الروس لا يزدادون بينما يزداد السكان المسلمين وذلك أيضاً بسبب التناسل المرتفع لدى المسلمين والمنخفض لدى الروس... ومرة تلو المرة نرى أن ازدياد النسل في جميع مناطق الاتحاد السوفياتي هو العامل الأساسي في الحفاظ على الهوية الإسلامية والعرقية لهذه الشعوب التي واجهت حرب إبادة كاملة من المستعمر الروسي.

- (١) لم يكن الإقليم الوحيد، فقد تمت تصفية تار القرم ومساجدهم تصفية تامة... وبينما تمت عودة الشيشان إلى وطنهم عام ١٩٥٧ لم تتم عودة التار القرميين رسمياً إلى وطنهم إلى اليوم (٢٠٠٩).
- (٢) كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي».
- (٣) ستأتي الإحصائيات الحديثة للشاشان والأنجوش بصورة منفصلة لأنها قد تم فصلها قبيل انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١.

ورغم بقاء الشاشان والإينغوش في المنفى السيبيري المتجمد لأكثر من ١٥ عاماً إلا أنهم استطاعوا أن يحتفظوا ببنيتهم الثقافية وهويتهم الإسلامية، فلما عادوا إلى موطنهم أظهروا لغتهم التي تعود إلى اللغات الإيرووقاسية، كما أظهروا تمسكهم بالتقاليد الإسلامية ونظامهم العشائري. ويقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: (وبالرغم من سنوات السبي والعيش في المنفى حافظ التشيشينيون والإينغوش على البنية التقليدية لمجتمعهم المقسم إلى عشائر التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وتشكل حالياً الأساس للتنظيمات الصوفية) التي تبث روح المقاومة ضد المستعمر الروسي، وقد نشرت مجلة (أرابيا) ديسمبر ١٩٨٢م قصة المجاهد التشيشيني الذي فرّ إلى الغابات وقتل أربعين من أعضاء الحزب الشيوعي قبل أن يستشهد... ولما قُتل وجدوا مصحفاً صغيراً معلقاً على صدره.

ويقول المصدر السابق في فقرة أخرى: (لقد ترك عمل الطرق الصوفية وشياً عميقاً في طابع الإسلام عند الشاشان والإينغوش - بحيث يتميز بصرامته وتصلبه وكرهه للروس الأجانب.. ويقر كل المراقبين السوفيات أن جمهورية الشاشان إينغوش هي الحصن الأكثر صلابة للإسلام التقليدي وأن سكانها هم الأكثر تديناً بين مسلمي الاتحاد السوفياتي. ومع ذلك فقد اختارت السلطات السوفياتية هذه الجمهورية بالذات ليجروا فيها الاختيار الجذري الهادف إلى تدمير الدين بقفل كل المساجد ولم يبق في جميع أرجاء هذه الجمهورية مسجد واحد..

وقد قوبلت هذه التدابير الاستبدادية القسرية بتغلغل الصوفية تغلغلاً شبه كامل. وقد قدر في عام ١٩٧٨ عدد مريدي الطرق الصوفية بأنهم نصف المؤمنين أو نصف السكان المسلمين، ونتيجة لخوف السلطات من هذا النفوذ الصوفي المعادي للروس بشدة فقد سمحت بفتح مسجدين في قرية قرب العاصمة غروزني. وفي عام ١٩٨٠ فتحت خمسة مساجد أخرى في القرى المنتشرة. ثم ازدادت المساجد بصورة كبيرة بعد الاستقلال عام ١٩٩١. وفي ١٨ أكتوبر ٢٠٠٨ ثم افتتح مسجد «قلب الشيشان» وهو أكبر مسجد في أوروبا ويتسع لعشرة آلاف مصلي، ويضم إلى

جانبه مبنى لإدارة المؤسسة الإسلامية في الشيشان ومؤسستين للتعليم وبيتاً للطلبة ومكتبة وفندقاً. وللمسجد أربع منارات يبلغ مجموع ارتفاعها أكثر من ستين متراً. وقد ساهمت بعض الدول الإسلامية في بنائه وافتتح باحتفال كبير وهو من أجمل المساجد في أوروبا إن لم يكن أجملها وأكبر مسجد في أوروبا، حيث بني مع ملحقاته على مساحة ١٤ هكتاراً وهذا كله من فضل الله. وقد قامت السلطات الروسية بالسماح بهذا كله لأجل امتصاص نقمة أهل الشيشان على ما جرى لهم من مذابح.

يقول المصدر السابق إن نفي هذه الشعوب إلى مجاهل سيبيريا أعطى نتيجة لم تكن في الحسبان حيث أدى إلى وثبة جديدة للحركات الصوفية. ذلك لأن الطرق الصوفية كانت الرمز الوحيد للأمة في معسكرات سيبيريا ومنفى السهوب الكازاخية... وكانت دافعاً أساسياً لحب البقاء عند جميع المنفيين. ويعترف بهذه الحقيقة كل الاختصاصيين الروس.

لقد بذلت الأخويات الصوفية ولا سيما تلك المنبثقة من طريق كونتا (حجي) القادرية نشاطاً مكثفاً خلال سنوات المنفى. ورأت النور أخوية صوفية جديدة في كازاخستان حوالي عام ١٩٥٥م وهي طريقة عويبي حجي زاغيف وقد عرفت في الأدب الروسي باسم «أخوية القلنسوات البيض» لأنهم يلبسون قبعات الفراء الأبيض عند الذكر. والأكثر من ذلك أن هؤلاء الجبلين العنيدين أصبحوا قدوة لشعوب كازاخستان وقيرغيزيا الشالية فأقبلت هذه الشعوب المسلمة على الانخراط في صفوف الطرق الصوفية.

ويقول المصدر السابق إن الأخويات الصوفية ليست إلا تنظيمات جماهيرية بالرغم من طابعها نصف السري ومثالاً على ذلك فقد كان ٥٠,٠٠٩ بالمئة من المسلمين المؤمنين في جمهورية الشاشان - الإنيغوش، من أتباع إحدى الطرق الصوفية في عام ١٩٧٨م وعام ١٩٧٩م. ويقدر عدد المنتسبين إلى هذه الطرق في الشاشان - الإنيغوش بعدد يتراوح بين ١٥٠,٠٠٠ و ١٨٠,٠٠٠ وهو رقم مدهش

حقاً لا سيما إذا عرفنا أن هذه المنطقة لم يكن فيها قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧م سوى ٦٠,٠٠٠ مريد و٣٨ شيخاً.

إن الشعور القومي مرتبط هناك بالشعور الديني، أما مفهوم القومية العلمانية فليس له أي وجود.

### ثروات الشيشان

اشتهرت الشيشان بثرواتها الزراعية ومناظرها الخلابة. ولكن ما أسأل لعاب الروس هو الثروة البترولية التي وجدت في جروزني وما حولها الذي تم اكتشافه عام ١٨٩٣. وقد وصل معدل الإنتاج عام ١٩١٠ إلى ٤٥,١ مليون طن ثم ارتفع إلى ٥٣,٨ طن عام ١٩١٥. ثم انخفض الإنتاج مع كثرة الاستغلال. ولكن الاكتشافات الجديدة رفعت الإنتاج مرة أخرى.

وفي الشيشان أيضاً صناعة بترولية متقدمة بالإضافة إلى الحديد والفحم والذهب.

ولهذه الأسباب الاقتصادية بالإضافة إلى الخوف من تفكك روسيا ومطالبة المناطق الإسلامية الغنية بالبترول والألماس مثل بشكيريا وتاريا بالاستقلال، فإن روسيا ترفض رفضاً باتاً إعطاء الشيشان استقلالها ولو أدى ذلك لمزيد من الحروب والدمار.

### معلومات مقتضبة عن جمهورية الشيشان

تدعى الشيشان شيشنيا (Chechnya) وايشكيريا (Ichkeria) وغيرها من الأسماء.. وهي جمهورية من جمهوريات روسيا الاتحادية. وتقع في شمال القوقاس وتحدها ستافروبول كراي (Stavropol Krai) إلى الشمال الغربي، وداغستان من الجنوب الشرقي والشرق، وجورجيا من الجنوب. وجمهورية أنغوشيا وجمهورية أوسيتيا الشمالية من الشمال والشمال الغربي.

عاصمتها جروزني. وقد كانت منذ عام ١٩٥٧ متحدة مع أنغوشيا. ولكن بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١ تم فصلها إلى جمهوريتين كلٌّ منهما ذات حكم



ذاتي ضمن جمهورية روسيا الاتحادية. وأطلق على الشيشان جمهورية ايشكيريا الشيشانية التي جعلت الاستقلال أمراً واقعاً de facto من جانب واحد. ولم تعترف بذلك روسيا ولكنها سكنت على مضض، ثم دخلت الحرب عام ١٩٩٤ وانزمت عام ١٩٩٦، ولكنها قامت بهجوم آخر عام ١٩٩٩ وأعدت احتلالها. (سيأتي الحديث تفصيلاً عن كل ذلك).

مساحتها ١٥,٣٠٠ كم<sup>٢</sup>. وسكانها (إحصاء ٢٠٠٢) ١,١٠٣,٦٨٦ شخصاً. ويشكل الشيشانيون المسلمون ٩٣,٥ بالمئة من السكان مع وجود عدد ضئيل من الروس والكوميك والأنغوش.

والشيشان هي من المناطق القليلة في روسيا الاتحادية التي يزيد فيها السكان بسبب الخصوبة العالية (وهو أمر ملاحظ في المناطق الإسلامية)، حيث تبلغ نسبة المواليد ٢٥,٤ بالألف من السكان وقد وصل عدد السكان في يناير ٢٠٠٦ (تقدير) ١,٢٥٥,٠٠٠ شخصاً. أما عدد الوفيات فهو خمسة بالألف من السكان وحتى عام ١٩٨٩ كان الروس يشكلون ٢٣ بالمئة من السكان (٢٦٩,٠٠٠ نسمة) ولكنهم هربوا بعد الاستقلال (١٩٩١). ولا يزالون يتعدون عنها رغم احتلال الشيشان مرة أخرى عام ١٩٩٩.

الشيشان منذ إعلان الاستقلال عام ١٩٩١ إلى عام ٢٠٠٨

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، تم انسحاب ١٤ جمهورية من الجمهوريات الخمسة عشر التي كانت تشكل الاتحاد السوفياتي السابق وأعلن استقلال كل واحدة منها. وأعلنت جمهورية روسيا الاتحادية كذلك استقلالها. وكان أول رئيس لها الرئيس يلتسين بعد مناورات بينه وبين جورباشوف، واستيلائه على السلطة رغم البرلمان (الدوما) الروسي بواسطة الدبابات الروسية حيث دخل البرلمان على ظهر دبابة بتأييد كامل من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

وكانت جمهورية الشيشان - الإينغوشيا ضمن جمهورية روسيا الاتحادية. وتم تفكيكها إلى جمهوريتين كلٌّ منهما ذات حكم ذاتي.

في ٢٧ أكتوبر ١٩٩١ وبعد إجراء انتخابات حرة وديمقراطية فاز فيها الجنرال جوهر دودايف برئاسة الجمهورية، تم إعلان استقلال الشيشان، وأطلق عليها اسم جمهورية ايشكيريا الشيشانية.

وعلى أثر ذلك فرضت روسيا الحصار التام على هذه الجمهورية، ورفضت إعلان الاستقلال رغم أنها قبلت استقلال دول البلطيق الأصغر حجماً مثل أستونيا ولاتفيا، وذلك للأسباب التالية:

(١) استقلال الشيشان سيؤدي حتماً إلى تفكك جمهورية روسيا الاتحادية فالداغستان تطالب باستقلالها وكذلك أنغوشيا. ومثلها تاتاريا وبشكيريا وغيرها من المناطق الإسلامية. وهذه المناطق الإسلامية موزعة في كل روسيا الاتحادية. كما أن مناطق أخرى غير إسلامية ستطالب باستقلالها. وخاصة سيبيريا. ورغم أن سكان سيبيريا هم من عناصر مختلفة إلا أن نسبة المسلمين بينهم كانت عالية. وقد أسلم الكثير منهم منذ زمن إسلام المغول، بل أسلم بعضهم قبل ذلك بواسطة الدعاة إلى الله. ولكن مع اكتشاف الثروة الهائلة من البترول والغاز والألماس والذهب تدفق عليها الروس حتى أصبحوا هم الأغلبية في السكان.

(٢) إن هذه المناطق الإسلامية غنية بالثروات، وخاصة البترول والغاز، فمعظم بترول وغاز روسيا يأتي من المناطق الإسلامية في سيبيريا وبشكيريا وتاتاريا والشيشان. كذلك ثروات الذهب والألماس، فإن معظمها تأتي من أراضي المسلمين في روسيا. وقبول استقلال الشيشان يعني فقدان هذه الثروات الهائلة، وتحول روسيا إلى دولة فقيرة، وهي حالياً من أغنى الدول بالثروات.

(٣) وقد دعم الجنرال جوهر دودايف استقلال أبخازيا (سكانها مسلمون) من جورجيا التي استولت عليها لأن النظام السابق جعلها ضمن جمهورية جورجيا.

ورغم الحصار استطاع دودايف أن يبقى على جمهوريته التي لم يعترف بها أحد من الدول الإسلامية أو غيرها، مراعاة لمصالحهم مع روسيا والولايات المتحدة التي أمرتهم بعدم الاعتراف بالشيشان لأنها أصولية متطرفة.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٩٤ قامت روسيا بهجوم عنيف وساحق بمختلف الأسلحة على الشيخان، ولكن الهجوم صُدَّ ورُدَّ المهاجمون على أعقابهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. وقد ساق الروس أكثر من ستين ألف جندي مزودين بـ ٢٢٥٠ دبابة وآلية مدرّعة، وعشرات الطائرات الهجومية والمقاتلة، ومئات منصات الصواريخ في حرب إبادة. وكأنهم يتحدثون بلسان الجنرال سلفاتسوف عام ١٨٤٠ (تحت حكم القيصر نيقولا الثاني) والذي قال: «بأمر من سيد العالم (أي القيصر) فإن قيصرنا السامي أمر بتصفية هذا المرض الإسلام. ولذا يجب إحراق قراهم وإجهاض نسايمهم، وإبادة كل الرجال القادرين على حمل السلاح».

وتمت في هذه المعركة إبادة مدن بكاملها وقرى بسكانها، وأما جروزني فقد كانت خراباً في خراب، بل إن خرابها كان أشد مما وقع لمدن روسيا وألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية المهولة. ومع هذا لم تستطع روسيا أن تحكم الشيخان.

يقول الجنرال الروسي أناتولي دوروفييف قائد الفرقة المدرعة: «سندكُّ أرغون والمدن الأخرى ونسويها بالتراب. إنه لن يبقى هناك حجر على حجر». وبالفعل قاموا بكل ذلك. وبما هو معروف من الروس حين يقاتلون على مدى تاريخهم الطويل، إنهم مقاتلون أشداء، ولكنهم لا يتورعون عن أي جريمة لدكِّ عدوهم والانتصار عليه. وكما وصفهم ابن فضلان وابن رسته والمسعودي وابن بطوطة فإنهم «مقاتلون شرسون، مستهترون بالخمير، وأهل غدر».

ورغم هذه المعارك الدامية إلا أن المقاومة كانت بطولية بدرجة فاقت كل توقع، وذكَّرت الناس بأجماد الإمام المجاهد محمد شامل الكمراوي وبطولاته الأسطورية.

وقررت روسيا اغتيال دوداييف بأي ثمن وأي وسيلة. ويقال إن المخابرات الروسية تعاونت مع المخابرات الغربية وبالذات وكالة المخابرات الأمريكية

(CIA). وقد خرج الرئيس جوهر دودايف إلى حقل مجاور لإجراء اتصال هاتفي عبر الأقمار الصناعية بأحد الوسطاء الدوليين، وتمّ رصدّه وإعطاء المعلومات للحوّامات الروسية التي قامت بإطلاق صاروخ موجه إلى مكان الجنرال دودايف فأصابت منه مقتلاً. وتُسنّت في ذلك الوقت أيضاً عدة غارات جوية على القيادة الشيشانية ومواقع الجنود... إلخ. وذلك في ٢٣ إبريل ١٩٩٦.

وتكتّمت قيادة الشيشان على مقتله، وقالت إنه أصيب بجراح بالغة، ولكنه لم يمت، وانتقلت روسيا بذلك لإصابة قائد حملتها الجنرال أناتولي رومانوف في نوفمبر ١٩٩٥ إصابة أفقدته الوعي لأشهرٍ طويلة، مات على إثرها.

ومما يؤكد تأمر الولايات المتحدة الأمريكية مع روسيا لاغتيال دودايف اجتماع الرئيس الأميركي بيل كلينتون مع الرئيس الروسي بوريس يلتسين في ٢١ نيسان (إبريل) ١٩٩٦، وإعلانه في المؤتمر الصحفي المشترك أنه «يعتبر جمهورية الشيشان جزءاً لا يتجزأ من روسيا». وقد كان الاجتماع بينهما قبل اغتيال جوهر دودايف بيومين فقط.

إن المسلمين في جميع أصقاع الأرض يجب أن يعلموا علم اليقين أن الخلافات بين روسيا وبين الغرب لا ترقى أبداً إلى الوقوف في صف مجموعة من المسلمين، مهضومي الحقوق، يعانون من الاضطهاد، والاستبداد، وكافة الجرائم التي تسجلها جمعيات حقوق الإنسان. بل إن الولايات المتحدة وأوروبا لم تقف مع المسلمين ضد الاتحاد السوفياتي إلا في فترة محدودة هي حرب المجاهدين في أفغانستان. ولم يكد الأفغان ينتصروا على روسيا إلا وقامت الولايات المتحدة بزرع الخلافات بين المجاهدين بواسطة عملائها والدول التي عملت معها ومن أجلها، ثم دبّروا مؤامرة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ للقضاء على أفغانستان طالبان، وللهجوم على الإسلام في كل مكان.

وبعد الاعتراف بوفاة دودايف اجتمع أهل الشيشان وانتخبوا أصلاً مسخادوف رئيساً لهم خلفاً لدودايف، واستمرت المقاومة. وكانت الخسائر الروسية

فوق ما تطبيقه إدارة يلتسين فبدأوا بلعبة المفاوضات. وتولى ألكسندر ليبيد سكرتير مجلس الأمن القومي الروسي المفاوضات. وليبيد مغولي الأصل، وكان متفاهماً، ومتعاطفاً إلى حدٍّ ما مع الشيشان. وكان يقول: «من المستحيل الانتصار على شعب يقاتل من أجل الحرية والاستقلال» كما قال للروس: «لا يمكنكم تدمير آلاف المنازل، وقتل أقربائهم وأطفالهم ونسائهم، وأن تبقوا مع ذلك دون عقاب أو انتقام».

ولهذا بعد أن أنفقت روسيا ٢١ مليار دولار في الحرب الشيشانية الطويلة (٢١ شهراً) اضطرت روسيا لعقد اتفاقية سلام في ٢٨ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩٦ وإعطاء الشيشان حق تقرير المصير بموجب استفتاء سيجري في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠١. وحتى ذلك الحين تبقى الشيشان على حكومتها وأوضاعها.

وتم الاتفاق على إجراء انتخابات جديدة في كانون الثاني (يناير) ١٩٩٧ في الشيشان لانتخاب رئيس جديد. وقد تمت بالفعل. وانتخب أصلان مسخادوف رئيساً وتمّ تغيير اسم العاصمة جروزني إلى جوهر (دودايف).

وثارت ثائرة كثير من الروس ضد هذا الانفصال للشيشان. واتهموا ألكسندر ليبيد بأنه يدبر انقلاباً ضد يلتسين. وبالفعل تم إقصاؤه والتعيتيم على مصيره.

وبدأ مسخادوف في تنظيم أمور بلاده والقضاء على العصابات التي كانت تختطف الأجانب وهي عصابات يمدّها اليهود بالمال مع تعاون مع الحكومة الروسية لتشيويه صورة الشيشان. وقد أدت حرب الشيشان الأولى إلى قتل ١٠٤ آلاف شيشاني أغلبهم من المدنيين. وقتل عشرات الآلاف من الروس وأغلبهم من العسكريين.

وقد أعلن الرئيس أصلان مسخادوف إقامة «جمهورية اتشكيريا الإسلامية» في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٧ وجعل مصدر قوانينها الإسلام والشريعة. وبذلك عادت الشيشان إلى ما كان أعلنه الشيخ شامل من إقامة دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية. وكانت دولة شامل تشمل الشيشان والداغستان

وأنغوشيا وأجزاء من المناطق الأخرى في شمال القوقاس، بينما كانت حكومة مسخادوف محصورة في الشيشان فقط، وإن كان قد وطدّ الصلات بالحركات الإسلامية في تلك البقاع.

وقد أدى هذا الإعلان إلى تأمر كل دول العالم عليه، واعتبر أصلان مسخادوف أصولياً ودولته أصولية. وقالت صحيفة لوس أنجلوس تايمز الأمريكية: «إن ظهور الاتجاهات المتطرفة في الشيشان تسبب مخاوف جديدة للمعتدلين بسبب دعوتهم للمسلمين في الداغستان للانضمام إليهم في حركة موحدة لإقامة الشريعة الإسلامية في كل القوقاس الشمالي.»

وبدأت الثورة في الداغستان، ودعمها القائد الميداني الشيشاني شامل باسييف الذي كبد الروس خسائر فادحة بعملياته الجريئة. وفي ٨ آب (أغسطس) ١٩٩٧، أعلنت جماعة إسلامية في الداغستان إقامة دولة إسلامية في جنوب الداغستان. وأدى ذلك إلى مزيد من المعارك، وازدياد مخاوف روسيا والغرب، بل والعالم كله من إقامة دولة إسلامية متطرفة حسب وصفهم. فاستخدمت روسيا جميع أسلحة الدمار الشامل في معاركها مع المسلمين في الداغستان والشيشان. وليس هذا غريباً عليها فتاريخها حافل بالمجازر منذ عهد إيفان الرهيب إلى لينين وستالين وتروتسكي، وأخيراً إلى عهد يلتسين المخمور والذي لا يكاد يفوق من سكرته.

وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٩ قامت روسيا بهجوم كاسح على الشيشان وأعلن مسخادوف في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٩ أن روسيا استخدمت الأسلحة الكيماوية المحرمة دولياً في الهجوم على الشيشان. وتمّ تدمير العاصمة غروزني للمرة الثانية.

وقد قامت روسيا بالاستيلاء على جروزني بعد أن دمرتها تدميراً تاماً كما استخدمت أكثر من مائة ألف جندي في تلك العمليات.

ولم يكن لروسيا أي مبرر، خاصة وأنها قد قامت بتوقيع اتفاقية سلام مع

أصلان مسخادوف نفسه عام ١٩٩٦. ولكن الروس طبعهم الغدر، كما وصفهم ابن فضلان وابن رسته والمسعودي وابن بطوطة منذ أكثر من ألف عام، مع الاعتراف بشجاعتهم ووحشيتهم.

وقد أدى الغزو الجديد عام ١٩٩٩ إلى قتل مئات الآلاف وتشريد أكثر من ربع مليون من سكان الشيشان الأبطال. واضطر مسخادوف إلى اللجوء إلى الغابات. وظهرت مجموعات فدائية عديدة أشهرها مجموعة شامل باسييف وأصحابه الذين قاموا بهجمات فدائية جريئة جداً انتقاماً من تدمير جروزني والمدن الشيشانية والذي قام بالهجوم على مدينة بيدنوفسك واستولى مقاتلوه على مقر البلدية ومديرية الشرطة. وتم هذا الهجوم في ١٤ يونيو (حزيران) ١٩٩٥. وتقع المدينة قريباً من موسكو. وقد قتل خلال معركة الاستيلاء على المدينة أكثر من مئة شخص والتجأ المهاجمون إلى المستشفى واحتجزوا فيه المرضى وعدداً من موظفي الدولة والشرطة. فأرسلت الحكومة الروسية وفوداً للمفاوضات وفي نفس الوقت قامت بهجوم مباغت فقتلوا كثيراً من المرضى والموظفين الروس مع بعض الشيشانيين. ولكن باسييف تمكن من الخروج هو وأصحابه بعد أن دمروا مدرّعتين روسيتين، ورفض أن يقتل الرهائن. واستطاع أن يخترق نقاط التفتيش الروسية بإعطاء رشاشي لهؤلاء الجنود (مائة دولار لكل فرد) الذين ساءت حالتهم المادية والمعنوية.

وقام باسييف أيضاً بعمليات في الداغستان عام ١٩٩٦ ثم تبعها بعملية الهجوم على مسرح في داخل موسكو عام ٢٠٠٢، وقامت روسيا بالهجوم على الخاطفين والمخطوفين بالغازات السامة فقتلت الخاطفين (بضعة رجال ونساء) وأكثر من مئة من المختطفين.

وفي مايو ٢٠٠٣ قامت مجموعة شامل باسييف باغتيال أحمد قادروف، عميل روسيا والذي عيّنته رئيساً للشيشان، وقامت بتزوير انتخابات من أجله. وقد شهد العالم الغربي بأنها انتخابات مزوّرة. وعيّنت روسيا بدلاً عنه ألو الخانوف

Alu Alkhanov في ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣، ولكن ابن أحمد قادروف عمل على إزاحته، وحلّ محله بقوة السلاح.

ومن ٣١ أغسطس قام شامل بالهجوم على محطة قطارات في موسكو وفي سبتمبر ٢٠٠٤ قام شامل ومجموعته باحتلال مدرسة في بيسلان Beslan في أوسيتيا الشمالية (وأكثرهم نصارى وروس وبالتالي موالون لروسيا). وجعل ١١٠٠ من الطلبة والأساتذة رهائن، فما كان من القوات الروسية إلا أن قامت بهجوم مباغت أثناء المفاوضات، وأدى ذلك إلى قتل ٣٣٥ من الرهائن وجرح ٥٥٠ منهم، وغالبيتهم من الأطفال... وهي أعمال تدلّ على حماقة القوات الروسية.

وانتقمت القوات الروسية لذلك باغتيال الرئيس الشرعي للشيشان أصلان مسخادوف في مارس (آذار) ٢٠٠٥، مع أن مسخادوف لم يكن يقرّ بالعمليات الفدائية ضد المدنيين، وكان يُعتبر معتدلاً نسبياً. لكن التعصب الروسي (ومثله في كثير من الأحيان الغربي) لا يعترف إلا بالعملاء فقط.

وسعت روسيا بكل وسائلها إلى اغتيال شامل باسييف، وأخيراً تمكنت من القضاء عليه في يولييه ٢٠٠٦. واعتبر ذلك نصراً كبيراً للرئيس بوتين ضد أخطر أعداء روسيا، وأكثرهم إثارة للرعب فيها في القرن الواحد والعشرين.

وقد تم تعيين عبد الحليم سيد اللاييف (Abdul khalim Saidwllayev) خلفاً لمسخادوف. وفي يونيه ٢٠٠٦ قامت القوات الروسية الخاصة باغتياله. وتولى عبده دوكو عمروف (Doku Umarov) وبدوره تمت تصفيته في ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧.

ولم يبق في الشيشان من القادة إلا من هو ميّت تحت الثرى، أو من لجأ إلى دولة خارج روسيا. وبطبيعة الحال بقى قادروف العميل ابن العميل. ولا تزال جروزني وجودرمس وكافة مدن الشيشان تعاني من الدمار، رغم الدعاية الكبيرة بإعادة البناء. وتقول روسيا إنها خصّصت مليار دولار لإعادة البناء في الشيشان منذ عام



٢٠٠٠ إلى نهاية عام ٢٠٠٧، وتعلّق على ذلك دائرة المعارف الويكيبيديا قائلة إن هذه المبالغ لم تصل أبداً إلى الشيشان. وإن ما صرف لا يزيد أبداً عن ٣٥٠ مليون دولار، وتمّ اختلاس مبالغ كبيرة منها.

ويبدو لي، أنّه ينبغي أن تهدأ الأمور حتّى يتمّ بناء الشيشان من جديد، كما ينبغي أن يُستفاد من الحرّية الدينية الموجودة الآن، وأن تحرص الشيشان وكلّ المناطق الإسلامية في روسيا الاتّحادية على الحصول على الحكم الذاتي المحلي، وأن تدير شؤونها الداخلية دون تدخّل من الحكومة المركزية. ويتمّ تقسيم الثروات الكبيرة وخاصة البترول والغاز بين الحكومة المركزية والجمهوريات المحلية، كما فعلت تارستان. وبالتالي يمكن أن تقوم نهضة إسلامية حقيقية محلية. ويمكن أن تنتشر المساجد والمدارس الإسلامية دون معارضة من روسيا، والدليل على ذلك افتتاح أكبر مسجد في أوروبا في الشيشان في أكتوبر ٢٠٠٨.

وطالما كانت الحرية الدينية موجودة، فلا بدّ من استغلال هذا الوضع في إعادة تجذير الدين بين الشعوب الإسلامية والامتداد بالدعوة إلى الروس وغيرهم.. ولا داعي للحروب التدميرية التي لا تبقي على شيء وتأتي على الأخضر واليابس. وبالصبر والمصابرة يمكن أن تحقّق هذه المناطق انتشار الإسلام بين المسلمين أنفسهم والعودة إلى تطبيقه والالتزام به، ثم بعد ذلك الانتشار بين غير المسلمين. ولا يحتاج الأمر إلى انتظارٍ طويل، بل يمكن أن يتزامن العمل الدعوي بين المسلمين لتجذير الإسلام وبين غير المسلمين لنشره بينهم، والله وليّ التوفيق.



## الفصل السادس عشر

### أنغوشيا وبقية مناطق القوقاس الشمالية

#### أنغوشيا Ingushia

لقد ارتبط تاريخ أنغوشيا بالشيشان ارتباطاً وثيقاً. فكلا الشعبين يرجعان إلى أصول واحدة ولغتهما متقاربتان جداً. وكان دخولها الإسلام في فترة متقاربة ابتداء من أواخر القرن السادس عشر الميلادي، ولم يأت القرن الثامن عشر إلا وجميع سكان الشيشان والأنغوش تقريباً، قد أسلموا.

وقد أقامت روسيا البلشفية الشيوعية مقاطعات عدّة في شمال القوقاس منها الشيشان ومنها أنغوشيا، وجعلتها مقاطعتين كلٌّ منهما ذات حكم ذاتي عام ١٩٢٤. وفي عام ١٩٣٤ دجّت روسيا المقاطعتين في جمهورية واحدة هي الشيشان - أنغوشيا. واستمرّت على ذلك إلى الحرب العالمية الثانية. وغضب ستالين على أهل الشيشان والأنغوش، وقام بعد الحرب مباشرة عام ١٩٤٤ بنفي هذه الشعوب وهي (١) الشيشان - أنغوشيا، (٢) تثار القرم، (٣) القرانشاي - بلكاريا. وهم كلهم مسلمون. وقد نفاهم من أوطانهم إلى مجاهل سيبيريا وفيافي قازاقستان. ومات في تلك المحنة ما بين ربع ونصف السكان. وبعد موت الطاغية ستالين حكم مجلس السوفييات الأعلى براءة هذه الشعوب من تهمة الخيانة ومعاونة النازي، وعاد أهل الشيشان وأنغوشيا إلى وطنهم بعد أن اقتطعت منه أراضي كثيرة لصالح جورجيا وأوسيتيا الشمالية. ولكن الشيشان والأنغوش أعادوا بناء وطنهم ومساجدهم منذ عام ١٩٥٧ وصبروا على المحنة.

واستمرت جمهورية الشيشان - أنغوشيا حتى عام ١٩٩١، ثم قامت روسيا

بجعلها جمهوريتين كلٌّ منهما ذات حكم ذاتي. وقد أوضحنا قصة الشيشان كاملة،  
فما هي قصة الأنغوش بعد الاستقلال؟

تقول المعلومات نقلاً من اليويكيبيديا (Wikipedia):

أنغوشيا جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن اتحاد الجمهوريات في روسيا.

عدد السكّان: ٤٦٨,٠٠٠.

العاصمة: ماجس Magas.

اللغات: الأنغوشية والروسية.

الدين: الإسلام.

وقد قامت روسيا بإعطاء مقاطعة برجورودني (Prigorodny) إلى جمهورية  
أوسيتيا الشمالية مما أدى إلى النزاع بينهما. ففي عام ١٩٩٢ تحرّكت القوّات  
الأنغوشية لاستعادة أراضيها. ولكن موسكو سارعت بإرسال قوّاتها الضخمة  
لطرّد القوّات الأنغوشية الصغيرة. وقد أثّرت أوضاع الشيشان وثورتها على  
الأنغوش، مما أدى إلى قيام بعض القلاقل والثورات المساندة للشيشان، والتي  
كانت السلطات الروسية تقضي عليها بسرعة. واستمرت حكومة الأنغوش في  
ولايتها لروسيا مما أدى بالثوّار عام ٢٠٠٤ إلى القيام بتفجيرات استهدفت بعض  
الوزراء الأنغوش، فنجحت في اغتيال أحدهم وإصابة الآخرين بجراح. والوضع  
بصورة عامة هادئ، ولكن التذمّر موجود.

أوسيتيا الشمالية: (North Ossetia)

يعتبر الأوسيتيون من العناصر الشركسية ويقطنون مرتفعات جبال  
القوقاس... وقد دخل سكّان القسم الشمالي من أوسيتيا في الإسلام بواسطة  
الدعاة إلى الله من الصوفية وخاصة من أصحاب الطريقة النقشبندية التي لها أعظم  
الأثر على سكّان القوقاس، بينما ظل كثير من سكان أوسيتيا الجنوبية على  
نصرانيتهم... فقامت روسيا البلشفية بضم أوسيتيا الجنوبية إلى جمهورية جورجيا،  
أما أوسيتيا الشمالية فجعلتها تتبعها مباشرة واستوطنها عدد كبير من الروس...

وأهل أوسيتيا الشمالية بالذات جنود مقاتلون أشداء، ولذا حرصت روسيا على إدخالهم الجيش السوفياتي. وقد تشكلت أوسيتيا الشمالية في يولييه ١٩٢٤ كمنطقة ذات حكم ذاتي ثم أصبحت جمهورية ذاتية في ديسمبر ١٩٢٦.

ومن أوسيتيا الشمالية تنبع أكثر روافد نهر (ترك)، ويبلغ عدد سكان الأوسيتين الشمالية والجنوبية ٥٤٠,٠٠٠ نسمة، منهم ١٥٠,٠٠٠ مسلم وهم سنة أحناف، وللطرق الصوفية تأثير قوي عليهم. ومساحتها ٨٠٠٠ كم²... أما العاصمة فهي (أردجو نيكيرزي)... (تختلف المراجع في عدد المسلمين اختلافاً كبيراً فكتاب «المسلمون في العالم» يحدد عدد المسلمين الأوسيتين بـ ٣٣٠ ألفاً) وكانت بداية الاحتلال الروسي لأوسيتيا الشمالية سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٤م.

وقد جاء عن أوسيتيا الشمالية في (الويكيبيديا Wikipedia) ما يلي:

جمهورية ضمن اتحاد الجمهوريات الروسية.

عدد السكان : ٧٠٩,٩٠٠.

العاصمة فلادي كاف كاز (Vladikavkaz)

الديانة : المسيحية (باعتبارها ديانة الأغلبية من الروس المستوطنين وبعض السكان الأصليين) ولكن المسلمين يشكلون أغلبية السكان الأصليين للمنطقة.

وتعتبر أوسيتيا الشمالية أقرب المناطق القوقاسية إلى سياسة موسكو، حيث إن القازاق الروس قد استوطنوها منذ فترة مبكرة. ولهذا فقد عملت موسكو على ترقيتها وجعلها منطقة صناعية هامة. وفي عام ١٩٩٢ قام النزاع بين الأنغوش والأوسيتيون. وقامت أوسيتيا بطرد عشرات الآلاف من الأنغوش (من أراضيهم التي أعطيت لأوسيتيا عام ١٩٤٤ عندما قام ستالين بنفي سكان الأنغوش والشيشان)... وهذه القضية تشكل بؤرة توتر وقلق. وعندما قام أنصار شامل باسييف بالهجوم على المدرسة في بيسلان Bislan واحتجاز الرهائن اتهم سكان أوسيتيا الأنغوش بأنهم ساعدوا في هذه العملية (سبتمبر ٢٠٠٤) والتي قتل من

جراً الهجوم الروسي لإنقاذهم أكثر من مئة شخص وجرح أكثر من ٣٥٠ وأغلبهم من الأطفال).

وتعاني أوسيتيا الشمالية أيضاً من عصابات إجرامية. وقد تمّ تفجير قنبلة في سوق في العاصمة فلادي كافاز عام ١٩٩٩ أدى إلى مقتل ستين شخصاً.

### قابرديار - بلكارديا Kabardino - Balkaria

تبلغ مساحتها ١٢.٥٠٠ كم مربعاً وعاصمتها مدينة (نلتشيك)، أما سكانها فلا يزيدون عن سبعمائة ألف نسمة كلهم تقريباً من المسلمين، الذين يعرفون باسم قبرطاي وهم قبيلتين القابرد والبلكار، ولكل منهم لغة خاصة به... وهم جميعاً من الشراكسة. ويشتهر القبرطاي بتربية الخيل ولهم عادات وتقاليد يحافظون عليها.

وقد اتهم ستالين البلكار بالتعاون مع الألمان في الحرب العالمية الثانية، وقام بقتل الآلاف منهم، ثم نفى شعب البلكار بأكمله إلى سيبيريا كما فعل بشعب القرم... وقد نفت الحكومة السوفياتية عنهم هذه التهمة في ٩ يناير ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، وسمح لهذا الشعب بالعودة إلى وطنه من منفاه في سيبيريا، وليس عام ١٩٥٧ عندما أُعيد الشاشان والأنغوش.

وقد أُقيمت جمهوريتهم التابعة مباشرة لموسكو سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م كمنطقة كاباردية ذات حكم ذاتي، ثم تحوّلت عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م إلى جمهورية الكابارد والبلكار ذات الحكم الذاتي.

معلومات عن القابرديار - بلكارديا (القبرطاي) من اليويكبيديا

جمهورية ضمن اتحاد الجمهوريات الروسية.

عدد السكان: ٩٠٠,٥٠٠.

العاصمة: نيلشيك (Nalchik) وتكتب أيضاً نلتشيك.

اللغات: القبارطاي، الروسية.

الأديان: الإسلام، المسيحية.

الإسلام هو دين السكان الأصليين، والمسيحية هي دين المستوطنين الروس.

في عام ١٩٩٢ اختار القبارطاي (القابرديار) أن ينفصلوا، ويكوّنوا لهم جمهورية خاصة بهم، لم يؤيدهم في ذلك سوى الشاشان، وهم جميعاً مسلمون. أما بلكاريا فأكثر سكّانها من المستوطنين الروس، وفي عام ١٩٩٦ أعلن القبارطاي استقلالهم، ولكن لم يتمّ تنفيذ هذا الاستقلال وقام شامل باسييف الثائر الشيشاني المشهور في أكتوبر عام ٢٠٠٥ بالهجوم على العاصمة نلتشيك مما أدى إلى مقتل العشرات من القوّات المسلّحة الروسية ومجموعة من المجاهدين الشيشان.

**الأديغة**

مقاطعة تتبع إقليم كراسنودار، وتشرف على البحر الأسود من الناحية الغربية وتجري فيها مياه نهر كوبان وروافده.

وتبلغ مساحتها ٧,٦٠٠ كم مربعاً، ويسكنها نصف مليون تقريباً (٤٠٤,٠٠٠ نسمة في إحصاء ١٩٧٩م) ٢١,٤٪ فقط من المسلمين<sup>(١)</sup> وهم من قبائل الأبخاز والبزادوغ والشايغ والحاتوقواي... وعاصمتهم مدينة مايكوب المشهورة بالثروات والصناعة النفطية... وأهم مرافئها مدينة سوفي ومدينة أنابا. وقد سيطر عليها الروس عام ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م... وتأسست مقاطعتهم سنة ١٣٤١هـ/١٩٢٢م تحت اسم منطقة الأديغة - الجركس، وأصبحت تعرف باسم منطقة الأديغة ذات الحكم الذاتي ابتداءً من عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

ينتمي الأديغة الأصليون إلى الأمة الجركسية، التي تضم الجركس والكابارد والأبازة... وكانت بالأمس كما يقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: تضم مليوني نسمة، هاجر معظمهم إلى الدولة العثمانية فراراً من الاضطهاد الديني الروسي. وقد تمّت الهجرة الكبرى عام ١٨٦٤ ومات مئات الآلاف منهم بسبب الجوع والأوبئة وأثناء الهجرة حيث كانت السفن الصغيرة التي تنقلهم تحمل أضعاف طاقتها فتغرق في البحر. ثم استقرّ من بقي منهم في الدولة العثمانية في أماكن متفرقة، ودخلوا في الجيش العثماني وفي خدمة الدولة حتى

(١) من كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»، بينما تذكر المصادر مثل كتاب «المسلمون في العالم» أنّهم يشكّلون ٧٠ بالمئة من السكّان.

وصلوا إلى قيادة الجيوش والمراكز القوية. كما ساهموا أيضاً في حرب الاستقلال التركية بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى. ويقول كتاب «تاريخ الشراكسة» تأليف خيرى أرسوى وآيصون قاماجي وترجمة فؤاد أحمد كامل: إن عدد الأديغة والعناصر الشركسية في تركيا في أواخر القرن العشرين ثلاثة ملايين. وهناك مجموعات أخرى في الأردن وسوريا ولبنان وفي مصر (الأبازة) ويوغسلافيا (السابقة) ولا يقل عددهم عن المليون.

والأديغة مثل بقية سكان القوقاس الشمالي مسلمون سنتيون أحناف، وقد دخلوا في الإسلام على يد الدعاة إلى الله من الطريقة الصوفية القادمة من الدولة العثمانية في القرن السابع عشر الميلادي. وقد استعمرها الروس منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. وتميز الاستعمار الروسي بأنه استيطاني مثل الاستعمار الإسرائيلي... وقد قام الروس بطرد الأديغة من موطنهم الأصلي وفر الكثير منهم إلى تركيا حتى أصبح الأديغة أقلية في وطنهم، وحسب إحصاء ١٩٧٩ الرسمي فإن الأديغة يشكلون فقط ٢١,٤ بالمائة بينما يشكل الروس والأوكرانيون والروس البيض والأرمن ٧٨,٦ بالمائة من السكّان.

وقد كانت لغة الأديغة تكتب بالحرف العربي، ولكن السلطات البلشفية قامت بإبداله إلى الحرف اللاتيني أولاً ثم إلى الحرف الروسي الكيريلي وذلك في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

#### منطقة كاراتشاي- الجركس ذات الحكم الذاتي

أنشئت هذه المنطقة في ١٢ أيار ١٩٢٢، وفي عام ١٩٢٦ قسمت إلى منطقتين هما منطقة الكاراتشاي ذات الحكم الذاتي ومحافظة الجركس... وفي ٣٠ أبريل ١٩٢٨م أعيد تجميعها تحت اسم منطقة كاراتشاي- الجركس ذات الحكم الذاتي. وعندما غضب ستالين على كثير من الشعوب الإسلامية مثل القرم والكابارد والشاشان أمر بنفي هذه الشعوب جميعاً إلى مجاهل سيبيريا مما أدى إلى وفاة مئات الآلاف منهم.



وقد قام ستالين في عام ١٩٤٤ بنفي شعب الكاراتشاي إلى مجاهل سيبيريا، كما فعل بالقرم والكابارد والشاشان... وأعيد تسمية منطقتهم إلى اسم منطقة الجركس ذات الحكم الذاتي.

وعندما قام مجلس السوفيات الأعلى بتبرئة هذه الشعوب من تهمة التعاون مع النازي التي ألصقها بهم ستالين الذي وصفوه بأنه من أكثر طغاة الأرض دموية وجبروتاً وتألهاً لنفسه أعيد اعتبار الكاراتشاي في عام ١٩٥٧، وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم وتأسست منطقة كاراتشاي- الجركس ذات الحكم الذاتي.

ونتيجة للاستعمار الاستيطاني الروسي فقد كان السكّان الأصليون يشكّلون أقلية في وطنهم؛ ففي إحصاء ١٩٥٩، كانوا يشكّلون ٤٣٪ فقط من السكّان، ازدادوا بسبب كثرة التناسل المشهورة بين المسلمين إلى ٤٩,٢٪ في إحصاء عام ١٩٧٩<sup>(١)</sup> ويشكّل الروس والأوكرانيون النسبة الباقية...

وقد دخل الإسلام إلى هذه البلاد بواسطة الطرق الصوفية والدعاة إلى الله من الأتراك العثمانيين والتتار في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وتبلغ مساحة هذه المنطقة ١٤,١٠٠ كم مربعاً، وعدد سكّانها أقل من نصف مليون (٣٦٩,٠٠٠ نسمة حسب إحصاء ١٩٧٩م).

وقد خضعت هذه المنطقة لحكم روسيا القيصرية إثر مؤتمر برلين المنعقد عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م. وقد تميّز الاستعمار الروسي بأنه استعمار استيطاني، ولا يزال الروس والأوكرانيون يشكّلون نصف السكّان (٥١٪) رغم الزيادة الكبيرة في التناسل بين المسلمين.

ويتألف السكّان المسلمون من ثلاث قوميات متميزة هي:

(١) الكاراتشاي: وهم منحدرين من الكيبتشاك ولغتهم تركية تشبه لغة

(١) من كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»... وتقول المصادر الأخرى مثل كتاب «المسلمون في العالم» إن المسلمين يشكّلون ٧٠٪ من سكّان الكاراتشاي- الجركس.

البلكار بلغ عددهم في إحصاء ١٩٧٩م ١٣١٠٧٤ نسمة... وقد اتهمهم ستالين عام ١٩٤٣ بالتعاون مع النازي، وقام بسبيهم ونفيهم إلى سيبيريا... ولم يعودوا إلى وطنهم إلا بعد أن ألغى مجلس السوفيات الأعلى هذا القرار سنة ١٩٥٧... وكما يقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي» (وبالرغم من سبي دام ١٥ عاماً في ظروف رهيبة، ومن حرمانهم من مدارسهم وصحافتهم، إلا أنهم قاوموا ببسالة محاولة الإبادة الجماعية هذه). ويقول المرجع المذكور في فقرة أخرى: (لقد كان الإسلام وحده هو الذي ثبت المنفيين في محتهم الرهيبة).

ولهذا نجد الكاراتشاي يتمسكون بدينهم الإسلامي بصورة ملفتة للنظر، كما أننا نجد الطرق الصوفية قد تغلغلت في صفوفهم وعمقت من إيمانهم.

(٢) الجركس: وهم من الإيبرو قوقاس، وينتمون إلى قبيلة البسلطة القريبة من الكابارد والأديجة (الأديغة)، ولغتهم قريبة جداً من لغة الكابارد... ويستخدمون اللغة الكاباردية كلغة كتابة.

وعدد الجركس في الاتحاد السوفياتي ٤٦,٥٠٠ وذلك في إحصاء ١٩٧٩م...

وقد هاجر عدد كبير منهم إلى تركيا بعد الاحتلال الروسي البلشفي لأراضيهم.

(٣) الأباظة: ويبلغ عددهم في الاتحاد السوفياتي ٣٠,٠٠٠ حسب إحصاء ١٩٧٩ منهم ٢٤,٠٠٠ في منطقة الكاراتشاي - الجركس... ولغتهم تكتب بالحرف الروسي حالياً بعد أن منعت الكتابة بالحرف العربي. وقد ظهر من الأباظة في مصر عدد من الكتاب والأدباء منهم الصحفي المرموق فكري أباظة والشاعر عزيز أباظة.

ولا يوجد في منطقة الكاراتشاي - الجركس بأكملها سوى أربعة مساجد مفتوحة للعبادة عام ١٩٧٩ ولكنها زادت بعد انحلال الاتحاد السوفياتي عام ١٩٩١، ولكن الإسلام الموازي كما يقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: «يتجذر بقوة نتيجة نشاط الطرق الصوفية».

يقول مؤلف كتاب «تاريخ الشراكسة»: إن مصطلح الشراكسة (الجركس) يطلق على ثلاثة معان:

(الأول): جميع شعوب القوقاس الشمالي من البحر الأسود إلى بحر قزوين (وقد اعتمده المؤلفان، وهو تعريف واسع جداً).

(الثاني): هو الاسم المشترك للأديغة والأبخاز والأويغ الذي يعيشون في شمال غرب القوقاز. ويرى كثير من الباحثين أن هؤلاء يشتركون في ثقافة واحدة، وليسوا مع هذا كلهم شراكسة.

(الثالث): هو شعب الأديغة الذي كان يعيش في شمال غرب القوقاز المطل على البحر الأسود.

وقد كوّن الشركس الدولة المملوكية المتأخرة في مصر والشام. وكانوا يجلبون كأطفال أرقاء، ثم يربون تربية عسكرية وإسلامية عربية ثقافياً. ويتولون مناصب الدولة بما فيها منصب السلطان. وقد قضى عليهم محمد علي باشا الألباني الذي أرسل إلى مصر من قبل الدولة العثمانية حتى يضبط أمورها. فدبر لرؤساء المماليك مأدبة في القلعة قتلهم فيها شرّاً قتلة، وبالتالي أسس دولته القوية.

### أوسيتيا الجنوبية South Ossetia

مقاطعة ضمن جمهورية جورجيا.

عدد السكان: ٧٠,٠٠٠.

العاصمة: شيكينفالي (Tskhinvali).

الديانة: غالبية السكان نصارى.

وقد قامت روسيا في أثناء الحكم الشيوعي بتقطيع أوصال أوسيتيا، فجعلت الجزء الجنوبي تابعاً لجورجيا، والجزء الشمالي تابعاً لها، لأن سكان الجزء الشمالي مسلمون. ثم جاءهم الروس المستوطنون المحتلون فصاروا هم الأغلبية.

يسعى الأوسيتيون الجنوبيون للاتحاد بإخوانهم في الشمال، وترفض ذلك جورجيا بشدة مما أدى إلى معارك متعددة، وعمليات إرهابية متكررة. وقد قامت جورجيا في ٥ أغسطس ٢٠٠٨ بقتل مئات المدنيين الأوسيتيين مما أدى إلى تدخل سريع من القوات الروسية، التي كالت الصاع صاعين لجورجيا. وتدخلت الولايات المتحدة وأوروبا لتهدئة الأمور، رغم وقوفهم مع جورجيا.

### أبخازيا (Abkhazia)

منطقة ذات حكم ذاتي تابعة لجورجيا حتى عام ١٩٩٢ ومستقلة بعد ذلك. العاصمة: سوخومي على البحر الأسود.  
عدد السكان: ٥٣٦,٠٠٠ قبل ١٩٩٢، وربع مليون فقط بعد عام ١٩٩٣.  
اللغات: الأبخازية والروسية.

الأبخاز هم من الشركس. وقد قامت روسيا السوفياتية بإعطاء هذه المنطقة إلى جورجيا وسكانها مسلمون. وقد استقلّ الأبخاز بحكم الواقع *de facto* عن جورجيا منذ عام ١٩٩٣، وقد أيدهم شامل باسييف بمجموعة من المجاهدين. ووقف الأبخاز أيضاً مع الشيشان في حرب استقلالها عام ١٩٩٤ ضد الروس. وقد وقفت روسيا في أول الأمر مع جورجيا ضد أبخازيا. ولكن بسبب سوء العلاقات بين الاثنين وتوترها منذ أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، فإن روسيا أوقفت تعاونها مع جورجيا، وتضغط عليها من حين لآخر بواسطة الأبخاز. ويوجد حوالي ثلاثمائة ألف من الأبخاز في تركيا، كما يوجد منهم عدة آلاف في كل من سوريا والأردن ومصر. ويعرفون هناك باسم الشركس كاسم جامع لهم. وقام الأبخاز مرات بالمطالبة بالاستقلال، ويبدو أن روسيا ستعترف باستقلالهم رداً على جورجيا وتدخلات حلف الناتو والاعتراف الغربي بالبان كوسوفو كدولة مستقلة عن صربيا. وقد أعلنت روسيا بالفعل موافقتها على استقلال أبخازيا بعد أن ساءت علاقتها مع جورجيا في أواخر عام ٢٠٠٨، كما أعلنت اعترافها باستقلال أوسيتيا الجنوبية.

## الفصل السابع عشر

### القوقاس الجنوبية

سبق القول في أن القوقاس تنقسم إلى قسمين، تفصلهما جبال القوقاس عالية الذرى، فما كان شمال هذه الجبال فهي القوقاس الشمالية وهي من أوربا. وما كان جنوبها فهي القوقاس الجنوبية وهي من آسيا. وقد سبق الحديث عن الشمالية وتنقسم الجنوبية إلى الجمهوريات التالية: (١) أذربيجان، (٢) أرمينية، (٣) جورجيا.

كما أن أذربيجان الإيرانية تدخل في تعريف القوقاس، والمناطق التركية على البحر الأسود كذلك تدخل في تعريف القوقاس.

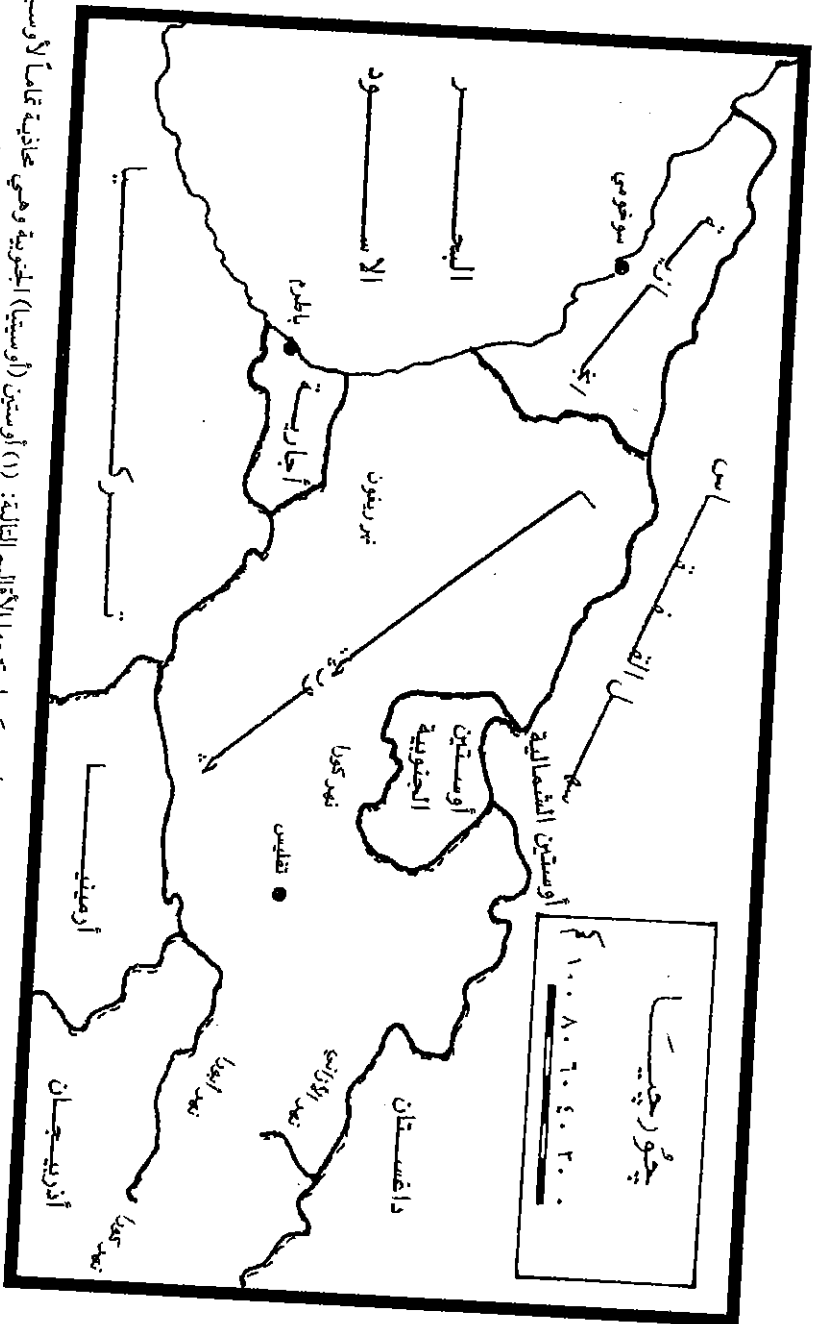
وسنفرّد الكلام عن أذربيجان لأهميتها ولأنها تشكل ثقلًا إسلاميًا في مجموعة القوقاس. بينا أرمينية نصرانية، وفيها أقلية صغيرة من المسلمين، وكذلك جورجيا ما عدا أبخازيا التي جُلّ بل كل سكّانها مسلمين، ولهذا أعلنت استقلالها وقد سبق الحديث عنها. وأجاريا وفيها عدد من المسلمين. وهي تسعى أيضاً للاستقلال.

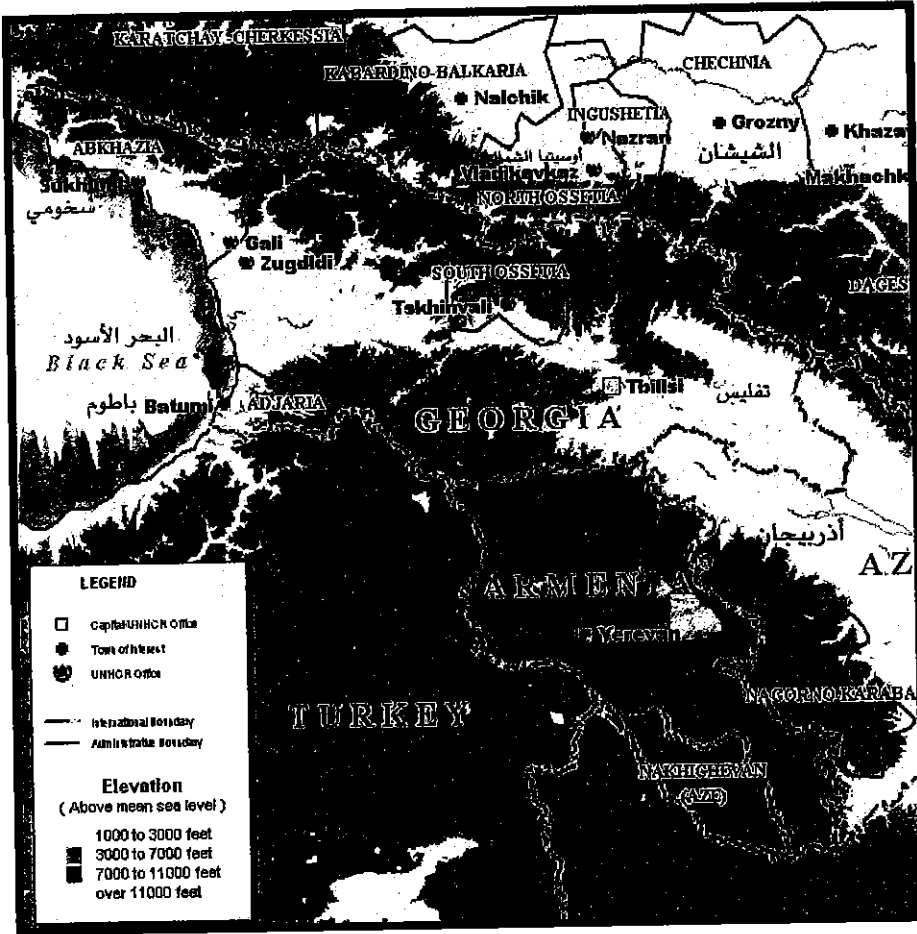
### جورجيا

وفي جورجيا حوالي مليون مسلم من سكّانها البالغين خمسة ملايين (إحصاء ١٩٧٩)، وأكثرهم في أبخازيا التي تعتبر مستقلة من الناحية الواقعية (defacto)، وليس قانونياً (de jure). وأهم مدنها تفليس (تبليسي Tbilisi) العاصمة التي تقع على نهر كورا، وباطوم (Batomi) الواقعة على البحر الأسود، وهي ميناءها الهام.

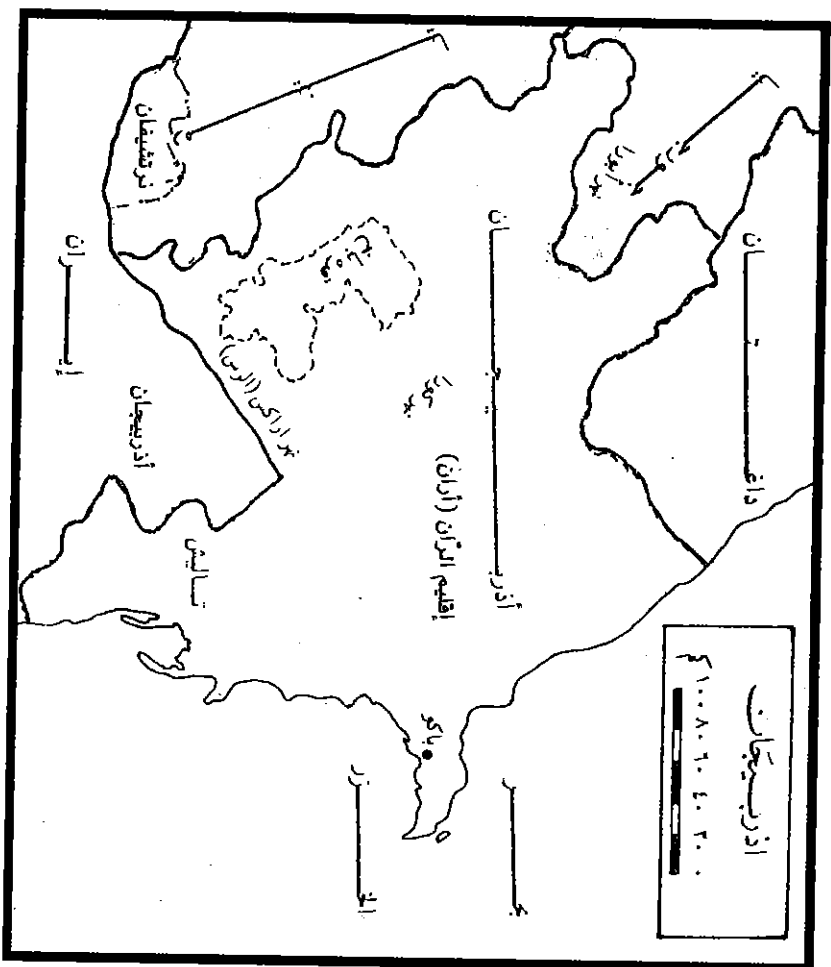
وقد كان المسلمون يحكمون جورجيا منذ فترة مبكرة جداً فقد فتحت تفليس لأول مرة في عهد عمر رضي الله عنه سنة ١٩هـ. واستطاع حبيب بن مسلمة وسليمان بن ربيعة اللذين أرسلهما عياض بن غنم لإخضاع بلاد الكرج وأرمينية أن يحققا هذه

خريطة لجمهورية جورجيا عاصمتها تبليسي (تفليس) التي تقع على بحر كورا وتتمها الأقاليم التالية: (١) أوستين (أوستيا) الجنوبية وهي عازية تماماً لأوسيتيا الشمالية (تابعة لروسيا) والبالية قرية بتوحيد الأقاليم. (٢) أبخازيا وعاصمتها سوخومي وعالية سكانها مسلمون، وهي شبه مستقلة فعلياً عن جورجيا. (٣) أجزرية وعاصمتها باتومي (Batumi) الميناء الهام على البحر الأسود، وكان عالية سكانها مسلمون. وأصبحوا حول الثلث فقط بعد أن سكنها الجورجيون (الكرج). وهناك مطالبات بالاستقلال ضمنية.





خريطة توضح جمهورية أرمينية وجمهورية جورجيا وحدودهما مع الدول المجاورة. والمشكلة أن إقليم نخشيفان، وأغلب سكانه من الأذربيجانيين (الأذربيين)، وهو إقليم تابع لأذربيجان، يقع من جنوب غرب جمهورية أرمينية. كما أن إقليم قره باخ (ناجارنو كارباخ) يقع في غرب جمهورية أذربيجان رغم أن أغلب سكانه من الأرمن. وأدى ذلك إلى الحروب بينهم وإلى طرد مئات الآلاف من السكان من كلا الجمهوريتين.



جمهورية أذربيجان وهي إقليم أران القديم يفصلها عن أذربيجان الإيرانية نهر الزرس (الأكس) وفيها إقليم قوقاز وعالية سكاكه كانت من الأرمين. كما أن إقليم نخجيفان (Nakhichevan) يقع جنوب أرمينية وعالية سكاكها من الأذربيجانيين المسلمين وكلا الإقليمين يقع أذربيجان مع سبب حروباً جده بين أرمينية وأذربيجان.



الانتصارات الباهرة. وقد كانت هذه المناطق تابعة للإمبراطورية البيزنطية. وبرز حبيب بن مسلمة كأحد أمهر قواد المسلمين في محاربة الروم البيزنطيين وفتح قاليقلا (وهي أرض روم = أرض الروم = أرزن الروم الواقعة اليوم في شرق تركيا) وخراسان وأرجيش في أرمينية، ثم فتح تفليس (عاصمة جورجيا = بلاد الكرج). ولما انتقضت هذه المناطق أعاد فتحها محمد بن مروان الأمير الأموي الشجاع.

وكانت جورجيا (بلاد الكرج) تتبع حكّام أرمينية من الأسرة البكرانية النصرانية، الذين أظهروا الولاء للخلافة الأموية ثم العباسية. والأرمن والكرج كاثوليك بينما البيزنطيون أرثوذكس، والخلاف بين المذهبين شديد إلى حدّ تكفير كل طائفة للأخرى. وفضل الأرمن والكرج حكم المسلمين المتسامح على حكم البيزنطيين المتشدد ضدهم.

وكانت أسرة بني ساج من بني شيبان اليمنيين من الأسر المرموقة في هذه المناطق، والتي تولّت الحكم لعدة قرون، ثم ظهر السلاجقة ثم جاء المغول، وأسلمت إيلخانية فارس (المغول من نسل هولاكو وحكموا فارس والعراق والقوقاس الجنوبية). ثم جاء التركمان بقيادة أوزون حسن. وحكم الجميع تيمورلنك ثم تقسّمت مملكته الواسعة بين أولاده وأحفاده، واستولت الخلافة العثمانية على هذه المناطق حتى ظهرت روسيا في أواخر القرن الثامن عشر واستعان بها الكرج والأرمن ووقعوا معها الاتفاقيات. وبالفعل تحوّلت جورجيا عام ١٨٠١ إلى مقاطعة روسية.

وتعد أبخازيا الواقعة في الشمال الغربي من جورجيا، وعلى ساحل البحر الأسود منطقة إسلامية وبعد أن استقلّت جورجيا عام ١٩٩١ تعتبر رسمياً تابعة لها، ولكنها في الواقع شبه مستقلة، وتُحارب من أجل استقلالها. وعاصمتها سوخومي وعدد سكّانها نصف مليون وهم من الشركس. وقد فتح أبخازيا محمد ابن مروان (أخ عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الجبّار). وصارت ثقافتهم

إسلامية - عربية، ويكتبون بالحرف العربي إلى عام ١٩٣٨ عندما فرضت روسيا الحرف اللاتيني عليهم، ثم بعد ذلك الحرف الروسي الكريلي عام ١٩٥٦.

ومن أشهر أمراء الكرج المسلمين، كما يقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»: «الأمير سنجاق بك زاده وإبراهيم بك، وحسين بك... ومن مشاهير الرجال (المتأخرين) الذين خرجوا من الكرج المرحوم حسن فهمي باشا ناظر العدالة السابق في تركيا... وكان من أعزّ أصدقائنا».

وقد تحدث ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» ج ٢/٣٥-٣٧ عن تفليس فقال (باختصار): (تفليس: بلد بأرمينية الأولى... وهي قديمة أزلية... افتتحها حبيب بن مسلمة صلحاً. وجاء في نص كتابه: «هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تفليس من رستاق منجليس، من حرزان الهرمز، بالأمان على أنفسهم ويبيعهم وصوامعهم. وليس لكم أن تجمعوا بين البيوتات تخفيفاً للجزية، ولا لنا أن نفرق بينها استكثاراً لها. ولنا نصيحتكم على أعداء الله ورسوله ما استطعتم، وقرى (أي ضيافة) المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا. وإن يقطع برجل من المسلمين عندكم (أي ينقطع ولا يستطيع السفر) فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المسلمين، إلا أن يحال دونهم (أي يجب أن يسلم إلى أدنى فرقة من المسلمين إلا إذا حال العدو دون ذلك). فإن أنبتم وأقمتم الصلاة، فإخواننا في الدين، وإلا فالجزية عليكم. وإن عرض للمسلمين شغل عنكم (ولم يستطيعوا نصركم) ففهركم عدوكم، فغير مأخوذين بذلك (أي لا مؤاخذه عليكم بذلك)، ولا هو ناقض عهدكم. شهد الله وملائكته وكفى بالله شهيداً» وهو عهد يدل على سماحة الإسلام والمسلمين. ومن أجل ذلك دخل الناس في دين الله أفواجاً.

ثم يقول ياقوت الحموي: «ولم تزل تفليس بأيدي المسلمين، وأسلم أهلها إلى أن خرج سنة ٥١٥هـ من الجبال المجاورة لتفليس، يقال لها جبال أبخاز (أبخازيا حالياً) جبل من النصارى، يقال لهم الكرج في جمع وافر، وأغاروا على ما يجاورهم

من بلاد الإسلام، وكان الولاية بها من قِبَل الملوك السلجوقية، قد اسْتُضعفوا لما تواتر عليها من اختلاف ملوكهم، وطلب كل واحد الملك لنفسه (وهو داء المسلمين منذ عهد معاوية إلى اليوم). وكان في هذه السنة الاختلاف بين محمود ومسعود ابني محمد بن ملكشاه (سلطان السلاجقة) وجعلها سوقاً بالانتفاء تارة إلى هذا وأخرى إلى هذا، وانشغلوا عن مصالح الثغور، فواقع الكرج، ولاية أرمينية، وقائع (أي قاموا بالهجوم على المسلمين في عدة معارك)، كان آخرها أن استظهر الكرج، وهزموا المسلمين، ونزلوا على تفليس فحاصروها حتى ملكوها عنوة، وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً (هذه عادة النصارى إذا استولوا على أرض المسلمين ذبحوهم، بينا المسلمون يعاملونهم بالحسنى، ثم هم بعد ذلك يكذبون ويتحدثون عن المسلمين القتلة المتوحشين، ووالله ما هناك قَتلة وفَجرة ومتوحشين غيرهم).

قال ياقوت: «وولاية الأمر (من المسلمين) مشتغلون عنها بشرب الخمر وارتكاب المحظور (وهو أمر للأسف يتكرر في كل زمان ومكان، ورأينا ذلك في الأندلس، وأخيراً في فلسطين والعراق) حتى قصدهم جلال الدين منكبرتي بن خوارزمشاه سنة ٦٢٣هـ (بعد أن استولى جنكيزخان على مملكة أبيه التي مزقتها الخلافات قبل جنكيزخان) وملك تفليس، وقتل الكرج، ووقعت له معهم وقائع انتصر عليهم فيها جميعاً». وجعل فيها والياً سيى السيرة والسريرة، فثار عليه أهل تفليس، ورجعوا تحت حكم الكرج. وهكذا عاقبة الظلم وسوء السيرة والسريرة وارتكاب الفواحش تؤدي إلى الانهزام أمام الأعداء، واستباحة الديار على مدى الأيام والأعصار.

وقد انتسب إلى تفليس جماعة من أهل العلم، منهم أبو أحمد حامد بن يوسف التفليسي، وكان من علماء الحديث ورحل من أجله، وخرج من دمشق سنة ٤٨٣هـ.

ومن الأطباء المؤلفين المسلمين من تفليس، الحكيم أبي الفضل حسن بن إبراهيم التفليسي<sup>(١)</sup>، وقد استخدم كتابه الملك يوسف بن عمر الرسولي، ملك اليمن، في كتابه الفذ «المعتمد في الأدوية المفردة». وهو ضمن مراجعه الهامة، بعد كتاب ابن البيطار «الجامع لقوى الأدوية والأغذية»، وكتاب ابن جزلة المعروف بـ«المنهاج».

### أجاريا

تقع في الجنوب الغربي من جورجيا على البحر الأسود، وعاصمتها مدينة باطوم الشهيرة وتصل إلى باطوم أنابيب النفط من باكو في أذربيجان، ومنها يصدر النفط إلى تركيا وأوربا. قال عنهم الأمير شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»: «وفي كرجستان (جورجيا) قوم يقال لهم أجارة، مسلمون أصابهم ضرر كبير أثناء هذه الحرب (أي الحرب العالمية الأولى)، وأفنى الروس أكثرهم بحدّ السيف بحجة ميلهم إلى الدولة العثمانية». انتهى كلام شكيب أرسلان.

وقد كانت أجاريا تابعة للدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨، عندما ضمتها روسيا بموجب معاهدة برلين. وفي عام ١٩٢٢ تأسست جمهورية أجاريا التابعة لجمهورية جورجيا. وهذه بدورها تابعة للاتحاد السوفياتي. وعندما استقلت جورجيا عام ١٩٩١ تبعتها أجاريا. وعدد سكانها ٣٥٥,٠٠٠ عام ١٩٧٩ منهم ١٥٠,٠٠٠ مسلم وجميعهم من السنة الأحناف. وبما أن أغلبية السكان من الجورجيين، فإن مطالبة المسلمين بالاستقلال بعيدة المنال. وقد واجهوا اضطهادات منذ العهد القيصري إلى اليوم. وهاجر الكثير منهم إلى الدولة العثمانية مثل الأبخاز والشركس.

(١) بحثت عن ترجمة لأبي الفضل حسن بن إبراهيم التفليسي في «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، وفي «أخبار الحكماء» لابن القفطي، وفي «معجم الأطباء، ذيل عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» للدكتور أحمد عيسى، فلم أظفر على ترجمته. وكذلك بحثت عنه في «الأعلام» للزركلي، و«معجم المؤلفين» لرضا كحّالة، فلم أجد له أثراً.

## أرمينية

لقد مرّت أرمينية بعصور تاريخية مختلفة. وقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» أن اسم أرمينية يرجع إلى أرmina بن لنطا بن أومر بن يافث بن نوح عليه السلام. وقد ذكرت اليوكيبديا (Wikipedia) أنه يقال: إن الاسم يرجع إلى أحد أحفاد النبي نوح (Noah) الذي جاء ذكره في العهد القديم. وأن سفينته قد رست على جبال أارات، وهي في أرمينية (حسب ما جاء في سفر التكوين من التوراة المحرّفة أن السفينة رست على جبل أارات).

وقد قامت بها عدة دول قديمة، ويقال إن أحد ملوكها الأوائل قد وسّع مملكته لتشمل كل القوقاس الجنوبي، أي أذربيجان وجورجيا وأرمينية الحالية. كما تشمل أيضاً أجزاء من شرق تركيا وجزءاً من أذربيجان الإيرانية ومملكة السريير وباب الأبواب (أي الداغستان).

وعندما يتحدث ياقوت عن أرمينية ذكرها بهذا التوسّع الجغرافي الذي ربما كان حقيقة، وربما كان أسطورة.

ولكن أرمينية كان لها حكّام محليّون وقعوا تحت سيطرة اليونان أولاً، ثم روما ثم الدولة البيزنطية. ومنذ العهد اليوناني استولى الفرس على أجزاء من أرمينية. وكان التنافس بين الدولة البيزنطية ودولة فارس كبيراً جداً على الاستيلاء على هذه المناطق. وعندما ظهر الإسلام وبدأت الفتوحات الإسلامية في هذه المناطق منذ عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم في عهد عثمان وعهد الإمام علي رضي الله عنه جميعاً، كانت هذه المناطق تقبل بالجزية، ثم تنتقض. ولكن في عهد الإمام علي كان الإسلام قد فشا في أهل الداغستان (باب الأبواب، دربند) كما فشا كذلك في أذربيجان الإيرانية وأذربيجان القوقاسية (أران)، كما بدأ الإسلام يظهر في تفليس (جورجيا) ومناطق من أرمينية.

وقد رحّب أهل أرمينية بالحكم الإسلامي الذي سمح لهم بممارسة شعائهم

بكل حرية، كما أنه أعطاهم حكماً ذاتياً كاملاً. واكتفى منهم بالجزية يؤدونها دون عسر أو مشقة، كما طلب منهم قرى (ضيافة) المسلم الذي ينزل بديارهم يوماً وليلة، وهو أمر أيضاً واجب على المسلمين. وقرى الضيف إلى ثلاث فما زاد فهو صدقة.

وأهل أرمينية يدينون بالنصرانية على مذهب ما يسمونه القديس جريجوري، وهو مذهب قبل الملكانية (دين ملك الروم) وقبل الكاثوليكية. فقد دخلت أرمينيا بكاملها عندما تنصّر ملكها عام ٣٠١ ميلادية بينما لم يتنصر الملك قسطنطين إلا عند وفاته عام ٣٣٦ ميلادية، رغم أنه ترأس مجمع نيقية عام ٣٢٦، وهو الذي حدّد الأناجيل المقبولة والعقائد المقبولة وما عداها فهو مرفوض. وكان من الطبيعي أن يعاني آلاف النصراري من الاضطهاد وخاصة أولئك الذين خالفوا عقيدة نيقية (وهي الآن مدينة أزيك في تركيا).

والخلاصة أن الأرمن وجدوا حريتهم مع الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة ثم في العهدين الأموي والعباسي. وتكوّنت إمارة نصرانية تحكمها الأسرة البقراتية، بدعم من الدولة العباسية التي وقفت ضد بعض الأمراء المسلمين الذين أرادوا إلغاء حكم هذه الأسرة النصرانية. لهذا كله كان الأرمن يظهرون الولاء للدولة العثمانية، وذهب كثير منهم إلى الشام بمعناه الواسع (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وكلها لا تزال فيها أقليات أرمينية إلى اليوم) كما ذهبوا إلى العراق وخاصة شباله، واستوطنوه، وذهبت مجموعات منهم إلى مصر واستوطنوها.

وكانت الدولة البيزنطية تحاول استعادة أرمينية وجورجيا من الخلافة الإسلامية، فلم تستطع، لأن سكّان تلك البلاد كانوا في كثير من الأحيان يقاتلون في صفّ المسلمين فلما ضعفت دولة الخلافة بدأ البيزنطيون يستعيدون بعض هذه المناطق. ولكن الله سخر السلاجقة لصدّهم. وقد حشد أمبراطور بيزنطة أرماتوس جيشاً ضخماً من الروم والبيزنطيين والفرنجة (الألمان) والكرج (الجورجيون الذين

تبعوه) والروس والأرمن. وكان عدد أفراد جيشه مائتي ألف رجل بكامل عددهم. وكان السلطان ألب أرسلان السلجوقي في تلك المنطقة مع خمسة عشر ألف رجل من جنوده، وبقيت جيوشه مفرقة في أماكن عدة، أهمها مناطق في إيران الحالية بسبب ثورات وانتفاضات ضد الدولة. فحاول ألب أرسلان أن يرضي الأمبراطور البيزنطي أرمانوس بالأموال، فرفض اعتماداً على قوته وضخامة جيشه وأن هذه الفرصة لن تتكرر؛ حيث يجد السلطان ألب أرسلان في هذا العدد الضئيل من جيشه، وتمت المعركة في ملاذ جرد عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م. واستعد السلطان وجنوده للشهادة، ولبسوا الأكفان، وقاتلوا قتال الأبطال فأنزل الله عليهم نصره (وأيدهم بجنود لم تروها). وكان نصراً مذهلاً رائعاً. ووقع أرمانوس في الأسر. فسأله السلطان: ما كنت فاعلاً بي إذا وقعت في أسرك؟ فقال: السيف، فقال: ما تظن أني فاعل؟ قال: السيف. وأخرى وهي بعيدة أن تمنّ عليّ وتستعملني وتجعلها يداً لك عندي. فقال السلطان: والله ما عزمت إلا على هذا. فأطلق سراحه، وأخذ الفدية، ووطّد أركان مملكته في كل تلك الأراضي، وأصبح أرمانوس أحد مندوبي السلطان ألب أرسلان.

وقامت في عهد السلاجقة دولة أرمنية صغيرة بقيادة الأمير ريون عام ١٠٨٠ ميلادية وتدين بالولاء للسلطان السلجوقي. واستمرت على ذلك لمدة ثلاثة قرون تقريباً.

وكان كثير من الأرمن والكرج يستعملون في الجيوش الإسلامية. وقد ظهر منهم في الدولة الفاطمية بدر الجمالي، الذي كان مملوكاً أرمنياً نصرانياً فأسلم. ثم صار والياً في دمشق سنة ٤٥٥هـ. وكان معه جيش من الأرمن، ثم تولى أمر عكا، فلما اضطربت الأمور في مصر؛ وكثرت الفتن في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر كاتب بدر الجمالي، على أن يأتي إلى مصر بجيشه، لأن جيش الدولة تفكك واستبدت قبيلة كتامة المغربية البربرية بالأمر... وكان الجيش الفاطمي مكوناً من أمم شتى، فاختلفوا وتقاتلوا واضطرب أمر الدولة اضطراباً عظيماً.

فلما استلم بدر الجمالي خطاب المستنصر نزل بجيشه من فلسطين إلى مصر وتحرك سراً واستولى على الدولة. وقام بمذابح لقادة الجيش الفاطمي من كتامة والسودان وغيرهم. وضبط الدولة وفرض الأمن بالقوة. وأعاد بناء القاهرة بعد أن خربت، وكان جيشه من الأرمن والكرج وغالبيتهم نصارى. وقال المقرئ في تاريخه: «فصار من حيثئذ معظم الجيش من الأرمن، وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية.» ثم تولى بعده ابنه الفاضل بن بدر الجمالي، فسار بسيرة أبيه من البطش بالأعداء وتأمين الدولة. وقد أعاد بدر الجمالي مكة والمدينة إلى الحكم الفاطمي، كما وطّد حكمهم في فلسطين والشام عامة. وأما اليمن فهي على المذهب الإسماعيلي الفاطمي، في ذلك الوقت، وبقيت موالية للدولة. وتولى بهرام الأرمني الوزارة وقيادة الجيش في عهد الحافظ سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م. وهو أول نصراني يتولى وزارة التفويض.

وهكذا نجد الدولة الفاطمية محكومة بالأرمن في عهد بدر الجمالي وعهد ابنه الفاضل، وكان الحكم لهما من دون الخليفة، والدولة والجيش والوزارة كلها لهما. ثم في حكم بهرام الأرمني النصراني الذي استقدم المزيد من الأرمن ونشر الكنائس الأرمنية في جميع مدن مصر وقرائها...

ثم استولى المغول والإيلخانية الفارسية (المغول الذين أسلموا وكانوا يحكمون فارس والعراق) على كل القوقاس بما فيه أرمينية. ثم استولى التركمان والماليك عليها. ثم جاءت الدولة العثمانية، فاستولت على معظم أراضي أرمينية، ما عدا المناطق الشرقية التي استولت عليها الدولة الصفوية. ولهذا عندما ظهرت روسيا لجأ الأرمن إلى القيصر الروسي، ووقعوا معه اتفاقيات في آخر القرن الثامن عشر. واستولت عليها روسيا بالفعل منذ بداية القرن التاسع عشر.

ورغم وقوع ثورات عدة ضد الحكم القيصري ثم البلشفي الشيوعي، إلا أن أرمينية وجورجيا كانت الأقل في الثورات والأكثر انسجاماً مع الحكم الروسي سواء كان قيصرياً أو بلشفيّاً شيوعياً.



وهناك ستة ملايين أرمني هاجروا منذ أزمة بعيدة إلى تركيا وسوريا ولبنان ومصر وفلسطين وإيران والعراق وخاصة في شماله، ثم إلى أوروبا والولايات المتحدة. ويوجد منهم في الولايات المتحدة ما يقارب أربعمئة ألف. ولهم نفوذ ولوبي قوي هناك. وهم يعادون تركيا بشكل صريح، ويتحدثون عن المذابح التي أقامتها لهم تركيا في آخر عهد عبد الحميد، وينسون ما قاموا به من مذابح للمسلمين آخرها في عام ١٩٩٢-١٩٩٤.

معلومات حديثة عن أرمنية:

جمهورية مستقلة منذ عام ١٩٩١. سكانها من الأرمن في غالبيتهم، وبينها وبين أذربيجان نزاع شديد حول إقليم قره باخ الذي تسكنه أغلبية أرمنية؛ وقد قامت حرب بين أذربيجان وأرمنية من أجلها عام ١٩٩٤، وانتقمت أرمنية بتهجير المسلمين منها، ويبلغ عددهم ستمائة ألف، طردوا إلى أذربيجان المجاورة، بعد أن تم ذبح الآلاف منهم... ولا يزال النزاع بين أذربيجان وأرمنية دون حل رغم الهدوء النسبي. والمشكلة أن روسيا وكل دول أوروبا والولايات المتحدة تقف في هذا النزاع مع أرمنية النصرانية ضد أذربيجان.

وتطالب أرمنية أيضاً بأراضي دخلت الجمهورية التركية (ومن قبل ذلك دخلت في الدولة العثمانية منذ مئات السنين) كما لا تزال تطالب بإقليم قره باخ (نيجارنو كاراباخ).

مساحة أرمنية حالياً ٢٩,٨٠٠ كم مربع، وسكانها في يولييه ٢٠٠٧ (تقديراً) ٣,٢٣٠,٠٠٠. الدخل القومي (٢٠٠٧) ١٦,٨ بليون، دخل الفرد ٥,٧٠٠ دولار، ولكن مستوى البطالة لا يزال في حدود ١٥ بالمئة، رغم تحسن الوضع منذ الاستقلال (١٩٩١).

وقد عانت أرمنية من الزلزال المدمر في سبيتاك (Spitak) عام ١٩٨٨، الذي قتل أكثر من ٢٥,٠٠٠ شخص وشرّد أكثر من نصف مليون. كما أن الحرب مع

أذربيجان أدت إلى هجرة كثير من الأرمن هناك إلى وطنهم الأصلي أرمينية. كما قامت أرمينية بطرد السكان الأذربيجانيين (الأذريين) بعد أن قتلت منهم الآلاف. وحدود أرمينية مع تركيا وأذربيجان لا تزال مغلقة بسبب اعتداءات أرمينية عليها. وبسبب مطالبة أرمينية بأراضي في كلا البلدين، وباتهام تركيا بإقامة المذابح للأرمن في آخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي اضطر إلى مواجهتهم بسبب خيانتهم. وقد اعترف الغربيون أنفسهم بأن الأرمن طوال تاريخهم في الدولة العثمانية كانوا يتمتعون بحقوق واسعة جداً، وكانت لهم حظوة في الدولة، ومكانة في التجارة، وحرية في الدين. كما اعترف الغربيون أنفسهم أن الحكم الإسلامي كان متسامحاً جداً مع الأرمن، مما جعلهم يتوطنون كثيراً من أراضي المسلمين، بل ويشاركوا في الحكم فيها كما حدث لبدر الجمالي وابنه فاضل بدر الجمالي اللذين حكما مصر والشام والحجاز. وكانت الجيوش الأرمينية هي عماد الدولة في عهدهما وكان أغلب الأرمن في الجيش نصارى.

والخلاصة أن الأرمن وغيرهم من الأمم النصرانية، بل والمجوسية، وجدوا العدل والأمن والأمان في دولة الإسلام، وشاركوا فيها، وصاروا جزءاً منها واستخدم حكام المسلمين جيوشاً من الصقالبة (السلافيون) كما أوضحناها في الفصل الثاني من الكتاب. وأسلم بعضهم طواعية وبقي بعضهم على دينهم النصراني وشعار المسلمين (لا إكراه في الدين).

وللأسف نجد أن النصارى على مدى تاريخهم مع المسلمين يحكمون بالسيف والاضطهاد للمسلمين متى انتصروا. ورغم ذلك كله، فإن الإعلام الغربي اليوم يكذب، ثم يكذب، ثم يكذب، ويزعم أن المسلمين على مدى تاريخهم كانوا طغاة مستبدين لغيرهم من الأمم، والحق غير ذلك. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

## الفصل الثامن عشر

### جمهورية أذربيجان

تُقسم أذربيجان حالياً إلى قسمين: قسم في شمال إيران وعاصمته تبريز، وقسم في الاتحاد السوفياتي السابق. وكان يُعرف بجمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفياتية وعاصمته باكو، ويفصل بينها نهر الرسّ، فما كان شمال نهر الرسّ فهو أَران (القديمة)، التي احتلّها الروس، وأصبحت تُعرف باسم جمهورية أذربيجان، وما كان جنوب النهر فهو إقليم أذربيجان التابع لجمهورية إيران الإسلامية...

#### فتح أذربيجان

في أثناء ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة في زمن عمر رضي الله عنه، بعث المغيرة بن شعبة، الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله إلى أذربيجان.. فسار حذيفة دون أن يعترضه معترض حتى وصل أربيل عاصمة أذربيجان عندئذٍ وعليها المرزبان (والمُرزيان لفظ فارسي يعني الحاكم أو الوالي)، فقاتله مرزبانها قتالاً شديداً، فلما رأى الهزيمة واقعة به لا محالة، طلب الصلح فأعطاه إياه الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان على أن يدفعوا للمسلمين ثمانمائة ألف درهم، وعلى أن لا يقتل المسلمون أحداً من أهل أربيل ولا يسبون، سواء كان من المقاتلة أو غيرهم، وعلى أن لا يُهدم بيت نار وهي معابدهم.. ولا يعرض لأكراد البلاسجان وسبلان وساترودان. وتمّ ذلك سنة ١٨هـ / ٦٣٩م.

ثم ولي عمر بن الخطاب أمر أذربيجان عتبة بن فرقد السلمي، فدخل عتبة أربيل العاصمة ووجدهم على العهد، ولكنه وجد أطراف أذربيجان قد انتقضت وغدرت، فغزاها وأخضعها؛ وقد حدثت عند تولي عتبة أمر أذربيجان حادثة

تزيدنا دلالة على زهد عمر رضي الله عنه وعدله، فقد أرسل له عتبة سفطين من خييص، وهو طعام لذيذ من طعام أهل أذربيجان فلما ذاق منه عمر قال:

إن هذا لطيب: هل كُلُّ المسلمين أكلَ منه شبعه، فقال رسول عتبة بن فرقد: لا يا أمير المؤمنين إنما هو شيء خصَّك به، فكتب إليه عمر يقول:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد. أما بعد، فإنه ليس من كدِّك ولا كدِّ أمك ولا كدِّ أبيك. لا نأكل إلا ما يشبع منه المسلمون في رحالهم..

فوعى عتبة بن فرقد وجميع ولاة عمر رضي الله عنه هذا الدرس البليغ.. فلم يكن أحد منهم يستطيع أن يأكل إلا مما يأكل منه المسلمون ويشبعون.. ولم يكن والٍ يستطيع أن يدخر لنفسه شيئاً.. وأكثرهم من أجلَّة الصحابة يخشون الله ويرقبونه، ثم بعد ذلك رقابة عمر الشديدة التي تقاسمهم ما لهم الخاص.

واليك نص العهد الذي أعطاه عتبة بن فرقد السلمي لأهل أذربيجان:

(هذا ما أعطى عتبة بن فرقد، عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها، وجبلها، وحواشيها، وشفارها، وأهل مللها كلهم، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم. (وبما له من عدل عظيم) ليس على صبي، ولا امرأة، ولا زمن (شيخ طاعن أو مريض بمرض مزمن)، ليس في يديه من الدنيا (وهو إعفاء لغير القادرين على دفع الجزية)، لهم ذلك ولمن سكن منهم. وعليهم قري (أي ضيافة)، ومن حَسَرَ منهم في سنة وُضِعَ عنه جزاء تلك السنة (أي لم يستطع دفع الجزية فترفع عنه الجزية في ذلك العام)، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك. ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه. وكتب جندب وشهد بكير بن عبد الله الليثي وسماك بن خرشة الأنصاري وكتب في ثنائي عشرة (أي سنة ١٨هـ/٦٣٨م).

## عدل الإسلام أهم أسباب انتشاره بين الأمم المغلوبة

وهكذا وجدت الأمم المغلوبة عدل الإسلام، فدخلت في دين الله أفواجاً، فلما تولى عثمان رضي الله عنه، وكان شيخاً كبيراً، تملّص الولاة من رقابة عمر وشدّته، فاكتزوا الأموال لأنفسهم، ومنهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي سمّاه الله فاسقاً، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

وكان عثمان رضي الله عنه قد ولى الوليد هذا أمر الكوفة، وإليه يعود أمر أذربيجان، وقزوين والديلم، فانقضت جميعها. فبعث إليهم الوليد أحد رجال الوغى، وهو الأشعث بن قيس الكندي؛ فأخضعهم وصالحهم على مثل صلح حذيفة بن اليمان وعتبة بن فرقد السلمى<sup>(١)</sup>.

(١) جاء في كتاب الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد زيني دحلان أن أهل أذربيجان نقضوا العهد سنة ٢٥هـ في أول عهد عثمان رضي الله عنه، فأمر عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط واليه على الكوفة، بأن يسير إليها، فسار الوليد وأغار على أهل موقان والبير والطيلسان، ففتح وغنم وسبى، فطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على ثمانمائة ألف درهم، وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً لأنهم نقضوا العهد أيضاً، ففتح بلادهم، ثم انصرف وقد ملأ يديه بالغنائم. وسار الوليد إلى الحديثة فنزل بها فأثاه بها كتاب عثمان يأمره بنجدة معاوية بن أبي سفيان الذي اجتمعت ضده حشود الروم، فأرسل الوليد سلمان بن ربيعة الباهلي في ثمانية آلاف لنجدة معاوية. فحضر مع جند الشام فشنوا الغارات على أرض الروم (في أرمينية). وكان على جند الشام حبيب بن مسلمة فاتح أرض أرمينية... حتى أتوا قالي قالا (قليقيليا أو أرض روم أو أرزن الروم، وهي اليوم في شرق تركيا مما يجاذي أرمينية السوفياتية). فحاصرها حبيب بن مسلمة حتى طلب أهلها الصلح، وطلب كثير من الروم الجلاء عنها، فسمح لهم بمغادرتها ولحقوا ببلاد الروم... ثم غزا حبيب ملاطية وسيواس والقصري وقونية لمواجهة حشود بطريق أرميناكس فهزمهم حبيب. وهاهنا نذكر بطولة زوجة حبيب بن مسلمة إذ سمعته زوجته أم عبد الله بنت يزيد الكلبيّة، وهو يقرر مهاجمة الروم ليلاً، فقالت له: أين موعدك؟ فقال لها: سراق الموريان، وهو بطريق أرميناكس، وقائد قواتهم. فدارت المعركة ووصل حبيب إلى السراق فوجد زوجته قد سبقته إلى سراق البطريق قائد قوات الروم، ويدها سيفها يقطر من دم الأعداء... وفتح حبيب بقية أراضي أرمينية الواسعة التي يقع جزء منها اليوم في شرق تركيا والجزء الآخر في جمهورية أرمينية السوفياتية.

ثم تولى أمر أذربيجان سعيد بن العاص الأموي فانتفضت عليه مناطق من أذربيجان فوجه إليها جرير بن عبد الله البجلي فأخضعها..

فلما تولى الإمام عليّ الخلافة، بعث الأشعث بن قيس الكندي إلى أذربيجان، فلما قدمها وجد أكثر أهلها قد أسلموا وقرأوا القرآن، فأنزل جماعة من العرب أربيل، عاصمة أذربيجان، ومصرها وبنى مسجدها...

وهكذا كانت عظمة هذا الدين لا تمضي سنوات قلائل حتى تصير البلاد المفتوحة بلاداً إسلامية، شديدة التمسك بأهداب هذا الدين وتعاليمه وآدابه.

#### اندماج العرب مع الأكراد

واندمج العرب في أهل هذه البلاد اندماجاً تاماً، وأصهروا إليهم، فما هي إلا فترة وجيزة حتى عد بنو رواد من الأزد (وهي قبيلة يمنية) كرداً من الأكراد لشدة اختلاطهم بهم وإصهارهم إليهم.

وتراخت قبضة الخلافة على أذربيجان بعد فتنة بابك الخرمي.. وكان آخر من وليها من الحكّام ذوي الهممة العالية بنو الساج الذين انتهى حكمهم في فتنة بابك الخرمي المجوسي.. ثم ظهر بعد بابك ديسم الخارجي، وهو أحد الخوارج المشهورين بشدة البأس والشجاعة، وحكم أذربيجان فترة من الزمن.. وهو عربي الأب كردي الأم.. ثم ظهرت الباطنية بظهور مرزبان بن محمد الديلمي...

#### ظهور الغز في أذربيجان.

وفي مستهل القرن الخامس الهجري احتل الغز، وهم قوم من بدو الترك، أذربيجان.. وذلك أيام الحكم السلجوقي التركي.. حتى أصبح أكثر سكّان أذربيجان أتراكاً.. واختلطت العناصر التركية بالعناصر الفارسية والعناصر العربية، لتشكل وحدة لا تنقسم عُراها، لحمتها الإسلام، وسداها الإيوان، تجمعها الأخوة في الله، فترتفع فوق الأجناس والألوان والمشارب والأهواء، والنزاعات

القومية، والشنشات العصبية، وتمثل قول رسول الله ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية»... «ودعوها فإنها منتنة» أي الدعوة القومية العنصرية.

### المغول

وخضعت أذربيجان لحكم خوارزم شاه جلال الدين، ثم جاء المغول في أعقابه بعد أن دمروا خوارزم، واجتاح هولاءكو أذربيجان في طريقه إلى بغداد في الواقعة المشهورة.. وحكمها الأتراك السلاجقة قبلهم لمدة قرنين من الزمان (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، في الوقت الذي أحكموا فيه سيطرتهم على الخلافة العباسية.

ثم بدأت الأمباطورية البيزنطية تمد سلطانها، فاحتلت مراغة في غرب أذربيجان ثم تبريز وهي عاصمة أذربيجان الإيرانية اليوم.

### الأتراك التركمان

وأعاد الأتراك التركمان مراغة وتبريز إلى حظيرة الحكم الإسلامي، وطهروها من بقايا حكم الروم والمغول.. واستمر حكمهم من سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م إلى سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م، وكانت عاصمة ملكهم تبريز.

### الدولة الصفوية وحروبها المدمرة مع الدولة العثمانية

ثم جاء بعدهم الصفويون الذين جعلوا أذربيجان من أهم معاقلهم. والدولة الصفوية هي أكبر دولة شيعية قامت في التاريخ الإسلامي، وامتد سلطانها حتى شمل أفغانستان وإيران الحالية وأجزاء واسعة من بلاد ما وراء النهر وخراسان وأذربيجان.

وكانت دولتهم تنافس الخلافة العثمانية، وللأسف كانت الحروب المدمرة كثيراً ما تدور رحاها بين الفريقين، فتارة يكون النصر للعثمانيين وتارة للصفويين... وفي جميع الحالات كانت أمة الإسلام هي الخاسرة، لأن الروس

كانوا يهتبلون الفرصة فيغيرون على مناطق واسعة من الأراضي الإسلامية الواقعة تحت سلطان الخلافة العثمانية أو تلك الواقعة تحت نفوذ الدولة الصفوية.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، «سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر».. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

فلما اشتدت الفرقة والخصام والتناذب والقتال بين المسلمين، سلط الله عليهم أعداءهم فأهلكوهم واحتلوا أرضهم وجعلوهم أذلة.

وهذا هو واقع المسلمين إلى يومنا هذا.. وهكذا أعادت الحرب العراقية الإيرانية نفس القصة المؤلمة المدمرة...

وكان الصفويون قد جعلوا أذربيل عاصمة لأذربيجان.. وكانت تبريز هي ميدان القتال بين العثمانيين والصفويين.. وقد دمّرت تبريز مراراً في هذه الحروب الطويلة التي امتدت عدّة قرون (احتلّ العثمانيون تبريز من سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م إلى سنة ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م، ثم احتلوها مرة أخرى سنة ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م إلى ١١٤٢هـ / ١٧٢٨م.. وقد حاول الروس احتلال شماص في أذربيجان الشمالية عام ١١٣٦هـ / ١٧٣٣م ثم عام ١١٨٥هـ / ١٧٧١م ثم ١٢١١هـ / ١٧٩٦م؛ وقد دافع عنها أهل البلاد وصدّوهم بمساعدة قوات الدولة العثمانية.

### الدولة القاجارية

وبعد انتهاء الدولة الصفوية وظهور الدولة القاجارية التي استمرت إلى بداية القرن العشرين أصبحت أذربيجان مقراً لولي عهد شاه إيران.

### احتلال الروس لأذربيجان

وفي عام ١٢١٦هـ / ١٨٠١م أخضعت روسيا القوقاز الجنوبية وجورجيا (بلاد الكرج) تحت حمايتها، وكان ذلك بطلب من أمير جورجيا وسكانها النصارى، يحتمون بروسيا من الدولة العثمانية والدولة الصفوية، وتحوّلت أذربيجان الشمالية



(أزان) إلى عدة خانيات، وكانت خانية كنجة هي هدف الروس الأول، ودافع عنها ملكها جواد خان بشجاعة فائقة حتى استشهد، واستشهد معه ألفان من جنوده.. وعندما احتلها الروس غيروا اسمها إلى اليزاوتيل (وهو اسم زوجة القيصر ألكسندر الأول). وخضعت بقية الخانيات واحدة إثر الأخرى فسقطت باكو وكوبا عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م، وخانية شكي عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م، وشماص سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م، وقارابغ سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م.

وأقام الروس فيها نظاماً إقطاعياً استعبادياً جائراً، وتولى النبلاء الروس حكم هذه الأراضي الإسلامية التي اعتبروها غنيمة لهم.

#### بريطانيا تتفق مع روسيا

وفي عام ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م، قدم الروس إلى تبريز بالاتفاق مع بريطانيا العظمى بحجة حماية الجاليات الأجنبية.. وهكذا كانت الدول الاستعمارية تتقاسم أرض المسلمين وتتفق على توزيع الغنائم والأسلاب حيناً وطوراً تختلف.. فلما أطال الروس مكثهم في تبريز اختلفوا مع بريطانيا.. وعند قيام الثورة البلشفية سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م، اضطرت روسيا إلى الانسحاب بقواتها لانشغالها بالثورة داخلياً.. ودخل الأتراك العثمانيون إلى أذربيجان الشمالية في أواخر عهدهم، وقبل نهاية الخلافة على يد أتاتورك...

وساعد الإنجليز ضابطاً إيرانياً يدعى رضا بهلوي، فاستولى على أذربيجان الجنوبية، وعيّنوه فيما بعد شاهاً لإيران.. ولما جاءت الحرب العالمية الثانية، ضاق رضا شاه بسيطرة الإنجليز عليه فتعاون مع الألمان، فلما انتهت الحرب خلعه الإنجليز، ووضعوا مكانه ابنه محمد رضا شاه، وهو شاه إيران الذي أطاحت به الثورة الإسلامية بقيادة آية الله الخميني.

### روسيا تحتل أذربيجان الإيرانية باتفاق مع الحلفاء

وقد احتلت روسيا بإيعاز من الحلفاء بريطانيا وفرنسا وأميركا أذربيجان سنة ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م، لأنهم كانوا يخشون من تعاون رضا شاه مع دول المحور في الحرب العالمية الثانية..

وقد حاول ستالين أن يطيل مكثه في أذربيجان الجنوبية، بعد أن ابتلع أذربيجان الشمالية الواقعة إلى اليوم في الاتحاد السوفياتي، ولكن دول الحلفاء اضطروه في النهاية إلى الانسحاب، وذلك في مايو سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م. وأعلن الاستقلال الذاتي لأذربيجان، ولكن سرعان ما عادت إلى إيران.

### تقسيم أذربيجان في العهود الإسلامية الأولى

قسمت أذربيجان بعد الفتح الإسلامي إلى كور (أقاليم أو مقاطعات) متعددة هي:

- (١) مراغة، (٢) ميانج، (٣) أردبيل، (٤) سيسر، (٥) برزه، (٦) تبريز، (٧) سابرخاست، (٨) مرند، (٩) خوي، (١٠) كولسر، (١١) موقان، (١٢) برزند، (١٣) جنزة، (١٤) باجروان، (١٥) نريز، (١٦) أرميه، (١٧) سلماس، (١٨) سندايبا، (١٩) البذ، (٢٠) أرم، (٢١) سراه، (٢٢) بلوان كرج، (٢٣) دسكياور، (٢٤) ماي بهرج.

وكانت أذربيجان، وأران (أذربيجان السوفياتية)، وأرمينية تخضع لعامل واحد. ومن أخص خصائص أذربيجان سلسلة الجبال الشاهقة التي ترتفع في أنحاء مختلفة من الأقاليم، وهي جبال سبلان غربي أردبيل، وجبال سهند جنوبي تبريز، وجبل أارات الأصغر مكونة الحد بين تركيا والعراق؛ ويقال إن جبل أارات هو الجودي الذي رست عليه سفينة نوح عليه السلام.

وتقع جبال أارات على شواطئ قزوين الغربية الجنوبية... وفيها بحيرة أرمية

ونهر دجلة. والأنهر التي تمر في أذربيجان هي:

- (١) روافد نهر سفيدرود.
- (٢) روافد نهر الرّس (نهر أردبيل).
- (٣) نهر دجلة ونهر الزاب الأصغر.
- (٤) أنهار أرمية.

أما أهم مدن أذربيجان فهي تبريز وأردبيل وأرميه وخوي. والسكان أتراك اختلطوا بالعناصر الفارسية والعربية، ولغتهم تركية أذربيجانية (أذرية، وكانت تُكتب بالحرف العربي؛ ثم فرض عليهم الروس أن يكتبوها بالحرف اللاتيني، ثم بعد ذلك بالحرف الروسي).

#### جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفياتية (أران)

جغرافيتها: تمتد حدود جمهورية أذربيجان من جهة الشمال بامتداد سلسلة جبال القوقاز الكبرى إلى جبال القوقاز الصغرى حتى جبال طاليش.. ومن جهة الشرق يحدها بحر قزوين (بحر الخزر أو بحر الديلم أو بحر جرجان).. وتجاورها من الشمال جمهورية داغستان ومن الشمال الغربي جمهوريتا أرمينية وجورجيا السوفياتيتان. أما من الجنوب فيفصلها عن أذربيجان الواقعة في إيران نهر الرس؛ ويعتبر هذا النهر الحد الفاصل بين إقليم أذربيجان في إيران وجمهورية أذربيجان السوفياتية.. كما يحدها من الجنوب الغربي الجمهورية التركية.

كانت مساحة أراضي أذربيجان السوفياتية عام ١٣٣٨هـ / ١٩١٩م وهي الفترة التي أعلن فيها قيام جمهورية مستقلة تبلغ ٩٤,١٣٧ كم<sup>٢</sup> ولكن مساحتها تضاءلت بعد ذلك بعد أن اقتطعت منها أراضي قاريازي وبورجالي، وأعطيت إلى جمهورية جورجيا، وأقاليم القازان وزنكيور التي أعطيت لجمهورية أرمينية.. وتبلغ مساحتها الحالية بعد اقتطاع هذه الأجزاء منها ٨٧,٠٠٠ كم<sup>٢</sup>. وتتميز أراضي أذربيجان بتنوع الطبيعة فيها تنوعاً كبيراً؛ ففي المناطق الشرقية والوسطى توجد سهول فسيحة.. وفي المنطقة الجنوبية توجد جبال شاهقة تغطيها الثلوج معظم السنة.

ويشقُّ أذربيجان نهران هما نهر الرس (أراس) ونهر كورا.. ومعظم المدن تقوم على ضفاف نهر كورا؛ أما نهر الرس فيشكل الحدود بين إقليم أذربيجان في إيران وجمهورية أذربيجان في الاتحاد السوفياتي..

وتقع باكو العاصمة على بحر قزوين الذي يعتبر روح الاقتصاد الأذربيجاني لارتباطه ببترول باكو ولغناه بالأسماك...  
ومن مدنها كنجة (التي أسموها اليزاوتول على اسم زوجة إمبراطور روسيا) وشاخى وقوبة وساليان ونوخي..

### ياقوت يصف أذربيجان

والنسبة إليها أذري أو أذربي.. ومعنى أذر بالفارسية: النار، والمعنى: بيت النار، أو خازن النار.. وحدَّ أذربيجان (الإيرانية) من برذعة شرقاً إلى أرزنجان غرباً. وتتصل شمالاً ببلاد الديلم والجيل والطرْم، ومن مدنها تبريز وهي قصبته. ومن مدنها المراغة وخوي وسلماس وأرمية وأردبيل ومرند... وصفها ياقوت بقوله: (وهو صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، وفيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه جمّة، ما رأيت ناحية أكثر بساتين منها، ولا أغزر مياهاً وعيوناً.. لا يحتاج السائر فيها إلى حمل إناء للماء، لأن المياه جارية تحت أقدامه أين توجه، وهو ماء بارد عذب صحيح. وأهلها صباح الوجوه حمرها رقاق البشرة، ولهم لغة يقال لها: الأذرية، لا يفهمها غيرهم.. وفي أهلها لين وحسن معاملة إلا أن البخل يغلب على طباعهم.. وهي بلاد فتنة وحروب ما خلت منها قط فلذلك أكثر مدنها خراب وقرها يباب).

ووصف أَرَّان بالفتح وتشديد الراء فقال: «ولاية واسعة وبلاد كثيرة منها، جنزة المشهورة باسم كنجة وبرذعة وبيلقان، وبين أذربيجان وأران نهر يقال له: الرس. كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من أَرَّان، وما كان جهة المشرق (والجنوب) فهو من أذربيجان.. وأَرَّان أيضاً قلعة من قلاع قزوين

مشهورة». قال نصر: «أزّان من أصقاع أرمينية يذكر مع سيجان، وهو أيضاً اسم الحرّان، يعمل بها الخبز قديماً. وعمن ينسب إلى أزّان عبد الخالق بن أبي المعلي الأزّاني الشافعي.. قدم الموصل وتفقه على أبي حامد بن يونس. واشتهر بالفقه الشافعي».

السكان: ذكر في تعداد سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م أن سكان أذربيجان السوفياتية قد بلغوا ٥,١١١,٠٠٠، وفي إحصاء ٧٩م بلغوا ٦,٢٨٠,٠٠٠ جلّهم من الأتراك الأذربيجانيين (الأذريون)، والأكراد الذين يقيمون في سفوح جبال أذربيجان، ثم التتار الذين يسكنون عند مصب نهر كورا، وفي مدينة باكو. وهناك مستعمرون روس أيضاً.

والنسبة إلى أذربيجان أذري، ويبلغ هؤلاء الأذريون خارج أذربيجان في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي قرابة ثلاثة ملايين حسب إحصاء سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٥٩م، ولعلّهم الآن قد وصلوا إلى خمسة ملايين. وبلغ عدد الأذربيجانيين (الأذريون) داخل أذربيجان السوفياتية حسب إحصاء ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م خمسة ملايين ونصف المليون وهم شيعة جعفرية وسُنّة... وهنا يتضح كيف يوحد الإسلام بين صفوف أبنائه حيث يلتحم الشيعة بالسُنّة التحاماً في مواجهة الغزو الروسي العسكري والاستعماري والثقافي. وقد بلغ السكان عام ٢٠٠٨ أكثر من ثمانية ملايين نسمة.

تاريخ أذربيجان السوفياتية: شملت دولة ميديا القديمة أجزاءً واسعة من أذربيجان، وذلك في القرن السابع قبل الميلاد وكانت عاصمة ميديا مدينة أكباتان، وهي همدان اليوم.. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، حلّ الفرس محلّ دولة ميديا، ثم جاء الإسكندر المقدوني في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم دولة ميديا أتروبتان بعد وفاة الإسكندر.. وبقيت إلى القرن الثالث بعد الميلاد حينما احتلّها الساسانيون الفرس، وظلّت تحت حكمهم حتى بزغ نور الإسلام وفتحها المسلمون تحت قيادة حذيفة بن اليمان صاحب سرّ رسول الله ﷺ وذلك في أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ؓ.. وكانت بداية تلك الفتوح سنة ١٨هـ / ٦٣٨م، كما تقدم.

وظلّت أذربيجان تحت الحكم الإسلامي منذ ذلك العهد إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي عندما بدأت روسيا تحتل أجزاء من القوقاس ومن أذربيجان. وقد خضعت أذربيجان لحكم روسيا القيصرية منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، ذلك عندما تحوّلت أذربيجان إلى مجموعة من الخانيات الصغيرة المتنافسة، فسهل عندئذ ابتلاعها رغم مقاومة الأهالي، بل وحكّامها المحليين مقاومة باسلة؛ ففي عام ١٢١٦هـ / ١٨٠١م فرضت روسيا القيصرية حمايتها على القوقاز الجنوبية وجورجيا (بلاد الكرج)، وهاجمت خانية كنجة في أذربيجان، ورغم دفاع ملكها جواد خان دفاعاً بطولياً واستشهاده في المعركة مع ألفين من جنوده البواسل، إلا أن نتيجة المعركة كانت لصالح القوات الإمبراطورية الروسية الضخمة.. وقد غيروا اسم كنجة إلى (اليزاوتيل) على اسم زوجة القيصر ألكسندر الأول...

وتوالى سقوط خانيات أذربيجان واحدة إثر الأخرى، فسقطت خانيتي باكو وكوبا سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م، وخانية شكي سنة ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م، وخانية شماص سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م، وخانية قاراباغ سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٢م، وقام الأهالي بمقاومات عدة، واغتالوا القائد العام الروسي الجنرال سيسيانوف، ولكن ذلك أدى إلى مزيد من البطش بهم.. ومصادرة أملاكهم وأراضيهم، حتى أن المؤرخ الروسي فاداييف الأستاذ بمعهد التاريخ والفلسفة في أكاديمية العلوم السوفياتية اعترف بما فعله أجداده من جرائم فقال:

«من الجليّ أن الذين حلّوا في الحكم محل الخانات من قوادنا المركزيين المختارين من بين الضباط الروس والذين أخذوا يطبقون في أذربيجان، وغيرها من المناطق الإسلامية التي احتلوها في تلك الفترة، السياسة القيصرية الرجعية الجائرة.. كانوا يعاملون الأهالي أسوأ معاملة، فكان الموظفون من رجال حكومة القيصر يرسون في القوقاز الجنوبية قواعد نظم الاستعمار بتنفيذهم أساليب عسكرية إقطاعية. وأما الادّعاء القائل بأن الثقافة الروسية قد أثرت على تطوّر الثقافة الأذرية منذ انضمام (احتلال) أذربيجان إلى روسيا فهراء لا يمثل الحقيقة».

الثورات: قامت ثورات متعددة ضد الحكم القيصري الاستبدادي في جميع المناطق الإسلامية ومنها أذربيجان، وعمّت الثورة روسيا والمناطق المحتلة عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م.

وفي تلك الفترة تكوّنت عدة تنظيمات إسلامية أهمها (جماعة المسلمين لعموم روسيا) التي ترأسها السياسي الأذري علي مروان طويجي باشا، وكان هدف هذه الجماعة ضمان الحقوق السياسية والوطنية والدينية لمسلمي روسيا.

وفي ٣ يونيو ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م أصدر القيصر نيقولا الثاني قراراً بحلّ البرلمان الروسي وتعديل قوانين الانتخابات، وكان نتيجة ذلك أن نقص عدد ممثلي المسلمين في روسيا (وهم يمثلون خمس السكان تقريباً) من عشرة أشخاص إلى ستة أشخاص فقط.

وقد جاء في منشور رئيس الوزراء الروسي آنذاك ستوليبين ١٣٢٨هـ / ١٩١٠م توضيحاً لسياسة روسيا القيصرية، ومن بعدها البلشفية، بل وجميع الدول المسيحية إزاء الإسلام والمسلمين. وجاء في هذا المنشور ما يلي: «إن الصراع القائم بين العالمين المسيحي والإسلامي لم ينشأ لسبب ديني فقط، بل علينا أن ندرك أنه صراع له طبيعة سياسية وثقافية دولية. وهنا يكمن بالتأكيد السر في النجاح الذي أحرزته الدعوة الإسلامية في الآونة الأخيرة. وإن لنجاح هذه الدعوة في وطننا روسيا لخطورة كبرى.. إذ إن مسلمي روسيا وإن كانوا ينقسمون فيما بينهم إلى شعوب وقبائل مختلفة تتحدث بلهجات تختلف عن بعضها بعض الاختلاف إلا أننا يجب ألا ننسى إطلاقاً أنهم جميعاً من أصل تركي واحد يتحدث الجميع نفس لغته».

وفي عام ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م بعد ثورة عام ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م الإصلاحية التي منحت المناطق المحتلة في روسيا حق تأليف الجمعيات السياسية، أرسل وزير الداخلية آنذاك مجذّر من إعطاء هذه التراخيص للمناطق الإسلامية، ويأمر بإلقاء

القبض على دعاة هذه الحركات الإسلامية (الخارجة على القانون)، واعتبرهم جواسيس وعملاء لدولة أجنبية، هي دولة الخلافة العثمانية.. وهي نفس النعمة التي تتكرر اليوم حتى في البلاد العربية نفسها.. وهو ما أدى ويؤدي، إلى اليوم، إلى الضغط بعنف على كل الحركات الإسلامية ودعاتها، ليس في روسيا فحسب، بل في دار الخلافة الإسلامية سابقاً، وفي شتى بلاد المسلمين التي تقوم هذه الأيام بحرب إبادة لدعاة الحركة الإسلامية.

وانفجرت الثورة في روسيا في فبراير سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م وذلك قبل استيلاء البلاشفة عليها وتحويلها لصالحهم في أكتوبر من نفس العام.. وانعقد مؤتمر مسلمي روسيا من الأول إلى العاشر من مايو، وقدموا مشروع (الاستقلال الداخلي لمسلمي روسيا ضمن كيان روسيا الفيدرالية)، وقد قدم المشروع محمد رسول زاده، ووافق عليه المؤتمر بأغلبية ساحقة.

وسقطت ثورة فبراير ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م واستولت عليها قوات لينين، وتحولت الثورة الديمقراطية إلى ثورة حمراء.. ووعد لينين المسلمين بحكومات مستقلة، وبالحرية الدينية التامة إن هم ساعدوا ثورته، وقاوموا قوات الأمير دينكين.. وفعلاً قام المسلمون بمحاربة قوات الحلفاء وقوات روسيا البيضاء وأعلنوا استقلال بلادهم في القوقاز، وفي بخارى، وفي أذربيجان. وأعلنت القوقاز استقلالها في مايو ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م، وتبعها جورجيا في ٢٦ مايو سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م، وحاول لينين إثارة الفتنة بالإيعاز إلى العناصر المتعاونة معه وبتدبير القوميسير الشيوعي ستيفان شادميان بمهمة عرقلة حركة الاستقلال، وإثارة الفتنة في باكو وما حولها، حتى يتمكن لينين من إخضاع قوات روسيا البيضاء في أماكن أخرى.. وكانت مذبحة مارس سنة ١٩١٨ التي استشهد فيها ١٨٠,٠٠٠ مسلم في باكو فقط، ثم تمت السيطرة على هذه الفتنة الشيوعية في ١٥ سبتمبر سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م بفضل معاونة القوات التركية (بقيادة نوري باشا)، رغم أن تركيا كانت قد خسرت الحرب تقريباً. وتوجهت القوات البريطانية من إيران لمحاربة الأتراك



واحتلت بريطانيا باكو، وتم انسحاب القوات التركية في نوفمبر ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م، ثم انسحب البريطانيون في أغسطس ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م، وسلّموها لقوات دينكين (روسيا البيضاء). ولكن نتيجة المقاومة المستمرة بقيت هذه الجمهورية مستقلة لمدة عامين عندما اجتاحتها قوات لينين في ٢٧ أبريل سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م، وكان الحلفاء ومؤتمر فرساي قد اعترفوا اعترافاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض باستقلال أذربيجان، واعترف بها لينين كذلك، بل وطلب منها مساعدته في القضاء على قوات روسيا البيضاء، فلما تمّ له التخلص من أعدائه قام بالهجوم عليها بجحافل قواته الحمراء، واحتلها في ٢٧ أبريل سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م. تماماً كما فعلت روسيا عندما دخلت أفغانستان وجاءت بعميل لها هو بابر كاركمل وأعلنته رئيساً للجمهورية وادّعت أنه طلب عونها رغم أنه لم يكن في أفغانستان عند دخول القوات الروسية، بل كان في روسيا. وتشكّلت جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفياتية في ٢٨ أبريل ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، ثم ضُمَّت مع جورجيا وأرمينيا في مارس ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٢م لتؤلف جمهورية القفقاس التي أُلغيت بعد ذلك وضمّت مباشرة إلى الاتحاد السوفياتي.

وكذلك فعل لينين منذ تسعين عاماً.. دخل أذربيجان بجحافلها واحتل القوقاز وقال إن لجنة الثورة هي التي طلبت معونته..

وإزدادت حدّة المقاومة الشعبية الإسلامية ضد هذا الغزو الروسي تماماً كما فعل المجاهدون الأفغان.. ولكن القوات الروسية ذات الأسلحة الفتاكة استطاعت أن تقضي على هذه المقاومة رغم قيام أكثر من ٥٢ ثورة قام بها الشعب الأذربيجاني المسلم، وكانت الدول الغربية تتفرج وتفرك يديها، وهي ترى الدب الروسي يبتلع الأراضي الإسلامية.. ويحتل عسكرياً دولاً مستقلة معترف بها من الدول الغربية ذاتها، بل ومن حكومة لينين نفسه. والشيء ذاته تفعله الدول الغربية اليوم مع فارق بسيط هي أنها تقوم باحتجاجات لفظية هزيلة وتفشل حتى في منع فرق الرياضة من الاشتراك في مباريات موسكو...

ويا لها من مهزلة تتعاون فيها روسيا وأمريكا ودول الغرب على ابتلاع بلاد المسلمين واقتسام ثرواتها.. ونحن للأسف لا نقرأ التاريخ (كما كان يقول الأعمور موسى ديان)، وإذا قرأناه لم نفقهه، وإذا فقهناه لم نتعظ به.

وتتبع جمهورية أذربيجان السوفياتية جمهوريتان هما قره باخ وناختيشفيان وما أكثر أسماء الجمهوريات في الاتحاد السوفياتي، وهي لا تزيد في الواقع عن مقاطعات ومستعمرات.

ثروات أذربيجان: أهم الثروات في أذربيجان هي البترول والغاز الطبيعي.. وقد ذكر المسعودي في «مروج الذهب» نפט باكو، وأن الخليفة العباسي المعتمد قد أقطعه لسكان باكو وما حولها.. وقد زارها المسعودي عام ٣٠٣هـ / ٩١٥م، وذكر أن نפט باكو يستخدم في الاستبصاح.. وقد ذكر القزويني في عجائب المخلوقات أن الخلافة العباسية قد خصّصت وزيراً لشؤون النفط وذلك منذ القرن الثالث الهجري...

وقد استخدم نפט باكو بصورة واسعة منذ القرن التاسع عشر، وفي عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٢م كان إنتاج باكو ٢٣,٠٠٠ طناً سنوياً، ومع بداية القرن العشرين أي عام ١٣١٩هـ / ١٩٠١م بلغ إنتاج نפט باكو ١٠,٧٧٠,٠٠٠ طناً سنوياً، وكان ذلك الإنتاج يعادل ٩٥٪ من جملة الإنتاج العالمي. ثم جاءت الثورة البلشفية، وتراجع إنتاج النفط في باكو وما حولها لتحتل الولايات المتحدة الصدارة في الإنتاج.. ولكن ما لبث الأمر أن استتب للثورة البلشفية، وبدأ إنتاج باكو يزداد مرة أخرى. وفي عام ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م، بلغ إنتاج أذربيجان من النفط ٢٢,٢٠٠,٠٠٠ طناً.. وبعد الحرب العالمية الثانية اكتشف البترول في حوض نهر كورا الواقع في أذربيجان، وازدادت كمية النفط المستخرجة من أذربيجان زيادة كبيرة، كما اكتشف الغاز الطبيعي في مناطق متعددة من أذربيجان، مثل قاراداغ مما جعل الاتحاد السوفياتي (في ذلك الحين) أكبر منتج للنفط وللغاز الطبيعي في

العالم... إذ كان ينتج ١٢ مليون برميل من النفط الخام تليه المملكة العربية السعودية التي تنتج قرابة عشرة ملايين برميل ثم الولايات المتحدة [إحصائيات ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م]، ولكن المملكة العربية السعودية هي أكبر مصدر للبترول في العالم. تليه روسيا. وأما الغاز فروسيا هي أكبر منتج ومصدر للغاز في العالم، تليها دولة قطر، والفرق بينها كبير وشاسع.

وإذا نظرنا لإنتاج النفط عام ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، فإننا نجد أن الاتحاد السوفياتي كان يقوم بإنتاج ٢٢,٦٪ من جملة الإنتاج العالمي، ومعظم هذا النفط السوفياتي من جمهورية أذربيجان من حقول باكو الشهيرة ومن جمهورية بشكيريا ومن التركستان.. وكلها مناطق إسلامية، وقد كان إنتاج الدول العربية يمثل ٣,٥٪ من الإنتاج العالمي.. وإذا دققنا النظر في إحصائيات البترول لهالنا أن نجد أن ٧٠٪ من إنتاج النفط في العالم، إنما تم استخراجها من بلاد المسلمين (٢٢,٦٪ لصالح روسيا) والباقي لصالح الدول الغربية.

أما إذا نظرنا إلى إحصائيات النفط المؤكد وجوده عام ١٩٧٩ فإننا سنذهل أيضاً للحقائق التالية، حيث نجد أن المملكة العربية السعودية هي أكبر مخزن لاحتياطي النفط في العالم، تليها الكويت، ويليه الاتحاد السوفياتي، وهو النفط الموجود أساساً في أذربيجان وفي الجمهوريات الإسلامية، التي يحتلها الاتحاد السوفياتي.. أما الآن (٢٠٠٨) فتعتبر المملكة العربية السعودية هي الأولى في المخزون، تليها العراق فروسيا الاتحادية.

وتحتفظ المملكة بـ ٢٦٪ من جملة المخزون العالمي للنفط، كما تحتفظ البلاد العربية الأخرى بـ ٢٦,٦٪ من جملة المخزون العالمي، وتمثل المناطق الإسلامية التي تحتلها روسيا وأهمها أذربيجان ١,٤٪ من جملة المخزون العالمي للنفط. أما الغاز فإن الاتحاد السوفياتي يأتي على رأس قائمة المنتجين، كما أن أراضيها تحتفظ بأكثر مخزون عالمي للغاز.. وهنا نلاحظ أيضاً أن معظم مناطق الغاز الطبيعي هي مناطق

إسلامية احتلتها روسيا منذ أيام القياصرة البيض. ولا تزال توالي احتلالها تحت حكم القياصرة الحمر.. وينقل أكثر نפט باكو عبر الأنابيب إلى باطوم على البحر الأسود..

وتنتج أذربيجان الحديد بالإضافة إلى البترول والغاز، ففي عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م أنتجت أذربيجان ٨١١,٠٠٠ طن من الصلب، ويبلغ إنتاجها حالياً مليون طن.. كما أن بها مراكز لصناعة المحركات وصناعة الصابون، وفيها مصادر وفيرة للكهرباء من النفط، ومن مساقط المياه. وتنتج أذربيجان أربعة ملايين طن من الألمنيوم وكمية كبيرة من النحاس.

أما محصولاتها الزراعية فتتمثل في القطن والكروم والأرز والشاي.. وثروتها الحيوانية وخاصة من الأبقار جيدة.. كما أنها تنتج الحرير الطبيعي من دودة القز، وهي تنتج أكثر من ثلاثة آلاف طن سنوياً من أفخر أنواع الحرير الطبيعي.

ونلاحظ تشابه ثروات البلاد الإسلامية الواقعة تحت الاستعمار الروسي، فمعظم أراضي التركستان المقسمة إلى خمس جمهوريات تنتج النفط، كما أنها تنتج الحديد والكروم.

أما مزارعها فتكاد تكون مخصصة لزراعة القطن والفواكه وشجرة التوت لتربية دود القز.

#### المعطيات الدينية

ومعظم هذه المناطق يسكنها العنصر التركي والأترك أغلبهم مسلمون سنة، إلا في أذربيجان حيث يشكل الشيعة ٧٠ إلى ٧٥ بالمائة من مجموع سكان أذربيجان المسلمين.. ويعتبر سكان ناخيتشيفان التابعة لأذربيجان من الشيعة الجعفرية الإمامية، ولا يوجد بينهم غير نسبة ضئيلة من السنة.

ويختلط السُّنة بالشيعة اختلاطاً قوياً ويتزاوجون معهم على غير ما يحدث في المناطق الأخرى من العالم الإسلامي.

ويشرف على مسلمي القفقاس إدارة رسمية روحية إسلامية، مركزها باكو؛ ويرأسها شيخ الإسلام (حجة الله باشازادة) وهو شيعي، ويساعده اثنان أحدهما شيعي والآخر سُني.. وتشرف هذه الإدارة على ١٦ مسجداً، هي التي أبقاها الشيوعيون لجميع القفقاس (أذربيجان وناخيتشيفان وقره باخ والداغستان والأوستين.. إلخ). بينما كان في أذربيجان وحدها قبل الاحتلال الروسي أكثر من ألفي مسجد و٧٨٦ مدرسة إسلامية، أما في العهد السوفياتي فلا توجد في القوقاز بأكمله أي مدرسة إسلامية.. ويسمح لبضعة أفراد في كل عام أن يذهبوا إلى طشقند أو بخارى للدراسة الدينية، حيث توجد هناك مدرستان لجميع مسلمي الاتحاد السوفياتي، يسمح فيها بتعليم شيء من القرآن والفقه. ويقول كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: في أذربيجان حوالي المليون من بيوت الصلاة السرية والثلاثمائة من المراكز السرية المقصودة بقوة، والتي تتمتع بنفوذ خاص».

«ويقوم بالدور الرئيسي في الدعوة إلى الإسلام سرّاً بين الشيعة (السادة) الذين ينتسبون إلى سبطي النبي ﷺ الحسن والحسين.. أما في المناطق السنية فإن مردي الطريقة النقشبندية هم الذين يضطلعون بدور الدعوة السرية إلى الإسلام».

وكانت السلطات الروسية قلقة من تزايد الاتجاهات الدينية لدى الشباب المسلم في جميع أنحاء الاتحاد السوفياتي، وخاصة في أذربيجان حيث تنتشر أماكن العبادة السرية، ويجتمع الشباب للصلاة ولتعلم القرآن على يد الشيوخ<sup>(١)</sup>..

ومما كان يزيد في قلق السلطات أن هناك عدداً من الشباب المنخرط في الحزب الشيوعي اكتشف وهو يؤدي الصلاة ويتعلم القرآن..

(١) بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ واستقلال هذه الجمهوريات المتعددة ومنها أذربيجان، سُمح للإسلام بالظهور وتمّ بناء مئات المساجد ودور العبادة والمدارس الدينية. وإن كان هناك خوف شديد مما يُسمى التطرف الديني.

وتقول المصادر الرسمية السوفياتية: إن الشعور الديني أقوى في المدن، لا سيما في باكو مما هو في الأرياف، على عكس ما كان متوقفاً، حيث خضعت باكو لتأثيرات الحزب الشيوعي الأذربيجاني (همة) حتى من قبل قيام الثورة البلشفية.. وواجهت باكو حرب إبادة حقيقية لكل المعتقدات الدينية.. حتى كانت التقارير السابقة تدعي أنها قضت على الإسلام في باكو قضاء مبرماً.. وها هي اليوم تفتاجاً بهذه النهضة الإسلامية التي جعلت باكو أكثر المناطق عودة إلى الإسلام.. والوضع بعد الاستقلال عام ١٩٩١ متحسن، والحرية الدينية متوفرة، وعدد المساجد يزداد ويحتاج الأمر إلى نشاط دعوي قوي.

وتقول المصادر الرسمية السوفياتية كما يذكرها كتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»: بقدر ما تظهر الإدارة الروحية الرسمية للمسلمين السنة ولاءها الظاهر (غير الحقيقي) للسلطات السوفياتية، بقدر ذلك تجاهها الطرق الصوفية من خلال موقف شديد المحافظة، وغير مهادن، في شعوره تجاه الغرياء الكفرة..

وتلاحظ هذه التقارير الرسمية التقارب، بل التعاون الحقيقي بين المسلمين الشيعة والسنة، وذلك لمواجهة الدعاية الشيوعية الإلحادية التي تبثها السلطات في المدارس والمعاهد وكافة أجهزة الإعلام..

جمهورية ناخيتشيفان الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي: وتضم جمهورية أذربيجان جمهوريتين صغيرتين ذات حكم ذاتي هما ناخيتشيفان وقره باخ، وقد أنشئت جمهورية ناخيتشيفان في ٩ فبراير ١٩٢٥م على مساحة ٥٥٠٠ كم مربعاً. وعاصمتها ناخيتشيفان.. وعدد سكانها ٢٣٩,٠٠٠ نسمة (حسب إحصاء ١٩٧٩).. ورغم أن هذه الجمهورية تقع في وسط أراضي أرمينية إلا أنها تابعة إدارياً لأذربيجان السوفياتية. ويشكل المسلمون الأذربيجانيون أغلبية السكان المطلقة ٩٦,٢ بالمائة.. ولا يزيد عدد الأرمن حسب إحصاء ١٩٧٩ م عن ٣١٠٠ شخص فقط، وكذلك الروس الذين بلغ عددهم ٣٨٠٠ شخص في إحصاء ١٩٧٩ م.

منطقة قرة باخ (كاراباخ): تقع هذه المنطقة في جبال الكاراباخ، وقد كان أغلب السكان ولا يزالون من الأرمن.. وإن كان عدد الأذربيجانيين يزداد باضطراد. وهي كالجزيرة المحاطة بالأذربيجانيين والأتراك المسلمين من كل جانب، وبلغ عدد السكان ١٦١,٠٠٠ في إحصاء ١٩٧٩، ويشكل الأرمن ٧٦٪ من السكان بينما يشكل الأذريون (الأذربيجانيون) ٢٣٪ من السكان.

وهذه المنطقة هي منطقة نزاع مستمر بين جمهورية أذربيجان وبين أرمينيا التي تطالب بها. وقد دعمت روسيا إلى حد كبير مطالب الأرمن. وقامت المناوشات والحروب بين الجنانين (أذربيجان وأرمينية)، وقُتل كثير من المدنيين. كما قامت أرمينية باضطهاد المسلمين الموجودين فيها. وقد هاجروا منها إلى تركيا وإلى أذربيجان. ويقول التقرير الصادر عن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (منشور على الانترنت عن طريق جوجل): إن ستمائة ألف من المسلمين ذوي الأصول الأذربيجانية قد طُردوا من أرمينية إلى أذربيجان في الأعوام الأخيرة (أي بعد حرب عام ١٩٩٤ بين أذربيجان وأرمينية)، وإن روسيا قد أعطت قبل الاستقلال (عام ١٩٩١) أكثر من ١٦ بالمائة من الأراضي الأذربيجانية إلى أرمينية وجورجيا.

ويبلغ عدد السكان في يوليو ٢٠٠٨ (تقديراً) ٨,١٧٧,٧١٧ نسمة. والسكان من الفئة الشبابية والأطفال (متوسط عمر السكان ٢٧,٩ سنة). وهناك زيادة طفيفة في السكان سنوياً ٠,٧٢ بالمائة. والولادات ١٧,٥ من كل ألف من السكان، والوفيات ٨,٣ بالألف من السكان. ونسبة وفيات الأطفال الرضع عالية حيث تبلغ ٥٦,٤ من كل ألف من المواليد. وهي تشابه في ذلك الوضع في معظم بلدان العالم الثالث. ومعدل الأعمار ٦٦ سنة (للذكور ٦٢ سنة وللإناث ٧١ سنة).

وتبلغ مساحة أذربيجان ٨٦,٠٠٠ كم مربع (بعد اقتطاع ١٦ بالمائة من أراضيها)، وتحاذي جمهورية أذربيجان إيران من الجنوب، وبحر قزوين من الشرق، والداغستان من الشمال الشرقي، وجورجيا من الشمال الغربي، وأرمينية من الغرب.

وتتمتع أذربيجان بثروات كبيرة من البترول والغاز والحديد والمعادن الأخرى. وفيها صناعات بتروكيماوية جيدة. وأراضي زراعية خصبة (الأراضي المزروعة ١٤,٥٥٠ كم<sup>٢</sup>)، ولكنها تعاني من التلوث في منطقة بحر قزوين خاصة. كما أن استخدام الـ DDT يؤدي إلى نوع من التسمم والتلوث البيئي. كما تستخدم مواد كيماوية لإزالة الفطريات على القطن والنباتات الأخرى بكثرة مما يؤدي إلى تلوث آخر.

والخلاصة أن التلوث من البترول وصناعته والمبيدات الحشرية وإزالة بعض الغابات كبير جداً في أذربيجان.

ويشكل المسلمون الأذريون ٩٠,٦ بالمائة، والداغستانيون ٢,٢ بالمائة، والروس ١,٨ بالمائة، والأرمن ١,٥ بالمائة. والديانة الرسمية بعد الاستقلال (١٩٩١) هي الإسلام، وهي ديانة ٩٣,٤ بالمائة من السكان. (إحصاء ١٩٩٥).

ولا تكاد توجد أمية (نسبة من يعرفون القراءة والكتابة ٩٨,٨ بالمائة).

ويرأسها إلهام عالييف من عام ٢٠٠٣ إلى الآن. وقد تولى الحكم بعد والده حيدر عالييف الذي عاصر العهد السوفياتي. ولها مجلس برلمان (ملي مجلس ينتخب أعضاؤه كل خمس سنوات).

ويتفشى الفساد الإداري والرشوة في أذربيجان مثل معظم دول العالم الثالث. مع أن الدخل القومي عالٍ جداً (٦٥,٤٧ بليون دولار عام ٢٠٠٧). وقد انخفض إنتاج البترول حتى عام ١٩٩٧، ثم زاد زيادة كبيرة باكتشاف حقول جديدة على ساحل بحر قزوين الأذربيجاني. وبدأت إقامة أنابيب بترول إلى تركيا، وستتم عام ٢٠١٠. ويعتقد أن الدخل القومي سيتضاعف (هذا بدون حساب زيادة سعر البترول الذي ارتفع بشكل كبير جداً عام ٢٠٠٨). وفي عام ٢٠٠٧ وصل معدّل دخل الفرد إلى ٧,٧٠٠ دولار بحساب الناتج القومي. وبطبيعة الحال لا يصل إلى الشعب إلا مبالغ زهيدة من هذه المبالغ الخرافية. وإن كان الوضع الاقتصادي



للناس قد شهد تحسناً كبيراً منذ بداية القرن الواحد والعشرين. حيث أن البطالة تدرّجت إلى ٤,٣ بالمائة عام ٢٠٠٧. ولكن خط الفقر وما دونه يمثل ٢٤ بالمائة من السكّان عام ٢٠٠٥.

وتنتج أذربيجان حوالي مليون برميل من النفط يومياً، وتصدر حوالي ثمانمائة ألف برميل يومياً. والثروة النفطية والغاز تشكّل أهم دخل أذربيجان مع أن النفط قد استخراج منذ أقدم الأزمنة (النفط) واستخدم بشكل مكثّف من أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.



## المراجع

- ١- ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، ط٣، بيروت ١٩٩٦.
- ٢- ابن فضلان (أحمد بن فضلان بن العباس)، رحلة ابن فضلان، تحقيق د. سامي الدهان وتعليق شاكر لعبيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.
- ٣- ابن رسته (أحمد بن عمر)، الأعلام النفيسة، وضع الحواشي خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
- ٤- ابن خردادبه (عبيد الله بن عبد الله)، المسالك والممالك، تحقيق دي خويه، لايدن - هولنده ١٨٨٩، تصوير مكتبة المثنى - بغداد.
- ٥- ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي)، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٦- د. أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، الدار المصرية - اللبنانية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠.
- ٧- أحمد زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، المكتبة التجارية الكبرى.
- ٨- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- ٩- أحمد طلعت، المسلمون في روسيا، دار النشر للجامعيين، مصر.
- ١٠- أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف، مصر.
- ١١- إحسان عبد الحميد خُن، الشيشان حرب إبادة وجريمة عصر، دار المناهل - دمشق، سوريا.
- ١٢- آباد شاه، المسلمون في ظلال الاتحاد السوفياتي، تعريب د. خالد محمد، صورة المخطوط.
- ١٣- جمال الدين الداغستاني الغازي غموق، الآداب المرضية في الطريقة النقشبندية، صورة مخطوط من مكتبة بطرسبورج، روسيا، ١٩٠٥.
- ١٤- جون برادلي، احتلال الروس للقفقاس، ترجمة صادر إبراهيم عودة، الناشر د. طه سلطان مراد، الزرقاء - الأردن، ١٩٨٧.
- ١٥- حيدر بامات، القفقاس والثورة الروسية - الطابع السياسي، ترجمة سمير خضر، صورة مخطوط، الاتحاد الوطني لمهاجري القفقاس الشمالية، ١٩٢٩.

- ١٦- خيرى أرسوي وآيصوص قاماجي، تاريخ الشراكسة، ترجمة فؤاد أحمد كامل، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد (١٠٤٨)، ٢٠٠٦.
- ١٧- رحمة الله عناية الله، أذربيجان المسلمة بين روسيا وأرمينيا، دار الأصفهاني للطباعة، جدة، ١٩٩٠.
- ١٨- روبرت كونكست، قتلة الأمم (النفي السوفيياتي للأمم أثناء الحرب العالمية الثانية)، ترجمة صادق إبراهيم عودة، الناشر د. طه سلطان مراد، الزرقاء، الأردن، ١٩٨٨.
- ١٩- زكريا القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.
- ٢٠- سعد عبد العزيز مصلوح، المسلمون بين المطرقة والسندان، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠.
- ٢١- صديق باشا القادري (اللواء)، مذكرات القادري، المكتبة العصرية- بغداد، ١٩٢٤.
- ٢٢- ضاغجي ج.، السنوات الرهيبة (النفي من القوم)، ترجمة وتقديم د. محمد حرب، دار المنارة، جدة، ط٢، ٢٠٠٣.
- ٢٣- عبد الرحمن حنبكة الميداني، الكيد الأحمر، دار القلم، بيروت.
- ٢٤- د. عبد الرحيم العطاوي، الاستشراق الروسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢.
- ٢٥- علي المنتصر الكتاني، المسلمون في المعسكر الشيوعي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- ٢٦- لوثرروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة وإضافات شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت.
- ٢٧- محمد صفوت السقا، المسلمون في الاتحاد السوفيياتي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- ٢٨- محمد الغزالي، الإسلام في وجه الزحف الأحمر، المختار الإسلامي، القاهرة.
- ٢٩- محمد طاهر القراخي، بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملية، منسوخ على الآلة الكاتبة بأمر المصنف، القرن التاسع عشر الميلادي.
- ٣٠- محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفيياتي عبر التاريخ، دار الشروق، جدة، ١٩٨٣.
- ٣١- محمد علي البار، كيف أسلم المغول؟، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٨.
- ٣٢- د. مكارم الغمري، بوشكين عند نافورة الدموع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٩.
- ٣٣- د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة (١٥٥)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩١.
- ٣٤- المسعودي (علي بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (غير مذكور سنة الطبع).

- ٣٥- محمود شاكر، المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- ٣٦- محمود شاكر وآخرون، الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي، وزارة المعارف السعودية، الرياض.
- ٣٧- مذكرة المجلس الإسلامي الأوربي إلى مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي في ١١/١١/١٩٨٠، المسلمون في الاتحاد السوفياتي.
- ٣٨- م. الرمزي، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قازان وبلغار وملوك التتار، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.

## الصحف والمجلات

- ١- مجلة الأمة، عدد صفر ١٤٠٢هـ/ فبراير ١٩٨٢، المسلمون في الاتحاد السوفياتي، أحمد عناني.
- ٢- مجلة الأمة، عدد شعبان ١٤٠١هـ/ أغسطس ١٩٨١، الإمام شامل، عبد الكريم مشهداني.
- ٣- مجلة العربي (العدد ٢٧٧) ديسمبر ١٩٨١، نزهة الأفتدة والنفوس في معرفة أحوال الروس، د. حسين أحمد أمين.
- ٤- مجلة العربي (العدد ٣٤٢) مايو ١٩٨٧، الشيشان والأنغوش المنفى والحياة، سليمان الشيخ، تصوير سليمان حيدر.
- ٥- مجلة أديغة، مارس ١٩٨٧ (العدد ٢٧)، نشرة دورية من مركز القفقاس الشمالي، باريس.
- ٦- صحيفة الشرق الأوسط، ١ مارس ١٩٨٧، حيدر بامات وولده نجم الدين بامات، أكرم زعير.
- ٧- المجلة العربية، فتوح أرمينية، اللواء محمود شيت خطاب.
- ٨- مجلة الشؤون السوفياتية، إصدار معهد دراسة الشؤون السوفياتية (ميونخ)، الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفياتي، والإسلام في الاتحاد السوفياتي. العددان (٢٧) و(٢٨)، ١٩٧٠.
- ٩- مجلة الأسبوع العربي، سلسلة مقالات ترجمة لكتاب «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي»، للمؤلفين يتجنسين ولومرسيه، الأعداد ١١٦٥ إلى ١١٩٤.
- ١٠- صحيفة المدينة (العدد ٥٢٤٧)، نظرة على المسلمين في الاتحاد السوفياتي.
- ١١- صحيفة المدينة (العدد ٥٢٩٧)، المسلمون في الجمهوريات السوفياتية.
- ١٢- صحيفة المدينة (العدد ٥٣٤٨)، الإسلام الرسمي وغير الرسمي في الاتحاد السوفياتي.
- ١٣- صحيفة المدينة (العدد ٥٤١٦)، المسلمون السوفيات.
- ١٤- صحيفة المدينة (العدد ٥٤٨٢)، من هو ابن فضلان؟، عبد القدوس الأنصاري.
- ١٥- مجلة الحج السنة ٦٣، العدد ٧، رجب ١٤٢٩هـ/ ٥ يولي ٢٠٠٨، بين جمال الدين الأفغاني وعبد الرشيد إبراهيم (السيبيري)، د. محمد رجب بيومي.

## باللغة الإنجليزية

Arabia: The Islamic World Review, Feb. ١٩٨٢.

Arabia: The Russia File, Dec. ١٩٨٢.

## الموسوعات:

- ١- دائرة المعارف الإسلامية (بارتولد ومجموعة من المستشرقين)، ترجمة أحمد الشنتاوي- إبراهيم خورشيد- عبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، (طبعة مصوّرة).
- ٢- دائرة المعارف البريطانية، ١٩٨٢، ١٥<sup>th</sup> edition, Encyclopedia Britannica, USA.
- ٣- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، الرياض، ط٢، ١٩٩٩.
- ٤- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠.
- ٥- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر- دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

## كتب باللغة الإنجليزية:

- ١- Akiner (Shirin), **Islamic Peoples of the Soviet Union**, Kegan Paul International, London, ١٩٨٣.
- ٢- Ivar Spector, **The Soviet Union and The Muslim World** (١٩١٦-١٩٥٨), University Washington Press, USA.

عبر الأنترنت (جوجل) مواقع كثيرة باللغة العربية واللغة الإنجليزية أهمها:

- موقع مكتبة الكونجرس.
- موقع المخابرات الأمريكية CIA.
- موقع مدينة قازان وجامعة قازان.
- الوكيبيديا.

## كتب المؤلف

المؤلف: السيد محمد بن علي بن حامد البار العلوي الحسيني.

وُلد في مدينة عدن في ٢٩/١٢/١٩٣٩م.

الشهادات الجامعية:

- بكالوريوس طبّ وجراحة (درجة الشرف)، جامعة القاهرة ١٩٦٤م.
- دبلوم أمراض باطنية، جامعة القاهرة ١٩٦٩م.
- عضوية الكليات الملكية للأطباء بالمملكة المتحدة (لندن، أدنبرة وجلاسجو)، ١٩٧١م.
- زمالة الكلية الملكية للأطباء بلندن ١٩٩٤م.

العمل والنشاط:

- مدير مركز أخلاقيات الطب، المركز الطبّي الدولي - جدة.
- استشاري أمراض باطنية.
- مستشار قسم الطبّ الإسلامي بمركز الملك فهد للبحوث الطبية، جامعة الملك عبد العزيز (سابقاً).
- مستشار لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة
- خبير في المجمع الفقهي الإسلامي برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- خبير في المجمع الفقهي الدولي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة.
- عضو مؤسس لهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- عضو اللجنة العليا لموت الدماغ بالمملكة العربية السعودية.
- عضو اللجنة العليا لزراعة الأعضاء بالمملكة العربية السعودية.
- شارك ولا يزال في أنشطة المركز الوطني لزراعة الأعضاء وشارك في الدورات التي ينظمها المركز للأطباء والمرضى العاملين في حقل زرع الأعضاء بإلقاء المحاضرات.

- حضر وشارك في مئات المؤتمرات العلمية الطبية، والطبية الأخلاقية في العديد من بلدان العالم.
- حاضر في العديد من الجامعات والندوات في العالم العربي وخارجه وخاصة في مجال أخلاقيات الطب.
- شارك في وضع مناهج أخلاقيات الطب في العديد من الجامعات.
- شارك في مؤتمرات الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

#### المؤلفات:

نشر مئات المقالات العامة والمقالات المتخصصة في العديد من البلدان باللغتين العربية والإنجليزية.

- (١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن (الطبعة الثالثة عشرة).
- (٢) الخمر بين الطب والفقه (الطبعة السابعة).
- (٣) العدوى بين الطب وحديث المصطفى (الطبعة السادسة).
- (٤) الوجيز في علم الأجنة القرآني.
- (٥) الثارات السبع: أطوار الخلق في القرآن والسنة.
- (٦) دورة الأرحام.
- (٧) Human Development as Revealed in the Holy Quran
- (٨) The Problem of Alcohol and its Solution in Islam
- (٩) Contemporary Topics in Islamic Medicine
- (١٠) التدخين وأثره على الصحة (الطبعة الخامسة).
- (١١) هل التدخين والتبغ من المحرمات؟
- (١٢) التبغ والتدخين: تجارة الموت الخاسرة (الطبعة الثالثة).
- (١٣) الموقف الشرعي من التبغ والتدخين (الطبعة الثالثة).
- (١٤) اقتصاديات التبغ والتدخين.
- (١٥) الأضرار الصحية للمسكرات والمخدرات والمنبهات.
- (١٦) المخدرات، الخطر الداهم: الأفيون ومشتقاته.
- (١٧) الإعجاز الطبي في أحاديث التداوي بالخمر.



- (١٨) الموقف الشرعي والطبي من التداوي بالكحول والمخدرات.
- (١٩) مشكلة الخمر والمخدرات: نظرة إلى الجذور واستشراف الحلول.
- (٢٠) الآثار الفسيولوجية للمسكرات والمخدرات.
- (٢١) مشاكل طبية فقهية تبحث عن حلول: أحكام التداوي.
- (٢٢) مشاكل طبية فقهية تبحث عن حلول: مداواة الرجل للمرأة ومداواة المرأة للرجل ومداواة الكافر للمسلم.
- (٢٣) مشاكل طبية فقهية تبحث عن حلول: المشاكل الاجتماعية والفقهية لمرض الإيدز.
- (٢٤) مشاكل طبية فقهية تبحث عن حلول: ضمان الطبيب.
- (٢٥) مشاكل طبية فقهية تبحث عن حلول: التداوي بالمحرّمات.
- (٢٦) الطبيب: أدبه وفقهه، بالاشتراك مع الدكتور زهير السباعي.
- (٢٧) المسؤولية الطبية بين الفقه والقانون، بالاشتراك مع الدكتور حسن شمسي باشا.
- (٢٨) أخلاقيات البحوث الطبية، بالاشتراك مع الدكتور حسن شمسي باشا.
- (٢٩) الرعاية الصحية: مشاكل وحلول، بالاشتراك مع الدكتور حسن شمسي باشا والدكتور عدنان أحمد البار.
- (٣٠) الذكورة والأنوثة بين التصحيح والتغيير والاختيار، بالاشتراك مع الدكتور ياسر صالح جمال.
- (٣١) الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها.
- (٣٢) موت القلب أو موت الدماغ؟ (الطبعة الثانية).
- (٣٣) طفل الأنبوب والتلقيح الاصطناعي.
- (٣٤) أخلاقيات التلقيح الاصطناعي.
- (٣٥) الخلايا الجذعية والقضايا الفقهية والأخلاقية.
- (٣٦) سياسة ووسائل تحديد النسل في الماضي والحاضر.
- (٣٧) مشكلة الإجهاض.
- (٣٨) الجنين المشوّه والأمراض الوراثية.

- (٣٩) الفحص الطبي قبل الزواج والاستشارة الوراثية.
- (٤٠) الصوم بين الطبّ والفقه، بالاشتراك مع الدكتور حسن شمسي باشا.
- (٤١) الصوم وأمراض السُّمنة.
- (٤٢) الاعتداء على الأطفال: الوضع العالمي.
- (٤٣) الأمراض الجنسية: أسبابها وعلاجها.
- (٤٤) الإيدز وباء العصر، بالاشتراك مع الدكتور محمد أيمن صافي.
- (٤٥) السنن والسُنن، (من الطبّ النبويّ العلاجي).
- (٤٦) ماذا في الأمرين من الشّفا، (من الطبّ النبويّ العلاجي).
- (٤٧) الإمام علي الرضا والرسالة الذهبية، (كتابه في الطبّ النبويّ).
- (٤٨) الطبّ النبويّ لعبد الملك بن حبيب الأندلسي.
- (٤٩) ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، للإمام السيوطي.
- (٥٠) هل هناك طبّ نبويّ؟
- (٥١) الأحكام الفقهية والأسرار الطبيّة في تحريم الخنزير، بالاشتراك مع د. سفيان عسولي ود. خالد أمين محمد.
- (٥٢) زرع الجند ومعالجة الحروق.
- (٥٣) زرع الكلى والفشل الكلوي.
- (٥٤) المشاكل الأخلاقية والفقهية في زرع الأعضاء.
- (٥٥) موسوعة سنن الفطرة: الختان.
- (٥٦) موسوعة سنن الفطرة: السواك.
- (٥٧) دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة.
- (٥٨) علم التشريح عند المسلمين.
- كتب عن اليهود والنصارى:
- (٥٩) تيه العرب وتيه بني إسرائيل.
- (٦٠) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود.
- (٦١) المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم.

- (٦٢) الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم.  
 (٦٣) دراسة في العقائد النصرانية المعاصرة.  
 (٦٤) من يعقوب ابن كلس وابن النغريلة إلى مونيكا لوينسكي.  
 (٦٥) تحريف التوراة وسياسة إسرائيل التوسعية.  
 (٦٦) القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ.

## كتب أخرى:

- (٦٧) عمل المرأة في الميزان.  
 (٦٨) أبحاث في العدوى والطب الوقائي (من أبحاث هيئة الإعجاز العلمي، بالاشتراك مع عدّة باحثين).  
 (٦٩) جزيرة سقطرى: الجزيرة السحرية.  
 (٧٠) التركستان: مساهمات وكفاح.  
 (٧١) المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ (مجلدان).  
 (٧٢) أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي (مجلد).  
 (٧٣) كيف أسلم المغول؟  
 (٧٤) إضاءات قرآنية ونبوية في تاريخ اليمن.  
 (٧٥) معاملة غير المسلمين: شواهد من التاريخ.  
 (٧٦) العلمانية أصولها وجذورها.  
 (٧٧) ما هو الفرق بين الموت الإكلينيكي والموت الشرعي؟  
 (٧٨) هل كان جوته شاعر الألمان مسلماً؟  
 (٧٩) بوشكين شاعر روسيا، والقرآن.  
 (٨٠) قبل الأرثوذكسية كان الإسلام في روسيا.  
 (٨١) البوصيري شاعر المدائح النبوية.  
 (٨٢) مجادلة البوصيري لأهل الكتاب.



## الفهرس

٧	مقدمة
٢١	الفصل الأول: روسيا الاتحادية (مدخل وجغرافية)
٣٩	الفصل الثاني: من هم الروس؟ من هم الصقالبة (السلافيون)؟
٥٩	الفصل الثالث: الدولة الروسية عبر التاريخ إلى العهد البلشفي وثورة ١٩١٧ ..
٩٥	الفصل الرابع: لينين وخداعه للمسلمين، والحكم البلشفي الأحمر في العهد السوفيائي
١١٣	الفصل الخامس: المناطق الإسلامية في روسيا الاتحادية
١٢٩	الفصل السادس: رحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار الفولجا
١٤١	الفصل السابع: الغزو المغولي والدولة الإسلامية التتارية في روسيا
١٦٥	الفصل الثامن: التتار في العهود الروسية المختلفة
١٩١	الفصل التاسع: البشكير (الباشقرد) وجمهورية بشكيريا
٢٠٣	الفصل العاشر: القرم (القريم) Crimea
٢١٩	الفصل الحادي عشر: سيبيريا Siberia
٢٢٩	الفصل الثاني عشر: القوقاس (قفقاسيا) نظرة عامة
٢٤٥	الفصل الثالث عشر: الداغستان
	الفصل الرابع عشر: استمرار الثورات في الداغستان وشمال القوقاس بعد ثورة
٢٧٥	شامل

---

٢٨٩ .....	الفصل الخامس عشر: الشاشان (الشيشن) Chechnya
٣٠٩ .....	الفصل السادس عشر: أنغوشيا وبقية مناطق القوقاس الشمالية
٣١٩ .....	الفصل السابع عشر: القوقاس الجنوبية
٣٣٣ .....	الفصل الثامن عشر: جمهورية أذربيجان
٣٥٧ .....	المراجع
٣٦١ .....	كتب المؤلف